

كتاب الصناعتين
ابو هلال العسكري

To PDF: www.al-mostafa.com

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وليّ كلّ نعمة، وصلواته علة نبيّه الهادي من كلّ ضلالة، وعلى آله المنجيين الأختيار، وعترته المصطفين الأبرار.

قال أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل رحمه الله لبعض إخوانه: اعلم علّمك الله الخير، وذلك عليه، وقيضه لك، وجعلك من أهله أن أحقّ العلوم بالتعلّم، وأولها بالتحقّق بعد المعرفة بالمعرفة بالله جلّ ثناؤه علم البلاغة، ومعرفة الفصاحة، الذي به يعزف إعجاز كتاب الله تعالى، الناطق بالحق، الهادي إلى سبيل الرّشد، المدلول به على صدق الرسالة وصحّة النبوة، التي رفعت أعلام الحقّ، وأقامت منار الدّين، وأزالت شبه الكفر ببراهينها، وهتكت حجب الشكّ بيقينها.

وقد علمنا أن الإنسان إذا أغفل علم البلاغة، وأخلّ بمعرفة الفصاحة لم يقع علمه بإعجاز القرآن من جهة ما خصّه الله به من حسن التّأليف، وبراعة التركيب، وما شحنه به من الإيجاز البديع، والاختصار اللطيف، وضمّنه من الحلاوة، وجلّله من رونق الطّلاوة، مع سهولة كلمه وجزالتها، وعدوبتها وسلاستها، إلى غير ذلك من محاسنه التي عجز الخلق عنها، وتخيّرت عقولهم فيها.

وإنما يعرف إعجازه من جهة عجز العرب عنه، وقصورهم عن بلوغ غايته، في حسنه وبراعته، وسلاسته ونصاعته، وكمال معانيه، وصفاء ألفاظه. وقبيح لعمري بالفقيه المؤتمّ به، والقارئ المهتدي بهديه، والمتكلّم المشار إليه في حسن مناظرته، وتمام آتته في مجادلتها، وشدة شكيمته في حجّاجه، وبالعربيّ الصّليب والقرشيّ الصريح ألاّ يعرف إعجاز كتاب الله تعالى إلاّ من الجهة التي يعرفه منها الرّنجي والتّبطي، أو أن يستدلّ عليه بما استدلّ به الجاهل الغيبيّ.

فينبغي من هذه الجهة أن يقدّم اقتباس هذا العلم على سائر العلوم بعد توحيد الله تعالى ومعرفة عدله والتّصديق بوعدده ووعيده على ما ذكرناه، إذ كانت المعرفة بصحة النبوة تتلو المعرفة بالله جلّ اسمه. ولهذا العلم بعد ذلك فضائل مشهورة، ومناقب معروفة، منها أن صاحب العربية إذا أخلّ بطلبه، وفرّط في التماسه، ففاته فضيلته، وعلقت به رذيلة فوته، عفى على جميع محاسنه، وعمى سائر فضائله، لأنه إذا لم يفرق بين كلام جيّد، وآخر رديّ، ولفظ حسن، وآخر قبيح، وشعر نادر، وآخر بارد، بان جهله، وظهر

نقصه.

وهو أيضاً إذا أراد أن يصنع قصيدة، أو ينشئ رسالة وقد فاته هذا العلم مزج الصفو بالكدر، وخلط الغرر بالعرر، واستعمل الوحشي العكر، فجعل نفسه مهزأة للجاهل، وعبرة للعاقل، كما فعل ابن جحدر في قوله:

همرلةً خلقها شيطمُ

حلفتُ بما أرقلتُ حولهُ

بها من وحي الجنِّ زيزيمُ

وما شيرقتُ من تنوفيةٍ

وأنشده ابن الأعرابي، فقال: إن كنت كاذباً فالله حسيك وكما ترجم بعضهم كتابه إلى بعض الرؤساء: مكر كسة تربوتاً ومحبوسة بسريتاً فدل على سخافة عقله، واستحكام جهله، وضره الغريب الذي أتقنه ولم ينفعه، وحطه ولم يرفعه، لما فاته هذا العلم وتخلّف عن هذا الفن. وإذا أراد أيضاً تصنيف كلام منشور، أو تأليف شعر منظوم، وتخطى هذا العلم ساء اختياره له، وقبحت آثاره فيه، فأخذ الرديء المردول، وترك الجيد المقبول فدل على قصور فهمه، وتأخر معرفته وعلمه. وقد قيل: اختيار الرجل قطعة من عقله، كما أن شعره قطعة من علمه. وما أكثر من وقع من علماء العربية فيه هذه الرذيلة منهم الأصمعي في اختياره قصيدة المرقش:

لو أنّ حياً ناطقاً كلّم

هل بالديار أن تجيب صمم

ولا أعرف على أي وجه صرف اختياره إليها، وما هي بمستقيمة الوزن، ولا موقفة الروى، ولا سلسلة اللفظ، ولا جيّدة السبك، ولا متلائمة النسج. وكان المفضل يختار من الشعر ما يقلّ تداول الرواة له، ويكثر الغريب فيه، وهذا خطأ من الاختيار، لأنّ الغريب لم يكثر في كلام إلاّ أفسده، وفيه دلالة الاستكراه والتكلف. وقال بعض الأوائل: تلخيص المعاني رفق، والتشادق من غير أهله بغض، والنظر في وجوه الناس عي، ومسّ اللحية هلل، والاستعانة بالغريب عجز، والخروج عمّا بنى عليه الكلام إسهاب. وكان كثير من علماء العربية يقولون: ما سمعنا بأحسن ولا أفصح من قول ذي الرّمة:

من الوحش لوطٍ لم تعقه الأوانس

رمتي ميّ بالهوى رمى ممضع

ضمانٌ وجيدٍ حلّى الدرّ شامس

بعينين نجلاوين لم يجر فيهما

وهذا كما ترى كلامٌ فجّ غليظ، ووخم ثقيل، لاحظ له من الاختيار. وحكى العتيبي عن الأصمعي أنه كان يستحسن قول الشاعر:

ك مهبوتاً من الصين

ولو أرسلت من حب

أو حين تصلين

لو أفيئك قبل الصبح

وهما على ما تراهما من دناة اللفظ وخساسته، وخلقوة المعرض وقباحته.

وذكر العتي أيضاً أن قول جرير:

قتلنا ثم لم يحين قتلنا

إن العيون التي طرفها مرض

وهن أضعف خلق الله أركاناً

يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به

وقوله:

وشلاً بعينك لا يزال معيناً

إن الذين غدوا بلبك غادروا

ماذا لقيت من الهوى ولقيناً

غيضن من عبراتهن وقلن لي

من الشعر الذي يستحسن لجودة لفظه، وليس له كبير معنى، وأنا لا أعلم معنى أجود ولا أحسن من معنى هذا الشعر.

فلما رأيت تخلي هؤلاء الأعلام فيما راموه من اختيار الكلام، ووقفت على موقع هذا العلم من الفضل، ومكانه من الشرف والنبيل، ووجدت الحاجة إليه ماسة، والكتب المصنفة فيه قليلة، وكان أكبرها وأشهرها كتاب البيان والتبيين لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، وهو لعمرى كثير الفوائد، جم المنافع، لما اشتمل عليه من الفصول الشريفة، والفقر اللطيفة، والخطب الرائعة، والأخبار البارعة، وما حواه من أسماء الخطباء والبلغاء، وما نبه عليه من مقاديرهم في البلاغة والخطابة، وغير ذلك من فنونه المختارة، ونعوته المستحسنة، إلا أن الإبانة عن حدود البلاغة، وأقسام البيان والفصاحة ماثورة في تضاعيفه، ومنتشرة في أثنائه، فهي ضالة بين الأمثلة، لا توجد إلا بالتأمل الطويل، والتصفح الكثير، فرأيت أن أعمل كتابي هذا مشتملاً على جميع ما يحتاج إليه في صنعة الكلام: نشره ونظمه، ويستعمل في محلوله ومعقوده، من غير تقصير وإخلال، وإسهاب وإهدار. وأجعله عشرة أبواب مشتملة على ثلاثة وخمسين فصلاً: الباب الأول: في الإبانة عن موضوع البلاغة في أصل اللغة وما يجري معه من تصرف لفظها وذكر حدودها وشرح وجوهها وضرب الأمثلة في كل نوع منها وتفسير ما جاء عن العلماء فيها، ثلاثة فصول. الباب الثاني: في تمييز الكلام جيده من رديه ومحموده من مذمومه فصلاً. الباب الثالث: في معرفة صنعة الكلام، فصلاً. الباب الرابع: في البيان عن حسن السبك وجودة الرصف، فصل واحد. الباب الخامس: في ذكر الإيجاز والإطناب، فصلاً.

كتاب الصناعتين - أبو هلال العسكري

الباب السادس: في حسن الأخذ وقبحه وجودته ورداءته، فصلان.

الباب السابع: القول في التشبيه، فصلان.

الباب الثامن: في ذكر السجع والازدواج، فصلان.

الباب التاسع: في شرح البديع والإبانة عن وجوهه وحصر أبوابه وفنونه، خمسة وثلاثون فصلاً.

الباب العاشر: في ذكر مقاطع الكلام ومبادئه والقول في الإساءة في ذلك والإحسان فيه، ثلاثة فصول.

وأرجو أن يعين الله على المراد من ذلك والمقصود فيما نحونا إليه ويقرنه بالتوفيق ويشفعه بالتسديد، إنه

سميع مجيب.

الباب الأول

الإبانة عن موضوع البلاغة

الفصل الأول

في الإبانة عن موضوع البلاغة في اللغة، وما يجري معه من تصرف لفظها، والقول في الفصاحة، وما يتشعب منه

البلاغة من قولهم: بلغت الغاية إذا انتهت إليها وبلغتها غير. ومبلغ الشيء منتهاه. والمبالغة في الشيء: الانتهاء إلى غايته. فسميت البلاغة بلاغة لأنها تنهى المعنى إلى قلب السامع فيفهمه. وسميت المبالغة بلغة لأنك تبليغ بها، فتنتهي بك إلى ما فوقها، وهي البلاغ أيضاً. ويقال: الدنيا بلاغ، لأنها تؤدّيك إلى الآخرة. والبلاغ أيضاً: التبليغ، في قول الله عز وجل: "هذا بلاغ للناس أي تبليغ. ويقال: بلغ الرجل بلاغة، إذا صار بليغاً، كما يقال نبل نبالة، إذا صار نبيلاً. وكلامٌ بليغ وبلغ بالفتح، كما يقال: وجيز ووجز. ورجل بلغ بالكسر: يبلغ ما يريد. وفي مثل لهم أحمق بلغ. ويقال: أبلغت في الكلام إذا أتيت بالبلاغة فيه. كما تقول: أبرحت إذا أتيت بالبرحاء وهو الأمر الجسيم. والبلاغة من صفة الكلام لا من صفة المتكلم.

فهذا لا يجوز أن يسمّى الله جلّ وعزّ بأنه بليغ، إذ لا يجوز أن يوصف بصفة كان موضوعها الكلام. وتسميتنا المتكلم بأنه بليغ توسع. وحقيقته أن كلامه بليغ، كما تقول: فلان رجل محكم، وتعني أن أفعاله محكمة. قال الله تعالى: "حكمة بالغة". فجعل البلاغة من صفة الحكمة، ولم يجعلها من صفة الحكيم، إلا أن كثرة الاستعمال جعلت تسمية المتكلم بأنه بليغ كالحقيقة، كما أنها جعلت تسمية المزايدة راوية كالحقيقة، وكان الراوية حامل المزايدة وهو البعير وما يجري مجراه.

ولهذا سمّي حامل الشعر راوية، وكما صار تسمية البقيّ المكتسبة بالفجور القحبة حقيقة، وإنما القحاب السعال. وكانوا إذا أرادوا الكناية عن زنت وتكسّبت بالفجور قالوا: قحبت، أي سعلت. ومن ذلك التّجو، لأنّ الرجل كان إذا أراد قضاء الحاجة استتر بنجوة، والتّجوة: الارتفاع من الأرض، فسمّي ذلك الشيء نجواً مجازاً، ثم كثر استعمالهم له فصار كالحقيقة وصرّفوه، فقالوا: ذهب ينجو، كما يقال: ذهب يتغوّط، إذا صار إلى الغائط، وهو البطن من الأرض لقضاء الحاجة، وسمّوا الشيء الغائط، وصار كالحقيقة حين كثر استعمالهم له. وقالوا، إذا غسل ذلك الموضع من النجو: يستتجى، ومثل هذا

كثير ليس هذا موضع استيعابه.

فأما الفصاحة فقد قال قوم: إنها من قولهم: أفصح فلانٌ عما في نفسه إذا أظهره، والشاهد على أنها هي الإظهار قول العرب: أفصح الصبح إذا أضاء. وأفصح اللبن إذا انجلى عنه رغوته فظهر. وفصح أيضاً. وأفصح الأعجمي إذا أبان بعد أن لم يكن يفصح ويبين، وفصح اللحان إذا عبّر عما في نفسه وأظهره على جهة الصواب دون الخطأ.

وإذا كان الأمر على هذا فالفصاحة والبلاغة ترجعان إلى معنى واحد وإن اختلفت أصلاهما، لأن كل واحد منهما إنما هو الإبانة عن المعنى والإظهار له.

وقال بعض علمائنا: الفصاحة تمام آلة البيان، فلهذا لا يجوز أن يسمّى الله تعالى فصيحاً، إذ كانت الفصاحة تتضمّن معنى الآلة ولا يجوز على الله تعالى الوصف بالآلة ويوصف كلامه بالفصاحة لما يتضمّن من تمام البيان.

والدليل على ذلك أن الألتغ والتمتاع لا يسمّيان فصيحين لنقصان آلتهم عن إقامة الحروف. وقيل زيادة الأعجم لنقصان آلة نطقه عن إقامة الحروف، وكان يعبر عن الحمار بالهمار، فهو أعجم، وشعره فصيح لتمام بيانه.

فعلى هذا تكون الفصاحة والبلاغة مختلفتين، وذلك أنّ الفصاحة تمام آلة البيان فهي مقصورة على اللفظ، لأن الآلة تتعلّق باللفظ دون المعنى، والبلاغة إنما هي إثناء المعنى إلى القلب فكأنها مقصورة على المعنى. ومن الدليل على أنّ الفصاحة تتضمّن اللفظ، والبلاغة تتناول المعنى أنّ البغاء يسمى فصيحاً، ولا يسمى بليغاً، إذ هو مقيم الحروف وليس له قصد إلى المعنى الذي يؤدّيه.

وقد يجوز مع هذا أن يسمّى الكلام الواحد فصيحاً بليغاً إذا كان واضح المعنى، سهل اللفظ، جيد السبك، غير مستكره فحج، ولا متكلّف وخم، ولا يمنعه من أحد الأسمين شيء، لما فيه من إيضاح المعنى وتقويم الحروف.

وشهدت قوماً يذهبون إلى أنّ الكلام لا يسمّى فصيحاً حتى يجمع مع هذه النعوت فخامة وشدة جزالة، فيكون مثل قول النبي صلى الله عليه وسلم "ألا إنّ هذا الدّين متين فأوغل فيه برفق، فإنّ المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى". ومثل كلام الحسين بن علي رضي الله عنهما: إنّ الناس عبيد الأموال، والدين لغو على ألسنتهم يحوطونه ما درت به معاشهم فإذا محصوا بالابتلاء قلّ الديانون. ومثل المنظوم قول الشاعر:

كما أشرفت فوق الصّوارِ قرونها

تري غابة الخطى فوق رؤوسهم

قالوا: وإذا كان الكلام يجمع نعوت الجودة، ولم يكن فيه فخامة وفضل جزالة سُمي بليغاً ولم يسم فصيحاً، كقول بعضهم وقد سئل عن حاله عند الوفاة فقال: ما حال من يريد سفراً بعيداً بلا زاد، ويقدم على ملك عادل بغير حجة، ويسكن قيراً موحشاً بلا أنيس.

وقول آخر لأخ له: مددت إلى المودة يداً فشكرناك، وشفعت ذلك بشيء من الجفاء فعذرناك، والرجوع إلى محمود الود أولى بك من المقام على مكروه الصّد.

وأشدنا أبو أحمد عن أبي بكر الصولي لإبراهيم بن العباس:

ويصدع قلبي أن يهب هبوبها

تمر الصبا صفحاً بساكنة الغضا

هوى كل نفس حيث حل حبيبها

قريبة عهد بالحبوب وإنما

فالبيت الأول فصيح وبليغ، والبيت الثاني بليغ وليس بفصيح واستدلوا على صحة هذا المذهب بقول العاص بن عدي: الشجاعة قلب ركين، والفصاحة لسان رزين. واللسان ها هنا: الكلام، والرزين الذي فيه فخامة وجزالة.

وليس الغرض في هذا الكتاب سلوك مذهب المتكلمين، وإنما قصدت فيه مقصد صنّاع الكلام من الشعراء والكتاب، لهذا لم أطل الكلام في هذا الفصل.

الفصل الثاني

في الإبانة عن حد البلاغة

فنقول: البلاغة كل ما تبلغ به المعنى قلب السامع فتمكّنه في نفس كتمكّنه في نفسك مع صورة مقبولة ومعرض حسن.

وإنما جعلنا حسن المعرض وقبول الصورة شرطاً في البلاغة، لأنّ الكلام إذا كانت عباراته رثة ومعرضه خلقاً لم يسم بليغاً، وإن كان مفهوم المعنى مكشوف المغزى.

ألا ترى إلى معنى الكاتب الذي كتب إلى بعض معامليه: قد تأخر الأمر فيما وعدت حملة ضحوة النهار، والقوم غير مقيمين، وليس لهم صبري، وهم في الخروج آفنا، فإن رأيت في إزاحة العلة مع الجهد فعلت إن شاء الله. فمعناه مفهوم ومغزاه معلوم، وليس كلامه بيلغ.

فهذا يدل على أنّ من شرط البلاغة أن يكون المعنى مفهوماً واللفظ مقبولاً على ما قدمناه.

ومن قال: إن البلاغة إنما هي إفهام المعنى فقط، فقد جعل الفصاحة، واللكنة، والخطأ، والصواب،

والإغلاق، والإبانة سواء.

وأيضاً فلو كان الكلام الواضح السهل، والقريب السلس الحلو بليغاً، وما خالفه من الكلام المستبهم المستغلق والمتكلف المتعقد أيضاً بليغاً لكان كل ذلك محموداً ومدوحاً مقبولاً، لأنّ البلاغة اسم يمدح به الكلام.

فلمّا رأينا أحدهما مستحسناً، والآخر مستهجننا علمنا أنّ الذي يستحسن البليغ، والذي يستهجن ليس ببليغ.

وقال العتّابي: كلّ من أفهمك حاجته فهو بليغ. وإنما عني: إن أفهمك حاجته بالألفاظ الحسنة، والعبارة النيرة فهو بليغ.

ولو حملنا هذا الكلام على ظاهره للزم أن يكون الألكن بليغاً، لأنه يفهمنا حاجته، بل ويلزم أن يكون كلّ الناس بلغاء حتى الأطفال، لأنّ كلّ أحد لا يعدم أن يدلّ على غرضه بعجمته أو لكنته أو إيمائه أو إشارته، بل لزم أن يكون السنور بليغاً، لأننا نستدل بضغائه على كثير من إرادته. وهذا ظاهر الإحالة. ونحن نفهم رطانة السوقي. وجمجمة الأعجمي للعادة التي جرت لنا في سماعها. لا لأنّ تلك بلاغة، ألا ترى أنّ الأعرابي إن سمع ذلك لم يفهمه، إذ لا عادة له بسماعه.

وأراد رجل أن يسأل بعض الأعراب عن أهله فقال: كيف أهلك؟ بالكسر. فقال له الأعرابي: صلباً، إذ لم يشك أنه إنما يسأله عن السبب الذي يهلك به.

وقال الوليد بن عبد الملك لأعرابي شكّا إليه ختناً له، فقال: من ختنك؟ ففتح النون. فقال معذر في الحي، إذ لم يشكّ في أنه إنما يسأله عن خاتنه.

وقال رجل لأعرابي: ألقى عليك بيتاً. فقال: ألق على نفسك. وسمع أعرابي قصيدة أبي تمام:

طلّ الجميع لقد عفوت حميدا

فقال: إنّ في هذه القصيدة أشياء أفهمها، وأشياء لا أفهمها، فيما أن يكون قائلها اشعر من جميع الناس، وإما أن يكون جميع الناس أشعر منه. ونحن نفهم معاني هذه القصيدة، لعادتنا بسماع مثلها، لا لأننا أعرف بالكلام من الأعراب.

ومما يؤيد ما قلنا من أنّ البلاغة إنما هي إيضاح المعنى وتحسين اللفظ قول بعض الحكماء: البلاغة تصحيح الأقسام، واختيار الكلام. إلى غير ذلك مما سنذكره ونفسره في هذا الباب إن شاء الله.

وقال محمد بن الحنفية رضى الله عنه: البلاغة قول تضطر العقول إلى فهمه بأسهل العبارة، فقوله: تضطر العقول إلى فهمه عبارة عن إيضاح المعنى وقوله بأسهل العبارة تنبيه على تسهيل اللفظ وترك تنقيحه. ومثل

ذلك من النثر قول بعضهم لأخ له: ابتدأتني بلطف من غير خبرة، ثم اعقتني جفا من غير هفوة، فأطمعني أولك في إخوانك، وأياسني آخرك من وفائك، فسبحان من لو شاء كشف إيضاح الرأي في أمرك عن عزيمة الشكّ في حالك، فأقمنا على ائتلاف، أو افترقنا على اختلاف.

وقول الآخر: لم يدع انقباضك عن الوفاء، وانجذابك مع سوء الرأي في ملاحظة الحجر، والاستمرار على العذر، محركا من القلب عليك، ولا خاطراً يومي إلى حسن الظنّ بك. هيهات انقضت مدة الانخداع لك حين أخلقت عدة الأمان فيك، وما وجدنا ساتراً من تأنيب النصحاء في الميل إليك، والتوفّر عليك، إلا الإقرار بطاعة الهوى، والاعتراف بسوء الاختيار.

وكتب بعض الكتاب إلى أخ له: تأخرت عني كتبك تأخرا ساء له ظني، إشفافاً من الحوادث عليك، لا توهماً للجهلاء منك، إذ كنت أثق من مودّتك بما يغيبني عن معاتبك.

ومما هو في هذه الطريقة، وهو أجزل مما تقدّم ما أخبرنا به أبو أحمد عن أبي بكر بن دريد، عن عبد الرحمن، عن عمه، قال: وقف علينا أعرابي ونحن برملة اللوى، فقال: رحم الله امرأ لم تمجّ أذناه كلامي، وقدم معاذه من سوء مقامي، فإنّ البلاد مجذبة، والحال مسغبة، والحياء زاجر يمنع من كلامكم، والفقر عاذر يدعو إلى إخباركم، والدعاء إحدى الصدقتين، فرحم الله امرء أمر بمير، أو دعا بخير. وقول بعضهم بمدح رجلاً: كان والله بعيد مسافة الرأي، يرمى بهمّته حيث أشار الكرم، يصفح عن صاحبه نوب الزمان، ويتحسّى مرارة الإخوان، ويسيعّهم العذب، ويعطفهم منه على ما جد ندب.

الفصل الثالث

وهو القول في تفسير ما جاء عن الحكماء والعلماء في حدود البلاغة

فحقيقة البلاغة هي ما ذكرته. وقد جاء عن الحكماء فيه ضروبٌ أنا ذاكرها ومفسّرها لتكمل فائدة الكتاب إن شاء الله.

قال إسحق بن حسان: لم يفسر أحد البلاغة تفسير ابن المقفع، إذ قال: البلاغة اسم لمعان تجرى في وجوه كثيرة، منها ما يكون في السكوت، ومنها ما يكون في الاستماع، ومنها ما يكون شعراً، ومنها ما يكون سجعاً، ومنها ما يكون خطباً، وربما كانت رسائل. فعامّة ما يكون من هذه الأبواب فالوحي فيها والإشارة إلى المعنى أبلغ، والإيجاز هو البلاغة.

فقوله: "منها ما يكون في السكوت"، فالسكوت يسمّى بلاغة مجازاً، وهو في حالة لا ينجع فيها القول

ولا ينفع فيها إقامة الحجج. إما عند جاهل لا يفهم الخطاب، أو عند وضيع لا يهرب الجواب، أو ظالم سليل يحكم بالهوى، ولا يرتدع بكلمة التقوى. وإذا كان الكلام يعرى من الخير، أو يجلب الشرّ فالسكوت أولى، كما قال أبو العتاهية:

ما كلّ نطقٍ له جوابٌ جوابٌ ما يكرهُ السكوتُ

وقال معاوية رضى الله عنه لابن أوس: ابغ لي محدثاً. قال: أو تحتاج معي إلى محدث؟ قال: أستريح منه إليك، ومنك إليه، وربما كان صمتك في حال أوفق من كلامك. وله وجه آخر، وهو قولهم: كلّ صامت ناطق من جهة الدلالة، وذلك أنّ دلائل الصنعة في جميع الأشياء واضحة، والموعظة فيها قائمة.

وقد قال الرقاشي: سل الأرض من شق أمّارك، وغرس أشجارك، وجنى ثمارك؟ فإن لم تجبك حواراً أجابتك اعتباراً.

ولما مات الإسكندر وقف عليه بعض اليونانيين فقال: قد طالما وعظنا هذا الشخص بكلامه، وهو اليوم لنا بسكوته أوعظ، فنظم هذا الكلام أبو العتاهية في قوله:

وكانت في حياتك لي عظاتٌ وأنت اليوم أو عظُ منك حياً

وأحسن من هذا الكلام كلّهُ وأبلغ قول الله عز وجل: "وإن من شيء إلاّ يسبح بحمده، ولكن لا تفقهون تسبيحهم" وقوله تعالى: "ولله يسجد ما في السموات وما في الأرض من دابة". معناه يدل على الله بصنعتة فيه، فكأنه يسجد، وإن لم يسجد ولم يقر بذلك. وقوله تعالى: "ولله يسجد من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً وظلالهم بالعدو والآصال". وقوله سبحانه: "تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهنّ، وإن من شيء إلاّ يسبح بحمده، ولكن لا تفقهون تسبيحهم". أي لا تفهمونه من جهة السمع، وإن كنتم تفهمونه من جهة العقل.

وقد قال بعض الهند: جماع البلاغة: البصر بالحجّة، والمعرفة بمواقع الفرصة. ومن البصر بالحجّة أن يدع الإفصاح بما إلى الكناية عنها إذا كان طريق الإفصاح وعراً، وكانت الكناية أحصر نفعاً. وذلك مثل ما أخبرنا به أبو أحمد، عن أبيه، عن عسل بن ذكوان، قال: دخل عبيد الله بن زياد بن ظبيان على عبد الملك بن مروان، وأراد أن يقعد معه على سريره، فقال له عبد الملك: ما بال العرب تزعم أنّك لا تشبه أباك؟ قال: والله لأنا أشبه بأبي من الليل بالليل، والغراب بالغراب، ولكن إن شئت خبرتك عمّن لا يشبه أباه قال: من ذلك؟ قال: من لم تنضجه الأرحام، ولم يولد لتمام، ولم يشبه الأحوال والأعمام. قال: ومن

ذاك؟ قال سويد بن منجوف. قال عبد الملك: أذاك أنت يا سويد؟ قال: نعم. فلما خرجا قال عبید الله لسويد: وريت بك زنادي، واله ما يسرني بملك عني حمر النعم قال سويد: وأنا والله ما يسرني أنك نقصته حرفاً، وإن لي سود النعم.

وإنما كان عرض بعبد الملك وكان ولد لسبعة أشهر.

وربما كانت البلاغة سبباً للحرمان. وأسباب الأمور طريفة والاتفاقات عجيبة أخبرنا أبو أحمد عن أبيه عن عسل بن ذكوان، قال: كتب بعضهم إلى المنصور كتاباً حسناً بليغاً يستمنحه فيه. فكتب إليه المنصور: البلاغة والغنى إذا اجتمعا لامرئ أبطراه، وأمير المؤمنين مشفق عليك من البطر، فاكتف بأحدهما.

وقوله: "ربما كانت البلاغة في الاستماع"، فإن المخاطب إذا لم يحسن الاستماع لم يقف على المعنى المؤدى إليه الخطاب. والاستماع الحسن عونٌ للبلغ على إفهام المعنى. وقال إبراهيم الإمام: حسبك من حظ البلاغة ألا يؤتى السامع من سوء إفهام الناطق، ولا يؤتى الناطق من سوء فهم السامع. وقال الهندي أيضاً: البلاغة وضوح الدلالة، وانتهاز الفرصة، وحسن الإشارة. وقول عبید الله بن عتبة: البلاغة دنو المأخذ، وقرع الحجة، وقليل من كثير.

فأما البصر بالحجة فمثل ما أخبرنا به أبو أحمد عن أبيه عن عسل قال: قال الهيثم بن عدي: أنبأني عطاء بن مصعب، قال: كان أبو الأسود شيعة لعلي بن أبي طالب رضى الله عنه، وكان جيرانه عثمانية فرموه يوماً، فقال: أترموني؟ قالوا: بل الله يرميك. قال: كذبتهم، إنكم تخطئون، وإن الله لو رمانى لما أخطأ.

وقال بعضهم لأبي علي محمد بن عبد الوهاب: ما الدليل على أن القرآن مخلوق؟ قال: إن الله قادر على مثله. فما أحرار السائل جواباً.

ومثل ذلك ما روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه وهو يومئذ خليفة وكان على المنبر يخطب في يوم الجمعة، فدخل عثمان بن عفان رضى الله عنه عليه. فقال عمر: ما بال أقوام يسمعون الأذان ويتأخرون؟ فقال عثمان: والله ما تأخرت إلا ريثما توضحأت. فقال عمر: وهذا أيضاً، أما سمعت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال "من أتى الجمعة فليغتسل".

ومثله قول أبي يوسف بعرفة وقد صلى خلف الرشيد فلما سلم في الركعتين قال: يا أهل مكة أتموا صلاتكم فإننا قوم سفر. فقال بعض أهل مكة: من عندنا خرج العلم إليكم. فقال أبو يوسف: لو كنت فقيهاً لما تكلمت في الصلاة.

وأخبرنا أبو أحمد عن أبيه عن عسل بن ذكوان، قال: أقام شاعر بباب معن بن زائدة حولاً لا يصل إليه، فكتب إليه رقعة ودفعها إليه:

إذا كان الجواد له خجَاب

فما فضلُ الجوادِ على البخيلِ

فكتب معن فيها:

إذا كان الجواد قليل مال

ولم يعذر تعلل بالحجاب

فانصرف الرجل يائساً، ثم حمل إليه معن عشرة آلاف درهم.

ومن ذلك ما أخبرنا به أبو أحمد عن أبيه عن عسل بن ذكوان قال: بلغ إلى ابن الحسين رضى الله عنهما أن عروة بن الزبير وابن شهاب الزهري يتناولان عليا ويعبثان به، فأرسل إلى عروة، فقال: أما أنت فقد كان ينبغي أن يكون في نكوص أبيك يوم الحمل وفراره ما يحجزك عن ذكر أمير المؤمنين، والله لئن كان عليّ باطل لقد رجعت أبوك عنه، ولئن كان علي حقّ لقد فرّ أبوك منه. وأرسل إلى ابن شهاب، فقال: وأما أنت يا بن شهاب فما أراك تدعني حتى أعرفك موضع كبر أبيك. ومن وضوح الدلالة وقرع الحجة قول الله سبحانه: "وضرب لنا مثلاً ونسى خلقه. قال: من يحيي العظام وهي رميم. قل: يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم".

فهذه دلالة واضحة على أن الله تعالى قادر على إعادة الخلق، مستغنية بنفسها عن الزيادة فيها، لأن الإعادة ليست بأصعب في العقول من الابتداء. ثم قال تعالى: "الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم توقودون"، فزادها شرحاً وقوة، لأنّ من يخرج النار من أجزاء الملك وهما ضدان، ليس بمنكر عليه أن يعيد ما أفناه. ثم قال تعالى: "أو ليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم". فقوّاها أيضاً، وزاد في شرحها، وبلغ بها غاية الإيضاح والتوكيد، لأنّ إعادة الخلق ليست بأصعب في العقول من خلق السموات والأرض ابتداء.

وحضر أبو الهذيل جنازة فلما دفن الميت قال رجل: يا أبا الهذيل، الإيمان يرجوع هذا صعب. فقال أبو الهذيل: يعيده الذي أنشأه أول مرة، إنه على رجعه لقادر.

وأما انتهاز الفرصة فمثاله أيضاً قول أبي يوسف مع أكثر ما جرى في هذا الفصل.

ومنه ما أخبرني به أبو أحمد قال أخبرني الحلواني، قال حدثني محمد بن زكريا، قال حدثنا محمد بن عبد الله الجشمي، عن المدائني، قال: دخل عمرو ابن العاص على معاوية وهو يتغدى فقال له: هلم يا عمرو. فقال هنيئاً يا أمير المؤمنين، أكلت أنفأ. فقال: أما علمت يا عمرو أن من شراهة المرء ألا يدع في بطنه مستزاداً لمستزيد فقال: قد فعلت يا أمير المؤمنين. فقال ويحك لمن بقية؟ ألمن هو أوجب حقاً من أمير المؤمنين؟ قال: لا، ولكن لمن لا يعذر عذر أمير المؤمنين. قال: فلا أراك إلا ضيقت حقاً لحقّ لعلك لا تدركه. فقال

عمرؤ: ما لقيت منك يا معاوية ثم دنا فأكل.

وقال أبو العيناء لابن ثوابة: بلغني ما خاطبت به أبا الصقر، وما منعه من استقصاء الجواب إلا أنه لم ير عرضاً فيمضغه، ولا مجدداً فيهدمه. وبعد فإنه عاف لحمك أن يأكله، وسهك دمك أن يسفكه، فقال: ما أنت والكلام يا مكدي؟ فقال: لا ينكر على ابن ثمانين سنة، قد ذهب بصهر، وجفاه سلطانه، أن يعول على إخوانه، فيأخذ من أموالهم، ولكن أشد من هذا أن تستزل ماء أصلاب الرجال فتستفرغه في حقيبتك. فقال ابن ثوابة: الساعة أمر أحد غلماني بك. فقال: أيهما؟ الذي إذا خلوت ركب، أم الذي إذا ركبت خلا؟ فقال ابن ثوابة: ما تسابّ اثنان إلا غلب الأ مهما. قال أبو العيناء: بما غلبت أبا الصقر. فانظر إلى انتهاز الفرصة في قوله: بما غلبت أبا الصقر.

ومنه أن بعض الكتاب لقي أبا العيناء في السحر، فجعل يتعجب من بكوره، فقال: أتشاركني في الفعل وتنفرد بالتعجب.

وقالت له قينة: هب لي خاتمك أذكرك به. قال: اذكريني بالمنع.

وقيل له: لا تعجل فإن العجل من عمل الشيطان. فقال: لو كانت من عمل الشيطان لما قال موسى عليه السلام: "وعجلت إليك رب لترضى".

وقال عبيد الله بن سليمان: إن الأخبار المذكورة في السخاء وكثرة العطاء من تصنيف الوراقين وأكاذيبهم. فقال أبو العيناء: ولم لا يكذبون على الوزير أيده الله وأما الإشارة فسنذكرها في موضعها إن شاء الله.

وقال حكيم الهند: أول البلاغة اجتماع آلة البلاغة، وذلك أن يكون الخطيب رابط الجأش، ساكن الجوارح، متخير اللفظ، يكلم سيد الأمة بكلام الأمة، ولا الملوك بكلام السوق. ويكون في قواه التصرف في كل طبقة، ولا يدقق المعاني كل التدقيق، ولا ينقح الألفاظ كل التنقيح، ويصفى كل التصفية، ويهدبها كل التهذيب، ولا يفعل ذلك حتى يصادق حكيماً، وفيلسوفاً عظيماً، ومن تعود حذف فضول الكلام، وإسقاط مشتركات الألفاظ، ونظر في صناعة المنطق على جهة الصناعة والمبالغة فيها، لا على وجهة الاستطراف والتطرف لها.

قال: واعلم أن حق المعنى أن يكون الاسم له طبقة، وتلك الحال له وفقاً، ولا يكون الاسم فاضلاً، ولا مقصراً، ولا مشتركاً، ولا مضمناً، ويكون نصفه لمصادر كلامه بقدر تصفحه لموارده، ويكون لفظه موقفاً، ومعناه نيراً واضحاً. ومدار الأمر على إفهام كل قوم بقدر طاقتهم، والحمل عليهم على قدر منازلهم، وأن تواتيه آتته، وتتصرف معه أدواته، ويكون في التهمة لنفسه معتدلاً، وفي حسن الظن بما مقتصداً، فإنه إن تجاوز الحق في مقدرا لحسن الظن أودعها تهاون الآمنين، وإن تجاوز بها مقدار الحق في

التهمة ظلمها وأودعها ذلّ المظلومين. ولكلّ ذلك مقدار من الشغل، ولكلّ شغلٍ مقدارٌ من الوهن، ولكل وهن مقدارٌ من الجهل.

فقوله: "أول البلاغة اجتماع آلة البلاغة" وأول آلات البلاغة جودة القريحة وطلاقة اللسان. وذلك من فعل الله تعالى، لا يقدر العبد على اكتسابه لنفسه واجتلابه لها. ومن الناس من إذا خلا بنفسه وأعمل فكره أتى بالبيان العجيب، والكلام البديع المصيب، واستخرج المعنى الرائق، وجاء باللفظ الرائع. وإذا حاور أو ناظر قصرّ وتأخر. فحقّ هذا ألاّ يتعرض لارتجال الخطب، ولا يجاري أصحاب البداهة في ميدان القريض، ويكتفي بنتائج فكره. والناس في صناعة الكلام على طبقات: منهم من إذا حاور وناظر أبلغ وأجاد، وإذا كتب وأملى أخلّ وتخلّف. ومنهم من إذا أملى برّز، وإذا حاور أو كتب قصر. ومنهم من إذا كتب أحسن، وإذا حاور وأملى أساء. ومنهم من يحسن في جميع هذه الحالات. ومنهم من يسئ فيها كلّها. فأحسن حالات المسيء الإمساك، وأحسن حالات المحسن التوسّط، فإنّ الإكثار يورث الإملال، وقلمًا ينحو صاحبه من الزلل والعيب والخطل.

وليس ينبغي للمحسن في أحد هذه الفنون المسيء في غيرها أن يتجاوز ما هو محسن فيه إلى ما هو مسيء فيه، فإن اضطر في بعض الأحوال إلى تجاوزه فخير سبله فيه قصد الاختصار، وتجنّب الإكثار والإهدار، ليقلّ السقط في كلامه، ولا يكثر العيب في منطقه.

وقيل لابن المقفّع: لم لا تطيل القصائد؟ قال: لو أطلها عرف صاحبها. يريد أن المحدث يتشبهه بالقديم في القليل من الكلام، فإذا أطال اختل، فعرف أنه كلام مولد. على أن السابق في ميادين البلاغة إذا أكثر سقط، فكيف المقصرّ عن غايتها، والمتخلّف عن أمدها؟ ومن تمام آلات البلاغة التوسع في معرفة العربية، ووجوه الاستعمال لها، والعلم بفاخر الألفاظ وساقطها، ومتخيّرهما، وردئتها، ومعرفة المقامات، وما يصلح في كل واحد منها من الكلام، إلى غير ذلك مما سنذكره في الباب الثاني عند ذكر صناعة الكلام إن شاء الله.

وقوله: وهو "أن يكون الخطيب رابط الجأش" ساكن النفس جدًّا، لأنّ الحيرة والدّهش يورثان الحبسة والحصر، وهما سبب الإرتاج والإجبال.

وقد بلغك ما أصاب عثمان بن عفان رضی الله عنه أول ما صعد المنبر فأرتج عليه، فقال: إن اللذين كانا قبلي كانا يعدّان لهذا المقام مقالًا، وأنتم إلى إمام عادل أحوج منكم إلى إمام قائل، وستأتیکم الخطبة على

وجهها. ثم نزل.

وصعد بعض العرب منبراً بخراسان فأرتج عليه، فقال حين نزل:

لئن لم أكن فيكم خطيباً فإنني بسيفي إذا جدّ الوغى لخطيب

ومن حسن الاعتذار عند الإرتاج ما أخبرنا به أبو أحمد، قال: أخبرنا الشطبي: قال: أخبرنا الغلابي قال: أخبرنا العتبي عن أبيه، قال: خطب داود بن علي، فحمد الله جلّ وعزّ وأثنى عليه وصلّى على النبي صلى الله عليه وسلم فلما قال: أما بعد، امتنع عليه الكلام، ثم قال: أمّا بعد فقد يجد المعسر، ويعسر الموسر، ويفلّ الحديد، ويقطع الكليل، وإنّما الكلام بعد الإفحام كالإشراق بعد الإظلام. وقد يعزب البيان، ويعتقم الصّواب، وإنّما اللسان مضغة من الإنسان. يفتر بفتوره إذا نكل، ويثوب بانبساطه إذا ارتجل ألا وإنّا لا ننتطق بطراً، ولا نسكت حصراً، بل نسكت معتبرين، وننتطق مرشدين، ونحن بعد أمراء القول، فينا وشجت أعراقه، وعلينا عطفت أغصانه، ولنا تهدّلت ثمرته. فنتخير منه ما احلو لي وعذب، ونطرح منه ما املوح وخبث، ومن بعد مقامنا هذا مقام، وبعد أيامنا أيام، يعرف فيها فضل البيان، وفصل الخطاب، والله أفضل مستعان. ثم نزل.

وعلامه سكون نفس الخطيب ورباطة جأشه هدوءه في كلامه، وتمهّله في منطقته.

وقال ثمامة: كان جعفر بن يحيى أنطق الناس، قد جمع الهدوء والتمهّل، والجزالة والحلاوة. ولو كان في الأرض ناطق يستغنى عن الإشارة لكانه.

وقوله: متخيّر الألفاظ. فمدار البلاغة على تخيّر اللفظ، وتخيّره أصعب من جمعه وتأليفه. وسنشبع الكلام في هذا إن شاء الله.

وقوله: "يكون في قواه فضل التصرف في كل طبقة، وهو أن يكون صائغ الكلام قادراً على جميع ضروبه، متمكناً من جميع فنونه، لا يعتاص عليه قسم من جميع أقسامه. فإن كان شاعراً تصرّف في وجوه الشعر، مديحه وهجائه ومراثيه وصفاته ومفاخره، وغير ذلك من أصنافه.

ولاختلاف قوى الناس في الشعر وفنونه ما قيل: كان امرؤ القيس أشعر الناس إذا ركب، والنابغة إذا رهب، وزهير إذا رغب، والأعشى إذا طرب.

وكذلك الكاتب ربما تقدم في ضرب من الكتابة وتأخر في غيره، وسهل عليه نوع منها وعسر نوع آخر. وأخبرنا أبو أحمد عن أبي بكر الصولي، قال: حدثنا القاسم بن إسماعيل، قال: حدثنا إبراهيم بن العباس، قال: سمعت أحمد بن يوسف يقول: أمرني المأمون أن أكتب إلى النواحي في الاستكثار من القناديل في

المساجد في شهر رمضان، فبت لا أدري كيف أحتدي، فأتاني آت في منامي فقال: قل: "فإن في ذلك عمارة للمساجد، وأنساً للسابلة، وإضاءةً للمتجهّدين، ونفياً لمكامن الرّيب، وتزيهاً لبيوت الله جلّ وعزّ عن وحشة الظلم". فانتبهت وقد انفتح لي ما أريد، فابتدأت بهذا وأتممت عليه. والمقدّم في صنعة الكلام هو المستولى عليه من جميع جهاته، المتمكّن من جميع أنواعه، وبهذا فضّلوا جريراً على الفرزدق. وقالوا: كان له في الشعر ضروب لا يعرفها الفرزدق. وماتت امرأته النّوار فباح عليها بشعر جرير:

لولا الحياء لها جنى استعمارُ
ولزرت قبرك والحبيبُ يزارُ

وكان البحتريّ يفضّل الفرزدق على جرير، ويزعم أنه يتصرّف من المعاني فيما لا يتصرّف فيه جرير، ويورد منه في شعره في كلّ قصيدة خلاف ما يورده في الأخرى. قال: وجرير يكرّر في هجاء الفرزدق ذكر الزبير، وجعثن، والنوار وأنه قينٌ مجاشع. لا يذكر شيئاً غير هذا. وسئل بعضهم عن أبي نواس ومسلم، فذكر أن أبا نواس أشعر، لتصرفه في أشياء من وجوه الشعر وكثرة مذاهبه فيه، قال: ومسلم جار على وتيرة واحدة لا يتغيّر عنها.

وأبلغ من هذه المترلة أن يكون في قوة صائغ الكلام أن يأتي مرّةً بالجزل، وأخرى بالسهل، فيلين إذا شاء، ويشتدّ إذا أراد. ومن هذا الوجه فضّلوا جريراً على الفرزدق، وأبا نواس على مسلم. قال جرير:

طرفتُك صائدةُ القلوبِ وليس ذا
وقتُ الزيارةِ فارجعي بسلام

تجري السّواك على أغرّ كأنه
بردٌ تحدّر من متون غمام

فانظر إلى رقة هذا الكلام. وقال أيضاً:

وابن اللّبون إذا مالزّ في قرنٍ
لم يستطع صولة البزل القناعيس

فانظر إلى صلابة هذا الكلام والفرزدق يجري على طريقة واحدة، والتصرف في الوجوه أبلغ. وقال أبو نواس:

قل لذي الوجه الطّير
ولمغلق همومي

يا قليلاً في التّلاقي
وكثيراً في الضمير

فانظر إلى سلاسة هذا الكلام وسهولته، وقال:

وما هوى إلاّ له سببُ
يبتدى منه وينشعبُ

فتنت قلبي محبة
برداء الحسن تنتقب
خليت والحسن تأخذ
تنتقى منه وتنتخب
فانتقت منه طرائفه
واستزادت فضل ما تهب
صار جداً ما مزحت به
رباً جدّ جرّه اللعّب

فهذا أجزل من الأول قليلاً. وقال في صفة الكلب:

أنعت كلباً جالاً في رباطه
عند طبيب خاف من سياطه
كالكوكب الدرّي في انحطاطه
يقحم القائد في حطاطه
لما رأى العلهب في أقواطه
كالبرق يقرى المرو بالنتقاطه
وانصاع يتلوه على قطاطه
يصيد بعد البعد وانبساطه
فلم يزل يأخذ في لطاطه
يقشر جلد الأرض من بلاطه
لشدة الجري ولاستحطاطه
قد خدشت رجلاه في آباطه
خلج ذراعيه إلى ملاطه
في هبوات الضيق أو رباطه
ولفّ عشرين إلى أشراطه
ويعجل الشاؤون من خماطه
حتى علا في الجو من شياطه

فانظر إليه كيف يتصرّف لين الشدة واللين، ويضع كلّ واحد منهما في موضعه، ويستعمله في حينه.

وقوله: " ولا يكلم سيد الأمة بكلام الأمة، ولا الملوك بكلام السوقة". لأن ذلك جهل بالمقامات، وما يصلح في كل واحد منهما من الكلام. وأحسن الذي قال: لكل مقام مقال. وربما غلب سوء الرأي، وقلة العقل على بعض علماء العربية، فيخاطبون السوقي والمملوك والأعجمي بألفاظ أهل نجد، ومعاني أهل السراة، كأبي علقمة إذ قال لحجّامه: اشدد قصب الملازم، وأرهف ظبابة المشارط، وأمر المسح، واستنجل الرشح، وخفف الوطاء، وعجل الترع، ولا تكرهنّ أبيّا، ولا تمنعنّ أتيا. فقال له الحجّام: ليس لي علم بالحروب.

ورأى الناس قد اجتمعوا عليه، فقال: ما لكم تكأ تكأ عليّ كأنكم قد تكأ كأتّم على ذي جنة، افرنقوا عني.

وأخبرنا أبو أحمد عن الصولي عن علي بن محمد الأسدي، عن محمد بن أبي المغازل الصبي، عن أبيه، قال: كان لنا جار بالكوفة لا يتكلم إلا بالغريب، فخرج إلى ضيعة له على حجر معها مهر، فأفلتت، فذهبت ومعها مهرها، فخرج يسأل عنها، فمر بخياط، فقال: يا ذا النصّاح، وذات السّم، الطاعن بما في غير وغي، لغير عدوّ، هل رأيت الخيفانة القبّاء، يتبعها الحاسن المسرهف. كأنّ غرّته القمر الأزهر، ينير في حضره كالخلّب الأجرد. فقال الخياط: اطلبها في ترخ. فقال: ويلك. وما تقول قبّحك الله؟ فما أعلم رطانتك. فقال: لعن الله أبغضنا لفظا، وأخطأنا منطقا.

ومثله ما أخبرنا به أبو أحمد عن أبي بكر الصولي قال: حدثنا أحمد بن إسماعيل، قال حدثني سعيد بن حميد، قال: نظر رجل إلى أبي علقمة، وتحتة بغلّ مصري حسن المظهر، فقال: إن كان مخبر هذا البغل كمنظره فقد كمل. فقال أبو علقمة: والله لقد خرجت عليه من مصر، فتنكّبت الطريق، مخافة السراق، وجور السلطان، فبينما أنا أسير في ليلة ظلماء فتماء طخياء مدلهمة حندس داجية، في صحصح أملس، إذ أحسّ بنبأة من صوت نغر، أو طيران ضوع، أو نغض سيد، فحاص عن الطريق متنكّبا لعزّة نفسه، وفضل قوته، فبعثته باللّجام فعسل، وحركته بالركاب فنسل. وانتعل الطريق بغتاله معترماً، والتحق الليل لا يهابه مظلماً. فوالله ما شبهته إلا بظبية نافرة، تحفزها فتحاء شاغية. قال الرجل: ادع الله وسله أن يحشر هذا البغل معك يوم القيامة، قال: ولم؟ قال: ليحيزك الصرّاط بطفرة.

وقال أبو علقمة لطبيب: أجد رسيماً في أسناخي، وأرى وجعاً فيما بين الوابلة إلى الأطرة من دايات العنق. فقال الطبيب: هي هذا وجع القرشي، قال: وما يبعدنا منهم يا عديّ نفسه؟ نحن من أرومة واحدة، ونجل واحد. قال الطبيب: كذبت، وكلما خرج هذا الكلام من جوفك كان أهون لك، قال: بل لك الهوان والخسار والحقارة والسباب، اخرج عني قبّحك الله.

وقال لجارية كان يهواها: يا خريدة، قد كنت إحاً لك عربوا، فإذا أنت نوار، مالي أمقك وتشتيني قالت:

يا رقيق، ما رأيت أحداً يحبّ أحداً فيشتمه وإذا كان موضع الكلام على الإفهام فالواجب أن تقسم طبقات الكلام على طبقات الناس، فيخاطب السوقي بكلام السوق، والبديوي بكلام البدو، ولا يتجاوز به عما يعرفه إلى ما لا يعرفه، فتذهب فائدة الكلام، وتعدم منفعة الخطاب. وقوله: "ولا يدقق المعاني كلّ التدقيق". لأنّ الغاية في تدقيق المعاني سبيل إلى نعميته، وتعمية المعنى لكنة، إلا إذا أريد به الإلغاز وكان في تعميته فائدة، مثل أبيات المعاني، وما يجري معها من اللحن التي استعملوها وكنوا بها عن المراد لبعض الغرض. فأما من أراد الإبانة في مديح، أو غزل، أو صفة شيء فأتى بإغلاق دلّ ذلك على عجزه عن الإبانة، وقصوره عن الإفصاح، كأبي تمام حيث يقول:

عنه فلم يتخون جسمه الكمدُ خان الصفاء أخ خان الزمان أخاباً

وقوله:

يوم أفاض جوى أغاض تعزياً خاض الهوى بحري حجاه المزيدُ

وقوله:

وإن نجرية بانن جارت لها إلى يدي جلدي فاستوهك الجلدُ

وقوله:

جهمية الأوصاف إلا أنهم قد لقبوها جوهر الأشياء

وقوله: "ولا تنقح الألفاظ كل التنقيح". وتنقيح اللفظ أن يبنى منه بناءً لا يكثر في الاستعمال. كما قال بعضهم لبعض الوزراء: أحسن الله إبانتك. فقال له الوزير: عجل الله إمانتك.

ويدخل في تنقيح اللفظ استعمال وحشية وترك سلسه وسهله. وقد أخذ الرواة على زهير قوله:

نقى نقي لم يكثر غنيمة بنهكة ذي القربى ولا بحقلد

فاستبشعوا الحقلد وهو السيئ الخلق. وقالوا: ليس في لفظ زهير أنكر منه. وقال يحيى بن يعمر لرجل حاكمته امرأته إليه: أئن سألتك ثمن شكرها وشرك أنشأت تطلها وتضلها. الشكر: الرضاع. والشير: التكااح. وتطلها: تسعى في بطلان حقها. وتضلها: تعطيلها الشيء القليل. قال أبو عثمان: رأيتهم يديرون في كتبهم هذا الكلام، فإن كانوا إنما روه ودونوه لأنه يدل على فصاحة وبلاغة فقد باعده الله من صفة الفصاحة والبلاغة، وإن كانوا فعلوا ذلك لأنه غريب فأبيات من شعر العجاج، وشعر الطرماح، وأشعار هذيل، يأتي لهم من الرصف الحسن على أكثر من ذلك. ولو خاطب

أحد الأصمعيّ. يمثل هذا الكلام لظننت أنه سيجهل بعضه. وهذا خارج عن عادة البلغاء. وقوله: "ويصفّيها كلّ التصفية، ويهدّبها كل التهذيب". فتصفيته تعريته من الوحشيّ، ونفى الشواغل عنه. وتهذيبه تبرئته من الرديّ المرذول، والسوقيّ المردود.

فمن الكلام المهذّب الصافي قول بعض الكتاب: مثلك أوجب حقاً لا يجب عليه، وسمح بحقّ ووجب له، وقبل واضح العذر، واستكثر قليل الشكر، لا زالت أياديك فوق شكر أوليائك، ونعمة الله عليك فوق آمالم فيك.

ومثله قول آخر: ما انتهى إلى غاية من شكرك إلّا وجدت وراءها حادثاً من برّك، فلا زالت أياديك ممدودة بين أمل فيك تبلّغه، وأمل فيك تحقّقه، حتى تتملّى من الأعمار أطولها، وتنال من الدرجات أفضلها.

وقول أحمد بن يوسف: يومنا يوم لّين الحواشي وطىّ التواحي، وهذه سماء قد تمّلت بودقها، وضحكت بعابيس غيمها ولا مع برقها، وأنت قطب السرور، ونظام الأمور، فلا تغب عنا فنقلّ، ولا تفردنا فنستوحش، فإن الحبيب بحبيبه كثير، وبمساعديه جدير.

وقوله: ولا يفعل ذلك حتى يلقي حكيماً، وفيلسوفاً عليماً، ومن تعود حذف فضول الكلام، ومشاركات الألفاظ، ونظر إلى المنطق على جهة الصناعة فيها، لا على جهة الاستطراف والتطرّف لها.

يقول: ينبغي أن يتكلّم بفاخر الكلام، ونادره ورصينه ومحكمه عند من يفهمه عنه، ويقبله منه، ممن عرف المعاني والألفاظ علماً شافياً، لنظرة في اللغة والإعراب والمعاني على جهة الصناعة، لا كمن استطرف شيئاً منها، فنظر فيه نظراً غير كامل، أو أخذ من أطرافه، وتناول من أطراره، فتحلّى باسمه، وخلا من اسمه. فإذا سمع لم يفقه، وإذا سئل لم ينقه. وإذا تكلم عند من هذه صفته ذهبت فائدة كلامه، وضاعت منفعة منطقه، لأنّ العاميّ إذا كلمته بكلام العلية سخر منك، وزرى عليك، كما روى عن بعضهم أنه قال لبعض العامة: بم كنتم تنتقلون البارحة؟ يعنى على النبيذ. فقال: بالحمّالين. ولو قال له: أي شيء كان نقلكم لسلم من سخريته. فينبغي أن يخاطب كلّ فريق بما يعرفون، ويتجنّب ما يجهلون.

وأما قوله: "من تعوّد حذف فضول الكلام". فحذف فضول الكلام هو أن يسقط من الكلام ما يكون الكلام مع إسقاطه تاماً غير منقوص، ولا يكون في زيادته فائدة.

وذلك مثل ما روى عن معاوية أنه قال لصحار العبدى: ما البلاغة؟ فقال: أن تقول فلا تخطئ، وتسرع فلا تبطئ. ثم قال: أقلني، هو ألا تخطئ ولا تبطئ. فألقى اللفظتين، لأن في الذي أبقى غنيّ عنهما، وعوضاً منهما.

فأما إذا كان في زيادة الألفاظ وتكثيرها، وترديدها وتكريرها، زيادة فائدة فذلك محمود، وهو من باب

التذليل. ونشرحه في موضعه إن شاء الله.

وقوله: ومشتركات الألفاظ، وقول جعفر بن يحيى: وتخرجه من الشركة، فهو أن يريد الإبانة عن معنى فيأتي بألفاظ لا تدلّ عليه خاصة، بل تشترك معه فيها معانٍ أخرى، فلا يعرف السامع أيها أراد. وربما أستبهم الكلام في نوع من هذا الجنس حتى لا يوقف على معناه إلى بالتوهم. فمن الجنس الأول قول جرير:

لو كنت أعلم أن آخر عهدكم **يوم الرحيل فعلت ما لم أفعل**

فوجه الاشتراك في هذا أن السامع لا يدري إلى أيّ شيء أشار من أفعاله في قوله: فعلت ما لم أفعل. أراد أن يبكي إذا رحلوا، أو يهيم على وجهه من الغم الذي لحقه، أو يتبعهم إذا ساروا، أو يمنعهم من المضيّ على عزيمة الرحيل، أو يأخذ منهم شيئاً يتذكرهم به، أو يدفع إليهم شيئاً يتذكرونه به، أو غير ذلك، مما يجوز أن يفعله العاشق عند فراق أحبته، فلم يبين عن غرضه، وأحوج السامع إلى أن يسأله عما أراد فعله عند رحيلهم.

وليس هذا كقولهم: لو رأيت علياً بين الصفيين، لأن دليل البسالة والنكايّة في هذا الكلام بين، وأمانة النقصان في بيت جريري واضحة، فمن يسمعه وإن لم يكن من أهل البلاغة يستبرده ويستغته، ويسترجع الآخر ويستجيده.

ومثله قول سعد بن مالك الأزدي:

فإنك لو لاقيت سعد بن مالك **للاقيت منه بعض ما كان يفعل**

فلم يبين عما أراد بقوله يلقي. أخيراً أراد أم شراً؟ إلا أن يسمع ما قبله أو ما بعده، فيتبين معناه، وأما في نفس البيت فلا يتبين مغزاه.

ومثله قول أبي تمام:

وقمنا فقلنا بعد أن أفرد الثرى **به ما يقال في السحابة تفلح**

فقول الناس في السحاب إذا أقلع على وجوه كثيرة، فمنهم من يمدحه، ومنهم من يذمه، ومنهم من كان يجب إقلاعه، ومنهم من يكره إقشاعه، على حسب ما كانت حالهما عندهم، ومواقعها منهم، فلم يبين بقوله ما يقال في السحابة تفلح معنى يعتمده السامع. وأبين منه قول مسلم:

فاذهب كما ذهبت غواذي مزنة **أثنى عليها السهل والأوعار**

على أن المحتج له لو قال: إن أكثر العادة في السحاب أن يجمد أثره، ويشنى عليه بعده لما كان مبعداً. ولم أزد عيب أبي تمام بما قلت، وإنما أردت الإخبار عن وجوه الاشتراك، وذكر ما يتشعب منه، وما يقرب من بابه، وينظر إليه من قريب أو بعيد.

ومثل قول أبي تمام قول ابن قيس الرقيات:

إن تعش لا نزل بخير وإن ته **لك نزل مثل ما يزول العماء**

والعماء: السحاب. بل هذا أجود من بيت أبي تمام وأبين.

ومن اللفظ المشترك قول أبي نواس:

وخين ما يخبن من آخر **منه وللطابن أمهار**

الأمهار هاهنا جمع مهر، من قولهم: مهر يمهر مهراً. والمصادر لا تجمع، ولا يشك سامع هذا الكلام أنه يريد جمع مهر فيشكل المعنى عليه.

وخطب بعض المتكلمين، فقال في صفة الله تعالى: لا يقاس بالقياس، ولا يدرك بالألماس. أراد جمع لمس، فأصاب السجع وأخطأ المعنى.

وأما ما يستبهم فلا يعرف معناه إلا بالتوهم فهو مثل قول أبي تمام:

جهمية الأوصاف إلا أنهم **قد لقبوها جوهر الأشياء**

فوجه الاشتراك في هذا: أن لجهم مذاهب كثيرة، وآراء مختلفة متشعبة، لم يدلّ فحوى كلام أبي تمام على شيء منها يصلح أن يشبه به الخمر وينسب إليه، إلا أن يتوهم المتوهم فيقول: إنما أراد كذا وكذا، من مذاهب جهم، من غير أن يدلّ الكلام منه على شيء بعينه.

ولا يعرف معنى قوله: "قد لقبوها جوهر الأشياء" إلا بالتوهم أيضاً.

ومن الكلام الخالي من الاشتراك قول بعضهم لأخ له أراد فراقه: لما تصفحت أخلاقك فوجدتها مباينة لمشاكلتي، زائغة عن قصد طريقي صبرت عليها، رياضة لنفسي على الصبر لمساوي أخلاق المعاشرين، ولعلمي بكامن العدوان في جميع العالمين، والذي رجوت من مذمة خصالك بما أقابلها به من التجاوز، وأسحب على سوء آثارها أذيال التّغاضي، وأنت مع ذلك دائم لا تقوم اعوجاج مذاهبك، ولا يعطف بك الرأي إلى رشدك، فلما فنيت جيلتي فيك، وانقطعت أسباب أملي منك، ورأيت الداء لا يزيد على التّعهد بالدواء إلا فساداً، والخرق على التّرقيع إلا اتساعاً قدّمت اليأس منك على الرجاء فيك، واحتسبت أيامي السالفة في استصلاحي لك.

وقوله: وحقّ المعنى أن يكون له الاسم طبقاً، أي يكون الاسم طبقاً للفظ بقدر المعنى غير زائد عليه، ولا ناقص عنه. وكأن ذلك من قول امرئ القيس:

طبّقُ الأرضِ تحرّى وتدرّ

أي هي على الأرض كالطبّق على الإناء لا ينقص مه شيء. وسنأتي بالكلام على هذا في فصل الإيجاز إن شاء الله.

وقوله: ولا يكون الاسم فاضلاً ولا مقصراً. فهذا داخلٌ في الأول من قوله: وحقّ المعنى أن يكون الاسم له طبقاً.

ومثال الفاضل من اللفظ عن المعنى قول عروة بن أذينة:

واسقى العدو بكأسه واعلم له

بالغيب أن قد كان قبل سقاها

واجز الكرامة من ترى أن لولته

يوماً بذلت كرامة لجزاكها

ومعنى هذا الكلام محصور تحت ثلاث كلمات: أجز كلاً بفعله. وكان السكوت لعروة خيراً منه. ومن الكلام الفاضل لفظه عن معناه قول أبي العيال الهذلي:

ذكرت أخي فعاودني

صداع الرأس والوصب

فذكر الرأس مع الصداع فضل.

وقول أوس بن حجر:

وهم لمقلّ المال أولادٌ علّة

وإن كان محضاً في العمومة مخولاً

فقوله: المال مع المقلّ فضلة.

والمقصر من الكلام: مالا ينيك بمعناه عند سماعك إياه ويجوحك إلى شرح، كبيت الحارث بن حلزة:

والعيش خيرٌ في ظلا

لِ النوك ممّن رام كذا

وسنذكر وجه العيب فيه بعد هذا.

وقوله: ولا مضمناً: التضمين أن يكون الفصل الأوّل مفتقراً إلى الفصل الثاني، والبيت الأوّل محتاجاً إلى الأخير كقول الشاعر:

كأنّ القلب ليلة قيل يغدى

بليلي العامرية أو يراخ

قطاة غرّها شرك فباتت

تجادبه وقد علق الجناح

فلم يتمّ المعنى في البيت الأول حتى أتمّه في البيت الثاني، وهو قبيح.
ومثاله من نثر الكتاب قول بعضهم: وجعل سيدنا آخذاً من كل ما دعى ويدعى به في الأعياد، بأجزل الأقسام وأوفر الأعداد.
وقد تسمى استعارتك الأنصاف والأبيات من شعر غيرك، وإدخالك إياه ي أثناء أبيات قصيدتك تضميناً، وهذا حسنٌ وهو كقول الشاعر:

إذا دلّه عزمٌ على الحزم لم يقلُ
ولكنّه ماضٍ على عزمِ يومه
غداً غدها إن لم تعقها العوائقُ
فيفعل ما يرضاهُ خلقٌ وخالقُ

فقوله: غداً غدها إن لم تعقها العوائق من شعر غيره وهو هاهنا مضمن.
وكقول الآخر:

عوذّ لماً بتُ ضيفاً له
فبتُّ والأرضُ فراشي وقد
أقراصهُ بخلاً بياسين
غنّت قفانبك مصارينى

وقول الآخر:

ولقد سما للخرمى ولم يقلُ
بعد الوغا لكن تضايقاً مقدّمي

وقول ابن الرومي في مغنّ:

مجلسه مأتّم اللذاذة وال
ينشدها اللّهو عند طلّعه
قصفٍ وعرس الهموم والسقم
من أوحشته الديار لم يقم

وكقول جحظة:

أصبحتُ بين معاشرٍ هجروا الندى
قومٌ أحاولُ نيلهم فكأنما
وتقبّلوا الأخلاقَ عن أسلافهم
حاولتُ نتفّ الشعر من أنافهم
هاتٍ اسقينها بالكبير وغنّى
ذهب الذين يعاش في أكنافهم

وباقى كلامه يتضمّن صفة المتكلم لا صفة الكلام. إلا قوله: ويكون تصفّحه لموارده بقدر تصفّحه لمصادره. وسأتي على الكلام في هذا ونستقصيه في فصل المقاطع والمبادئ.

وقال بعض الحكماء: البلاغة قولٌ يسير، يشتمل على معنى خطير. وهذا مثل قول الآخر: البلاغة حكمة تحت قول وجيز. وقول الآخر: البلاغة علمٌ كثير في قول يسير.

ومثاله قول الأعرابي، وقد سئل عن مال يسوقه، لمن هو؟ فقال: الله في يدي. فأبيّ شيء لم يدخل تحت

هذا الكلام القليل من الفوائد الخطيرة، والحكم البارعة الجسيمة.
 وقال الله عز وجل اسمه: "ومن يتوكل على الله فهو حسبه". قد دخل تحت قوله: فهو حسبه من المعاني ما يطول شرحه من إيتاء ما يرجى، وكفاية ما يخشى.
 وهذا مثل قوله عز وجل: "وفيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين".
 وسئل بعض الأوائل: ما كان سبب موت أخيك؟ قال: كونه. فأحسن ما شاء.
 وقد تنازع الناس في هذا المعنى. أخبرنا أبو أحمد قال: أخبرنا أبو بكر بن دريد عن الرياضي، قال: قيل لأعرابي: كيف حالك؟ فقال: ما حال من يفنى ببقائه، ويسقم بسلامته، ويؤتى من مأمته.
 وأخبرنا أبو أحمد قال: حدثنا محمد بن يحيى، قال: حدثنا الغلابي، قال حدثنا ابن عائشة، قال: قلت لأبي: حدثني حماد بن سلمة، عن حميد بن ثابت، عن أنس والحسن، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: كفى بالسلامة داء. قال: يا بني، ولا أراه إلا مسنداً، فقد قال حميد بن ثور:

أرى بصري قد رايني بعد صحة
 وحسبك داءً أن تصح وتسلماً

وقال آخر:

كانت قناتي لا تلين لغامز
 فدعوت ربي بالسلامة جاهداً
 فألأنها الإصباح والإمساء
 ليصحنى فإذا السلامة داءً

وأول من نطق بهذا المعنى التمر بن تولى في الجاهلية:

يودُ الفتى طول السلامة والغنى
 ويرد الفتى بعد اعتالٍ وصحةٍ
 وكيف يرى طول السلامة تفعل
 ينوء إذا رام القيام ويحمل

وقال آخر:

ما حال من آفته بقاءه
 نغص عيشي كله فناؤه

وقال ابن الرومي:

لعمرك ما الدنيا مدار إقامة
 وكيف بقاء العيش فيها وإنما
 إذا زال عن نفس البصير غطاؤها
 ينال بأسباب الفناء بقاءها

ونقله إلى موضع آخر فقال:

فإن الداء أكثر ما تراه
 من الأشياء تحل في الحلق

وقريبٌ من ذلك قول محمد بن علي رضي الله عنهما: مالك من عيشك إلا لذة تزلف بك إلى حمامك، وتقرّبك من يومك، فأية أكلة ليس معها غصص، وشربة ليس معها شرق، فتأمل أمرك، فكأنك قد صرت الحبيب المفقود، أو الخيال المحترم. وقال أبو العتاهية:

أسرع في نقص امرئٍ تمامه

ومن الأمثال: كلٌّ من أقام شخص، وكلٌّ من زاد نقص، ولو كان يميت الناس الداء لأحياهم الداء. وقال آخر:

توقع زوالاً إذا قبلتَ تمّ

إذا تمّ أمرٌ دنا نقصه

وقلت:

لا بدّ أن يشكوه من يشكره

ما خير عيشٍ صفوه يكدّره

يميته بقاؤه فيقبره

والمرءُ ينسى والمنايا تذكره

يطويه من مداه ما لا ينشره

وكسره منه الذي لا يجبره

يهدم من عمرك ما لا تعمره

في كلِّ مجرى نفسٍ يكرّره

وقلت:

وأسعف الإلف بعد صدّه

قد قرب الأمرُ بعد بعده

صرتُ إلى خفضه ورغده

وبعد بؤسٍ وضيقٍ عيشٍ

لا بدّ من نزعه وردّه

لكنه ملبسٌ معارٌ

وجوده علّةٌ لفقده

وهل يسرُّ الفتي بحظّ

وقال الرومي: البلاغة حسن الاقتضاب عند البداهة، والغزارة عند الإطالة.

الاقتضاب: أخذ القليل من الكثير، وأصله من قولهم: اقتضبت الغصن إذا قطعته من شجرته. وفيه معنى السرعة أيضاً، فيقول: البلاغة إجادة في إسراع، واقتصاراً على كفاية.

فمن البديهة الحسنة ما أخبرنا به أبو أحمد قال أخبرنا إبراهيم بن محمد الشطني قال: حدثني أحمد بن يحيى ثعلب قال: دخل المأمون ديوان الخراج فمرّ بسلام جميل على أذنه قلم فأعجبه ما رأى من حسنه، فقال: من أنت يا غلام؟ فقال: يا أمير المؤمنين، الناشئ في دولتك، وخريج أدبك، والمتقلّب في نعمتك، الحسن بن رجاء. فقال المأمون: بالإحسان في البديهة تفاضلت العقول. ثم أمر أن يرفع عن مرتبة الديوان ويعطى مائة ألف درهم.

ومن الاقتضاب الجيد: ما أخبرنا به أبو أحمد قال: أخبرني أبو أحمد الواداري عن شيخ له قال: قال أبو حاتم: سمعت أبا عبيدة يقول: استفتحت غلامين في الصبا. فزكنت منهما بلوغ الغاية، فجاء كما زكنت: بلغني أن النظام يتعاطى علم الكلام فمر وهو غلام على حمار يطير به، فقلت له: يا غلام، ما عيب الزجاج؟ فالتفت إليّ وقال: يسرع إليه الكسر، ولا يقبل الجبر. وبلغني أن أبا نواس يتعاطى قرص الشعير، فتلقاني وهو سكران ملتخ، وما طرّ شاربه بعد، فقلت له: كيف فلان عندك؟ فقال: ثقيل الظل، جامد التّسيم. فقلت: زد. فقال: مظلم الهواء، متنّ الفناء. فقلت: زد. فقال غليظ الطّبع، بغيض الشّكل. فقلت: زد. فقال: وخم الطلعة، عسر القلعة. قلت: زد. قال: ناي الجنبات، بارد الحركات. ثم قال: زدني سؤالاً أزدك جواباً. فقلت: كفى من القلادة ما أحاط بالعنق.

ومن جيد البداهة ما أخبرنا به أبو أحمد أبي عسل بن ذكوان قال: قال المأمون ليحيى بن أكثم: صف لي حالي عند الناس. فقال: يا أمير المؤمنين قد انقادت لك الأمور بأزمّتها، وملّكتك الأمة فضول أعنتها، بالرغبة إليك والمحبة لك، والرّفق منك، والعياذ بك، بعد لك فيهم، ومنك عليهم، حتى لقد أنسيتهم سلفك، وآيستهم خلفك. فالحمد لله الذي جمعنا بك بعد التقاطع، ورفعنا في دولتك بعد التواضع. فقال: يا يحيى، أتجبراً، أم ارتجالاً؟ قال: قلت: وهل يمتنع فيك وصفٌ، أو يتعذّر على مادحك قول، أو يفحم فيك شاعر، أو يتلجلج فيك خطيب؟

وقدم على المهدي رجل من أهل خراسان، فقال: أطال الله بقاء أمير المؤمنين، إنّنا قومٌ نأينا عن العرب، وشغلنا الحروب عن الخطب، وأمير المؤمنين يعلم طاعتنا، وما فيه مصلحتنا، فيكتفي منا باليسير عن الكثير، ويقتصر على ما في الضمير دون التفسير. فقال المهدي: أنت أخطب من سمعته.

وأخبرنا أبو القاسم عبد الوهاب بن محمد الكاغذي، قال: أخبرنا أبو بكر العقدي، قال: أخبرنا أبو جعفر الخراز، قال: أخبرنا المدائني: أن أعرابياً دخل على المنصور فتكلّم فأعجب بكلامه، فقال له: سل حاجتك، فقال يقيقك الله، ويزيد في سلطانك. فقال: سل حاجتك، فليس في كل وقت تؤمر بذلك. قال: ولم يا أمير المؤمنين؟ فوالله ما أستقصّر عمرك، ولا أخاف بخلك، ولا أغتتم مالك، وإن سؤالك لشرف، وإن عطائك لزين، وما بامرئ بذل وجهه إليك نقص ولا شين.

أخذ المعنى الأخير من أمية بن الصلت في عبد الله بن جدعان:

بسيبٍ وما كلّ العطاءِ يزِينُ

إليك، كما بعضُ السّؤالِ يشينُ

عطاؤك زِينٌ لامرئٍ إن حبوته

وليس بشينٍ لامرئٍ بذلُ وجهه

وقال جعفر بن يحيى: البلاغة أن يكون الاسم يحيط بمعناك، ويجلّى عن مغزاك، وتخرجه من الشركة، ولا تستعين عليه بطول الفكرة، ويكون سليماً من التكلف، بعيداً من سوء الصنعة، برياً من التعقيد، غنياً عن التأمل.

وقله: أن يكون الاسم يحيط بمعناك. فالاسم هاهنا: اللفظ، أي يحصر اللفظ جميع المعنى ويشتمل عليه. فلا يشدّ منه شيء يحتاج أن يعرف بشرح، أو تفسير، فإذا سمعت اللفظ عرفت أقصى المعنى، وهذا مثل قول الآخر: البليغ من طبّق المفصل فأغناك عن المفسر.

ولا يكون الكلام بليغاً مع ذلك حتى يعرى من العيب، ويتضمّن الجزالة والسهولة وجودة الصنعة، كما ذكرنا قبل.

ومثال ذلك ما كتب بعضهم إلى أخ له: أما بعد فإنّ المرء ليسره درك ما لم يكن ليفوته، ويسوءه فوت ما لم يكن ليدركه، فليكن سرورك فيما قدمت من خير، وأسفك على ما فاتك من برّ. وقول أعرابي لابنه: يا بني، إن الدنيا تسعى على من يسعى لها، فالهرب قبل العطب. فقد أذنتك ببيت، وانطوت لك على حين. قال الشاعر:

يهجر ومغفورٌ لليلَى ذنوبُها

حلالٌ لليلَى أن ترزع فؤاده

عوارف أن اليأس منك نصيبُها

تطلع من نفسي لليلَى نوازِع

فمن مخبري في أيّ أرضٍ غروبُها

وزالت زوال الشمس عن مستقرّها

وقال آخر:

سوى أن يقولوا إنني لك عاشقُ

وماذا عسى الواشون أن يتحدّثوا

إلى وإن لم تصف منك الخلائقُ

أجل صدق الواشون أنت حبيبةٌ

وقوله: ويجلّى عن مغزاك. أي يوضّح مقصدك، ويبين للسامع مرادك، ينهي عن التعمية والإغلاق.

وقوله: يخرجه من الشركة. فقد مضى تفسيره.

وقوله: ولا يستعين عليه بطول الفكرة. هذا لأنّ الفكرة. هذا لأنّ الكلام إذا انقطعت أجزاؤه، ولم تتصل

فصوله ذهب رونقه، وغاض ماؤه، وإنما يروق الكلام إذا جرى جريان السيل، وانصبّ انصباب القطر.

وقال ثمامة: ما رأيت أحداً إذا تكلم لا يتحبّس، ولا يتوقّف، ولا يتلفّف، ولا يتلجج، ولا يتنحج، ولا

يرقّب لفظاً استدعاه من بعد، ولا يتلمّس التخلّص إلى معنى قد اعتاص عليه بعد طلبه، إلا جعفر بن يحيى.

فمن الكلام الجاري مجرى السيل قول بعض العرب لبعض ملوك بني أمية: أقطعت فلاناً أرضاً، وسط

محلّتنا، وسواء خطّتنا، ومركز رماحنا، ومبرك لقاحنا، ومخرج نساتنا، ومنقلب إمائنا، ومسرح شائنا،

ومندي بهمنا، ومحلّ ضيفنا، ومشرق شتائنا، ومصباحنا في صيفنا. فقال: تكفون. وعوّضه عنها وردّها عليهم.

وأخبرنا أبو أحمد قال: أخبرني أبي عن عسل بن ذكوان أن الحسن بن علي رضي الله عنهما خطب فقال: اعلموا أنّ الحكمة زين، والوقار مروءة، والصلة نعمة، والإكثار صلف، والعجلة سفه، والسّفه ضعف، والغلق ورطة، ومجالسة أهل الدّناءة شين، ومخالطة أهل الفسوق ريبة. فهذه هي البلاغة التامة، والبيان الكامل.

وكما قال بعضهم: البلاغة صوابٌ، في سرعة جواب، والعيُّ إكثار في إهذار، وإبطاء يردفه أخطاء.

وقال بعضهم: لست ممن يتوهم بجله، ويظن بقلة عقله، أن الديانة، والأمانة، والترّاهة، والصيانة، إنما هي في تشمير ثوبه، وإحفاء شاربه، وكشفه عن ساقه، وزهوه بأطماره، وإنعال خفّه، وترقيع ثوبه، وإظهار سجّادته، وتعليق سبخته، وخفض صوته، وخشوع جسمه دون قلبه، واختلاس مشيته، وخفّة وطئه بين قومه. ولا يرتشي في حكمة، ويأخذ على علمه، ويطلب الدنيا بدينه، ولا يرفع طرفه عن عظّمته وكبريائه، ولا يكلم الناس من تصنعه وريائه.

فهذا الكلام وأمثاله في طول النّفس يدل على اقتدار المتكلم، وفضل قوّته في التصرّف. وقوله: ويكون سليما من التكلّف. فالتكلّف طلبُ الشيء بصعوبة للجهل بطرائق طلبه بالسهولة. فالكلام إذا جمع وطلب بتعب وجهد، وتنولت ألفاظه من بعد فهو متكلّف. مثاله قول بعضهم في دعائه: اللهم ربّنا وإلهنا، صلّ على محمد نبيّنا، ومن أراد بناء سوءاً فأحط ذلك السوء به، وأرسخه فيه كرسوخ السّجّيل على أصحاب الفيل، وانصرنا على كل باغ وحسود، كما انتصرت لناقة ثمود. وقوله: برّياً من سوء الصّنعَة. فسوء الصّنعَة يتصرّف على وجوه: منها سوء التقسيم وفساد التفسير، وقبح الاستعارة والتطبيق، وفساد النّسج والسّبك. وسنذكر الحمود من هذه الأبواب، والمذموم منها فيها بعد إن شاء الله.

وروى أنه قال: برّياً من الصّنعَة. فالصّنعَة النقصان عن غاية الجودة، والقصور عن حدّ الإحسان. وهو مثل قول العائب في هذا الأمر بعد عمل معناه إنه لم يحكم. ولما دخل النابغة يثرب وغنى بقوله:

أمن آل ميّة رائحٌ أو مغتدي

ومن هذه القصيدة:

عَمَّ يَكَادُ مِنَ اللَّطَافَةِ يَعْقَدُ

وعرف أنه عيب خرج وهو يقول: دخلتُ يثرب فوجدتُ في شعري صنعة، فخرجت منها وأنا أشعر العرب، أي وجدت نقصاناً عن غاية التمام.
وأخبرنا أبو أحمد عن أبي بكر الصولي، قال: كان ابن الأعرابي يأمر بكتب جميع ما يجري في مجلسه، قال: فأنشده رجل يوماً أرجوزة أبي تمام في وصف السحاب على أنها لبعض العرب:

كدراء ذات هطلان محض

سارية لم تكتحل بغمض

تمضي وتبقى نعماً لا تمضي

موقرة من خلّة وحمض

فقال ابن الأعرابي: اكتبها، فلمّا كتبوها قيل له: إنها لحبيب بن أوس، فقال: خرّق خرّق، لا جرم إن أثر الصنعة فيها بين.

وقال الفرزدق القصائد تصنعاً، أي معاباً ومنقصة عن حدّ الإحسان.

وقوله: بعيداً عن التعقيد، والتعقيد، والإغلاق، والتعقير سواء. وهو استعمال الوحشيّ، وشدة تعليق الكلام بعضه ببعض، حتى يستبهم المعنى. وقد ذكرنا أمثاله ذلك فيما تقدم، ونذكر هاهنا منها شيئاً: فمثال الوحشيّ قول بعض الأمراء وقد اعتلت أمّه فكتب رقاعاً وطرحها في المسجد الجامع بمدينة السلام: صين امرؤ ورعى، دعا لامرأة إنقحلة مقسّنة، قد منيت بأكل الطرموق، فأصابها من أجله الاستمصال، أن يمنّ الله عليها بالاطر غشاش والإبرغشاش. فكلّ من قرأ رقعته دعا عليها، ولعنه ولعن أمه. الطرموق، الطين. والاستمصال: الإسهال، واطرغش، وابرغش: إذا أبلّ وبرأ. ومثال الشديد التعليق بعض ألفاظه ببعض حتى يستبهم المعنى، كقوله أبي تمام:

ماشت إليه المطل مشى الأكبدي

جاري إليه البين وصل خريدي

بصبابتني وأذلّ عزّ تجلدي

يا يوم شرّد يوم لهوى لهوه

خاض الهوى بجري حجاه المزبد

يوم أفاض جوى أفاض تعزياً

جعل الحجاً مزبداً.

وقوله أيضاً:

يرضى المعاشر منك إلا بالرضا

والمجد لا يرضى بأن ترضى بأن

وبلغنا أن إسحاق بن إبراهيم سمعه ينشد هذا وأمثاله عند الحسن بن وهي، فقال: يا هذا، لقد شدّت على نفسك. والكلام إذا كان بهذه المثابة كان مذموماً.

وقوله: غنياً عن التأمل، أي هو مستغن لوضوحه عن تأمل معانيه، وترديد النظر فيه. كقول بعضهم

لصديق له: وجدت المودّة منقطعة، ما دامت الحشمة عليها مسلّطة، ولا يزال سلطان الحشمة إلا بملكة المؤانسة.

ومما يؤيّد ما قلناه قول الجاحظ: من أعاره الله عز وجل من معونته نصيباً، وأفرغ عليه من محبته ذنوباً، حبّب إليه المعاني، وسلّس له نظام اللفظ. وكان قبل قد أعفى المستمع من كدّ التلطف، وأراح قارئ الكتاب من علاج التفهّم.

وقال العربي: البلاغة التقرب من المعنى البعيد، والتباعد من حشو الكلام، وقرب المأخذ، وإيجاز في صواب، وقصد إلى الحجّة، وحسن الاستعارة.

ومثله قول الآخر: البلاغة تقريب ما بعد من الحكمة بأيسر الخطاب. والتقرب من المعنى البعيد، وهو أن يعمد إلى المعنى اللطيف فيكشفه، وينفى الشواغل عنه، فيفهمه السامع من غير فكر فيه، وتدبر له. مثل قول الأول في امرأة:

وحسنها حتى رأيناها

لم ندر ما الدنيا وما طيبها

أجلتها أن تتمناها

إنك لو أبصرتها ساعة

وقال بعضهم لملك من الملوك: أمّا التعجب من مناقبك فقد نسخته تواترها، فصارت كالشيء القديم الذي قد كسى به أي ألف لا كالشيء البديع الذي يتعجب منه. ومن هذا أخذ أبو تمام قوله:

عجائب حتى ليس فيها عجائب

على أنها الأيام قد صرن كلها

وقول آخر لبعض الملوك أيضاً: أخلاقك تجعل العدوّ صديقاً، وأحكامك تصير الصديق عدواً، ويشهد عدم مثلك فيما يكون.

وقال بعض القدماء: لكل جليلة دقيقة ودقيقة الموت الهجر.

وقلت:

لكنّ معناه موت

اسم التفرّق بين

إذا تباعدت فوت

وجداننا كل شيء

والرواية الصحيحة أن العربي قال: البلاغة التقرب من المعنى البعيد، ولكن رأيت في بعض أصولي كما ذكرته قبل، فأوردته هاهنا، وفسرته على ما رأيت في الأصل.

وقوله: والتباعد من حشو الكلام. فالحشو على ثلاثة أضرب: اثنان منها مذمومان، وواحد محمود: فأحد المذمومين هو إدخالك في الكلام لفظاً لو أسقطته لكان الكلام تاماً، مثل قول الشاعر:

أنعى فتى لم تذر الشمس طالعةً يوماً من الدهر إلا ضرراً أو نفعاً

فقوله: يوماً من الدهر حشو لا يحتاج إليه، لأن الشمس لا تطلع ليلاً.

وقول بعض بني عبس: أنشدنا أبو أحمد عن الصولي عن ثعلب عن ابن الأعرابي:

أبعد بني بكر أو مل مقبلاً من الدهر أو آسي على إثر مدبر

وليس وراء الفوت شيء يردّه عليك إذا ولّى سوى الصبر فاصبر

أولئك بنو خيرٍ وشرٍ كليهما جميعاً ومعروفٍ أريدٍ ومنكرٍ

قوله: أريد حشو وزيادة. وقوله: كليهما يكاد يكون حشواً، وليس به بأس، وباقي الكلام متوازن

الألفاظ والمعاني، لا زيادة فيه ولا نقصان. وهذا الجنس كثيرٌ في الكلام.

والضرب الآخر العبارة عن المعنى بكلام طويل لا فائدة في طوله ويمكن أن يعبر عنه بأقصر منه. مثل قول

النابعة:

تبينت آيات لها فعرفتها لستة أعوام وذا العام سابع

كان ينبغي أن يقول لسبعة أعوام ويتم البيت بكلام آخر يكون فيه فائدة، فعجز عن ذلك، فحشا البيت

بما لا وجه له.

وأما الضرب المحمود فكقول كثير:

لو أن الباخلين وأنت فيهم رأوك تعلموا منك المطالا

قوله: وأنت فيهم حشو إلا أنه مליح. ويسمى أهل الصنعة هذا الجنس اعتراض كلام في كلام.

ومنه قول الآخر، وهو جرير:

إن الثمانين وبلغتها قد أوجت سمعي إلى ترجمان

وسنأتي على هذا الباب فيما بعد إن شاء الله.

ومن الكلام الذي لا حشو فيه قول صبرة بن شيمان حين دخل على معاوية مع الوفود فتكلموا فأكثرُوا،

فقال صبرة: يا أمير المؤمنين، إنا حيّ فعال، ولسنا حيّ مقال، ونحن بأدنى فعالنا عند أحسن مقالهم.

فقال معاوية: صدقت.

ومن هذا قول الشاعر:

وتجهل أدينا ويحلم رأينا ونشتم بالأفعال لا بالتكلم

وكتب رجلٌ إلى أخ له: ثقني بكرمك تمنع من اقتضائك، وعلمي بشغلك يحدو على اذكارك.
وقال آخر: في الناس طبائع سيئة وحسنة، فارتبط بمن رجحت محاسنهُ.
وقال الحسن: نعم الله على العبد أكثر من أن تشكر، إلا أن يعان عليها. وذنوبه أكثر من أن يسلم منها،
إلا أن يعفى له عنها.
وأما قرب المآخذ فهو أن تأخذ عفو الخاطر، وتتناول صفو الهاجس، ولا تكدّ فكرك، ولا تتعب نفسك.
وهذه صفة المطبوع.
وروى أن الرشيد، أو غيره، قال لندمائه وقد طلعت الثريا: أما ترون الثريا؟ فقال بعضهم: كأها عقد ربا.
وقال بعضهم لأبي العتاهية: عذب الماء فطابا فقال أبو العتاهية:

حبذا الماء شرابا

وقال بشار وقد حبسه يعقوب بن داود على بابه:

طال الثواء على رسوم المنزل

فرجع إليه قوله، فقال:

فإذا تشاءُ أبا معاذٍ فارحل

ومن قرب المآخذ أن الجاحظ أو غيره قال للجماز: أريد أن أنظر إلى الشيطان، فقال: انظر في المرأة.
وقال بعض الولاة لأعرابي: قل الحقّ وإلا أوجعتك ضرباً فقال الأعرابي: وأنت أيضاً فاعمل به، فوالله لما
أوعدك الله به منه أعظم مما أوعدتني به منك.
ومنه أن المأمون قال لأمّ الفضل بن سهل بعد قتله إياه: أتجزعين ولك ولدٌ مثلي؟ قالت: وكيف لا أحزع
على ولد أفادنيك.

وهذا على حسب ما قال أبو حنيفة: إذا أتتك معضلة فاجعل جوابها منها.

ومن ذلك ما أخبرنا به أو أحمد قال حدثنا الجوهري، قال: حدثنا محمد بن زكريا، قال: حدثنا مهدي بن
سابق، قال: حدثنا عطاء بن مصعب عن عاصم بن الحدثان، قال: دعا عبد الملك بن مروان يوماً بالغداء
وبحضرته رجل فدعاه إلى غدائه، فقال ليس: بي غداء يا أمير المؤمنين، قد تغديت. فقال عبد الملك: أقبح
بالرجل أن يأكل حتى لا يكون فيه فضل للطعام. فقال يا أمير المؤمنين، في فضل، ولكن أكره أن أكل
فأصير إلى ما استقبحه أمير المؤمنين.

وأما قوله: إيجاز في صواب، فسنذكره في بابه. وأما الاستعارة فسنصنعها في مواضعها.

وأما قوله: وقصد إلى الحجّة، فقد ذكرنا الكلام فيه.

وقال محمد بن علي رضي الله عنهما: البلاغة قولٌ مفقه في لطف، فالمفقه: المفهم، واللّطيف من الكلام: ما تعطف به القلوب النافرة، ويؤنس القلوب المستوحشة، وتلين به العريكة الأبيّة المستصعبة، ويبلغ به الحاجة، وتقام به الحجّة، فتخلص نفسك من العيب، ويلزم صاحبك الذنب، من غير أن تهيجه وتقلقه، وتستدعي غضبه، وتستشير حفيظته.

كقول بعض الكتاب لأخ له: أنفذ إليّ أبو فلان كتاباً منك، فيه ذرّ من عتاب، كان أحلى عندي من تعريسة الفجر، وألذّ من الزّلال العذب، ولك العتيّ داعياً مستجاباً له، وعاتباً معتذراً إليه. ولو شئت مع هذا أن أقول: إنّ العتب عليك أوجب، والاعتذار لك ألزم لفعلت، ولكني أسامحك ولا أشاحك، وأسلم إليك ولا أراذك، لأن أفعالك عندي مرضية، وشيمك لديّ مقبولة، ولولا أن للحجّة موقعها لأعرضت عما أوامتُ إليه وما عرضت مما بدأت به، وقلت:

إذا مرضنا أتيناكم نعوذكم وتذنبون فنأتيكم فنعتذر

فانظر كيف خلّص نفسه من الجرم، وأوجه لصاحبه في اللطف وجهه، وألين مس. ومن الكلام الذي يعطف القلوب النافرة قول آخر لأخ له: زين الله ألفتنا بمعاودة صلتك، واجتماعنا بترادف زيارتك، وأيامنا الموحشة لغيبتك برؤيتك، توعّد تسنى بالانتقام على إخلالي بمطالعتك، وحسبي من عقوبتك ما ابتليت به من عدم مشاهدتك. وقال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: البلاغة إيضاح الملتبسات، وكشف عوذار الجهالات، بأسل ما يكون من العبارات.

وقريبٌ منه قول الحسن بن علي رضي الله عنهما: البلاغة تقريب بعيد الحكمة بأسهل العبارة. ومثله قول محمد بن علي رضي الله عنهما: البلاغة تفسير عسير الحكمة بأقرب الألفاظ. وقد مضى فيما تقدّم من كلامنا ما يكون مثلاً لهذه الفصول. وأنا أورد هاهنا فصلاً ينشرح به أبواهما، ويتّضح وجوهها. أخبرني أبو أحمد عن أبيه عن عسل بن ذكوان، قال: قال المأمون لمرتد عن الإسلام إلى النصرانية: أي شيء أوحشك من الإسلام فتركته، قال: أوحشني ما رأيت من كثرة الاختلاف فيكم. فقال المأمون: لنا اختلافان: أحدهما كاختلافنا في الأذان، وتكبير الجنائز، والاختلاف في التشهد، وفي صلاة الأعياد، وتكبير التشريق، ووجوه القراءات، واختلاف وجوه الفتيا، وما أشبه ذلك. وليس هذا باختلاف، وإنما ذلك توسعة وتخفيفاً من المحنة. والاختلاف الآخر كنجو اختلافنا في تأويل وإنما ذلك توسعة وتخفيفاً من المحنة. واختلاف الآخر كنجو اختلافنا في تأويل الآية من كتابنا، وتأويل الخبر عن نبينا عليه الصلاة والسلام، مع إجماعنا على أصل التنزيل، واتفاقنا على

فإن كان الذي أوحشك هو هذا حتى أنكرت هذا الكتاب فينبغي أن يكون اللفظ بجميع التوراة والإنجيل متفقاً على تأويله، كما يكون متفقاً على تزييله، ولا يكون بين النصارى اختلاف في شيء من التأويلات. ولو شاء الله أن يتزل كتبه ويجعل كلام أنبيائه، وورثة رسله كلاماً لا يحتاج إلى التفسير لفعل، ولكننا لم نر شيئاً من الدّين والدنيا دفع إلينا على الكفاية. ولو كان الأمر كذلك لسقطت المحنة والبلوى، وذهبت المسابقة والمنافسة، ولم يكن تفاضلٌ وليس على هذا بنى الله الدنيا.

فقال المرتد: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ولا ولد، وأن المسيح عبد الله، وأن محمداً صلى الله عليه وسلم صادق، وأنت أمير المؤمنين حقاً.

وقال ابن المقفع: البلاغة كشف ما غمض من الحق، وتصوير الحق في سورة الباطل. والذي قاله أمرٌ صحيح لا يخفى موضع الصواب فيه على أحد من أهل التمييز والتحصيل، وذلك أن الأمر الظاهر الصحيح الثابت المكشوف ينادي على نفسه بالصحة، ولا يجوز إلى التكلف لصحته حتى يوجد المعنى فيه خطيباً.

وإنما الشأن في تحسين ما ليس بحسن، وتصحيح ما ليس بصحيح بضرب من الاحتيال والتحيل، ونوع من العلل والمعارض والمعاذير، ليخفى موضع الإشارة، ويغمض موقع التقصير، وما أكثر ما يحتاج الكاتب إلى هذا الجنس عند اعتذاره من هزيمة، وحاجته إلى تغيير رسم، أو رفع منزلة دنيء له فيه هوى، أو حطّ منزلة شريف استحقّ ذلك مه، إلى غير ذلك من عوارض أموره.

فأعلى رتب البلاغة أن يحتجّ للمذموم حتى يخرج في معرض الحمود، وللمحمود حتى يصيِّره في صورة المذموم. وقد ذمّ عبد الملك بن صالح المشورة، وهي ممدوحة بكل لسان، فقال: ما استشرت أحداً إلا تكبّر على وتصاغرت له، ودخلته العزة ودخلتني الذلة، فعليك بالاستبداد فإن صاحبه جليلٌ في العيون، مهيب في الصدور، وإذا افتقرت إلى العقول حقرت العيون، فتضعض شأنك، ورجفت بك أركانك، واستحقرت الصغير، واستخفّ بك الكبير، وما عزّ سلطان لم يغنه عقله عن عقول وزرائه وآراء نصائحه. ومدح بعضهم الموت فقال:

قد قلتُ إذ مدحوا الحياةَ فأكثرُوا
في الموت ألفُ فضيلةٍ لا تعرفُ
فيه أمان لقائه بلقائه
وفارق كلِّ معاشرٍ لا ينصفُ

فالمتمكّن من نفسه يضعُ لسانه حيث يريد.
ومثل هذا كثيرٌ لا وجه لاستيفائه في مثل هذا الموضوع.
ذكرت في هذا الباب وهو ثلاثة فصول من نعوت البلاغة، ووجوه البيان والفصاحة ما فيه كفاية، وأتيت
من تفسير مشكلها على ما فيه مقنع، ولم يسبقني إلى تفسير هذه الأبواب وشرح وجوهها أحد، وإنما
اقتصرت من كان قبلي على ذكر تلك النعوت عارية مما هي مفتقرة إليه من إيضاح غامضها، وإنارة
مظلمها، فكان المنفعة بها للعالم دون المتعلّم، والسابق دون اللاحق، وربما اعترض الشكُّ فيها للعالم المبرز،
فسقطت عنه معرفة كثير منها. وأنت أيّدك الله تعتمداً ما ذكرته من ذلك، وتأمّماً بما شرحته منه، وتستدلُّ
به على ما ألفيته من جنسه إذا عثرت به، لتستغني عن جميع ما صنّف في البلاغة، وسائر ما ذكرى من
أصناف البيان والفصاحة إن شاء الله.

الباب الثاني

تمييز الكلام جيده من رديه ونارده من بارده

والكلام في المعاني فصلا

الفصل الأول من الباب الثاني

في تمييز الكلام

الكلام أيدك الله يحسن بسلاسته، وسهولته، ونصاعته، وتخيّر لفظه، وإصابة معناه، وجودة مطالعه، ولين مقاطعه، واستواء تقاسيمه، وتعادل أطرافه، وتشابه أعجازه بمواديه، وموافقة مآخيره لمبادئه، مع قلة ضروراته، بل عدمها أصلاً، حتى لا يكون لها في الألفاظ أثر، فتجد المنظوم مثل المنشور في سهولة مطالعه، وجودة مقطعه، وحسن رصفه وتأليفه، وكمال صوغه وتركيبه. فإذا كان الكلام كذلك كان بالقبول حقيقاً، وبالتحفظ خليقاً، كقول الأول:

فما يباليون ما نالوا إذا حمدوا

هم الألى وهبوا للمجد أنفسهم

وقول معن بن أوس:

ولا حملتني نحو فاحشة رجلى

لعمرك ما أهويت كفى لريبة

ولا دلني رأي عليها ولا عقلي

ولا قاندي سمعي ولا بصري لها

من الدهر إلا قد أصابت فتى قبلي

ولا أعلم أنني لم تصبني مصيبة

من الأمر لا يمشي إلى مثله مثلي

ولست بماش ما حييت لمنكر

وأوثر ضيفي ما أقام على أهلي

ولا مؤثراً نفسي على ذي قرابة

وقول الآخر:

إذا كانت العلياء في جانب الفقر

ولست بنظر إلى جانب الغنى

وقال الآخر:

أصيب غني فيه لذي الحق محمل

ذريني أسير في البلاد لعلي

كتاب الصناعتين - أبو هلال العسكري

تجئُ به الأيَّامُ فالصبرُ أجملُ
وليس علينا في الحقوقِ معولُ

وأضرب عنه القلبَ صفحاً فيذهلُ
يعاشُ به إلا لذيٍّ ومأكُلُ
على الضيِّمِ إلا ريثماً أتحوّلُ

ظمئتَ وأيُّ الناسِ تصفو مشاربُه

وتلن بأوفى للطعان وأكرما

بأسوان لم يترك له الحزم معلماً
ويعجز عنه الطيِّفُ أن يتجشماً

على شعتِ، أيِّ الرجال المهذبُ؟

حذارَ غدٍ، لكلِّ غدٍ طعامُ

فإن نحنُ لم نسطعُ دفاعاً لحادثِ

أليسَ كثيراً أن تلمَّ ملمَّةٌ

ومما هو فصيح في لفظه جيدٌ في رصفه قولُ الشنفرى:

أطيلِ مطالَ الجوعِ حتى أميته
ولولا اجتنابُ العارِ لم يلفَ مشربُ
ولكن نفساً مرةً ما تقيمني

وقول الآخر:

إذا أنت لم تشرب مراراً على القذى

وقول الآخر:

وما إن قتلناهم بأكثر منهم

وقال دعبل:

وإنَّ امرءاً أمستُ مساقطُ رحله

حللتُ محلاً بقصرُ الطرفِ دونهُ

وقول النابغة:

ولست بمستبِقٍ أخواً لا تلمَّةُ

وليس لهذا البيت نظيرٌ في كلام العرب. وقال بعضهم: نظيره قول أوس بن حجر:

ولست يخابئُ أبداً طعاما

وهذا وإن كان نظيره في التأليف فإنه دونه لم تكرر فيه من لفظ غد.

فإذا كان الكلام قد جمع العذوبة، والجزالة، والسهولة، والرِّصانة، مع السلاسة والنصاعة، واشتمل على الرُّونق والطلاوة، وسلم من حيث التأليف، وبعد عن سماجة التركيب، وورد على الفهم الثاقب قبله ولم يردّه، وعلى السَّمع المصيب استوعبه ولم يمجّه، والنفس تقبلُ اللطيف، وتنبو عن الغليظ، وتقلق من الجاسي البشع، وجميع جوارح البدن وحواسه تسكن إلى ما يوافقها، وتنفر عما يضادّه ويخالفه، والعين تألف الحسن، وتقذى بالقبيح، والأنف يرتاح للطيب، وينفر للمنتن، والفم يتلذذ بالحلو، ويمجّ المرء، والسمع يتشوّف للصواب الرائع ويتزوي عن الجهير الهائل، واليد تنعم باللين، وتتأذى بالخشن، والفهم يأنس من الكلام المعروف، ويسكن إلى المألوف، ويصغى إلى الصواب، ويهربُ من المحال، وينقبض عن

الوخم، ويتأخر عن الجافي الغليظ، ولا يقبل الكلام المضطرب إلا الفهم المضطرب، والروية الفاسدة. وليس الشأن في إيراد المعاني، لأن المعاني يعرفها العربي والعجمي والقروي والبدوي، وإنما هو في جودة اللفظ وصفائه، وحسنه وبهائه، ونزاهته ونقائه، وكثرة طلاوته ومائه، مع صحة السبك والتركيب، والخلو من أود التّظم والتأليف. وليس يطلب من المعنى إلا أن يكون صواباً، ولا يقنع من اللفظ بذلك حتى يكون على ما وصفناه من نعوته التي تقدّمت. ألا ترى إلى قول حبيب:

مستسلم لله سائسُ أمةٍ بدوي تجهضها له استسلام

فإنه صوابُ اللفظ، وليس هو بحسنٍ ولا مقبول الجهضة، الوثوب والغلبة. وقال أبو داود: رأس الخطابة الطبع، وعمودها الدربة، وجناحها رواية الكلام، وحليها الإعراب، وبهاؤها تخير الألفاظ، والمحبة مقرونة بقلّة الاستكراه. وأنشد:

يرمون بالخطب الطوال وتارةً وحي الملاحظ خشية الرقباء

ومن الدليل على أنّ مدار البلاغة على تحسين اللفظ أنّ الخطب الرائعة، والأشعار الرائقة ما عملت لإفهام المعاني فقط، لأنّ الرديء من الألفاظ يقوم مقام الجيد منها في الإفهام، وإنما يدلّ حسن الكلام، وإحكام صنعته، ورونق ألفاظه، وجودة مطالعه، وحسن مقاطعته، وبديع مباديه، وغريب مبانيه على فضل قائله، وفهم منشئه.

وأكثر هذه الأوصاف ترجع إلى الألفاظ دون المعاني. وتوخي صواب المعنى أحسن من توخي هذه الأمور في الألفاظ. ولهذا تأتق الكاتب في المعنى أحسن من توخي هذه الأمور في الألفاظ. ولهذا تأتق الكاتب في الرسالة، والخطيب في الخطبة، والشاعر في القصيدة. يبالغون في تجويدها، ويلغون في ترتيبها، وليدلوا على براعتهم، وحذقهم بسناعتهم، ولو كان الأمر في المعاني لطحوا أكثر ذلك فربحوا كذاً كثيراً، وأسقطوا عن أنفسهم تبعاً طويلاً. ودليل آخر، إنّ الكلام إذا كان لفظه حلوّاً عذباً، وسلساً سهلاً، ومعناه وسطاً، دخل في جملة الجيد، وجرى مع الرائع النادر، كقول الشاعر:

ولمّا قضينا من منى كلّ حاجةٍ ومسّح بالأركان من هوَ ماسحُ
وشدّتْ على حذبِ المهاري رحالنا ولم ينظر الغادي الذي هو رائحُ
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وسالت بأعناقِ المطيِّ الأباطح

كتاب الصناعتين - أبو هلال العسكري

وليس تحت هذه الألفاظ كبير معنى، وهي رائقة معجبة، وإنما هي: ولما قضينا الحجَّ ومسحنا الأركان
وشدّت رحالتنا على مهازيل الإبل ولم ينتظر بعضنا بعضاً جعلنا نتحدّثُ وتسير بنا الإبل في بطون
الأودية.

وإذا كان المعنى صواباً، واللفظ بارداً وفاتراً، والفاتر شرٌّ من البارد، كان مستهجنًا ملفوظاً، ومذموماً
مردوداً، والبارد من الشعر قول عمرو بن معدي يكرب:

قد علمت سلمى وجاراتها
شككت بالرمح سراويله
ما قطر الفارس إلا أنا
والخيلُ تعدو زيماً حولنا

وقول الفند الزماني:

أيا تملك ياتمل
ذريني وذري عدلي
وذات الطوق والحجل
فإن العذل كالقتل

وقول النمر:

يهينون من حقرُوا شبيهه
وإن كان فيهم يفي أو يبر
وقول أبي العتاهية:

مات والله سعيد بن وهب
يا أبا عثمان أبكيت عيني
رحم الله سعيد بن وهب
يا أبا عثمان أوجعت قلبي

والبارد في شعر أبي العتاهية كثير، والشعر كلامٌ منسوخٌ، ولفظٌ منظوم، وأحسنه ما تلائم نسجه ولم
يسخف، وحسن لفظه ولم يهجن، ولم يستعمل فيه الغليظ من الكلام، فيكون جلفاً بغيضاً، ولا السوقى
من الألفاظ فيكون مهلهلاً دوناً، فالبغيض كقول أبي تمام:

جعل القنا الدرجات للكذجات ذا
قد كان حزن الخطب في أحزانه
ت الغيل والحرجات والأدحال
فدعاه داعي الحين للأسهال

وقوله:

يا دهر قوم من أخدعك فقد
أضجت هذا الأنام من خرقك

ولا خير في المعاني إذا استكرهت قهراً، والألفاظ إذا اجترت قصراً، ولا خير فيما أجيد لفظه إذا سخف
معناه، ولا في غرابة المعنى إلا إذا شرف لفظه مع وضوح المغزى، وظهور المقصد.
وقد غلب الجهل على قوم فصاروا يستجيدون الكلام إذا لم يقفوا على معناه إلا بكذ، ويستفصحونه إذا

وجدوا ألفاظه كزرة غليظة، وجاسية غريبة، ويستحرقون الكلام إذا رأوه سلساً عذباً وسهلاً حلواً، ولم يعلموا أن السهل أمتع جانباً، وأعزّ مطلباً، وهو أحسن موقعا، وأعذب مستمعاً. ولهذا قيل: أجود الكلام السهل الممتنع.

أخبرنا أبو أحمد قال: أخبرنا الصولي، قال: حدثنا أحمد بن إسماعيل، قال وصف الفضل بن سهل عمرو بن مسعدة فقال: هو أبلغ الناس، ومن بلاغته أن كل أحد يظن أنه يكتب مثل كتبه، فإذا رامها تعذرت عليه.

وأخبرنا أيضاً قال: أخبرنا أبو بكر قال: حدثني عبد الله بن الحسين قال: حدثنا الحسن بن مخلد، قال: أنشدنا إبراهيم بن العباس لحاله العباس ابن الأحنف:

إليك أشكو رباً ما حلّ بي
من صدّ هذا التائه المعجب
إن قال لم يفعل وإن سيل لم
بيذل وإن عوتب لم يعتب
صب بعصيانِي ولو قال لي
لا تشرب البارد لم أشرب

ثم قال: هذا والله الشعر الحسن المعنى، السهل اللفظ، العذب المستمع، القليل النظير، العزيز الشبيه، المطمع الممتنع، البعيد مع قربه، الصعب في سهولته قال: فجعلنا نقول: هذا الكلام والله أبلغ من شعره.

وأخبرنا أبو أحمد عن الصولي عن الغلابي عن طائع وهو العباس بن ميمون، من غلمان ابن ميثم، قال: قيل للسيد: ألا تستعمل الغريب في شعرك. فقال: ذاك عي في زماني، وتكلفت مني لو قلته، وقد رزقت طبعاً واتساعاً في الكلام، فإننا أقول ما يعرفه الصغير والكبير، ولا يحتاج إلى تفسير. ثم أنشدني:

أيأربُّ إنِّي لم أرْدْ بالذي بهِ
مدحتُ عليّاً غيرَ وجهك فارحِم

فهذا كلام عاقل يضع الشيء موضعه، ويستعمله في إبانته، ليس كمن قال وهو في زماننا:

جفخت وهم لا يجفخون بها بهم

فأشمت عدوّه بنفسه ومن الكلام المطبوع السهل ما وقع به على بن عيسى: قد بلّغتك أقصى طلبتك، وأنت لك غاية بغيتك، وأنت مع ذلك تستقلّ كثيري لك، وتستقبح حسني فيك، فأنت كما قال رؤبة:

كالحوت لا يكفيه شيء يلهمه
يصبح ظمآن وفي البحر فمه

ومن المنظوم المطمع الممتنع قول البحترى:

أيها العاتبُ الذي ليس يرضى
نم هنيئاً فلست أطمع غمضاً

إن لي من هوالك جداً قد استه

لك نومي ومضجعا قد أفضنا

كتاب الصناعتين - أبو هلال العسكري

وفؤادي في لوعةٍ ما تقضى
دك وعداً إنجازهُ ليس يقضى
وأثني بالحبِّ إن كان قرضاً
بجفونٍ فواتر اللّحظِ مرضى
يتثنّى تتثنّى الغصنِ غضناً
لي عن بعض ما أتيت وأغضى
لأ ولثماً طوراً وشمماً وعضاً
د فأبلى كوم المطايا وأنضى
يسعُ الرّاعبين طولاً وعرضاً
مَ جزيلَ العطاءِ والجود محضاً
وقعاتٍ من الحسامِ وأمضى
ويطيعُ الإلهَ بسطاً وقبضاً
جعلتُ حبةً على النَّاسِ فرضاً

فجفوني في عبرةٍ ليس ترقاً
يا قليلَ الإنصافِ كم أقتضى عن
أحيني بالوصالِ إن كان جوداً
بأبي شادنٍ تعلقَ قلبي
لست أنساهُ إذ بدا من قريبٍ
واعتذاري إليه حين تجافى
واعتلاقي تفاحَ خديهِ تقبي
أيها الرّاعبُ الذي طلبَ الجو
ردُ حياضِ الإمامِ تلقَ نوالاً
فهناك العطاءُ جزلاً لمن را
هو أندى من الغمامِ وأوحى
يتوخَّ الإحسانَ قولاً وفعلاً
فضلَّ اللهُ جعفرًا بخلالٍ

ومنها يقول فيه:

وأرى المجدَ بينَ عارفةٍ من كَ تردى وعزيمةٍ منك تمضى

وقوله:

فأ ويدنو وصلأ ويبعد صدأ
ن وأمسي مولى وأصبح عبدا
وارث لي من جوانح ليس تهذا
تُ بديلاً أو واجداً منك بدأ
ظأ وأحلى شكلاً وأحسنُ قدأ
يا سداداً وقيمَ الدّينِ رشداً
ناسِ حلماً وأكثرُ الناسِ رقدأ
منهُ قرباً ترددُ من الفقرِ بعدأ

يتأبى منعاً وينعمُ إسعا
أغتدي راضياً وقد بت غضبا
رق لي من مدامع ليس ترقا
أتراني مستبدلاً بك ما عش
حاشَ اللهُ أنتَ أفتنُ ألحأ
خلقَ اللهُ جعفرًا قيمَ الدن
أكرمُ الناسِ شيمَةً وأتمَّ الن
هو بحرُ السّمّاحِ والجودِ فازدُ

كتاب الصناعتين- ابو هلال العسكري

وجمال الدنيا ثناءً ومجدًا
شكرَ إحسانك الذي لا يؤدّي

ويعلني الإبريقُ والقُدْحُ
ونشأَ خلالَ سوادهِ وضْحُ
وجهُ الخليفةِ حينَ يمتدحُ
ضيقُ البلادِ لنا وينفسحُ
وتزيّنتُ بصفاتك المدحُ

ولم ترعَ الذي سلفاً
عليك ولم أمتُ أسفاً
سِ من ممَّن مله خلفاً

على سالفَةِ الخسفِ
ز بين النَّحرِ والرَّدْفِ
حَ في وجنتها طرفي

أزاله من مقرِّه النظرُ

وضاقَ بالحبِّ صدري
وسيدِّي ليسَ يدري
وليسَ يرحمُ ضريّ
فلستُ أملكُ صبري
دنا فقَبِّلْ نحري

يا ثمالَ الدنيا عطاءً وبذلاً
فابقَ عمرَ الزَّمانِ حتى نوذّي

ومما هو أجزلُ من هذا قليلاً وهو من المطبوع قول ابن وهب:

ما زال يِلْثمني مرأشفه
حتى استردَّ الليلُ خلعتَه
وبدا الصِّباحُ كأنَّ غرَّتَه
أنتَ الذي بكَ ينفضي فرجاً
نشرتُ بكَ الدنيا محاسنها
ومن السهل المختار الجيّد المطبوع قول الآخر:

صرفتَ القلبَ فانصرفاً
وبنتَ فلم أذبُ كمداً
كلاناً واجدٌ في الننا

وقول الآخر:

أما والحلقِ السّود
وحسن الغصنِ المهتز
لقد أشفقتُ أن يجرّ

وقول الآخر:

كم من فؤادٍ كأنه جبل

وما كان لفظه سهلاً، ومعناه مكشوفاً بيّناً فهو من جملة الردئ المرود كقول الآخر:

يا ربِّ قد قلَّ صبري
واشتدَّ شوقي ووجدي
مغفلاً عن عذابي
إن كان أعطى اصطباراً
أنا الفدا لغزال

وقال لي من قريب:

يا ليت بيتك قبري

وإذا لان الكلام حتى يصير إلى هذا الحد فليس فيه خيرٌ، لا سيما إذا ارتكب فيه مثل هذه الضرورات. وأما الجزل والمختار من الكلام فهو الذي تعرفه العامة إذا سمعته، ولا تستعمله في محاوراتها. فمن الجيد الجزل المختار قول مسلم:

فحطَّ الثَّاءَ الجَزَلَ نائِلُهُ الجَزَلُ

وردن رواقَ الفضلِ فضلِ بنِ خالدٍ

وتستنزِلُ النُّعْمَى ويسترعِفُ النَّصْلُ

بكفَّ أبي العَبَّاسِ يستمطرُ الغنى

إذا الأمرُ لم يعطفه نقضٌ ولا فتلٌ

ويستعطفُ الأمرُ الأبيُّ بحزمه

ومما هو أجزلُّ من هذا قول المَرارِ الفقعسي:

تسفَّ العوالي وسطَها وتشلُّ

فقال يديرُ الموتَ في مرجحة

لهنَّ على إِبائهنَّ عويلٌ

وكائن تركنا من كرائمِ معشرٍ

إذا ناقلتُ بالدارِ عينِ وعولٌ

على الجردِ يعلكنَ الشكيمَ كأنَّها

يقَلِّبُ نهدَ المركلينِ رجيلٌ

على كلِّ جِيَّاشٍ إذا ردَّ غرْبُهُ

قسىَ بأيديِ العاطفينِ عطولٌ

مجنبة قبلُ العيونِ كأنَّها

وللفجِّ من تصها لهنَّ صليلٌ

فلأرضٍ من آثارهنَّ عجاجةٌ

وبالغورِ لي عزٌّ أشمُّ طويلٌ

منعتُ بنجدٍ ما أردتُ غلبَةً

فهذا وإن لم يكن من كلام العامة فإنهم يعرفون الغرض فيه، ويقفون على أكثر معانيه، لحسن ترتيبه، وجودة نسجه. وقول المَرارِ أيضاً:

قد يقترُ المرءُ يوماً وهو محمودٌ

لا تسألِي القومَ عن مالي وكثرتِه

وفي أرومته ما ينبتُ العودُ

أمضى على سنةٍ من والدي سلفتُ

ومن النثر قول يحيى بن خالد: أعطانا الدهر فأسرف، ثم عطف علينا فعسف وقول سعيد بن حميد: وأنا من لا يحاجك عن نفسه، ولا يغالطك عن جرمه، ولا يلتمس رضاك إلا من جهته، ولا يستدعي برك إلا من طريقته، ولا يستعطفك إلا بالإقرار بالذنب، ولا يستميلك إلا بالاعتراف بالجرم، نبت بي عنك غرة الحداثة، وردتني إليك الحنكة، وباعدتني منك الثقة بالأيام، وقادتني إليك الضرورة. فإن رأيت أن تستقبل الصنيعة بقبول العذر، وتجدد النعمة باطراح الحقد فإن قدم الحرمة، وحديث التوبة يمحقان ما بينهما من الإساءة. فإن أيام القدرة وإن طالقت قصيرة، والمتعة بما وإن كثرت قليلة فعلت.

وفي هذا الكلام وما قبله قوة في سهولة.

ومما هو أجزل من هذا قول الشعبي للحجاج وقد أراد قتله لخروجه عليه مع ابن الأشعث: أجذب بنا الجناب، وأحزن بنا المتزل، واستحلسنا الحذر، واكتحلنا السهر، وأصابتنا فتنة لم نكن فيها بررة أتقياء، ولا فجرة أقوياء. فعفا عنه.

وأجود الكلام ما يكون جزلاً سهلاً، لا ينغلق معناه، ولا يستبهم مغزاه، ولا يكون مكدوداً مستكرها، ومتوعراً متقعراً، ويكون بريئاً من الغثاة، عارياً من الرثاة.

والكلام إذا كان لفظه غثاً، ومعرضه رثاً كان مردوداً، ولو احتوى على أجل معنى وأنبله، وأرفعه وأفضله. كقوله:

لا شك سلّ علينا سيلَ نَقْمَتِهِ

لما أطعناكم في سخطِ خالقنا

وقول الآخر:

وما أراهم رضوا في العيشِ بالدُّونِ

أرى رجالاً بأدنى الدينِ قد قنعُوا

تغنى الملوكُ بدنياهم عن الدينِ

فاستغن بالدينِ عن دنيا الملوكِ كما اس

لا يدخل هذا في جملة المختار، ومعناه كما ترى نبيلٌ فاضل جليل.

وأما الجزل الرديء الفجّ الذي ينبغي ترك استعماله فمثل قول تائب شراً:

أو اثنين مثلينا فلا أبتُ أمانا

إذا ما تركتُ صاحبي لثلاثة

عصافيرُ رأسي من نوى فعاوننا

ولما سمعتُ العوضَ تدعو تنفرتُ

أناسٌ بفيضانِ فمزتُ القراننا

وحثثتُ مشعوفَ الفؤادِ فراعني

يبادرُ فرخيه شمالاً وداجنا

فأدبرتُ لا ينجو نجائي نقتقُ

إذا استدرج الفيفاءَ مدَّ المغابنا

من الحصِّ هزروفُ بطيرُ عفاؤه

هزفُ يبذُّ النّاجياتِ الصّوافنا

أزجُّ زلوجُ هزرفيُّ زفافُ

فهذا من الجزل البغيض الجلف، الفاسد النّسج، القبيح الرّصف، الذي ينبغي أن يتحّب مثله.

وتمييز الألفاظ شديد. أحرنا أبو أحمد عن الصولي عن فضل البيدي، عن إسحق الموصلي عن أيوب بن

عباية: أن رجلاً أنشد ابن هرمة قوله:

هذا ابن هرمة قائماً بالباب

بالله ربك إن دخلتَ فقل لها

فقال: ما كذا قلتُ، أكنتُ أتصدّقُ؟ قال: فقاعدا. قال: كنتُ أبول؟ قال: فماذا؟ قال: واقفا. ليتك علمت ما بين هذين من قدر اللفظ والمعنى. ولولا كراهةُ الإطالة وتخوف الإملال لزدت من هذا النوع، ولكن يكفى من البحر جرعة. وقالوا: خير الكلام ما قلّ وجلّ، ودلّ ولم يملّ. وبالله التوفيق.

الفصل الثاني

في التنبيه على خطأ المعاني وصوابها

ليتبع من يريد العمل يرسمنا مواقع الصواب فيرسمها، ويقف على مواقع الخطأ فيتجنّبها

فنقول: إن الكلام ألفاظٌ تشتمل على معانٍ تدلّ عليها ويعبر عنها، فيحتاج صاحب البلاغة إلى إصابة المعنى كحاجته إلى تحسين اللفظ، لأنّ المدار بعد على إصابة المعنى، ولأنّ المعاني تحلّ من الكلام محلّ الأبدان، والألفاظ تجري معها مجرى الكسوة، ومرتبة إحداهما على الأخرى معروفة. ومن عرف ترتيب المعاني واستعمال الألفاظ على وجوهها بلغة من اللغات، ثم انتقل إلى لغة أخرى تهيأ له فيها من صنعة الكلام مثل ما تهيأ له في الأولى، ألا ترى أن عبد الحميد الكاتب استخرج أمثلة الكتابة التي رسمها لمن بعده من اللسان الفارسي، فحوّنها إلى اللسان العربي، فلا يكمل لصناعة الكلام إلا من يكمل لإصابة المعنى وتصحيح اللفظ والمعرفة بوجوه الاستعمال. والمعاني على ضربين: ضربٌ يبتدعه صاحب الصناعة من غير أن يكون له إمام يقتدى به فيه، أو رسوم قائمة في أمثلة مماثلة يعمل عليها. وهذا الضرب ربما يقع عليه عند الخطوب الحادثة، ويتنبه له عند الأمور النازلة الطارئة.

والآخر ما يحتديه على مثال تقدم ورسم فرط.

وينبغي أن يطلب الإصابة في جميع ذلك ويتوخّى فيه الصورة المقبولة، والعبارة المستحسنة، ولا يتكل فيما ابتكره على فضيلة ابتكاره إياه، ولا يغرّه ابتداعه له، فيساهل نفسه في تهجين. صورته، فيذهب حسنه ويطمس نوره، ويكون فيه أقرب إلى الذم منه إلى الحمد.

والمعاني بعد ذلك على وجوه: منها ما هو مستقيم حسن نحو قولك: قد رأيت زيدا. ومنها ما هو مستقيم قبيح نحو قولك: قد زيدا رأيت. وإنما قبح لأنك أفسدت النظام بالتقديم والتأخير. ومنها ما هو مستقيم النظم، وهو كذب، مثل قولك: حملت الجبل، وشربت ماء البحر. ومنها ما هو محال، كقولك: آتيك

أمس وأتيتك غداً. وكلّ محال فاسد، وليس كلّ فاسد محالاً، ألا ترى أن قولك: قام زيد فاسد، وليس بمحال. والمحال ما لا يجوز كونه البتة، كقولك: الدنيا في بيضة. وأما قولك: حملت الجبل وأشباهه فكذب، وليس بمحال، إن جاز أن يزيد الله في قدرتك فتحمله. ويجوز أن يكون الكلام الواحد كذباً محالاً، وهو قولك: رأيت قائماً قاعداً، ومررت بيقظان نائم، فتصل كذباً بمحال، فصار الذي هو الكذب هو المحال بالجمع بينهما، وإن كان لكل واحد منهما معنىً على حياله، وذلك لما عقد بعضها ببعض حتى صاراً كلاماً واحداً. ومنها الغلط، وهو أن تقول: ضربني زيد، وأنت تريد ضربت زيداً، فغلطت، فإن تعمدت ذلك كان كذباً.

وللخطأ صورٌ مختلفةٌ نبّهتُ على أشياء منها في هذا الفصل، وبيّنت وجوهها، وشرحت أبوابها لتقف عليها فتجنبها، كما عرفتكم مواقع الصواب فتعتمدها، وليكون فيما أوردت دلالة على أمثله مما تركت، ومن لا يعرف الخطأ كان جديراً بالوقوع فيه. فمن ذلك قول امرئ القيس:

ألم تسألِ الرَّبْعَ القديمَ بعسْعَسَا كأنّي أنادي إذ أكلمُ أخرسَا

هذا من الشبيه فاسد لأجل أنه لا يقال: كلّمت حجراً فلم يجب فكأنه كان حجراً، والذي جاء به امرؤ القيس مقلوب.

وتبعه أبو نواس فقال يصف داراً:

كأنها إذ خرستُ جارِم بين ذوي تفنيده مطرق

والجيد منه قول كثير في امرأة:

فقلتُ لها: يا عزُّ كلِّ مصيبةٍ إذا وطنت يوماً لها النفسُ ذلتُ

كأنّي أنادي صخرةً حينَ أعرضتُ من الصمِّ لو تمشي بها العصمُ زلتُ

فشبه المرأة عند السكون والتغافل بالصخرة.

قالوا: ومن ذلك قول المسيب بن علس:

وكان غاربها رباوةً مخرم وتمدّ ثنيّ جديلاً بشراع

أراد أن يشبه عنقها بالدقل فشبهها بالشراع. وتبعه أبو النجم فقال:

كأنَّ أهدامَ النَّسِيلِ المنسلِ على يديها والشراع الأطول

والجيد منه قول ذي الرمة:

وهادٍ كجذع الساجٍ سامٍ يقوده معرقُ أحناءِ الصبّيينِ أشدق

كتاب الصناعتين - أبو هلال العسكري

وقال أبو حاتم: الشَّرَاع: العنق، يقال: للعنق الشراع والثليل والهادي، فإذا صحَّت هذه الرواية فالمعنى صحيح في قول أبي النجم.
وقال طفيل:

يرادى على فأس اللجام كأنما
يرادي على مرقاة جذع مشذبٍ
ومن ذلك قول الراعي:

يكسو المفارق واللِّبَاتِ ذَا أَرْجٍ
من قصبٍ معتلف الكافورِ درَاجٍ
أراد المسك، فجعله من قصب الظبي، والقصب: المعى، وجعل الظبي يعتلف الكافور فيتولد منه المسك، وهذا من طرائف الغلط.
وقريبٌ منه قول زهير:

يخرجنَ من شرباتٍ ماؤها طحلٌ
على الجذوع يخفنَ الغمَّ والغرقا
ظن أن الضفداع يخرجن من الماء مخافة الغرق. ومثله قول ابن أحرمر:

لم تدرِ ما نسجُ اليرندجِ قبلها
ودراسُ أعوصِ دارسٍ متخذدٍ
ظن أن اليرندج مما ينسج، واليرندج: جلدٌ أسود، تعملُ منه الخفاف فارسي معرب، وأصله رنده، وفسره أبو بكر بن دريد تفسيراً آخر، وقال: إنما هذه حكاية عن المرأة التي يصفها ظنت لقله تجربتها أن اليرندج شيء منسوج، ولم تدارس عويص الكلام، وألفاظ البيت لا تدلُّ على ما قال.
ومثله قول أوس بن حجر:

كأن رثقتها بعد الكرى اعتبقت
من ماء ادكنٍ في الحانوتِ نضاح
ومن مشعشعةٍ كالمسكٍ يشربها
أو من أنابيبِ رمانٍ وتفاح
ظن أن الرمان والتفاح في أنابيب، وقيل: إن الأنابيب الطرائق التي في الرمان، وإذا حمل على هذا الوجه صحَّ المعنى.
ومن فساد المعنى قول المرقش الأصغر:

صحا قلبه عنها على أن ذكره
إذا خطرت دارت به الأرض قائماً
وكيف صحا عنها من إذا ذكرت له دارت به الأرض، وليس هذا مثل قولهم: ذهب شهر رمضان إذا ذهب أكثره، لأن الناس لا يعرفون أشدَّ الحب إلا أن يكون صاحبه في الحد الذي ذكره المرقش.
والجيد في السلو قول أوس:

صحا قلبه عن سكره وتأملاً

وكان بذكرى أم عمرو موكلاً

فقال: وكان بذكرى أم عمرو موكلاً.

ومثل قول المرقش في الخطأ قول امرئ القيس:

أغرّك منى أن حبك قاتلي

وأنتك مهما تأمري القلب يفعل

وإذا لم يغررها هذه الحال منه فما الذي يغرّها وليس للمحتجّ عنه أن يقول: إنما عني بالقتل ههنا التّبريح، فإنّ الذي يلزمه من الهجنة مع ذكر القتل يلزمه أيضاً مع ذكر التّبريح.

ومما أخذ على امرئ القيس قوله:

فللسوّط الهوب وللساق درّة

وللزجر منه وقع أخرج مهذب

فلو وصف أحسن حمارٍ وأضعفه ما زاد على ذلك.

والجيد قوله:

على سابح يعطيك قبل سؤاله

أفانين جرى غير كزولا وان

وما سمعنا أجود ولا أبلغ من قوله أفانين جرى.

وقول علقمة:

فأدركهنّ ثانياً من عنانه

يمر كمرّ الرائح المتحلّب

فأدرك طريدته وهو ثانٍ من عنانه ولم يضر به بسوط، ولم يمره بساق، ولم يزجره بصوت.

ومما يعاب قول الأعشى:

ويأمر لليحموم كلّ عشية

بقت وتعليق فقد كان يسنق

يعنى باليحموم فرس الملك، يقول: إنه يأمر لفرسه كلّ عشية بقت وتعليق، وهذا مما لا يمدح به الملوك، بل ولا رجل من خساس الجند.

وقريب منه قول الأخطل:

وقد جعل الله الخلافة منهم

لأبلى لا عارى الخوان ولا جذب

يقوله في عبد الملك. ومثل هذا لا يمدح به الملوك.

وأطرف منه قول كثير:

وإن أمير المؤمنين برفقه

غزا كامنات الودّ منى فنالها

فجعل أمير المؤمنين يتودّدُ إليه.

وقوله لعبد العزيز بن مروان:

وما زلت رقاك تسلُّ ضغني

ويرقيني لك الراقون حتى

وإنما تمدح الملوك بمثل قول الشاعر:

له هممٌ لا منتهى لكبارها

له راحةٌ لو أن معشارَ جودها

ومثل قول النابغة:

فإنك كالليل الذي هو مدركي

وقوله:

ألم تر أن الله أعطاك سورةً

بأنك شمسٌ والملوك كواكبٌ

ومن غفلته أيضاً قوله يعني كثيراً:

ألا ليتنا يا عزّ من غير ريبةٍ

كلانا به عرٌّ فمن يرنا يقلُّ

نكون لذي مالٍ كثيرٍ مغفلٍ

إذا ما وردنا منهاً هاجَ أهلهُ

فقالت له عزة: لقد أردت بي الشقاء الطويل، ومن المنى ما هو أوطأ من هذه الحال. فهذا من التمتي المذموم.

ومن ذلك أيضاً قول الآخر:

سلامٌ لبيتٍ لساناً تنطقين به

فدعا عليها بقطع لسانها.

ومثله قول عبد بني الحسحاس:

وراهن ربّي مثل ما قد وربني

ومن ذلك قول جنادة:

وتخرج من مكامنها ضبابي

أجابت حية تحت التراب

وهمتُّ الصغرى أجلُّ من الدهرِ

على البرِّ كان أندى من البحرِ

وإن خلتُ أنَّ المنتأى عنك واسعُ

ترى كلَّ ملكٍ دونها يتذبذبُ

إذا طلعت لم يبذُ منهنَّ كوكبُ

بعيرانٍ نرعى في خلاءٍ ونعزبُ

على حسنِها جرباءٌ تعدى وأجربُ

فلا هو يرعانا ولا نحن نطلبُ

إلينا فلا ننفكُ نرعى ونضربُ

قبل الذي نالني من خبله قطعاً

وأحمى على أكبادهنَّ المكاوي

من حبّها أتمنى أن يلاقيني
من نحوِ بلدتها ناعٍ فينعاها
لكي يكونَ فراقٌ لا لقاءَ له
وتضمرَ النفسُ بأساً ثم تسلاها
فإذا تمّتى الحبُّ لحبيته الموت فما عسى أن يتمنى المبعض لبغيضته؟ وشتان بين هذا وبين من يقول:
ألا ليتنا عشناً جميعاً وكانَ بي
من الداءِ ما لا يعرفُ الناسُ ما بيأ
فهذا أقرب إلى الصواب. ولو أن جنادة كان يتمنى وصلها ولقاءها لكان قد قضى وطراً من المنى ولم تلزمه
المهجنة، كما قال العباسُ بن الأحنف:

فإن تبخلوا عني ببذل نوالكم
وبالوصل منكم كي أصبّ وأحزناً
فإني بلذات المنى ونعيمها
أعيشُ إلى أن يجمعَ اللهُ بيننا
ومن المختار في ذكر المنى قول الآخر:

منى إن تكن حقاً تكن أحسنَ المنى
وإلا فقد عشناً بها زمناً رغداً
أمانى من ليلى حساناً كأنما
سقتكَ بها ليلى على ظمأ برداً
وقول الآخر:

ولما نزلنا منزلاً طلّه الندى
أنيقاً، وبستاناً من النور حالياً
أجدُّ لنا طيبَ المكانِ وحسنه
منى فتمنينا فكنت الأمانيا
وقال الآخر:

فسوِّغيني المنى كيما أعيشَ به
ثم أمسكي المنعَ ما أطلقتُ آمالي
على أن عنترة ذمَّ جميع المنى حيث يقول:
وأقاتل الله الطلّولَ البواليا
وقولك للشبيء الذي لا تتأله
وقيل أيضاً:

إن ليتاً وإنّ لوأَ عناء
ومن الفاسد قول النابغة:

ألكني يا عيينُ إليك قولاً
ستحملهُ الرواةُ إليك عني
وليس من الصواب أن يقال: أرسلني إلى نفسك ثم قال ستحملة الرواة إليك عني.
ومن حطل الوصف قول أبي ذؤيب:

بِالنَّبِيِّ فَهِيَ تَتَوَخَّ فِيهَا الإِصْبَعُ

إِلَّا الحَمِيمَ فَإِنَّهُ يَتَبَضَّعُ

قَصَرَ الصَّبُوحَ لَهَا فَضَرَجَ لِحْمَهَا

تَأَبَى بِدَرَّتْهَا إِذَا مَا اسْتَكْرَهَتْ

قال الأصمعي: هذه الفرس لا تساوي درهمين، لأنه جعلها كثيرة اللحم رخوة تدخل فيها الإصبع. وإنما يوصف بهذا شاء يضحى بها، وجعلها حرونا إذا حرّكت قامت، إلا العرق فإنه يسيل. والجلد قول أبي النجم:

نَطَى اللّحمَ ولسناً نهزله

طَيَّ التّجارَ العصبَ إذ بتجله

وانضمَّ عن كلِّ جوادٍ رهله

جرداً تعادى كالفداح ذبله

نطويه والطّيّ الدقيق يجد له

حتّى إذا اللّحمُ بدا تذبّله

راح ورحنا بشديدٍ زجله

وقال غيلان الربيعي:

متحّ السّباع الحسى من بطحائها

بعدَ انتشارِ اللّحمِ واستعصائها

مكرمة لا عيب في احتذائها

مثلَ جلاميدِ الضّقاةِ الصّلغا

يشقّين أشوالَ المزادِ النزح

قد ثمَّ كالفالج لا بل أضلعا

قد اعتصرنَ البدنَ منه أجمعا

وأضَ أعلى اللّحمِ منه صومعا

يمتأحُ عصريها قرون مائها

حتّى اعتصرنا البدنَ من اعفائها

تجريدك الفناة من لحائها

وقد قال غيلان أيضاً:

قد صارَ منها اللّحمُ فوقَ الأعضاء

وقال أيضاً:

فوق الهوادى ذابلات الأکشح

وقال أيضاً:

حتّى إذا ما أضَ عبلاً جرشعاً

هجنابه نطويه حتى استوكعاً

ثم انقانا بالذّي لنُ يدفعاً

فوصفه بعظم الجسم، وصلابة اللحم، وما وصف أحدُ الفرس بترك الانبعاث إذا حرك غير أبي ذؤيب. وإنما توصفُ بالسرعة في جميع حالاتها، إذا حرّكت وإن لم تحرك، فتشبه بالكوكب، والبرق، والحريق، والريح، والغيث، والسيل، وانفجار الماء في الحوض، والدلو ينقطع رشاؤها، ويد السابح، وغليان الرجل،

والقمقم، وبأنواع الطير: كالبازي، والسوّذنيق، والأجدل والقطامي، والعقاب، والقطا، والحمام، والجراد، وأنواع الوحش، كالوعل، والظبي، والدّئب، والتّفل، ويشبه بالخذروف، ولمعان الثّوب، وبالسّهم وبالريح وبالْحسي.

قال أعرابي وقد سئل عن حضر فرسه: يحضر ما وجد أرضاً.
وقال آخر: همها أمامها، وسوطها عنانها. أخذ بعض المحدثين فقال:

فكان لها سوطاً إلى ضحوة الغد

وأخذه ابن المعتز، فلم يستوفه قوله:

أضيقُ شيءٍ سوطُهُ إذ يضربه

فذكر إذ يضربه. وقال في أخرى:

فطارت بها أيدٍ سراعٍ وأرجل

صبيناً عليها ظالمينَ سياطنا

وقيل لامرأة: صفي لنا النّاقة النّجبية. فقالت: عقاب إذا هوت وحيّة إذا التوت، تطوى الفلاة وما انطوت.

وكتب ابن القرّية عن الحجاج إلى عبد الملك: بعثت بفرس حسن المنظر، محمود المخبر، جيّد القد، أسيل الحدّ، يسبق الطّرف، ويستغرق الوصف.
وأجود ما قيل في العدو قول عبدة بن الطبيب:

يخفي التّرابَ بأظلافٍ ثمانية في أربع مسّهنَ الأرضَ تحليلُ

والتحليل، من تحلّ اليمين، وهو أن يقول إن شاء الله، فقول الحالف: إن شاء الله، لا يكون إلا موصولاً باليمين. يقول: إن مواصلة هذا الثور بين خطواته كمواصلة الحالف بالتحلّة يمينه من غير تراخ. أخذه المحدث فقال:

كأنما برفعن ما لم يوضع

وقال أبو النجم:

يسبحُ أولاهُ ويطفوُ آخرهُ

جاءَ كلمعُ البرقِ جاشٍ ماطرُهُ

فما يمسُّ الأرضَ منه حافرُهُ

وأخذ على أبي النجم قوله: "يسبحُ أولاهُ ويطفوُ آخرهُ أنشده الأصمعي فقال: حمار الكسّاح أسرع من هذا، لأنّ اضطراب ماخيره قبيح، وقد أحسنَ في قوله: ويطفوُ آخره. وقوله: فما يمسُّ الأرضَ منه حافرُهُ

جيد.

وقال أبو نواس:

ما إن يقعن الأرض إلا فرطاً

وقال:

كأنما يعجلن شيئاً لقطاً

فانصاع كالكوكب في انحداره

وقال ذو الرمة:

لفت المشير موهناً بناره

كأنه كوكبٌ في إثر عفرية

أخذه ابن الرومي، فقال:

كأنها كوكبٌ في إثر عفرية

فخذها تبوعاً لمن ولى مسومة

وقال ابن المعتز في كلبة:

تحسبها في ساعة الذهب

وكلبة زهراء كالشهاب

خفيفة الوطاء على التراب

نجماً منيراً لاح في انصباب

وقال خلف بن الأحمر:

شدا يفوت الطرف أسرعه

كالكوكب الدرّي منصلتاً

أن لا تمس الأرض أربعه

وكأنما جهدت أليته

أخذه من قول الأعشى:

ما إن تكاد خفافها تقع

بجلالة أجد مداخلة

وقال أبو نواس:

يسبق طرف العين في التهايه

أرسله كالسهم إذ غلا به

كلمعان البرق في سحابه

يكاد أن ينسل من إهابه

مأخوذ من قول ذي الرمة:

حتى تكاد تفرى عنهما الأهب

لا يذخران من الإيغال باقية

وقال كثير:

يكاد يفري جلده عن لحمه

إذا جرى معتمداً لأمه

وقال أعرابي:

كتاب الصناعتين - ابو هلال العسكري

نحنُ حويناها وكنا أهلها

غايةً مجدٍ رفعتُ فمنَ لها

لو أرسلَ الرِّيحَ لحننا قبلها

وقال أبو النجم:

أو لمعَ برقٍ خافقٍ مسلسله

كانَ في المروِ حريقاً يشعلهُ

ومما عيب على طرفة قوله:

إنني لستُ بموهونٍ فقرُ

وإذا تلسنني ألسنها

والعاشقُ يلاطف من يحبه ولا يحاجه، ويلاينه ولا يلاجه.

وقد قال بعض المحدثين:

أنصفَ العاشقُ فيه لسمجُ

بني الحبِّ على الجورِ فلوُ

عاشقٌ يعرفُ تأليفَ الحججِ

ليسَ يستحسنُ في وصفِ الهوى

ومن خطأ المعاني قول الأعشى:

رأتُ لمتي شابتُ وشابتُ لداتي

وما رابها من ريبةٍ غيرِ أنّها

وأي ريبة عند امرأة أعظم من الشيب.

ومثله قوله:

من الحوادثِ إلا الشيبَ والصلعَا

وأكرتني وما كانَ الذي نكرتُ

وأعجب منه قوله أيضاً:

جهلاً بأَمِّ خليدٍ حبلٍ منْ تصلُ

صدتُ هريرةً عنا ما تكلمنا

ريبُ الزمانِ ودهرِ خاتلٍ خبلُ

أينَ رأيتُ رجلاً أعشى أضربَ بهِ

وأي شيء أبغض عند النساء من العشا والضر يتبينه في الرجل؟ وأعجب ما في هذا الكلام أنه قال: حبلٌ

من تصل هذه المرأة بعدي وأنا بهذه الصفة من العشا والفقر والشيب؟ فلا ترى كلاماً أحقق من هذا.

ومن اضطراب المعنى قول امرئ القيس:

ولا من رأينَ الشيبَ فيه وقوساً

أراهنَّ لا يحبينَّ من قَلِّ مالهُ

وهن يبغضنه من قبل التقويس، فما معنى ذكر التقويس؟ فأما بغضهن لمن قوس فجدير وليس ببديع.

ومن الجيد في هذا الباب قول بعض المتأخرين:

فكيف تحبني الخودُ الكعابُ

لقد أبغضتُ نفسي في مشيبي

كتاب الصناعتين - أبو هلال العسكري

وقلت:

فلا تعجبا أن يعين المشيب
فما عين من ذاك إلا معيباً
إذا كان شيبى بغيضاً إليّ
فكيف يكون إليها حبيباً

ومن فساد المعنى قول النابغة:

تحيدٌ عن أستنٍ سودٍ أسافلُهُ
مشى الإمام الغواذي تحملُ الحُزماً

وإنما تحملُ الإمام حزمَ الخطب عند رواحهنّ، فأما غدوهنَّ إلى الصحراء فإنهن محفّات.

والجيد قول التعلبي:

يظلُّ بها ربذُ النعام كأنّها
إماءٌ تزجى بالعشي حواطبُ

وقد روى مثل الإمام. وإذا صحّت هذه الرواية سلم المعنى.

والأستن: شجر بشع المنظر تسميه العرب رؤوس الشياطين. وجاء في بعض التفسير في قوله تعالى: "طلعها

كأنه رؤوس الشياطين": إنه عن الأسن.

وقد أساء النابغة أيضاً في وصف الثور حيث يقول:

من وحشٍ وجرّة موضي أكارعُهُ
طاوى المصير كسيف الصيقل الفرد

أراد بالفرد أنه مسلول من غمده، فلم يبين بقوله: الفرد عن سلّه بياناً واضحاً.

والجيد قول الطرمّاح وقد أخذه منه:

بيدو وتضمّره البلاد كأنه
سيفٌ على شرف يسل ويغمدُ

وهذا غاية في حسن الوصف.

وربما سامح الشاعر نفسه في شيء فيعود عليه بعب كبير. وقد قال المتلمس:

وقد أتتاسى الهمّ عند احتضاره
بناجٍ عليه الصيعة مكدّم

كميت كزاز اللحم أو حميريّة
مواشكة تنفى الحصى بمنلم

والصيعة: سمة للنوق فجعلها للجمل.

وسمعه طرفة ينشدها، فقال: استنوق الجمل. فضحك الناس وسارت مثلاً. فقال له المتلمس: ويل لرأسك

من لسانك، فكان قتله بلسانه وروى هذا الحديث له مع المسيّب بن علس.

وأحبرنا أبو أحمد عن مهلهل بن يموت عن أبيه، عن الجاحظ أنه قال: ومن أراد أن يمدح فهجا الأخطل

وانبرى له فتى، فقال له: أردت أن تمدح سماكا الأسدي فهجوته، فقلت:

بالبَطْفِ إِذْ قَتَلْتَ جِيرَانَهَا مَضْرُ
فَالْيَوْمَ طَيْرٌ عَنْ أَثْوَابِهِ الشَّرْرُ

نعم المجيرُ سماكاً من بني أسدٍ
قد كنتُ أحسبُهُ قيناً وأنبؤُهُ

وأردتُ أن تهجوَ سويد بن منجوف فمدحته، فقلت:

بما حملتُهُ وائلٌ بمطيقٍ

وما جذعُ سوءِ خربِ السوسِ جوفهُ

فأعطيته الرياسة على وائل، وقدره دون ذلك.

وأردتُ أن تهجوَ حاتم بن اليعمان الباهلي وأن تصعّر من شأنه وتضع منه، فقلت:

إذا ما أوقدَ النيرانَ نارُ

وسودٌ حاتماً أن ليسَ فيها

فأعطيته السوود في الجزيرة وأهلها ومنعته ما لا يضره.

وقلت في زفر بن الحرث:

فلا يبيتنَّ فيكمُ أمناً زفرُ

بني أميةٍ إني ناصحٌ لكم

لوقعةٍ كائنٍ فيها لكم جزرُ

مفترشٌ كافتراشٍ اللَّيْثِ كلكلهُ

فأردتُ أن تغرى به فعظمتُ أمره، وهونتُ أمر بني أمية.

ومن اضطراب المعنى ما أخبرنا به أو أحمد عن ميرمان، عن أبي جعفر بن القيسي، قال: لما قتلت بنو تغلب

عمير بن الحباب السلمي أنشد الأخطل عبد الملك والجحاف السلمي عنده:

بقتلى أصيبت من سليمٍ وعامرٍ

ألا سائلِ الجحافَ هل هو نائرٌ

فخرج الجحاف مغضباً حتى أغار على البشر وهو ماء لبني تغلب فقتل منهم ثلاثة وعشرين رجلاً، وقال:

على القتلِ أو هل لا مني لك لائم

أبا مالكٍ هل لمتني مذ حضضتني

وأنت امرؤٌ بالحق ليس بعالم

متى تدعني أحرى أحبك بمثلها

فخرج الأخطل حتى أتى عبد الملك، وقد قال:

إلى الله منها المستكى والمعول

لقد أوقع الجحافُ بالبشرِ وقعةً

يكنُ عن قريشٍ مسمارٌ ومزحل

فإلا تغيرها قريش بمثلها

فقال له عبد الملك: إلى أين يا بن اللخناء؟ فقال: إلى النار. فقال. والله لو غيرها قلت لضربت عنقك.

ووجه العيب فيه أنه هدّد عبد الملك، وهو ملك الدنيا بتركه إياه والانصراف عنه إلى غيره. وهذه حماقة

مجردة، وغفلة لا يطار غرابها. ثم قال:

ولا لعا لبني ذكوانٍ إذ عثروا

فلا هدى الله قيساً من ضاللتها

ضجُّوا من الحربِ إذِ عضَّتْ غوارِبُهُمْ وقيس غيلانَ من أخلاقِها الضَّجْرُ
فقال له عبد الملك: لو كان الأمر كما زعمت لما قلت:

لقد أوقع الجحاف بالبشرِ وقعةً

وومن أراد أن يمدح نفسه فهجاها جرير في قوله:

تعرَّضَ النِّيمُ لي عمداً لأهجوها كما تعرَّضَ لآستِ الخارئِ الحجرُ

فشبهه نفسه باستِ الخاري.

وقريبٌ من ذلك قول الراعي:

ولا أتيتُ نجيدةَ بنِ عويمرٍ أبغى الهدى فيزيديني تضليلاً

فأخبر أنه على شيء من الضلال، لأن الزيادة لا تكون إلا على أصل، وأراد أن يمدح نفسه فهجاها. وأراد جريرٌ يذكر عفوه عن بني غدانة حيث شفع فيهم عطية بن جمال، فهجاهم أقبح هجاء حيث يقول:

أبني غدانة إنني حررتكم فوهبتكم لعطيَّة بنِ جعال

لولا عطيةٌ لاجتدعتُ أنوفكم ما بين الأم أنفٍ وسبالٍ

فلما سمع عطية هذا الشعر قال: ما أسرع ما رجع أخي في عطيتيه.

ومثل ذلك سواء قول يزيد بن مالك العامري حيث يقول:

أكفُ الجهلِ عن حلماءِ قومي وأعرضُ عن كلامِ الجاهلينا

فأخبر أنه يلجم عن الجهال ولا يعاقبهم، ثم نقض ذلك في البيت الثاني، فقال:

إذا رجلٌ تعرَّضَ مستخفاً لنا بالجهلِ أوشك أنْ يحيناً

فذكر أنه كاد أن يفتك بمن جهل عليه.

وقريب منه قول عبد الرحمن بن عبد الله القس:

أرى هجرها والقتلَ مثلين فاقصروا ملامكم فالقتلُ أَعفى وأيسرُ

فأوجب أن المهجر والقتل سواء، ثم ذكر أن القتل أَعفى وأيسر، ولو أتى بيل استوى.

ومن عجائب الغلط قول ذي الرمة:

إذا انجابت الظلماء أضحت رؤوسها عليهنَّ من جهد الكرى وهي ظلُّعُ

وقال ابن فروة: قلت لذي الرمة: ما علمتُ أحداً من الناس أظلع الرؤوس غيرك فقال: أجل.

ومن الغلط قول العجاج:

قَلْتَانِ أَوْ حَوَجَلْتَا قَارُورِ
صَلَاصِلَ الزَّيْتِ إِلَى الشُّطُورِ

كَأَنَّ عَيْنِيهِ مِنَ الْغُورِ
صَيَّرْنَا بِالنَّضْجِ وَالتَّصْبِيرِ

فَجَعَلَ الرَّجَاجَ يَنْضِجُ.

ومن الخطأ قول رؤبة في صفة قوائم الفرس: "يهوين شتى ويقعن وقعا" فقال له سلم: أخطأت، جعلته مقيداً، فقال له رؤبة: أدني من ذنب البعير، أي لست أبصر الخيل، وإنما أنا بصيرٌ بالإبل. ومن الغلط قول رؤبة أيضاً:

يَبْرِي لَهُ فِي رِعَالَتِ خَطَلِ

وَكَلُّ زَجَّاجِ سَخَامِ الْخَمَلِ

جعل للظليم عدّة إناث، وليس للظليم إلا أنثى واحدة. وأخطأ في قوله:

فَأَخْطَأَ الْأَفْعَى وَوَلَقَى الْأَسْوَدَا

كَنْتُمْ كَمَنْ أَدْخَلَ فِي جَرِّ يَدَا

فجعل الأفعى دون الأسود في المضرة، وهي فوقه فيها. ومن خطأ الوصف قول أبي التّجّم:

أَخْسَنَ فِي مَثَلِ الْكُظَامِ الْمَخْطَمِ

والأخسن: القصير المشافر، وإنما توصف المشافر بالسبّوطة.

ووصف أعرابي إبلا، فقال: كوم بهازر، مكد خناجر، عظام الحناجر، سباط المشافر، أجوافها رغاب، وأعطائها رحاب، تمنع من البهّم، وتبذل للجمم. ناقة مكود وخنجورة: كثيرة اللبن. والبهازر: العظام. والكوم: المرتفعة الأسنمة. ولم يحسن أيضاً صفة ورود الإبل. قال:

وَالظَّلُّ عَنْ أَخْفَافِهَا لَمْ يَفْضُلْ

جَاءَتْ تَسَامِي فِي الرَّعِيلِ الْأَوَّلِ

ذكر أنها وردت في الهاجرة، وهذا خلاف المعهود، وإنما يكون الورود غلّسا، كقول الآخر:

فَوْرَدَتْ قَبْلَ الصَّبَاحِ الْفَاتِقِ

وقال الآخر:

فَوْرَدَن قَبْلَ تَبْيِينِ الْأَلْوَانِ

وقول لبيد:

إن من وردى تغليس النهلُ

ومن الغلط قول أبي التَّحْم:

صلبُ العصا جافٍ عن التغزُّلِ

يصف راعي الإبل بصلاية العصا، وليس بالمعروف.
والجيد قول الراعي:

ضعيفُ العصا بادي العروق ترى لهُ عليها إذا ما أجذبَ الناسُ إصبعاُ

وإنما يقال: فلانُ صلبُ العصا على أهله إذا كان شديداً عليهم.

ومن الغلط قول أبي التَّحْم أيضاً في وصف الفرس، وهو غلط في اللفظ

كأنها ميحنة القصار

وإنما الميحنة لصاحب الأدم، وهي التي يدقُّ عليها الأدمُ من حجرٍ وغيره.
ومن فساد المعنى قول الشماخ:

بانئتُ سعادٍ وفي العينينِ ملمؤلُ وكانَ في قصرٍ من عهدِها طولُ

كان ينبغي أن يقول: في طول من عهدها قصر، لأن العيش مع الأحبة بوصف بقصر المدة، كما قال الآخر:

يطولُ اليومُ لا ألقاكَ فيه وحولُ نلتقي فيه قصيرُ

ومن اضطراب المعنى قول أبي دواد الأيادي:

لو أنها بذلتُ لذي سقمِ حرضُ الفؤادِ مشارفِ القبضِ

حسنَ الحديثِ لظلَّ مكتئباً حرَّان من وجد بها مضُ

وكان استواء المعنى أن يقول: لبراً من سقمه كما قال الأعشى:

لو أسندتُ ميتاً إلى نحرِها عاشَ ولم ينقلُ إلى قابرِ

وقال تأبط شراً:

قليلُ غرارِ النومِ

تقديره قليل يسير النوم، وهذا فاسد، ووجهُ الكلام أن يكون ما ينام إلا غراراً، فإن احتلت له قلت: يعني أن نومه أيسر من اليسير.

وقول أبي ذؤيب:

وأظلمَ دوني ليلها ونهارها

فلا يهنأ الواشون أن قد هجرتُها

هذا من المقلوب، كان ينبغي أن يقول: وأظلم دونها ليلي ونهاري.
وقول ساعدة:

لأيقنتَ أني كدتُ بعدكَ أكمُدُ

فلو نباتك الأرضُ أو لو سمعته

كان ينبغي أن يقول: إن بعدك أكمَد.

ومن الخطأ قول طرفة يصف ذنب البعير

حفافيه شكاً في العسيب بمسردٍ

كأنَّ جناحي مضرحيّ تكنَّفَا

وجعله هذا كثيفاً طويلاً عريضاً

وإنما توصفُ النجائبُ بخفةِ الذنبِ

وقول امرئ القيس:

كسا وجهها سعفٌ منتشرٌ

وأركبُ في الرِّوعِ خيفانَةً

شبهه ناصية الفرس بسعف النخلة لطولها، وإذا غطى الشعرُ العين لم يكن الفرس كريماً.

وقول الحطيئة:

وتصعدُّ الأمورُ إلى علاها

ومن يطلب مساعي آل لأبي

كان ينبغي أن يقول: من طلب مساعيها جز عنها وقصّر دونها، فأما إذا تنهى إلى علاها فأبي فخر لهم، فإن قيل: إنه أراد به أنه يلقي صعوبة كما يلقي الصاعد من أسفل إلى علو، فالعيبُ أيضاً لازم له، لأنه لم يعبر عنه تعبيراً مبيناً.

وقول النابغة:

حربٌ يوائلُ منها كل تنبالٍ

ماضي الجنان أني صبرٍ إذا نزلتُ

التنبال: القصير من الرجال، وليس القصير بأولى بطلب الموائل من الطوال، وإن جعل التنبال الجبان فهو أبعد من الصواب، لأن الجبان خائف وجل اشتدت الحرب أم سكنت.

والجيد قول الهمداني:

من الأهوالِ شجعانُ الرجالِ

يكرُّ عل المصافِّ إذا تعادى

وقول المسيب بن علس:

بخميصةٍ سرح اليبدين وساعٍ

فتسلَّ حاجتها إذا هي أعرضتُ

وتمدَّتني جديلهما بشراعٍ

وكانَ قنطرةً بموضع كورها

كتاب الصناعتين - ابو هلال العسكري

وإذا أطفتَ بها أطفتَ بكلِّ

نبضِ الفرائصِ مجفَرِ الأضلاعِ

وهذا من المتناقض، لأنه قال خميسة، ثم قال: كأن موضع كورها قنطرة، وهي مجفرة الأضلاع، فكيف تكون خميسة وهذه صفتها.

وقول الخطيئة:

حرج بلاوذُ بالكناس كأنه

متطوِّفٌ حتى الصباح يدورُ

حتى إذا ما الصَّبَحُ شقَّ عمودهُ

وعلاه أسطعُ لا يردُّ منيرُ

وحصى الكئيبِ بصفحتيه كأنه

خبثُ الحديدِ أطارَهَنَ الكيرُ

زعم أنه يطوفُ حتى الصباح، فمن أين صار الحصى بصفحتيه؟ وقول لييد:

فلقد أعرصُ بالخصمِ وقد

أملأُ الجفنةَ من شحمِ القللِ

أرد السنام، ولا يسمَّى السنام شحما.

وقوله:

ولو يقوم الفيلُ أو فيالهُ

زلٌّ عن مثلِ مقامي وزحلُّ

ليس للفيل من الشدة والقوة ما يكون مثلاً.

ومن الخطأ قول أبي ذؤيب في الدرة:

فجاء بها ما شئت من لطيمةٍ

يدومُ الفراتُ فوقها ويموجُ

والدرة إنما تكون في الماء الملح دون العذب. وقال من احتج له: إنما يريد بماء الدرة صفاءه فشبه بماء

الفرات، لأن الفرات لا يخطئه الصفاء والحسن.

وقوله أيضاً:

فما برحت في الناس حتى تبينتُ

ثقيفاً بزيزاءِ الأشاةِ قبائبها

يقول: مازالت هذه الخمرة في الناس يحفظونها حتى أتواها ثقيفاً. قال الأصمعي: وكيف تحمل الخمرة إلى

ثقيف وعندهم العنب.

وقول عدي بن الرقاع:

لهم رايةٌ تهدي الجموعَ كأنها

إذا خطرتُ في ثعلبِ الرُمحِ طائرُ

والراية لا تخطر، وإنما الخطران للرمح.

ومما لم يسمع مثله قط قول عدي بن زيد في الخمرة ووصفه إياها بالخضرة حيث يقول:

والمشرفُ الهيدبُ يسعى بها
أخضرَ مطموثاً بماء الحريصِ

والحريص: السحابة تحرص وجه الأرض، أي تقشرها بشدة وقع مطرها.

ومن وضع الشيء في غير موضعه قول الشاعر:

يمشي بها كل موشى أكارعه
مشى الهرايدِ حجوا بيعة الدونِ

فالغلظ في هذا البيت في ثلاثة مواضع: أحدها أن الهرايد المحوس لا النصرى. والثاني أن البيعة للنصارى لا

للمحوس. والثالث أن النصرى لا يعبدون الأصنام ولا المحوس.

ومن الحال الذي لا وجه قول القس:

وإني إذا ما الموتُ حلَّ بنفسها
يزال بنفسي قبلَ ذاك فأقبرُ

وهذا شبيه بقول قائل لو قال: إذا دخل زيد الدار دخل عمرو قبله. وهذا عين الحال الممتنع الذي لا يجوز كونه.

ومن عيوب المعنى مخالفة العرف وذكر ما ليس في العادة كقول المرار:

وخالٍ على خديك يبدو كأنه
سنا البدرِ في دعجاء بادٍ دجونها

والمعروف أن الخيلان سود أو سمر، والحدود الحسان إنما هي البيض، فأتى هذا الشاعر بقلب المعنى.

وهكذا قول الآخر:

كأنما الخيلان في وجهه
كواكبٌ أهدقنَ بالبدرِ

ويمكن أن يحتج لهذا الشاعر بأن يقال: شبه الخيلان بالكواكب من جهة الاستدارة لا من جهة اللون.

والجيد في صفة الخال قولُ مسلم:

وخالٍ كخالِ البدرِ في وجه مثله
لقينا المنى فيه فحاجزنا البذلُ

وقال العباس بن الأحنف:

لخال بذاتِ الخال أحسنُ عندنا
من النكتةِ السوداء في وضحِ البدرِ

ومن المعاني ما يكون مقصراً غير بالغ مبلغ غيره في الإحسان، كقول كثير:

وما روضةً بالحرزِ طيبة الثرى
تمجُّ الندى حوذاتها وعرارها

بأطيبَ من أردانِ عزّة موهنا
وقد أوقدتُ بالمندلِ الرطب نارها

وقد صدق، ليس ریح الروض بأطيب من ریح العود، إلا أنه لم يأت بإحسان فيما وصف من طيب عرق المرأة، لأن كل من تجمر بالعود طابت رائحته. والجيد قول امرئ القيس:

ألم ترى أنني كلما جئت طارقاً
وجدتُ بها طيباً وإن لم تطيبِ
والعود الرطب ليس بمختار للبخور، وإنما يصلح للمضع والسواك، والعود اليابس أبلغ في معناه. وأنشد الكميت نصيباً:

كأن الغطامط في غليها
أراجيزُ أسلم تهجو غفارا
فقال نصيب: لم تهجُ أسلم غفاراً قط، فقال الكميت:

إذا ما الهجارس غنيها
تجاوبن بالفلوات الوباراً
فقال نصيب: لا يكون بالفلوات وبار، فاستحي الكميت وسكت. ومن عيوب المديح عدولُ المادح عن الفضائل التي تختصّ بالنفس: من العقل، والعفة، والعدل، والشجاعة، إلى ما يليق بأوصاف الجسم: من الحسن، والبهاء والزينة، كما قال ابن قيس الرقيّات في عبد الملك بن مروان:

يأتلقُ التاجُ فوقَ مفرقه
على جبين كأنه الذهبُ
فغضب عبد الملك، وقال: قد قلت في مصعب:

إنما مصعبٌ شهابٌ من اللّ
ه تجلّت عن وجهه الظلماءُ
فأعطيته المدح بكشف الغم، وجلاء الظلم، وأعطيتني من المدح ما لا فخر فيه، وهو اعتدال التاج فوق جبيني الذي هو كالذهب في النضارة. ومثل ذلك قول أيمن بن خزيم في بشر بن مروان:

يا بن الأكارم من قريش كلها
من فرع آدم كايراً عن كابر
مروان، إن قنانه خطية
وبنيت عند مقام ربك قبة
فسماؤها ذهبٌ وأسفل أرضها
خضراء كلل تاجها بالفسفس
ورق تلالاً في صميم الحنّس
وابن الخلائف وابن كل قلمس
حتى أتيت إلى أبيك العنيس
غرست أرومتها أعز المغرس
ورق تلالاً في صميم الحنّس

فما في هذه الآيات شيءٌ يتعلّقُ بالمدح الذي يختصّ بالنفس، وإنما ذكر سُودد الآباء، وفيه فخرٌ للأبناء، ولكن ليس العظامى كالعصاميّ، وربما كان سُودد الوالد وفضيلته نقيصة للولد إذا تأخّر عن رتبة الوالد، ويكون ذكر الوالد الفاضل تقرّيعاً للولد الناقص.

وقيل لبعضهم: لم لا تكون كأبيك؟ فقال: ليت أبي لم يكن ذا فضل، فإنّ فضله صار نقصاً لي.
وقد قال الأوّل:

إِنَّمَا الْمَجْدُ مَا بَنَى وَالذُّ الصَّدُّ
قِ وَأَحْيَا فَعَالَهُ الْمَوْلُودُ
وقال غيره في خلافه:

لئن فخرتَ بأبَاءِ ذَوِي شَرَفٍ
لقد صدقتَ ولكنْ بئسَ ما ولدوا
وقال آخر:

عَفَتْ مَقَابِحُ أَخْلَاقٍ خَصَصَتْ بِهَا
على محاسنَ أبقاها أبوكَ لكا
لئن تقدّمتَ أبناءَ الكرامِ به
لقد تأخّرَ آباءُ اللئامِ بكا

ثم ذكر أيمن بناء قبة حسنة، وليس بناء القباب مما يدل على جود وكرم، بل يجوز أن يبنى اللئيم البخيل الأبنية النفيسة، ويتوسّع في النفقة على الدور الحسنة مع منع الحق، وردّ السائل، وليس اليسار مما يمدح به مدحاً حقيقياً، ألا ترى كيف يقول أشجع السلمى:

يريدُ الملوكُ مدىَ جعفرِ
ولا يصنعونَ كما يصنعُ
وليسَ بأوسعهمُ في الغنى
ولكنَّ معروفهُ أوسعُ

ومن عيوب المدح قول أيمن بن خريم أيضاً في بشر بن مروان:

فإن أعطاكَ بشرٌ ألفَ ألفٍ
رأى حقاً عليه أن يزيدا
وأعقبَ مدحتي سرجاً خلنجاً
وأبيضَ جوزجانياً عنوداً
وإنّا قد رأينا أمَّ بشرٍ
كأمّ الأسدِ مذكراً ولوداً

جميع هذا الكلام جار على غير الصواب، إلّا في ابتداء وصفه في التناهي في الجود، ثم انحطّ إلى مالا يقع مع الأول موقعاً وهو السرج وغيره. وأتى في البيت الثالث بما هو أقرب إلى الدّم منه إلى المدح، وهو قوله:

وإنّا قد رأينا أمَّ بشرٍ
كأمّ الأسدِ مذكراً ولوداً

لأنّ الناس مجمعون على أنّ نتاج الحيوانات الكريمة أعسر وأولادها أقلّ كما قال الأوّل:

بغاثُ الطَّيْرِ أَكْثَرُهَا فَرَاخًا وَأُمُّ الصَّقْرِ مَقْلَاتٌ نَزورُ

ومن عيوب المدح قول بعضهم هو عبيد الله بن الحويرث لبشر بن مروان:

إِنِّي رَحِلْتُ إِلَى عَمْرٍو لِأَعْرِفُهُ إِذْ قِيلَ بَشْرٌ وَلَمْ أَعْدِلْ بِهِ نَشْبًا

فنكَّرَ الممدوح وسلبه النباهة، وكان ينبغي أن يقول: ليعرفني.

والنادر العجب الذي لا شبه له قول عدي بن الرَّقاع، وذكر الله سبحانه، فقال:

وَكَفَّفَ سَبْطَةً وَنَدَاكَ غَمْرًا وَأَنْتَ الْمَرْءُ تَفْعَلُ مَا تَقُولُ

فجعل إله امرءاً، تعالى الله عما يقول: وأخبرنا أبو أحمد عن الصولي، قال: أخبرنا أبو العيناء عن الأصمعي قال: اجتمع جرير والفرزدق عند الحجَّاج. فقال: من مدحني منكما بشعرٍ يوجزُ فيه ويحسن صفتي فهذه الخلعة له، فقال الفرزدق:

فَمَنْ يَأْمَنُ الْحِجَّاجَ وَالطَّيْرُ تَنْتَقِي عَقُوبَتَهُ إِلَّا ضَعِيفُ الْعِزَائِمِ

فقال جرير:

فَمَنْ يَأْمَنُ الْحِجَّاجَ أَمَّا عِقَابُهُ فَمَرٌّ وَأَمَّا عَقْدُهُ فَوَثِيقٌ

يَسْرُ لَكَ الْبِغْضَاءَ كُلُّ مَنَافِقٍ كَمَا كُلُّ ذِي دِينٍ عَلَيْكَ شَفِيقٌ

فقال الحجَّاجُ للفرزدق: ما عملت شيئاً، إنَّ الطير تنفر من الصبيِّ والخشبة، ودفع الخلعة إلى جرير. والجليد في المديح قول زهير:

هَذَاكَ أَنْ يَسْتَخْوَلُوا الْمَالَ يَخْوَلُوا وَإِنْ يَسْأَلُوا يَعْطُوا وَإِنْ يَبْسُرُوا يَغْلُوا

وفيهم مقاماتٌ حسانٌ وجوهها وَأَنْدِيَةٌ يَنْتَابُهَا الْقَوْلُ وَالْفِعْلُ

فلما استتم وصفهم بحسن المقال، وتصديق القول بالفعل، وصفهم بحسن الوجه. ثم قال:

عَلَى مَكْتَرِيهِمْ حَقٌّ مِنْ يَعْتَرِيهِمْ وَعِنْدَ الْمُقْلِينَ السَّمَاخَةُ وَالْبِذْلُ

فلم يخل مكثرًا ولا مقلًا منهم من برٍّ وفضل.

ثم قال:

فَإِنْ جِئْتَهُمْ أَلْفَيْتَ حَوْلَ بِيوتِهِمْ مَجَالِسَ قَدْ يَشْفَى بِأَحْلَامِهَا الْجَهْلُ

فوصفهم بالحلم.

ثم قال:

رشدت فلا غرمٌ عليك ولا خذلُ

وإن قامَ منهم قائمٌ قال قاعدٌ

فوصفهم أيضاً بالتضافر والتعاون.

فلما آتاهم هذه الصفات النفيسة ذكر فضل آبائهم فقال:

توارثته آباءُ آبائهم قبلُ

وما يكُ من خيرٍ أتوه فإنما

وتغرسُ إلا في منابتها النخلُ

وهل ينبتُ الخطيُّ إلا وشيجهُ

وكقول ذي الرمة:

كما بهرَ البدرُ النجومَ السواريا

إلى ملكٍ يعلو الرجالَ بفضلِهِ

تبارونَ أنتم والرياحَ تباريا

فما مرتعُ الجيرانِ إلا جفانكمُ

أخذه بعضهم، فقال وأحسن:

وهضبتُهُ التي فوق الهضابِ

رأيتكم بقيّةَ حيِّ قيسٍ

وتمتثلونَ أفعالَ السحابِ

تبارونَ الرياحَ إذا تبارت

مقامي أمسٍ في ظلِّ الشَّبابِ

يذكرني مقامي في ذراكم

وكقول الراعي:

خطوى وبابك والوجدُ الذي أجدُ

إني وإياك والشكوى التي قصرتُ

وهو الشفاءُ له لو أنه يردُ

كالماء والظالعُ الصَّدَّيانُ يطلُبُهُ

سَيَّانٍ، أفلحَ من يعطى ومن يعدُ

ضافى العطية، راجيه وسائلُهُ

وقول مروان بن أبي حفصة:

أسودٌ لهم في غيلِ خفانٍ أشبلُ

بنو مطرٍ يومَ اللقاءِ كأنهمُ

لجارهمُ فوقَ السَّما كينِ منزلُ

هم المانعونَ الجارَ حتّى كأنما

كأولهمُ في الجاهليةِ أولُ

بها ليلُ في الإسلامِ سادوا ولم يكنُ

أجابوا وإن أعطوا أطابوا وأجزلوا

هم القومُ إن قالوا أصابوا وإن دُعوا

وإن أحسنوا في النَّائباتِ وأجملوا

ولا يستطيعُ الفاعلونَ فعالهمُ

وأحلامهم منها لدى الوزنِ أثقلُ

ثلاثُ بأمثالِ الجبالِ حباهمُ

كتاب الصناعتين- ابو هلال العسكري

ويقول الآخر:

علم الغيثَ الندى حتى إذا
فله الغيثُ مقررٌ بالندى
ما حكاهُ علمُ البأسِ الأسدُ
وله اللّيثُ مقررٌ بالجدُّ

وكقول الآخر:

شبه الغيث فيه والليث وال
بدر فسمحٌ ومحربٌ وجميلُ

ومع ما ذكرناه فإنه لا ينبغي أن يخلو المدح من مناقب لأباء الممدوح، وتقريظ من يعرف به وينسب إليه. وأنشد أبو الخطاب الفضل بن يحيى:

وجدُّ له يا بن أبي عليٍّ
فإنه عودٌ على بدِّي
بنفحةٍ من ملكٍ سخى
فإنما الوسميُّ بالوليِّ

فقال الفضل: بنفحة من نفح برمكي، فجعله كذلك. وأنشده مروان بن أبي حفصة:

نفرت فلا شلت يدُ خالديةً
رتقت بها الفئق الذي بين هاشم

فقال له الفضل: قل برمكية، فقط يشركنا في خالد بشر كثير، ولا يشركنا في برمك أحد. والمهزاء أيضاً إذا لم يكن يسلب الصفات المستحسنة التي تختصها النفس، ويثبت الصفات المستهجنة التي تختصها أيضاً لم يكن مختاراً.

والاختيار أن ينسب المهجو إلى اللؤم والبخل والشرة وما أشبه ذلك. وليس بالمختار في المهزاء أن ينسبه إلى قبح الوجه وصغر الحجم وضؤولة الجسم، يدل على ذلك قول القائل:

فقلت لها: ليس الشجوب على الفتى
بعارٍ ولا خيرُ الرجالِ سمينها

وقول الآخر:

تتال الخيرَ ممّن تزدرية
ويخلفُ ظنكُ الرجلُ الطريرُ

وقول الآخر:

رأوه فازدروه وهو خرقُ
وينفعُ أهله الرجلُ القبيحُ

وذكر السموعل أن قلة العدد ليست بعيب، فقال:

تعيرنا أنا قليلٌ عديدنا
فقلت لها إن الكرامَ قليلُ

ومن الهجاء الجيد قول بعضهم:

واللؤمُ أكرمُ من وبرٍ وما ولدًا
من لؤمٍ أحسابهم أن يقتلوا قودًا

اللؤمُ أكرمُ من وبرٍ ووالدهِ
قومٌ إذا ما جنى جانبيهمُ آمنوا

وقول أعشى باهلة:

كذلك لكل سائلة قرارُ

بنو تميمٍ قرارةٌ كلُّ لؤمٍ

وتبعه أبو تمام، فقال:

الجودُ عندهمُ قولُ بلا عملٍ
أموالهمُ في هضابِ المطلِ والعللِ

ملقى الرجاءِ وملقى الرَّحلِ في نفرٍ
أضحوا بمستنِّ سبيلِ اللؤمِ وارتفعتْ

ونقله إلى موضعٍ آخر، فقال:

كذلك لكلُّ لكلِّ سائلةٍ قرارُ

وكانتْ زفرةٌ ثمَّ اطمانتْ

وقول الآخر:

من خلقه خفيتُ عنه بنو أسدٍ

لو كان يخفى على الرَّحمنِ خافيةٌ

وقول الحكم الحضري:

كما رقتُ بأذرُعها الحميرُ

ألم تر أنهم رقموا بلؤمٍ

ومن حبيث الهجاء قول الآخر:

أو ييخلوا لا يجفلوا

إن يغدروا أو يجبنوا

ن كأنهم لم يفعلوا

يغدوا عليكِ مرجلي

وقول الآخر:

وما فيها من السوءاتِ شابًا

لو اطلعَّ الغرابُ على تميمٍ

وقول مرة بن عدي الفقعسي:

فلما يسوءك من تميمٍ أكثرُ

وإذا تسرَّك من تميمٍ خصلةٌ

ومن المبالغة في الهجاء قول ابن الرومي:

وليس بباقي ولا خالدٍ

يقتُرُّ عيسى على نفسه

تنفَّس من منخرٍ واحدٍ

ولو يستطيع لتقتيره

والناس يظنون أن ابن الرومي ابتكر هذا المعنى، وإنما أخذه من حكاية أبو عثمان أن بعضهم قبر إحدى عينيه وقال: إنَّ النظرَ بهما في زمان واحد من الإسراف.
وقول البحري:

سئمتُ وآخرُ الودِّ العتابُ

بعرضٍ ليسَ تأكلُهُ الكلابُ

وردتُ العتابَ عليكَ حتَّى

وهانَ عليكَ سخطي حينَ تغدُو

ومن خطأ الوصف قولُ كعب بن زهير:

ضخّمٌ مقلّدها فعمّ مقلّدها

لأن النجائب توصف بدقّة المذبح.

ومن خطأ اللفظ قول ذي الرّمة:

وهنَّ لا مويِسُ نأياً ولا كئِبُ

حتّى إذا الهيقُ أمسى شامَ أفرخه

لأنّه لا يقال شام إلا في البرق.

ومن ردئ التشبيه قول لبيد:

يطلبوها ذات جرسٍ وزجلُ

قردمانياً وتركا كالبصلُ

فمتى ينفع صراخُ صادقٍ

فخمةٌ ذفراءُ ترتى بالعرأ

فشبّه البيضة بالبصل، وهو بعيد، وإن كانا يتشابهان من جهة الاستدارة لبعدهما بينهما في الحسن.
وقول أبي العيال:

صداعُ الرأسِ والوصبُ

ذكرتُ أخي فعلاودني

فذكر الرأس من الصداع لا يكون في الرجل ولا في غيرها من الأعضاء. وفيه وجه آخر من العيب، وهو أن الذّاكر لما قد فات من محبوب يوصفُ بألم القلب واحتراقه بالصداع.
وقول أوس بن حجر:

وإن كان محضاً في العمومةِ مخولاً

وهم لمقلّ المالِ أولادُ علّة

فقوله: المال من المقلّ فضلٌ.

وقول عبد الرحمن بن عبد الله الخزرجي:

والقلبُ منها مطار القلبِ مذعورُ

قيدتُ فقد لانَ حاذها وحاركها

فما سمعنا بأعجب من قوله: فالقلبُ منها مطارُ القلب.
وقول الآخر:

ألا حبذا هندٌ وأرضٌ بها هندٌ وهندٌ أتى من دونها النَّأْيُ والبعدُ

فقوله: النَّأْيُ مع البعد فضلٌ، وإن كان قد جاء من هذا الجنس في كلامهم كثير، والبيت في نفسه باردٌ.
ومن عيوب اللفظ ارتكابُ الضرورات فيه كما قال المتلمس:

إِنْ تَسْلُكِي سَبِيلَ الموماءِ منجدةً ما عاشَ عمرٌ وما عمرتَ قابوسُ

أراد ما عاش عمرو وما عمّر قابوس وقول الأعشى حكاها بعض الأدباء وعابه:

مَنْ القاصراتِ سجوفَ الحجا ل لم تر شمسا ولا زمهيرا

قال: لا توضع الشمسُ مع الزمهير. قال: وكان يجبُ أن يقول، لم تر شمسا ولا قمرا، ولم يصبها حرٌّ ولا قر، وقد أخطأ لأنَّ القرآن قد جاء فيه موضعُ هاتين اللفظتين معا.
ومن المطابقة أن يتقارب التضاد دون تصريحه، وهذا كثير في كلامهم. وقد أوردناه في باب الطباق.
وكقول علقمة:

يحملن أترجةً نضخ العبيرِ بها كأنَّ تطيابها في الأنفِ مشمومٌ

والتطباب ها هنا على غاية السماحة. والطيب أيضاً مشموم لا محالة، فقوله: كأنه مشموم هجئة. وقوله:
في الأنف أهجن، لأن الشم لا يكون بالعين.
وقول عامر بن الطفيل:

تتاولتُهُ فاحتل سيفي ذبابه شراشيفه العليا وجدَّ المعاصما

وهذا البيت على غاية التكلف.

وقول خفاف بن ندبة:

إِنْ تعرّضِي وتضنّي بالنوالِ لنا تواصلين إذا واصلتِ أمثالي

وكان ينبغي أن يقول: إن تضنّي بالنوال علينا، على أن البيت كله مضطرب النَّسج.
وقول الخطيئة:

صفوف وماذئ الحديدِ عليهم وبيض كأولادِ النعامِ كثيف

جعل بيض التّعامِ أولادها.

ومن عيوب اللفظ استعماله في غير موضعه المستعمل فيه، وحمله على غير وجهه المعروف به، كقول ذي الرمة:

ونقرى عبيطَ اللحمِ والماءِ جامسُ

نغارُ إذا ما الروعُ أبدى عن البرى

لا يقال: ماءُ جامس، وإنما يقال: ودكُ جامس.

وقول جرير:

صوتُ الدجاجِ وقرعُ بالنواقيسِ

لما تذكرتُ بالذيرينِ أرقتى

قالوا: لا يكونُ التّأريقُ إلاّ أوّلَ الليل. والدجاج: الديكة ها هنا.

وقول عديّ بن زيد في الفرس: فارها متابعا. لا يقال: فرسُ فاره، وإنما يقال بغلُ فاره.

وقول النابغة:

يحيّون بالريحانِ يومَ السّبابِ

رفاقُ النّعالِ طيّبُ حجاتهم

يمدح بذلك ملوكا بأنهم يحيّون بالريحان يومَ السّباب، ويوم السّباب يومُ عيد لهم، ومثل هذا لا يمدح به السوقة فضلاً عن الملوك.

ومنه قوله فيهم:

وأكسيةُ الإضريحِ فوق المشاجبِ

جعل لهم أكسية حمراً يضعونها على مشاجب. فترى لو كان لهم ديباج أين كانوا يضعونه، وليس هذا مما يمدح به الملوك.

ومن الردئ أيضاً قول امرئ القيس:

ونسحر بالطعامِ والشرابِ

أرانا موضعين لأمرٍ غيبٍ

وأجرٍ من مجلحةِ الذّنابِ

عصافيرٌ وذبّانٌ ودودٌ

هذا وإن لم يكن مستحيلاً، فهو على غاية القباحة في اللفظ وسوء التمثيل.

وقول بشر:

يقطع ذو أبهريه الحزاما

على كل ذي ميعة سابحٍ

وإنما له أبهر واحد.

ومن الأبيات العارية الخربة من المعاني قولُ جرير للأحطل:

قال الأخطل إذ رأى راياتكم
ومن المتناقض قول عروة بن أذينة:

نزلوا ثلاث منى بمنزل غبطة
متجاورين بغير دار إقامة

فقال: لبثوا في دار غبطة، ثم قال: لو رحلوا لم يندموا.
ومثله قول جرير:

فلم أر داراً مثلها دار غبطة
أقل مقيماً راضياً بمقامه

وهل يغتبط عاقل بمكان من لا يرضى به.
وقول جميل:

خليلي فيما عشتما هل رأيتما
فلو تركت عقلي معي ما طلبتها

زعم أنه يهواها لذهاب عقله، ولو كان عاقلاً ما هويها.
والجيد قول الآخر:

وما سرنى أني خلي من الهوى
فإن كان هذا الحب ذنبي إليكم

وقول الآخر:

أحبت قلبي لما أحبكم
ورب قلب يقول صاحبه

والجيد في هذا المعنى قول البحري:

ويعجبني فقري إليك ولم يكن

وقول العرجي:

من ذكر ليلى وأبي الأرض ما سكنت

ومنه:

مثل الضفادع نقاقون وحدهم

يا مار سرجس لا أريد قتالا

وهم على غرض لعمر ك ما هم
لو قد أجد رحيلهم لم يندموا

وملقى إذا التف الحجيح بمجمع
وأكثر جارا ظاعنا لم يودع

قتيلا بكى من حب قاتله مثلي
ولكن طلابيها لما فات من عقلي

ولو أن لي من بين شرق إلى غرب
فلا غفر الرحمن ذلك من ذنب

وصار رأيي لرأيه تبعا
نبا لقلبي فبئس ما صنعا

ليعجبني لولا محبتك الفقر

ليلى فإني بتلك الأرض محتبس

إذا خلوا وإذا لاقيتهم خرس

وقال ابن داود: من التشبيه الذي لا يقع أبرد منه قول أبي الشيص:

وناعس لو يذوق الحب ما نعسا بلى عسى أن يرى طيف الحبيب عسى
وللهوى جرسٌ ينفى الرقاد به فكلماء كدتُ أغفى حرّك الجرسا

وقول الآخر:

إن قلبي سلّ من غير مرضٍ وفؤادي من جوى الحبّ غرضٌ
كجرابٍ كان فيه جبن دخل الفأرُ عليه فقرضُ

وقال عبد الملك يوماً لجلسائه: أعلمتم أنّ الأحوص أحمق لقوله:

فما بيضةٌ بات الظلّيم يحفها ويجعلها بين الجناح وحوصله
بأحسن منها يوم قالت تدللا تبدّل خليلي إنني متبدّله

فما أعجبه وهي تقول هذه المقالة والجيد قول أبي تمام:

لا شيء أحسنُ منه ليلةً وصله وقد اتخذتُ مخدّةً من خده

وأنشده عبد الملك قول نصيب:

أهيم بدعدٍ ما حييتُ فإنّ أمتُ فواحزنا من ذا بهيمٍ بها بعدي

فقال بعض من حضر، أساء القول، أجزنُ لمن بهيمٍ بما بعده؟ فقال عبد الملك: فلو كنت قائلاً ما كنت تقول؟ فقال:

أهيمُ بدعدٍ ما حييتُ فإنّ أمتُ أوكلُّ بدعدٍ من يهيم بها بعدي

فقال عبد الملك: أنت والله أسوأ قولاً، أتوكلُّ من يهيم بها ثمّ قال: الجيد:

أهيمُ بدعدٍ ما حييتُ فإنّ أمتُ فلا صلحتُ دعدٌ لذي خلةٍ بعدي

وأخذ الأصمعيّ على الشّماخ قوله:

رحى حيزومها كرحى الطّحين

وقال: السعدانة توصف بالصّغر. فقال من احتجّ للشماخ: إنّما شبهها بالرحى لصلابتها، كما قال:

قلائنص يطحنّ الحصى بالكرّاكر

ومن المعيب قول عمر بن أبي ربيعة هذا:

أومت بكفّيتها من الهودج لولاك في ذا العام لم أحجج

أنت إلى مكة أخرجتني حبّاً ولولا أنت لم أخرج

كتاب الصناعتين - ابو هلال العسكري

لا ينبئ الإيماء عن هذه المعاني كلها.
ونحوه قول المثقب العبدى:

أهذا دينه أبداً وديني
أما يبقى على ولا يقيني

تقول إذا درأت لها وضيبي
أكل الدهر حل وارتحال

والذي يقارب الصواب قول عنترة:

وشكاً إلى بعبرة وتحمّم
ولكان لو علم الكلام مكلّمى

فأزور من وقع القنا بلبانه
لو كان يدري ما المحاوره اشتكى

ومن النسيب الردى قول نصيب:

لهجر بعد وصلك لا أبالي

فإن تصلى أصلك وإن تعودى

وذلك أن التجلّد من العاشق مذموم. وفي خلاف ذلك قول زهير:

ولكن أم أوفى لا تبالي

لقد بالبيت مطعن أم أوفى

وقول عمر بن أبي ربيعة:

لا تفسدن الطواف في عمر
ثم اغمزيه يا أخت في خفر
ثم اسكرت تشتد في أثرى

قالت لها أختها تعاتبها
قومي تصدى له ليبصرنا
قالت لها قد غمزته فأبى

فشبّب بنفسه ووصفها بالقحة، وناقض في حكايته عن صاحبها، فذكر نهيها إياها عن إفساد الطواف فيه، ثم إنهما قالت لها: "قومي انظري".

ومما جاء في ذلك من أشعار المحدثين قول بشرّار:

قصب السكر لا عظم الجمل
غلب المسك على ريح البصل

إنما عظم سليمى حبتي
وإذا أدنيت منها بصلاً

وقوله:

وبعض الجود خنزير

ومن المعاني البشعة قول أبي نواس:

قم سيدي نعص جبار السموات

يا أحمد المرتجى في كل نائبة

فهذا مع كفره ممقوت وكذا قوله:

كتاب الصناعتين - أبو هلال العسكري

لو أكثر التسبيح ما نجّاه

وقوله:

من رسول الله من نفره

وقد تبع في هذا القول حسان بن ثابت في قوله:

إذا تفرقت الأهواء والشيع

أكرم بقوم رسول الله شيعتهم

والخطأ من كل واحد خطأ.

وقول أبي نواس أيضاً:

أحبب قريشاً لحبّ أحمدها

وقوله:

خلقاً وخلقاً كما قدّ الشراً كان

تنازع الأحمدان الشبه فاشتبهها

فرعم أن ابن زبيدة مثل رسول الله صلى الله عليه وسلم في خلقه وخلقه.

ومثل ذلك قول أبي الخلال في يزيد بن معاوية:

إنك خير الناس أجمعينا

بأيها الميت بحوارينا

وقول أبي العتاهية:

وضيعة ودأ كان لي ونسيتنا

غنيت عن الوصل القديم غنيتنا

ومن كنت ترعاني له وبقيتنا

ومن أعجب الأشياء أن مات مألفي

ومت عن الإحسان حين حبيتنا

تجاهلت عما كنت تحسن وصفه

وليس من العجب أن يموت إنسان ويبقى بعده إنسان آخر، بل هذه عادة الدنيا والمعهود من أمرها، ولو

قال: من ظلم الأيام كان المعنى مستوياً.

وسمعت بعض العلماء يقول: ومن المعاني الباردة قول أبي نواس في صفة البازي:

كعطفة الجيم بكف أعسرا

في هامة علياء تهدي منسرا

فهذا جيد مليح مستوفى ثم قال:

لو زادها عيناً إلى فاء ورا

يقول من فيها بعقل فكرا

فاتصلت بالجيم صار جعفرا

فمن يجهل أن الجيم إذا أضيف إليها العين والفاء والراء تصير جعفرا وسواء قال هذا، أو قال:

لوزادها جاء إلى دال ورا

فاتصلت بالجيم صار جحدرا

وما يدخل في صفة البازي من هذا القول.

وتبعه أبو تمام فقال:

هنّ الحمام فإنّ كسرت عيافة

من حائهنّ فإنهنّ حمام

فمن ذا الذي جهل أنّ الحمام إذا كسرت حاؤها صارت حماماً.

وإنما أراد أبو نواس أنه يشبه الجيم لا يغادر من شبهها شيئاً، حتى لو زدت عليها هذه الأحرف صارت جعفرًا لشدة شبهها به، وهو عندي صواب، إلا أنه لو اكتفى بقول "كعطفة الجيم بكف أعسرا" ولم يزد الزيادة التي بعدها كان أجود وأرشق وأدخل في مذاهب الفصحاء، وأشبه بالشعر القديم.

وأما قول أبي تمام فله معنى خلاف ما ذكره، وذلك أنه أراد أنك إذا أردت الزجر والعيافة أدّك الحمام إلى الحمام، كما أنّ صوتها الذي يظنّ أنه بكاء إنما هو طرب، ويؤدّيك إلى البكاء الحقيقي، وهذا المعنى صحيح، إلا أن المعنى إذا صار بهذه المتزلة من الدقة كان كالمعمّى والتعمية حيث يراد البيان عيٌّ. ومن عيوب المعنى قول أبي نواس في صفة الأسد:

كأنما عينه إذا نظرت

بارزة الجفن عينٌ مخنوق

فوصف عين الأسد بالبحوظ، وهي توصف بالغرور، كما قال الرّاجز:

كأنما ينظر من خرق حجر

وكقول أبي زبيد:

كأن عينيه في وقبين من حجر

قيضا اقتياضاً بأطراف المناقير

وقوله أيضاً:

وعينان كالوقبين في قلب صخرة

يرى فيها كالجمرتين تسعر

وأنشد مروان بن أبي حفصة عمارة بن عقيل بيته في المأمون:

أضحى إمام الهدى المأمونُ مشتغلاً

بالدين، والناسُ بالدنيا مشاغِلُ

فقال له: ما زدته على أن وصفته بصفة عجوزٍ في يدها مسباحها، فهلا قلت: كما قال جدّي في عمر بن عبد العزيز:

فلا هو في الدنيا مضيعٌ نصيبه

ولا عرض الدنيا عن الدين شاغله

ومن الغلط قول أبي تمام:

رقيق حواشي اللحم لو أن حلمه بكفيك ما ماريت في أنه برد

وما وصف أحد من أهل الجاهلية ولا أهل الإسلام اللحم بالرقّة، وإنما يصفونه بالرححان والرزانة، كما قال النابغة:

وأعظم أحلاماً وأكبر سيداً وأفضل مشفوعاً إليه وشافعا

وقال الأخطل:

صم عن الجهل عن قيل الخناخرس وإن ألمت بهم مكروهة صبروا

شمس العداوة حتى يستقاد لهم وأعظم الناس أحلاماً إذا قدروا

وقال أبو ذؤيب:

وصبر على حدث النائبات وحلم رزين وعقل ذكي

وقال عدي بن الرقاع:

أبت لكم مواطن طيبات وأحلام لكم تزن الجبالا

وقال الفرزدق:

إننا لتوزن بالجبال حلومنا ويزيد جاهلنا على الجهال

ومثل هذا كثير.

وإذا ذموا الرجل قالوا: خفّ حلمه وطاش، كما قال عياض بن كثير الضبي:

تنائلة سوّد خفاف حلومهم ذوو نيرب في الحي يغدو ويطرق

وقال عقبة بن هبيرة الأسدي:

أبنوا المغيرة مثل آل خويلد يال للرجال لخفة الأحلام

لا، بل أحسبني سمعت بيتاً لبعض المحدثين يصف فيه الحلم بالرقّة وليس بالمختار.

ومن خطئه أيضاً قوله:

من الهيف لو أن الخلاخل صيرت لها وشحاً جالت عليها الخلاخل

ولو قال: نطقا لكان حسناً، وهذا خطأ كبير، وذلك أن الخلاخل قدره في السعة معروف، ولو صار

وشاحاً للمرأة لكانت المرأة في غاية الدمامة والقصر، حتى لو كانت هي في حلقة الجرذ والهرة، ولو قال:

حقبا لكان جيّداً، كما قال النمري:

ولو قست يوماً حجلها بحقابها
لكان سواء، لا، بل الحجل أوسع
فجعل الحجل أوسع من الحقاب، لأن امتلاء الأسواق محمود ودقة الخصور ممدوح.

والجيد في ذكر الوشاح قول ذي الرمة:

عزاء ممكورة خمصانة قلق
وقال ابن مقبل:

وقد دق منها الخصر حتى وشاحها
يجول، وقد عمّ الخلاخيل والقلبا
وقال طرفة:

وملء السوار من الدملجين
وقال كثير:

يجول الوشاح بأقربها
ومن الخطأ قوله أي أبو تمام:

قسم الزمان ربوعها بين الصبا
والصبا: هي القبول.

أخبرنا أبو أحمد، قال: أخبرنا أبو بكر بن دريد عن أبي حاتم عن الأصمعي قال: مهب الجنوب من مطلع سهيل إلى طرف جناح الفجر، وما يقابل ذلك من ناحية المغرب، فهي الشمال، وما يجيء من وراء البيت الحرام فهي دبور، وما يقابل ذلك فهي القبول، والقبول والصبا واحدة. والجيد ما قال البحترى:

متروكة للريح بين شمالها
وأما قوله:

شنتت الصبا إذ قيل وجهن قصدها
وإعادت من بين الرياح قبولها
فإنما يعني شنتت هذين الأسمين، لأن حمول الظاعنين توجهت نحوها. ومن الخطأ قول أبي المعتصم:

كأنما أربعه إذا تناهبن الثرى
ومن الخطأ قوله أي أبو تمام:

ريح القبول والدبور والشمال والصبا

الودُّ للقرْبَى ولكنْ عرفهُ

للأبعدِ والأوطانِ دونَ الأقربِ

ولا أعرف لم حرم أقارب هذا الممدوح عرفه وصيره للأبعدين؟ فنقصه الفضل في صلةِ الرحم، وإذا لم يكن مع الود نفعٌ لم يعتدّ به. قال الأعشى:

بانَتْ وقد أسارتْ في النفسِ حاجتُها

بعد ائتلافٍ وخيرُ الودِّ ما نفعاً

وقال المقنع:

جعلتُ لهم منى مع الصلّةِ الودّاً

وقد أغرى أبو تمام بهذا القول أقرباء الممدوح، لأنهم إذا رأوا عرفة يفيض في الأبعدين ويقصر عنهم أبغضوه وذمّوه.

وقد ذمّ الشاعر الطريقة التي يمدح بها أبو تمام، فقال:

كمرضعةٍ أولادٍ أخرى وضِيَعَتْ

بنيها فلم ترقعَ بذلكَ مرَقَعاً

وقال آخر وهو ابنُ هرمة:

كتاركةٍ بيضها بالعراءِ

وملبسةٍ بيضَ أخرى جناحاً

وقال أبو دواد الإيادي:

إذا كنتَ مرتادَ الرِّجالِ لنفعمهم

فرشٌ واصطنعَ عندَ الذينَ بهم ترمى

وقال آخر:

وإذا أصبتَ من النّوافلِ رغبةً

فأمنحْ عشيرتَكَ الأَداني فضلها

وذمّ قديماً المذهب الذي ذهب إليه أبو تمام مسافر العبشمي، فقال:

تمدّ إلى الأقصى بئديك كَله

وأنت على الأدنى ضرور مجدّد

فإنّك لو أصلحتَ من أنتَ مفسدٌ

تودّدك الأوصى الذي تتودّد

وقال المسيب بن علس:

من الناس من يصلُ الأبعدينَ

ويشقى به الأقربُ الأقربُ

وقال الحارث بن كلدة:

ومن الناس من يغشى الأبعدَ نفعه

ويشقى به حتّى المماتِ أقاربه

وقد ذهب البحثري مذهب أبي تمام، فقال:

بل كان أقربهم من سببه سبباً

من كان أبعدهم من جذمه رحماً

كتاب الصناعتين - ابو هلال العسكري

إلا أنه لم يخرجهم من معرفه، وإن كان قد دخل تحت الإساءة.
والجيد قوله:

ب المجتبي والعدو مثل الصديق

ظل فيه البعيد مثل القري

وقوله أيضاً:

ممتاحة من بعيد الدار والرحم

ما إن يزال الندى يدنى إليه يداً

ومن الخطأ قوله:

كوسعِهِ لم يضق عن أهله بلد

ورحب صدر لو أن الأرض واسعة

وذلك أن البلدان التي تضيق بأهلها لم تضق بأهلها لضيق الأرض، ومن اختط البلدان لم يختطها على قدر ضيق الأرض وسعتها، وإنما اختطت على حسب الاتفاق، ولعل المسكون منها لا يكون جزءاً من ألف جزء، فلأي معنى تصييره ضيق البلدان الضيقة من أجل ضيق الأرض. والصواب أن يقول: ورحب صدر لو أن الأرض واسعة كوسعها لم يسعها الفلك، أو لضاقت عنها السماء، أو يقول: لو أن سعة كل بلد كسعة صدره لم يضق عن أهله بلد.
والجيد في هذا المعنى قول البحري:

ليسلكها فرداً سليك المقانب

مفازة صدر لو تطرق لم يكن

أي لم يكن ليسلكها إلاً بدليل لسعتها، على أن قول مفازة صدر استعارة بعيدة.
ومن الخطأ قول أبي تمام:

لأعلم أن قد جل نصر عن الحمد

سأحمد نصراً ما حبيت وإنني

وقد رفع الممدوح عن الحمد الذي رضيهِ اللهُ جل وعزّ لنفسه، وندب عباده لذكره ونسبه إليه، وافتتح به كتابه. وقد قال الأول: الزيادة في الحد نقصان، ولم نعرف أحداً رفع أحداً عن الحمد، ولا من استقل الحمد للمدوح.
قال زهير بن أبي سلمى:

للرزء نهاض إلى الذكر

متصرف للحمد معترف

وقال الأعشى:

وقد يشتره بأغلى ثمن

ولكن على الحمد إنفاقه

وقال الحطيئة:

ومن يعطِ اثمانَ المحامدِ يحمِدِ

وقالت الخنساء:

يرى أفضلَ المجدِ أن يحمداً

ترى الحمدَ يهوى إلى بيته

والجيد قولُ البحترى:

تنثى جللتَ عن الندى والباسِ

لو جلَّ خلقٌ قطَّ عن أكرومةٍ

ومن الخطأ قوله:

ثم ارعويتُ وذلكَ حكمُ لبيدٍ

ظعنوا فكان بكايَ حولاً بعدهمُ

بالدمعِ أن تزدادَ طولَ وقودِ

أجدرُ بجمرةٍ لوعةٍ إطفأؤها

هذا خلافُ ما يعرفه الناس، لأنهم قد أجمعوا أن البكاء يطفى الغليل، ويبرد حرارةَ الحزون، ويزيل شدةَ الوجد.

وذكروا أن امرأةً مات ولدها فأمسكتُ نفسها عن البكاء صبراً واحتساباً، فخرج الدم من ثديها، وذلك لما ورد عليها من شدةَ الحزن مع الامتناع من البكاء. وقد شهد أبو تمام بصحة ما ذكرناه، وخالف قوله الأول، فقال:

والدمعُ يحملُ بعضَ ثقلِ المغرمِ

نثرت فريدَ مدامعٍ لم تنظمِ

وقال:

واقِعُ بالقلوبِ والأكبادِ

واقِعُ بالخدودِ والبردُ منه

وقال امرؤ القيس:

فهل عندَ رسمِ دارسٍ من معولٍ

وإنَّ شفائي عبرةٌ مهراقةٌ

وأخبرنا أبو أحمد قال أخبرنا الأنباري، قال: حدثنا محمد بن المرزبان، قال حدثنا حماد بن إسحاق بن إبراهيم الموصلي قال: حدثنا محمد بن كناسة، قال، قال أبو بكر بن عياش: كنتُ وأنا شابٌ إذا أصابتنى مصيبة لا أبكي فيحترق جوفي، فرأيت أعرابياً بالكناس على ناقة له والناس حوله وهو ينشد:

ببرقة حزوى فابكياً في المنازلِ

خليلي عوجاً من صدورِ الرّواحلِ

من الوجد أو يشفى نجىّ البلابلِ

لعلَّ انحدارَ الدمعِ يعقبُ راحةً

فسألت عن الأعرابي، فقيل: هو ذو الرّمة، فكنت بعد ذلك إذا أصابني مصيبةٌ بكيت فاشتفيت. فقلت:
قاتل الله الأعرابي ما كان أبصره وقال الفرزدق:

فقلت لها إنَّ البكاءَ لراحةً **به يشتفى من ظنٍّ أن لا تلاقياً**

وقد تبعه البحثري على إساءته، فقال:

فعلام فيض مدامع تدقُّ الجوى **وعذاب قلب في الحسان معذبٍ**

تدق: من الوديقة، وهي الهاجرة لدنو الحرِّ فيها. والودق: أصله الدنو، يقال: أتان وديق، إذا دنت من
الفحل. والودق: القطر، لدنوّه من الأرض بعد انحلاله من السحاب.
والخطأ الفاحش له قوله، أي أبو تمام:

رضيتُ وهل أرضى إذا كان مسخطي **من الأمر ما فيه رضا من له الأمر**

والمعنى: لست أرضى إذا كان الذي يسخطني هو الذي برضاه الله عزّ وجل، لأنّ هل تقريرٌ لفعل ينفيه
عن نفسه، كما تقول: هل يمكنني المقام؟ وهل آتى بما تكرهه؟ معناه لا يمكنني المقام. ومعنى قوله: هل
أرضى إذا كان مسخطي؟ أي لا أرضى.
ومن الخطأ قوله:

ويوم كطول الدهر في عرض مثله **ووجدى من هذا وهذاك أطول**

قد استعمل الناس الطول والعرض فيما ليس له، استعمالاً مخصوصاً، كقول كثير:

أنت ابن فرعي فريش لو تقايسها **في المجد صار إليك العرض والطول**

أي صار إليك المجد بتمامه.

وقول كثير أيضاً:

بطاحي له نسب مصفى **وأخلاق لها عرض وطول**

فعلى هذا استعمل هذان اللفظان.

وقالوا: هذا الشيء في طول ذلك وعرضه، إذا كان مما يرى طوله وعرضه، ولا يستعمل فيما ليس له طولٌ
وعرض على الحقيقة، ولا يجوز مخالفة الاستعمال البتة.

وكان أبو تمام قد استوفى المعنى في قوله: "كطول الدهر" ولم يكن به حاجةٌ إلى ذكر العرض.

ومن الخطأ قول البحثريّ ورواه لنا أبو أحمد عن ابن عامر لأبي تمام، والصحيح أنه للبحثريّ:

بدت صفرةً في لونه إنَّ حمدهم **من الدرّ ما اصفرّت حواشيه في العقد**

وإنما يوصف الدرّ بشدّة البياض، وإذا أريد المبالغة في وصفه وصفَ بالنصوع، ومن أعيب عيوبه الصفرة. وقالوا: كوكب درّى، لبياضه، وإذا اصفرّ احتيل في إزالة صفرتة. ليتضوّأ. واستعمال الحواشيّ في الدرّ أيضاً خطأ، ولو قال نواحيه، لكان أجود، والحاشية للبرد والثوب، فأما حاشية الدرّ فغير معروف، وفيها:

وجرّت على الأيدي مجسة جسمه **كذلك موج البحر ملتهبُ الوقدِ**

وهذا غلطٌ، لأنّ البحر غير ملتهب الموج ولا متقدّ الماء، ولو كان متقدّاً أو ملتهباً لما أمكن ركوبه، وإنما أراد أن يعظّم أمر الممدوح فجاء بما لا يعرف. وفيها:

ولست ترى شوك القتادة خائفاً **سمومَ رياح القادحات من الزئبدِ**

وهذا خطأ، لأنه شبه العليل بشوك القتاد على صلابته على شدّة العلة، وزعم أنّ شوك القتاد لا يخاف التارّ التي تقدح بالزناد. وقد علمنا أن النار تفلق الصخر وتلين الحديد، فكيف يسلم منها القتاد؟ وليس لذكر السموم والرياح أيضاً في هذا البيت فائدة ولا موقع. ولما مات المتوكل أنشد رجل جماعة:

مات الخليفة أيّها التقلان

قالوا: جيد نعى الخليفة إلى الجنّ والإنس في نصف بيت، فقال:

فكأنني أفطرتُ في رمضان

فضحكوا منه.

ونورد هاهنا جملة نتّمّ بما معاني هذا البيت: ينبغي أن تعرف أن أجود الوصف ما يستوعب أكثر معاني الموصوف، حتى كأنه يصوّر الموصوف لك فتراه نصب عينك، وذلك مثل قول الشماخ في نبالة:

خلت غير آثار الأراجيل ترتمي **تقعقع في الأباط منها وفاضها**

فهذا البيت يصوّر لك هرولة الرجالة، ووافاضها في آباطها تقعقع.

وإفاض جمع وفضة وهي الجعبة. وقول يزيد بن عمرو الطائي:

ألا من رأى قومي كأنّ رجالهم **نخيلٌ أتاها عاضد فأمالها**

فهذا التشبيه كأنه يصوّر لك القتلى مصروعين.

وقال العتابي في السحاب:

والغيمُ كالثوب في الآفاق منتشرٌ **من فوقه طبقٌ من تحته طبقٌ**

تظنه مصمتاً لا فتق فيه فإن **سالت عزاليه قلت الثوب منفتقٌ**

إن معمَع الرَّعْدُ فيه قلت منخرق

أو لألأ البرقُ فيه قلت محترقُ

وينبغي أن يكون التشبيبُ دالاً على شدة الصبابة، وإفراط الوجد، والتهالك في الصبوة، ويكون برياً من دلائل الحشونة والجلادة، وأمارات الإباء والعزّة. ومن أمثلة ذلك قول أبي الشيص:

وقفَ الهوى بي حيثُ أنتَ فليسَ لي

متأخراً عنه ولا متقدماً

أجدُ الملامةَ في هواكِ لذيذةً

حباً لذكركِ فليلمي اللومُ

أشبهتِ أعدائيَ فصرتُ أحبهم

إذ كانَ حظّي منكِ حظّ منهم

وأهنتني فأهنتُ نفسيَ صاغراً

ما من يهونُ عليكِ ممّن أكرمُ

فهذا غايةُ التهالكِ في الحب، ونهايةُ الطاعة للمحبيب.

ويستجد التشبيب أيضاً إذ تضمّن ذكر التشوق والتذكر لمعاهد الأحبة، بهبوب الرياح، ولمع البروق، وما يجرى مجراهما من ذكر الديار والآثار.

فمن أجود ما قيل في الديار قول الأزدي:

فلم تدع الأرياح والقطرُ والبلى

من الدارِ إلا ما بشفّ ويشغف

وفي ذكر البروق قول الأول:

سرى البرقُ من نحوِ الحجازِ فشاقتني

وكلُّ حجازي له البرقُ شائقُ

وفي ذكر البروق قول الأول:

سرى البرقُ من نحوِ الحجازِ فشاقتني

وكلُّ حجازيٍّ له البرقُ شائقُ

بدا مثل نبض العرق والبعْدُ دونه

وأكنافُ لبنِ دوننا والأسالِقُ

نهاري بأشرافِ التّلاعِ موكلٌ

وليلي إذا ما جنّى الليلِ أرقُ

فوا كبدي ممّا ألقى من الهوى

إذا حنَّ ألفٌ أو تألّقَ بارقُ

وكذا ينبغي أن يكون التشبيبُ دالاً على الحنين، والتحصّر، وشدة الأسف، كقوله:

وليستْ عشياتُ الحمى برواجع

إليكِ ولكنْ خلّ عينيكِ تدمعاً

وأذكرُ أيامَ الحمى ثم أنثني

على كبدي من خشيةٍ أن تصدّعا

وقال ابن مطير:

وكنتُ أذودُ العينَ أنْ تردّ البُكا

فقد وردت ما كنتُ عنه أذودُها

خليلي ما في العيشِ عيبٌ لو أننا

وجدنا لأيامِ الحمى من يعيدُها

كتاب الصناعتين - أبو هلال العسكري

فهذا يدلّ على تحسّرٍ شديد، وحين مفرط.
وقول الآخر:

وددتُ بأبرق العيشوم أني
وأبشره وقد نديت عليه
ومن أهوى جميعاً في رداءٍ
وألصقُ صحّةً منه بدائي

فحنّ إليه حين السقيم إلى الشفاء ومن الشعر الدالّ على شدّة الحسرة والشوق قول الآخر:

يقر بعيني أن أرى رملة الغضاً
ولستُ وإن أحببتُ من يسكن الغضاً
إذا ما بدت يوماً لعيني قلالها
بأولِّ راجٍ حاجةً لا ينالها

وينبغي أن يظهرَ المناسبُ الرغبة في الحبّ، وألاً يظهرَ التبرّم به، كأبي صخر حين يقول:
فيا حبّها زدني جوى كل ليلةٍ
ويا سلوة الأيّام موعذك الحشرُ

وقول الآخر:

تشكى المحبّون الصبابة لبتني
فكانت لنفسي لذة الحبّ كلها
تحملتُ ما يلقون من بينهم وحدي
ولم يلقها قبلي محبٌّ ولا بعدي

وينبغي أن يكون في النسب دليلُ التدلّه والتحيّر، كقول الحكم الحضري:

تساهم ثوباها في الدرع رادةً
فوالله ما أدري أزيدت ملاحه
وفي المرط لفاوان ردفهما عبلُ
وحسناً على النسوان أم ليس لي عقلُ

وقيل لبعضهم: ما بلغ من حبك لفلانة؟ فقال: إني أرى الشمس على حيطاتها أحسن منها على حيطان جيرانها.

ولما كانت أغراض الشعراء كثيرة، ومعانيهم متشعبة جمّة، لا يبلغها الإحصاء كان من الوجه أن نذكر ما هو أكثر استعمالاً، وأطول مدارسة له، وهو المدح، والهجاء، والوصف، والنسيب، والمزائي، والفخر، وقد ذكرت قبل هذا المديح والهجاء وما ينبغي استعماله فيهما، ثم ذكرت الآن الوصف والنسيب، وتركت المرائي والفخر، لأنهما داخلان في المديح. وذلك أن الفخر هو مدحك نفسك بالطهارة، والعفاف، والحلم، والعلم، والحسب، وما يجري مجرى ذلك. والمرثية مديح الميت، والفرق بينهما وبين المديح أن تقول: كان كذا وكذا، وتقول في المديح: هو كذا وأنت كذا. فينبغي أن تتوخى في المرثية ما تتوخى في المديح، إلا أنك إذا أردت أن تذكر الميت بالجود والشجاعة تقول: مات الجود، وهلك

الشجاعة، ولا تقول: كان فلاناً جواداً وشجاعاً، فإنّ ذلك باردٌ غير مستحسن، وما كان الميت يكده في حياته فينبغي ألا يذكر أنه يبكي عليه مثل الخيل والإبل وما يجري مجراهما، وإنما يذكر اغتباطهم بموته. وقد أحسنت النساءُ حيث تقول:

فليت الخيلَ فارسُها يراها

فقدَ فقدتكَ طلقهُ واستراحتْ

بل يوصف بالبكاء عليه من كان يحسنُ في حياته إليه كما قال الغنويّ:

وطاوى الحشأ نائي المزارِ غريب

ليبكك شيخٌ لم يجد من يعينه

فهذه جملة إذا تدبّرها صانع الكلام استغنى بها عن غيرها، وبالله التوفيق.

الباب الثالث

معرفة صنعة الكلام وترتيب الألفاظ

فصلان

الفصل الأول

في كيفية نظم الكلام والقول في فضيلة الشعر وما ينبغي استعماله في تأليفه

إذا أردت أن تصنع كلاماً فأخطر معانيه ببالك، وتنوّق له كرائم اللفظ، واجعلها على ذكر منك، ليقترب عليك تناولها، ولا يتعبك تطلبها، واعمله ما دمت في شباب نشاطك، فإذا غشيك الفتور، وتخونك الملل فأمسك، فإن الكثير مع الملل قليل، والنفيس مع الضجر خسيس، والخواطر كالينابيع يسقى منها شيء بعد شيء، فتجد حاجتك من الرّى، وتنال أربك من المنفعة. فإذا أكثرت عليها نضب ماؤها، وقلّ عنك غناؤها.

وينبغي أن تجرى مع الكلام معارضة، فإذا مررت بلفظ حسن أخذت برقبته، أو معنى بديع تعلّقت بذيله، وتحذّر أن يسبقك فإنه إن سبقك تعبت في تتبّعه، ونصبت في تطلبه، ولعلك لا تلحقه على طول الطلب، ومواصلة الدأب، وقد قال الشاعر:

إذا ضيّعت أول كل أمرٍ أبت أعجازه إلاّ التواء

وقالواك ينبغي لصانع الكلام ألاّ يتقدّم الكلام تقدماً، ولا يتبع ذنابه تتبّعاً، ولا يحمله على لسانه حملاً، فإنه إن تقدّم الكلام لم يتبعه خفيفه وهزيله وأعجفه والشارد منه. وإن تتبّعه فاتته سوابقه ولو احقه، وتباعدت عنه جياده وغرره، وإن حمّله على لسانه ثقلت عليه أو ساقه وأعبأوه، ودخلت مساويه في محاسنه. ولكنه يجرى معه فلا تندّ عنه نادرة معجبة سمناً إلاّ كبجها، ولا تتخلّف عنه مثقلة هزيلة إلاّ أرهقها. فطوراً يفرّقه ليختار أحسنه، وطوراً يجمعه ليقرب عليه خطوة الفكر، ويتناول اللفظ من تحت لسانه، ولا يسلّط الملل على قلبه ولا الإكثار على فكره. فيأخذ عفوه، ويستغزر درّه، ولا يكره أياً، ولا يدفع أتياً.

وقال بشر بن المعتمر: خذ من نفسك ساعة لنشاطك، وفراغ بالك، وإجابتها لك، فإن قلبك في تلك الساعة أكرم جوهرًا، وأشرق حسناً، وأحسن في الأسماع، وأحلى في الصدور، وأسلم من فاحش الخطأ،

وأجلب لكل غرّة من لفظ كريم، ومعنى بديع.
واعلم أنّ ذلك أجدى عليك ممّا يعطيك يومك الأطول بالكّد والمطالبة والمجاهدة والتكلف والمعاودة،
ومهما أخطأك لم يخطئك أن يكون مقبولاً قصداً، وخفيفاً على اللسان سهلاً، وكما خرج عن ينبوعه،
ونجم من معدنه.

وإياك والتوعّر، فإن التوعّر يسلمك إلى التعقيد، والتعقيد هو الذي يستهلك معانيك، ويشين ألفاظك،
ومن أراغ معنى كريماً فليلتمس له لفظاً كريماً، فإن حق المعنى الشريف اللفظ الشريف، ومن حقهما أن
يصونهما عما يدنسهما ويفسدهما ويهجنهما، فتصير بهما إلى حدّ تكون فيه أسوأ حالاً منك قبل أن
تلتمس منازل البلاغة، وترتحن نفسك في ملابستهما، فكن في ثلاث منازل: فأول الثلاث أن يكون لفظك
شريفاً عذباً، وفخماً سهلاً، ويكون معنك ظاهراً مكشوفاً، وقریباً معروفاً. فإن كانت هذه لأتواتيك، ولا
تسبح لك عند أوّل خاطر، وتجد اللفظة لم تقع موقعها، ولم تصل إلى مركزها، ولم تتصل بسلكها،
وكانت قلقة في موضعها، نافرة عن مكائدها، فلا تكرهها على اغتصاب الأماكن، والتزول في غير أوطانها،
فإنك إن لم تتعاط قريض الشعر المنظوم، ولم تتكلف اختيار الكلام المشثور لم يعبك بذلك أحد، وإن
تكلفته ولم تكن حاذقاً مطبوعاً، ولا محكماً لشأنك بصيراً عابك من أنت أقلّ عيباً منه، وزرى عليك من
هو دونك.

فإن ابتليت بتكلف القول، وتعاطى الصناعة، ولم تسمح لك الطبيعة في أوّل وهلة، وتعصّى عليك بعد
إجالة الفكرة، فلا تعجل، ودعه سحابة يومك ولا تضجر، وأمهله سواد ليلتك، وعاوده عند نشاطك،
فإنك لا تعدم الإجابة والمواتاة إن كانت هناك طبيعة وجربت من الصناعة على عرق، هي المتزلة الثانية.
فإن تمّتع عليك بعد ذلك مع ترويح الخاطر، وطول الإمهال، فالمتزلة الثالثة أن تتحوّل عن هذه الصناعة إلى
اشهى الصناعات إليك، وأخفها عليك، فإنك لم تشتهها إلا وبينكما نسب، والشيء لا يجنّ إلا إلى ما
شاكله، وإن كانت المشاكلة قد تكون في طبقات، فإنّ النفوس لا تجود بمكنونها، ولا تسمح بمخزونها مع
الرغبة، كما تجود مع الرغبة والمحبة.

وينبغي أن تعرف أقدار المعاني، فتوازن بينها وبين أوزان المستمعين، وبين أقدار الحالات، فتجعل لكلّ
طبقة كلاماً، ولكلّ حال مقاماً، حتى تقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات، وأقدار المستمعين على أقدار
الحالات.

وأعلم أن المنفعة مع موافقة الحال، وما يجب لكلّ مقام من المقال، فإن كنت متكلماً، أو احتجت إلى
عمل خطبة لبعض من تصلح له الخطب، أو قصيدة لبعض ما يراد له القصيد، فتخط ألفاظ المتكلمين، مثل

الجسم والعرض والكون والتأليف والجوهر، فإنّ ذلك هجئةٌ.
وخطب بعضهم فقال: إن الله أنشأ الخلق وسوّاهم ومكّنهم ثم لا شاهم، فضحكوا منه، وقال بعض
المتأخرين:

نورٌ تبين فيه لاهوتيه فيكاد يعلم علم ما لن يعلم

فأتى من الهجئة بما لا كفاء له، وكذلك كن أيضاً إذا كنت كاتباً.
واعلم أنّ الرسائل والخطب متشاكلتان في أهمّاهما كلام لا يلحقه وزن ولا تقفية، وقد يتشاكلان أيضاً من
جهة الألفاظ والفواصل، فألفاظ الخطباء تشبه ألفاظ الكتّاب في السهولة والعدوثة، وكذلك فواصل
الخطب، مثل فواصل الرسائل، ولا فرق بينهما إلا أنّ الخطبة يشافه بها، والرسالة يكتب بها، والرسالة
تجعل خطبة، والخطبة تجعل رسالة، في أيسر كلفة، ولا يتهياً مثل ذلك في الشعر من سرعة قلبه وإجالته
إلى الرسائل إلاّ بكلفة، وكذلك الرسالة والخطبة لا يجعلان شعراً إلاّ بمشقة.
ومما يعرف أيضاً من الخطابة والكتابة أنّهما مختصتان بأمر الدين والسلطان، وعليهما مدارُّ الدار، وليس
للشعر بهما اختصاص.
أمّا الكتابة فعليها مدار السلطان.

والخطابة لها الحظّ الأوفر من أمر الدين، لأنّ الخطبة شرطُ الصلاة التي هي عماد الدين في الأعياد
والجمعات والجماعات، وتشتمل على ذكر المواعظ التي يجب أن يتعهد بها الإمام رعيته لئلا تدرس من
قلوبهم آثار ما أنزل الله عزّ وجلّ من ذلك في كتابه، إلى غير ذلك من منافع الخطب.
ولا يقع الشّعور في شيء من هذه الأشياء موقعاً، ولكنّ له مواضع لا ينجع فيها غيره من الخطب والرسائل
وغيرها، وإن كان أكثره قد بنى على الكذب والاستحالة من الصفات الممتنعة، والنعوت الخارجة عن
العادات والألفاظ الكاذبة، من قذف المحصنات، وشهادة الزور، وقول البهتان، لا سيما الشعر الجاهليّ
الذي هو أقوى الشعر وأفحله، وليس يراد منه إلاّ حسن اللفظ، وجودة المعنى، هذا هو الذي سوّغ
استعمال الكذب وغيره مما جرى ذكره فيه.

وقيل لبعض الفلاسفة: فلان يكذب في شعره، فقال: يراد من الشاعر حسن الكلام، والصدق يراد من
الأنبياء.

فمن مراتبه العالية التي لا يلحقه فيها شيء من الكلام النظم الذي به زنة الألفاظ، وتمام حسنها، وليس
شيء من أصناف المنظومات يبلغ في قوة اللفظ منزلة الشعر.

ومما يفضل به غيره أيضاً طول بقائه على أفواه الرّواة، وامتداد الزمان الطويل به، وذلك لارتباط بعض أجزائه ببعض، وهذه خاصة له في كلّ لغة، وعند كل أمة، وطول مدة الشيء من أشرف فضائله. ومما يفضل به غيره من الكلام استفاضته في الناس وبعد سيره في الآفاق، وليس شيء أسير من الشعر الجيّد، وهو في ذلك نظير الأمثال.

وقد قيل: لا شيء أسبق إلى الأسماع، وأوقع في القلوب، وأبقى على الليالي والأيام من مثل سائر، وشعر نادر.

ومما يفضل به غيره أنه ليس يؤثر في الأعراض والأنساب تأثير الشعر في الحمد والذم شيء من الكلام، فكم من شريف وضع، وخامل دنئ رفع، وهذه فضيلة غير معروفة في الرسائل والخطب. ومما يفضلهما به أيضاً أنه ليس شيء يقوم مقامه في المجالس الحافلة، والمشاهد الجامعة، إذا قام به منشد على رءوس الأشهاد، ولا يفوز أحد من مؤلّفي الكلام بما يفوز به صاحبه من العطايا الجزيلة، والعارف السنيّة، ولا يهتزّ ملك، ولا رئيس لشيء من الكلام كما يهتزّ له، ويرتاح لاستماعه، وهذه فضيلة أخرى لا يلحقه فيها شيء من الكلام.

ومنه أن مجالس الظرفاء والأدباء لا تطيب، ولا تؤنس إلاّ بإنشاد الأشعار، ومذاكرة الأخبار، وأحسن الأخبار عندهم ما كان في أثنائها أشعار، وهذا شيء مفقود في غير الشعر. ومما يفضل به الشعر أن الألحان التي هي أهني اللذات إذا سمعها ذوو القرائح الصافية، والأنفس اللطيفة، لا تنهياً صنعتها إلا على كل منظوم من الشعر، فهو لها بمنزلة المادّة القابلة لصورها الشريفة، إلاّ ضرباً من الألحان الفارسية تصاغ على كلام غير منظوم نظم الشعر، تمطّط فيه الألفاظ، فالألحان منظومة، والألفاظ منثورة.

ومن أفضل فضائل الشّعّر أن ألفاظ اللغة إنما يؤخذ جزئها وفصيحتها، وفحلها وغريبها من الشعر، ومن لم يكن راويةً لأشعار العرب تبيّن النقص في صناعته.

ومن ذلك أيضاً أن الشواهد تترع من الشعر، ولولاه لم يكن على ما يلتبس من ألفاظ القرآن وأخبار الرسول صلى الله عليه وسلم شاهد.

وكذلك لا نعرف أنساب العرب وتواريخها وأيامها ووقائعها إلاّ من جملة أشعارها، فالشعر ديوان العرب، وخزانة حكمتها، ومستنبت آدابها، ومستودع علومها، فإذا كان ذلك كذلك فحاجة الكاتب والخطيب وكلّ متأدّب بلغة العرب أو ناظر في علومها إليه ماسّة وفاقته إلى روايته شديدة.

وأما النقص الذي يلحق الشّعّر من الجهات التي ذكرناها فليس يوجب الرغبة عنه زالزّهادة فيه، واستثناء الله عزّ وجلّ في أمر الشعراء يدلّ على أن المذموم من الشعر إنما هو المعدول عن جهة الصواب إلى الخطأ

والمصروف عن جهة الإنصاف والعدل إلى الظلم والجور.

وإذا ارتفعت هذه الصفات ارتفع الذم، ولو كان الذم لازماً له لكونه شعراً لما جاز أن يزول عنه على حال من الأحوال. ومع ذلك فإن من أكمل الصفات صفات الخطيب والكاظم أن يكونا شعاعين كما أن من أتم صفات الشاعر أن يكون خطيباً كاتباً. والذي قصر بالشعر كثرته وتعاطى كل أحد له حتى العامة والسفلة، فلحقه من النقص ما لحق العود والشطرنج حين تعاطاهما كل أحد. ومن صفات الشعر الذي يختص بها دون غيره أن الإنسان إذا أراد مديح نفسه فأنشأ رسالة في ذلك أو عمل خطبة فيه جاء في غاية القباحة، وإن عمل في ذلك أبياتاً من الشعر احتمل. ومن ذلك أن صاحب الرياسة والأبهة لو خطب بذكر عشيق له، ووصف وجده به، وحنينه إليه، وشهرته في حبه، وبكائه من أجله لاستهجن منه ذلك، وتنقص به فيه، ولو قال في ذلك شعراً لكان حسناً. وإذا أردت أن تعمل شعراً فأحضر المعاني التي تريد نظمها فكرك، وأخطرها على قلبك، واطلب لها وزناً بتأني فيه إيرادها وقافيةً يحتملها، فمن المعاني ما تتمكن من نظمه في قافية ولا تتمكن منه في أخرى، أو تكون في هذه أقرب طريقاً وأيسر كلفة منه في تلك، ولأن تعلق الكلام فتأخذه من فوق فيجئ سلساً سهلاً ذا طلاوة ورونق خير من أن يعلوك فيجئ كزاً فجاً ومتجعداً جلفاً.

فإذا عملت القصيدة فهذبها ونقحها، بإلقاء ما غث من أبياتها، ورث ورتل، والاختصار على ما حسن وفخم، بإبدال حرف منها بأخر أجود منه، حتى تستوى أجزاؤها وتتضارع هواديبها وأعجازها. فقد أنشدنا أبو أحمد رحمه الله قال: أنشدنا أبو بكر بن دريد:

طرقتك عزّة من مزارٍ نازحٍ **يا حسن زائرةٍ وبعد مزارٍ**

ثم قال أبو بكر: لو قال: "يا قرب زائرةٍ وبعد مزارٍ" لكان أجود. وكذلك هو لتضمينه الطباق. وأخبرنا أبو أحمد عن أبي بكر عن عبد الرحمن عن عمه عن المنتجع بن نبهان، قال: سمعت الأشهب بن جميل يقول: أنا أول من ألقى الهجاء بين جرير وابن لجأ، أنشدت جريراً قوله:

تصطكُ إحيها على دلانها **تلاطم الأزد على عطائها**

حتى بلغتُ إلى قوله:

تجرُّ بالأهون من دعائها **جز العجوز الثني من كسائها**

فقال جرير: ألا قال: "جر الفتاة طر في رداها" فرجعت إلى ابن لجأ فأخبرته. فقال: والله ما أردت إلا ضعفه العجوز، ووقع بينهما الشر. وقول جرير: "جرّ العروس طر في رداها". أحسن وأظرف وأحلى من

قول عمرو بن لجأ: "جرّ العجوز الثنى من كسائها". وليس في اعتذار ابن لجأ بضعفه العجوز فائدة، لأنّ الفتاة معها من الدلال ما يقوم في الهوينا مقام ضعفة العجوز. وإنكار جرير قوله: "الثنى من كسائها" نقدٌ دقيق، وإنما أنكره لأنّ فيه شعبة من التكلف. وقول جرير: "طرفي ردائها" أسلس وأسهل وأقلّ حروفاً. وقولك: رأيت الإيعاز بذلك أجود من قولك: رأيت أن أوعز بذلك، كذا وجدت حذاق الكتاب يقولون. وعجبت من البحري كيف قال:

لعمري الغواني يوم صحراءٍ أربدٍ لقد هيّجتُ وجداً على ذي توجّدٍ

ولو قال: "على متوجد" لكان أسهل وأسلس وأحسن.

وفي غير هذه الرواية قال، فقال ابن لجأ لجرير: فقد قلت أعجب من هذا، وهو قولك:

وأوثق عند المرذقاتِ عشيةً لحاقاً إذا ما جرّد السيف لامعُ

والله لو لم يلحقن إلا عشياً لما لحقن حتى نكحن وأحبلن.

وقد كان هذا دأب جماعة من حذاق الشعراء من المحدثين والقدماء، منهم زهير، كان يعمل القصيدة في ستة أشهر ويهدّها في ستة أشهر، ثم يظهرها، فتسمّى قصائده الحوليات لذلك.

وقال بعضهم: خير الشعر الحولي المنقح، وكان الحطيئة يعمل القصيدة في شهر، وينظر فيها ثلاثة أشهر ثم يبرزها. وكان أبو نواس يعمل القصيدة ويتركها ليلةً، ثم ينظر فيها فيلقى أكثرها ويقتصر على العيون منها، فلهذا قصر أكثر قصائده.

وكان البحري يلقي من كل قصيدة يعملها جميع ما يرتاب به فخرج شعره مهذبا.

وكان أبو تمام لا يفعل هذا الفعل، وكان يرضى بأول خاطر فنعى عليه عيب كثير.

وتخيّر الألفاظ، وإبدال بعضها من بعض يوجب التمام الكلام، وهو من أحسن نعوته وأزين صفاته، فإن أمكن مع ذلك منظماً من حروف سهلة المخارج كان أحسن له وأدعى للقلوب إليه، وإن اتفق له أن يكون موقعه في الإطناب والإيجاز أليق بموقعه، وأحقّ بالمقام والحال كان جامعاً للحسن، بارعاً في الفضل، وإن بلغ مع ذلك أن تكون موارده تنبيك عن مصادره، وأوله يكشف قناع آخره، كان قد جمع نهاية الحسن، وبلغ أعلى مراتب التمام.

ومثاله ما أنشدنا أبو أحمد قال: أنشدنا أبو الحسن أحمد بن جعفر البرمكي، قال: أنشدنا عبيد الله بن عبد الله بن طاهر لنفسه:

أشارتُ بأطرافِ البنانِ المخضبِ وضننتُ بما تحت النقابِ المكتبِ

وعضنتُ على تفاحةٍ في يمينها بذبي أشرُّ عذبِ المذاقةِ أشنبِ

إليها فقالت: هل سمعت بأشعب

وأومت بها نحوِي ففقتُ مبادراً

فهذا أجودُ شعرٍ سبكا وأشدّه التثاماً وأكثره طلاوة وماء.

وينبغي أن تجعلَ كلامك مشتبهاً أوله بآخره، ومطابقاً هادية لعجزه، ولا تتخالف أطرافه، ولا تتنافر أطواره، وتكون الكلمة منه موضوعة من أختها، ومقرونة بلفقها، فإنّ تنافر الألفاظ من أكبر عيوب الكلام، ولا يكون ما بين ذلك حشوً يستغنى عنه ويتم الكلام دونه.

ومثال ذلك من الكلام المتلائم الأجزاء، غير المتنافر الأطرار قول أخت عمرو ذي الكلب:

إذا نبَّها منك داءً عضالاً

فأقسمُ يا عمرو لو نبَّهاك

مفتياً مفيداً نفوساً ومالاً

إذا نبَّها ليثَ عريسةٍ

بوجناء حرف تشكَّى الكلالا

وخرقٍ تجاوزتَ مجهوله

وكننتَ دجى الليل فيه الهلالا

فكننتَ النهارَ به شمسه

فجعلته الشمس بالنهار، والهلال بالليل. وقالت: مفيتا مفيدا، ثم فسرت فقالت: نفوساً ومالاً.

وقال الآخر:

فما أنا دارٍ أيُّها هاج لي كربي

وفي أربع منى حلتَ منك أربعٌ

أم النطق في سمعي أم الحبُّ في قلبي

أوجهك في عيني أم الريق في فمي

وأخبرني أبو أحمد، قال: كنت أنا وجماعة من أحداث بغداد ممن يتعاطى الأدب تختلف إلى مدرك نتعلم منه علم الشعر، فقال لنا يوماً: إذا وضعتم الكلمة مع لفقها كنتم شعراء، ثم قال: أجزوا هذا البيت:

ألا إنّما الدنيا متاعٌ غرورٍ

فأجازه كل واحد من الجماعة بشيء فلم يرضه، فقلت:

وإن عظمت في أنفسي وصدوري

فقال: هذا هو الجيد المختار.

وأخبرنا أبو أحمد الشطني، قال: حدثنا أبو العباس بن عربي، قال: حدثنا حماد عن يزيد بن جبلة، قال:

دفن مسلمة رجلاً من أهله، وقال:

نروح ونغدو كل يومٍ وليلة

ثم قال لبعضهم: أجز، فقال: "فحتّى متى هذا الرواح مع الغدو" فقال مسلمة: لم تصنع شيئاً. فقال آخر: "فيالك مغدى مرة ورواحا" فقال: لم تصنع شيئاً. فقال لآخر: أجز أنت، فقال: "وعمّا قليل لا نروح ولا نغدو" فقال: الآن تمّ البيت.

ومما لم يوضع فيه الشيء مع لفقه من أشعار المتقدمين قول طرفة:

ولستُ بحلالِ التّلاعِ مخافةً **ولكن متى يسترفد القوم أرفد**

فالمصراع الثاني غير مشاكل للصورة للمصراع الأول، وإن كان المعنى صحيحاً، لأنه أراد: ولست بحلال التّلاع مخافة السّؤال، ولكنني أنزل الأمكنة المرتفعة، لينتابوني فأرفدهم، وهذا وجه الكلام، فلم يعبر عنه تعبيراً صحيحاً، ولكنه خلطه وحذف منه حذفاً كثيراً فصار كالمتنافر، وأدواء الكلام كثيرة. وهكذا قول الأعشى:

وإن امرء أسرى إليك ودونه **سهوبٌ ومومةٌ وبيداءٌ سملق**
لمحقوقه أن تستجيبى لصوته **وأن تعلمي أن المعان موفّق**

قوله: "وأن تعلمي أن المعان موفّق" غير مشاكل لما قبله. وهكذا قول عنترة:

حرقُ الجناح كأنّ لحبي رأسه **جلمان بالأخبار هشّ مولع**
إنّ الذين نعبت لي بفرّاقهم **هم أسلموا ليلي التمام وأوجعوا**

ليس قوله "بالأخبار هشّ مولع" في شيء من صفة جناحه ولحيه. وقول السموءل:

فنحنُ كماء المزنِ ما في نصابنا **كهامٌ ولا فينا يعدُّ بخيل**

ليس في قوله: "ما في نصابنا كهام". من قوله: "فنحن كماء المزن" في شيء، إذ ليس بين ماء المزن والنصاب والكهوم مقاربة، ولو قال: ونحن ليوث الحرب، أو أولو الصارمة والتّجدة ما في نصابنا كهام لكان الكلام مستويًا. أو نحن كماء المزن صفاء أخلاق وبذل أكفّ لكان جيداً. وجعل بعض الأدباء من هذا الجنس قول امرئ القيس:

كأنّي لم أركب جواداً للذة **ولم أتبطّن كاعباً ذات خلخال**
ولم أسبأ الزقّ الروى ولم أقل **لخيلي كرى كرى بعد إجمال**

قالوا: فلو وضع مصراع كل بيت من هذين البيتين في موضع الآخر لكان أحسن وأدخل في استواء التّسج، فكان يروى:

كَأَنِّي لَمْ أُرْكَبْ جَوَادًا وَلَمْ أَقْلُ
لَخَيْلِي كَرِيًّا كَرَّةً بَعْدَ إِجْفَالِ
وَلَمْ أَسْبِ الرِّقَّ الرَّوِيَّ لِلذَّةِ
وَلَمْ أَتَبَطَّنْ كَاعِبًا ذَاتَ خَلْخَالِ

لأنَّ ركوبَ الجوادِ مع ذكرِ كرور الخيلِ أجود، وذكر الخمر مع ذكر الكواعب أحسن.
قال أبو أحمد: الذي جاء به امرؤ القيس هو الصحيح، وذلك أن العرب تضع الشيء مع خلافه فيقولون:
الشدَّة والرِّخاء، والبؤس والنعيم، وما يجري مع ذلك. وقالوا في قول ابن هرمة:

وَإِنِّي وَتَرْكِي نَدَى الْأَكْرَمِينَ
وَقَدْحِي بِكَفَى زَنْدًا شَحَاخًا
كَتَارِكَةً بِيضَهَا بِالْعِرَاءِ
وَمَلْبَسَةً بِيضَ أُخْرَى جَنَاحًا

وقول الفرزدق:

وَإِنَّكَ إِذْ تَهْجُو تَمِيمًا وَتَرْتَشِي
سَرَابِيلَ قَيْسٍ أَوْ سَحُوقَ الْعَمَائِمِ
كَمَهْرِيْقِ مَاءٍ بِالْفَلَاةِ وَغَرَّةِ
سَرَابٍ أَدَاعَتْهُ رِيَاخُ السَّمَائِمِ

كان ينبغي أن يكون بيت ابن هرمة مع بيت الفرزدق وبيت الفرزدق مع بيت ابن هرمة، فيقال:

وَإِنِّي وَتَرْكِي نَدَى الْأَكْرَمِينَ
وَقَدْحِي بِكَفَى زَنْدًا شَحَاخًا
كَمَهْرِيْقِ مَاءٍ بِالْفَلَاةِ وَغَرَّةِ
سَرَابٍ أَدَاعَتْهُ رِيَاخُ السَّمَائِمِ

ويقال:

وَإِنَّكَ إِذْ تَهْجُو تَمِيمًا وَتَرْتَشِي
سَرَابِيلَ قَيْسٍ أَوْ سَحُوقَ الْعَمَائِمِ
كَتَارِكَةً بِيضَهَا بِالْعِرَاءِ
وَمَلْبَسَةً بِيضَ أُخْرَى جَنَاحًا

حتى يصحَّ التشبيه للشاعرين جميعاً.

ومن المتنافر الصدر والأعجاز قول حبيب بن أوس:

مُحَمَّدٌ إِنَّ الْحَاسِدِينَ حَشَوْدُ
وَإِنَّ مَصَابِ الْمَزْنِ حَيْثُ تَرِيدُ

ليس النصف الأول من النصف الثاني في شيء.

وقريبٌ من ذلك قول الطالبي:

قَوْمٌ هَدَى اللَّهُ الْعِبَادَ بَجْدِهِمْ
وَالْمَوْثُرُونَ الضَّيْفَ بِالْأَزْوَادِ

ومن الشعر المتلائم الأجزاء المتشابهة الصدور والأعجاز قول أبي النجم:

إِنَّ الْأَعَادِي لَنْ تَنَالَ قَدِيمَنَا
حَتَّى تَنَالَ كَوَاكِبُ الْجُوزَاءِ

كَمْ فِي لَجِيمٍ مِنْ أَعْرٍ كَأَنَّهُ
صَبْحَ يَشِقُ طِيَالِسَ الظَّلْمَاءِ

ومجرب خضل السنان إذا التقى

زحف بخاطرة الصدور ظماء

وكقول القطامي:

يمشين رهواً فلا الأعجازُ خاذلة

ولا الصدورُ على الأعجازِ تتكلُّ

فهنَّ معترضاتٌ والحصى رمضٌ

والريح ساكنةٌ والظلُّ معتدلٌ

إلا أن هذا لو كان في وصف نساء لكان أحسن، فهو كالشيء الموضوع في غير موضعه.

وينبغي أن تتجنب إذا مدحت أو عاتبت المعاني التي يتطير منها ويستشنع سماعها، مثل قول أبي نواس:

سلامٌ على الدنيا إذا ما فقدتم

بني برمكٍ من راثحين وغادي

وإذا أردت أن تأتي بهذا المعنى فسيبك أن تسلك سبيل أشجع السلمي في قوله:

لقد أمسى صلاح أبي عليّ

لأهل الأرض كلهم صلاحاً

إذا ما الموتُ أخطأه فلسناً

نبالي الموتَ حيثَ غذا وراحاً

فذكر إخطاء الموت إياه وتجاوزه إلى غيره، فجاد المعنى وحسن المستمع. وقد أحسن القائل:

ولا تحسبنَّ الحزنَ يبقى فإنه

شهابٌ حريقٍ واقدٌ ثم خامدٌ

ستألفُ فقدانَ الذي قد فقدته

كإلفكَ وجدانَ الذي أنتَ واجدٌ

فجعل ما يتطير منه من فقدان لنفسه وما يستحب من الوجدان للممدوح، وقد أساء أبو الوليد أرطاة بن شهبة، حين أنشد عبد الملك:

رأيتُ الدهرَ يأكلُ كلَّ حيٍّ

كأكلِ الأرضِ ساقطةَ الحديدِ

وما تبقى المنيّة حين تغدو

على نفس ابن آدم من مزيدِ

وأعلمُ أنها ستكرّ حتى

توفي نذرَها بأبي الوليدِ

وكان عبد الملك يكتئب أبا الوليد فتطير منه، وما زال يرى كراهة شعره في وجهه حتى مات.

وإذا دعت الضرورة إلى سوق خبر واقتصاص كلام، فتحتاج إلى أن تتوخى فيه الصدق، وتحرى الحق، فإن الكلام حينئذ يملكك ويجوجك إلى أتباعه والانقياد له.

وينبغي أن تأخذ في طريق تسهل عليك حكايته فيها، وتركب قافية تطيعك في استيفائك له، كما فعل النابغة في قوله:

واحكمُ كحكم فتاة الحيِّ إذ نظرتُ

إلى حمامٍ شراعٍ واردِ الثمدِ

يحفه جانباً نيقٍ وتتبعه

مثل الزجاجة لم تكحل من الرمّدِ

قالت ألا ليتما لهذا الحمام لنا
فكملت مائة فيها حمامتها
إلى حمامتنا أو نصفه فقد
وأسرعت حسبة في ذلك العدد
فحسبوه فألفوه كما حسبت
تسعاً وتسعين لم تنقص ولم تزد

فهذا أجود ما يذكر في هذا الباب، وأصعب ما رامه شاعر منه، لأنه عمد إلى حساب دقيق، فأورده مشروحا ملخصا، وحكاه حكاية صادقة. ولما احتاج إلى أن يذكر العدد والزيادة والتمدن الكلام على قافية فاصلة الدال فسهل عليه طريقه، وأطرد سبيله. ومثل ذلك ما أتاه البحري في القصيدة التي أولها:

هاج الخيال لنا ذكرى إذا طافا
وافى يخادعنا والصبح قد وافى

وكان قد احتاج إلى ذكر الآلاف، والإسعاف، والأضعاف، والإسراف، وترك الاقتصار على الأنصاف، فجعل القصيدة فائية، فاستوى له مرادُه وقرب عليه مرامه، وهو قوله:

قضيت عني ابن بسطام صنيعته
وكان معروفه قصدا إلى وما
عندي وضاعفت ما أولاه أضعافا
جازيته عنه تذبذبا وإسرافا
مئون عينا توليت الثواب بها
حتى انثنت لأبي العباس آفا

قد كان يكفيه مما قدمت يده
ربا يزيد على الأحاد أنصافا

ولا ينبغي أن يكون لفظك وحشيا بدويا، وكذلك لا يصلح أن يكون مبتدلا سوويا. أخبرنا أبو أحمد عن ميرمان عن أبي جعفر بن القتيبي عن أبيه، قال، قال خلف الأحمر: قال شيخ من أهل الكوفة: أما عجبت أن الشاعر قال: أنبت قيصوما وحثجاثا فاحتمل، وقلت أنا: أنبت إحاصا وتفاحا فلم يحتمل.

والمختار من الكلام ما كان سهلا جزلا لا يشوبه شيء من كلام العامة وألفاظ الحشوية، وما لم يخالف فيه وجه الاستعمال، ألا ترى إلى قول المتنبي:

أين البطاريق والحلف الذي حلفوا
بمفرق الملك والزعم الذي زعموا

هذا قبيح جدا، وإنما سمع قول العامة حلف برأسه، فأراد أن يقول مثله، فلم يستول له، فقال: بمفرق الملك، ولو جاز هذا لجاز أن يقول: حلف بيافوخ أبيه، وبمحدودة سيده.

وقبح هذا يدل على أن أمثاله غير جائز في جميع المواضع، وهذا النوع في شعر المتنبي كبعد الاستعارة في

شعر أبي تمام.

ومن الألفاظ ما يستعمل رباعية وخماسية دون ثلاثية، ومنها ما هو بخلاف ذلك، فينبغي ألا تعدل عن جهة الاستعمال فيها، ولا يغرّك أن أصولها مستعملة، فالخروج عن الطريقة المشهورة والتّهج السلوك رديء على كل حال. ألا ترى أن الناس يستعملون التعاطي فيكون منهم مقبولاً، ولو استعملوا العطو وهو أصل هذه الكلمة وهو ثلاثي، والثلاثي أكثر استعمالاً، لما كان مقبولاً ولا حسناً مرضياً، فقس على هذا. ومن الألفاظ ما إذا وقع نكرة قبح موضعه وحسن إذا وقع معرفة، مثل قول بعضهم:

لَمَّا التَقِينَا صَاحِبَ بَيْنٍ بَيْنِنَا **يَدْنِي مِنَ الْقَرَبِ الْبِعَادَ لِحَقَاقًا**

فقوله: "صاح بين بيننا" متكلفٌ جداً. فلو قال: البين كان أقرب، على أن البيت كله رديء، ليس من وصف البلغاء.

وينبغي أن تجتنب ارتكاب الضرورات وإن جاءت فيها رخصة من أهل العربية، فإنها قبيحة تشين الكلام وتذهب بمائة، وإنما استعملها القدماء في أشعارهم لعدم علمهم بقبحاتها، ولأن بعضهم كان صاحب بداية، والبداية مزلة، وما كان أيضاً تنقده عليهم أشعارهم، ولو قد نقدت وبهرج منها المعيب كما نقد على شعراء هذه الأزمنة ويهرج من كلامهم ما فيه أدنى عيب لتجنبوها، وهو كقول الشاعر:

لَهُ زَجَلٌ كَأَنَّهُ صَوْتُ حَادٍ **إِذَا طَلَبَ الْوَسِيقَةَ أَوْ زَمِيرُ**

فلم يشيع.

وقول الآخر:

أَلَمْ يَأْتِيكَ وَالْأَنْبَاءُ تَنَمِي **بِمَا لَاقَتْ لَبُونُ بَنِي زِيَادٍ**

فقال: "ألم يأتيك"، فلم يجزم.

وقال ابن قيس الرقيات:

لَا بَارِكَ اللَّهُ فِي الْغَوَانِي هَلْ **يَصْبِحْنَ إِلَّا لَهْنٌ مَطْلَبُ**

فحرّك حرف العلة.

وقال قعب بن أم صاحب:

مَهْلًا أَعَادَلُ قَدْ جَرَّبْتِ مِنْ خُلُقِي **إِنِّي أَجُودُ لِأَقْوَامٍ وَإِنْ ضَنُّوْا**

فأظهر التضعيف.

ومثله قول العجاج:

تَشْكُو الْوَجَى مِنْ أَظْلَلٍ وَأُظْلَلٍ

كتاب الصناعتين - أبو هلال العسكري

وقال جميل:

ألا لا أرى اثنين أحسن شيمةً
على حدثان الدهر مني ومن جمل

وقال:

إذا جاوز الاثنين سرٌّ فإنه
بنشرٍ وتكثير الوشاة قمينٌ

فقطع ألف الوصل.

وقال غيره:

من الثعالي ووخزٌ من أرانيها

إلى غير ذلك مما يجري مجراه، وهو مكروه الاستعمال وينبغي أن تتحامي العيوب التي تعترى القوافي، مثل السناد والإفواء والإبطاء، وهو أسهلها، والتوجيه وإن جاء في جميع أشعار المتقدمين وأكثر أشعار المحدثين. وينبغي أن ترتب الألفاظ ترتيباً صحيحاً، فتقدم منها ما كان يحسن تقديمه، وتؤخر منها ما يحسن تأخيرها، ولا تقدم منها ما يكون التأخير به أحسن، ولا تؤخر منها ما يكون التقديم به أليق. فما أفسد ترتيب ألفاظه قول بعضهم:

يضحكُ منها كلُّ عضوٍ لها
من بهجة العيشِ وحسنِ القوامِ

ترفلُ في الدارِ لها وفرّة
كوفرة الملط الخليع الغلامِ

كان ينبغي أن يقول: كوفرة الغلام الملط الخليع، أو الغلام الخليع الملط، فأما تقديم الصفة على الموصوف فردئ في صنعة الكلام جداً. وقوله أيضاً: "بهجة العيش وحسن القوام" متنافرٌ غير مقبول. وقول ابن طباطبا:

وعجلةٌ تشدو بألحانها
وكانت الكيسة الخادمة

لو قال: "وكانت الخادمة الكيسة" لكان أجود.

وينبغي ألا يذكر في التشبيب اسماً بغيضاً، فقد أنشد جريرٌ بعض ملوك بني أمية:

ونقول بوزعٌ قد دببت على العصا
هلاً هزئت بغيرنا يا بوزع

فقال له الملك: أفسدتها بوزع.

وقد يقدح في الحسن قبح اسمه، ويزيد في مهابة الرجل فخامة اسمه، ولهذا تكنى البحترى بأبي عبادة، وكان يكنى أبا الحسن، وشهد رجلٌ عند شريح وكان الرجل يكنى أبا الكويفر، فردّ شهادته، ولم يسأل عنه.

وسمع عمر بن عبد العزيز رحمه الله رجلاً يكنى أبا العمرين، فقال: لو كان عاقلاً لكفاه أحدهما.
 وأتى ظالم بن سراق عمر بن الخطاب رضى الله عنه ليستعمله فردّه، وقال: أنت تظلم وأبوك يسرق،
 وظالم هذا جدّ المهلب بن أبي صفرة.
 وهذه جملة كافية إذا تدبّرت، وبالله التوفيق.
 ومن عيوب الكلام تكرير الكلمة الواحدة في كلام قصير: مثل قول سعيد بن حميد: ومثل خادمك بين ما
 يملك فلم يجد شيئاً يفني بحقك، ورأى أن تقرّظك بما يبلّغه اللسان وإن كان مقصراً عن حَقك أبلغ في
 أداء ما يجب لك.
 فكرر الحقّ في المقدار اليسير من الكلام.
 وينبغي أن يتجنّب الكاتب جميع ما يكسب الكلام تعميةً، فيرتب ألفاظه ترتيباً صحيحاً، ويتجنّب السقيم
 منه، وهو مثل ما كتب بعضهم: لفلان وله بي حرمة مظلمة. وكان ينبغي أن يقول: لفلان وأنا أرفع
 حرمة مظلمة. وما يجرى هذا الجرى من الترتيب المختار البعيد من الإشكال.

الفصل الثاني

فيما يحتاج الكاتب إلى ارتسامه وامتثاله في مكاتباته

ينبغي أن تعلم أنّ الكتابة الجيدة تحتاج إلى أدوات حجّة، وآلات كثيرة، مع معرفة العربية لتصحيح الألفاظ،
 وإصابة المعاني، وإلى الحساب، وعلم المساحة، والمعرفة بالأزمنة والشهور والأهلة، وغير ذلك مما ليس ها
 هنا موضع ذكره وشرحه، لأننا إنما عملنا هذا الكتاب لمن استكمل هذه الآلات كلّها، وبقي عليه المعرفة
 بصنعة الكلام، وهي أصعبها وأشدّها.
 والشاهد ما روى لنا أبو أحمد عن ميرمان عن الميرد، أنه قال: لا أحتاج إلى وصف نفسي لعلم الناس بي،
 إنه ليس أحدٌ من الخافقين يخلج في نفسه مسألةً مشكّلةً إلا لقيني بها، وأعدّني لها، فأنا عالمٌ ومتعلمٌ
 وحافظٌ ودارسٌ، لا يخفى عليّ مشتبه من الشعر والنحو والكلام المنثور والخطب والرسائل، ولربما
 احتجت إلى اعتذار من فلتة أو التماس حاجة، فأجعل المعنى الذي أقصده نصب عيني، ثم لا أجد سبيلاً
 إلى التعبير عنه بيد ولا لسان. ولقد بلغني أن عبيد الله بن سليمان ذكرني بجميل، فحاولت أن أكتب إليه
 رقعة أشكره فيها، وأعرض ببعض أموري، فأتعبت نفسي يوماً في ذلك فلم أقدر على ما ارتضيه منها،
 وكنت أحاول الإفصاح عمّا في ضميري، فينصرف لساني إلى غيره. ولذلك قيل: زيادة المنطق على
 الأدب خدعة، وزيادة الأدب على المنطق هجنة.

فأول ما ينبغي أن تستعمله في كتابتك مكاتبة كل فريق منهم على مقدار طبقتهم وقوتهم في المنطق، وقد أشرنا إلى ذلك فيما تقدم.

والشاهد عليه أن النبي صلى الله عليه وسلم لما أراد أن يكتب إلى أهل فارس كتب إليهم بما يمكن ترجمته، فكتب: من محمد رسول الله إلى كسرى إبرويز عظيم فارس: سلامٌ على من أتبع الهدى، وآمن بالله ورسوله، فأدعوك بداعية الله، فإنني أنا رسول الله إلى الخلق كافة لينذر من كان حياً، ويحق القول على الكافرين، فأسلم تسلم، فإن أبيت فأثم الجوس عليك.

فسهل صلى الله عليه وسلم الألفاظ كما ترى غاية التسهيل حتى لا يخفى منها شيء على من له أدنى معرفة في العربية.

ولما أراد أن يكتب إلى قوم من العرب فخم اللفظ، لما عرف من فضل قوتهم على فهمه وعادتهم لسماع مثله.

فكتب لوائل بن حجر الحضرمي: من محمد رسول الله إلى الأقبال العباهلة من أهل حضرموت بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، على التبعة الشاة، والتبعة لصاحبها، وفي السيوب الخمس، لا خلط ولا وراط ولا شناق ولا شغار، ومن أجى فقد أربى، وكل مسكر حرام.

وكذلك كتابه صلى الله عليه وسلم لأكيدر صاحب دومة الجندل: من محمد رسول الله لأكيدر حين أجاب إلى الإسلام وخلع الأنداد والأصنام مع خالد بن الوليد سيف الله.

إن لنا الضاحية من الضحل والبور والمعاهي وأغفال الأرض، والحلقة والسلاح، ولكم الضامنة من التخل، والمعين من المعمور، لا تعدل سارحتكم، ولا تعدد فاردتكم، ولا يحظر عليكم النبات، تقيمون الصلاة لوقتها، وتؤدون الزكاة، عليكم بذلك عهد الله وميثاقه.

واعلم أن المعاني التي تنشأ الكتب فيها من الأمر والنهي سبيلها أن تؤكد غاية التأكيد بجهة كيفية نظم الكلام، لا بجهة كثرة اللفظ، لأن حكم ما ينفذ عن السلطان في كتبه شبيهة بحكم توقيعاته، من اختصار اللفظ وتأکید المعنى هذا إذا كان الأمر والنهي واقعين في جملة واحدة لا يقع فيها وجوه التمثيل للأعمال. فأما إذا وقع في ذلك الجنس فإن الحكم فيهما يخالف ما ذكرناه، وسبيل الكلام فيها أن يحمل على الإطالة والتكرير دون الحذف والإيجاز، وذلك مثل ما يكتب عن السلطان في أمر الأموال وجبايتها واستخراجها، فسبيل الكلام أن يقدم فيها ذكر ما رآه السلطان في ذلك ودبره، ثم يعقب بذكر الأمر بامثاله، ولا يقتصر على ذلك حتى يؤكد ويكرر لتأكيد الحجة على المأمور به، ويحذر مع ذلك من الإخلال والتقصير. ومنها الإحماد والإذمام والثناء والتقريظ، والذم والاستصغار، والعدل والتوبيخ، وسبيل ذلك أن تشبع

الكلام فيه، ويمد القول حسب ما يقتضيه آثار المكتوب إليه في الإحسان والإساءة والاجتهاد والتقصير، ليرتاح بذلك قلب المطيع، وينبسط أمله، ويرتاع قلب المسئى ويأخذ نفسه بالارتداع. فأما ما يكتبه العمال إلى الأمراء ومن فوقهم، فإن سبيل ما كان واقعاً منها في إنهاء الأخبار، وتقرير صور ما يلونه من الأعمال، ويجري على أيديهم من صنوف الأموال أن يمدّ القول فيه حتى يبلغ غاية الشفاء والإقناع، وتام الشرح والاستقصاء، إذ ليس للإيجاز والاقتصار عليه موضع، ويكون ذلك بالألفاظ السهلة القريبة المأخذ، السريعة إلى الفهم، دون ما يقع فيه استكراه وتعقيد، وربما تعرض الحاجة في إنهاء الخبر إلى استعمال الكناية والتورية عن الشيء دون الإفصاح، لما في التصريح من هتك الستر، في حكايته عن عدوٍ أطلق لسانه به، وفيه أطراح مهابة الرئيس، فيجب إجلاله عنه، وفي الصدق ما يسوءه سماعه، ويقع بخلاف محبته، فيحتاج منشى الكلام إلى استعمال لفظ في العبارة لا تنخرق معه هيبة الرئيس، ولا يعترض فيه ما يشتد عليه، ولا يكون أيضاً معها خيانة في طي ما لا يجب ستره، ولا يكمل لهذا إلا المبرز الكامل المقدم.

وسبيل ما يكتب به في باب الشكر ألا يقع فيه إسهاب، فإن إسهاب التابع في الشكر، إذا رجع إلى خصوصية، نوع من الإبرام والتثقيب، ولا يحسن منه أن يستعمل الإكثار من الثناء والدعاء أيضاً، فإن ذلك فعل الأبعاد الذين لم تتقدم لهم وسائل من الخدمة مقدمات في الحرمة، أو تكون صناعتهم التكسب بتقريظ الملوك وإطراء السلاطين. فلا يقبح إكثار الثناء من هؤلاء.

وليس يحسن منه أيضاً تكرير الدعاء في صدر الكتاب والرقاع عندما يجريه من ذكر الرئيس، فإن ذلك مشغلة وكلفة، والحكم فيما يستعمله من ذلك في الكتب مشبه بحكم ما يستعمل منه شفاهاً. ويقبح من خادم السلطان أن يشغل سمعه في مخاطبته إياه بكثرة الدعاء له وتكثيره عند استئناف كل لفظة.

وسبيل ما يكتب به التابع إلى المتبوع في معنى الاستعطاف ومسألة النظراء ألا يكثر من شكاية الحال ورقتها، واستيلاء الخصاصة عليه فيها، فإن ذلك يجمع إلى الإبرام والإضجار شكاية الرئيس لسوء حاله وقلة ظهور نعمته عليه. وهذا عند الرؤساء مكروه جداً، بل يجب أن يجعل الشكاية مزوجة بالشكر والاعتراف بشمول النعمة وتوفير العائدة.

وسبيل ما يكتب به في الاعتذار من شيء أن يتجنب فيه الإطناب والإسهاب إلى إيراد النكت التي يتوهم أنها مقنعة في إزالة الموحدة، ولا يجمع في تبرئة ساحته في الإساءة والتقصير، فإن ذلك مما يكره الرؤساء، والذي جرت به عادتهم الاعتراف من خدمهم وخولهم بالتقصير والتفريط في أداء حقوقهم وتأدية فروضهم، ليكون لهم فيما يعقبون ذلك من العفو والتجاوز موضع منة مستأنفة تستدعي شكراً، وعارفة مستجدّة تقتضي نشرأ، فأما إذا بالغ المتنصل في براءة ساحته من كل ما قذف به فلا موضع للإحسان إليه

في إعفائه عن ترك السخط، بل ذلك أمرٌ واجبٌ له، وفي منع الرئيس حصته منه ظلمٌ وإساءةٌ.

وينبغي أن يكثر الألفاظ عنده، فإن احتاج إلى إعادة المعاني أعاد ما يعيده منها بغير اللفظ الذي ابتدأ به، مثل ما قال معاوية رضى الله عنه: من لم يكن من بني عبد المطلب جواداً فهو دخيل، ومن لم يكن من بني الزبير شجاعاً فهو لزيق، ومن لم يكن من ولد المغيرة تباها فهو سنيد. فقال: دخيل ثم قال: لزيق ثم قال: سنيد. والمعنى واحد والكلام على ما تراه أحسن، ولو قال لزيق، قم أعاده لسمج.

هذا، أدام الله عزك، بعد أن تفرّق بين من تكتب إليه، "فإن رأيت، وبين من تكتب إليه" فأريك. وأن تعرف مقدار المكتوب إليه من الرؤساء والنظرء والغلمان والوكلاء، فتفرق بين من تكتب إليه بصفة الحال وذكر السلامة، وبين من تكتب إليه بتزكها إجلالاً وإعظاماً، وبين من تكتب إليه: أنا أفعل كذا، وبين من تكتب إليه: نحن نفعل كذا، فأنا من كلام الإخوان والأشباه، ونحن من كلام الملوك. وتكتب في أول الكتاب سلاماً عليك، وفي آخره والسلام عليك، لأنّ الشيء إذا ابتدأت بذكره كان نكرةً، فإذا أعدته صار معرفة، كما تقول: مرّ بنا رجلٌ فإذا رجعت قلت: رجعت الرجل.

وكان الناس فيما مضى يستعملون في أول فصول الرسائل أما بعد. وقد تركها اليوم جماعة من الكتاب، فلا يكادون يستعملونها في شيء من كتبهم، وأظنهم ألبوا بقول ابن القرية وسأله الحجاج عما ينكره من خطابته، فقال: إنك تكثّر الردّ، وتشير باليد، وتستعين بأما بعد. فتحاموه لهذه الجهة مع أنهم رويوا في التفسير أن قول الله تعالى: "وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب" هو قوله أما بعد، فإن استعملته اتباعاً للأسلاف، ورغبة فيما جاء فيه من التأويل فهو حسن، وإن تركته توكيلاً لمطابقة أهل عصرك، وكرهاً للخروج عمّا أصلوه لم يكن ضائراً.

وينبغي أن يكون الدعاء على حسب ما توجه الحال بينك وبين من تكتب إليه وعلى القدر المكتوب فيه. وقد كتب بعضهم إلى حبة له: عصمنا الله وإياك مما يكره. فكتبت إليه: يا غليظ الطبع، لو استجيت لك دعوتك لم نلتق أبداً.

واعلم أنّ الذي يلزمك في تأليف الرسائل والخطب هو أن تجعلها مزدوجة فقط، ولا يلزمك فيها السجع، فإن جعلتها مسجوعة كان أحسن، ما لم يكن في سجعك استكراه وتنافر وتعقيد، وكثير ما يقع ذلك في السجع، وقل ما يسلم إذا طال من استكراه وتنافر.

وينبغي أن تتجنّب إعادة حروف الصلوات والرباطات في موضع واحد إذا كتبت مثل قول القائل: منه له عليه. أو عليه فيه. أو به له منه. وأخفها له عليه، فسيبيله أن تداوله حتى تريله بأن تفصل ما بين الحرفين،

مثل أن تقول: أقمت به شهيداً عليه. ولا أعرف أحداً كان يتتبع العيوب فيأتيها غير مكترث إلا المتنبئ، فإنه ضمّن شعره جميع عيوب الكلام ما أعدمه شيئاً منها حتى تخطى إلى هذا النوع فقال:

ويسعدني في غمرة بعد غمرة

سبوخ له منها عليها شواهد

فأتى من الاستكراه بما لا يطارُ غرابه فتدبر ما قلناه، وارتسمه تظفر ببغيتك منه إن شاء الله.

الباب الرابع

البيان عن حسن النظم وجودة الرصف والسبك وخلاف ذلك

أجناس الكلام المنظوم ثلاثة: الرسائل، والخطب، والشعر، وجميعها تحتاج إلى حسن التأليف وجودة التركيب.

وحسن التأليف يزيد المعنى وضوحاً وشرحاً، ومع سوء التأليف ورداءة الرصف والتركيب شعبة من التعمية، فإذا كان المعنى سبياً، ورصف الكلام ردياً لم يوجد له قبول، ولم تظهر عليه طلاوة. وإذا كان المعنى وسطاً، ورصف الكلام جيداً كان أحسن موقفاً، وأطيب مستمعاً، فهو بمنزلة العقد إذا جعل كل حُرزة منه إلى ما يليق بها كان رائعاً في المرأى وإن لم يكن مرتفعاً جليلاً، وإن احتلّ نظمه فضمت الحبة منه إلى ما لا يليق بها اقتحمته العين وإن كان فائقاً ثميناً.

وحسن الرصف أن توضع الألفاظ في مواضعها، وتمكّن في أماكنها، ولا يستعمل فيها التقديم والتأخير، والحذف والزيادة إلا حذفاً لا يفسد الكلام، ولا يعمى المعنى، وتضم كل لفظة منها إلى شكلها، وتضاف إلى لفظها.

وسوء الرصف تقديم ما ينبغي تأخيره منها، وصرفها عن جوهها، وتغيير صيغتها، ومخالفة الاستعمال في نظمها.

وقال العتاي: الألفاظ أجساد، والمعاني أرواح، وإنما تراها بعيون القلوب، فإذا قدّمت منها مؤخراً، أو أخرت منها مقدّماً أفسدت الصورة وغيّرت المعنى، كما لو حوّل رأس إلى موضع يد، أو يد إلى موضع رجل، لتحوّلت الحلقة، وتغيّرت الحلية. وقد أحسن في هذا التمثيل وأعلم به على أن الذي ينبغي في صيغة الكلام وضع كل شيء منه في موضعه ليخرج بذلك من سوء النظم.

فمن سوء النظم المعاظلة، وقد مدح عمر بن الخطاب رضى الله عنه زهيراً لمجانبتها. فقال: كان لا يعاظر بين الكلام، وأصل هذه الكلمة من قولهم: تعاضلت الجرادتان إذا ركبت إحداهما الأخرى، وعاظل الرجل المرأة إذا ركبها، فمن المعاظلة قول الفرزدق:

تكن مثل من يا ذئبُ يصطحبان

تعال فإن عاهدتني لا تخونني

وقوله:

به عثمان مروان المصابا

هو السيِّف الذي نصر ابن أروى

وقوله للوليد بن عبد الملك:

أبوه ولا كانت كليب تصاهرة

إلى ملك ما أمه من محارب

وقوله يمدح هشام بن إسماعيل:

أبو أمه حيُّ أبوه يقاربه

وما مثله في الناس إلا مملكا

وقوله:

تبكي عليك نجوم الليل والقمر

الشمس طالعة ليست بكاسفة

وقوله:

من مكرمات عظام الأخطار

ما من ندى رجل أحق بما أتى

كفأهما وأشدَّ عقد إزار

من راحتين يزيد يقدح زنده

وقوله:

على ماله حال الردى مثل سائلة

إذا جنته أعطاك عفواً ولم يكن

أجل وإن كانت طوالاً محامله

إلى ملك لا تنصف الساق نعله

وقال قدامة: لا أعرف المعازلة إلا فاحش الاستعارة، مثل قول أوس:

تصمت بالماء تولباً جدعاً

وذات هدم عار نواشرها

فسمى الصبي تولباً، والتولب: ولد الحمار.

وقول الآخر:

على البكر يمر به بساق وحافر

وما رقد الولدان حتى رأيتة

فسمى قدم الإنسان حافراً. وهذا غلط من قدامة كبير، لأن المعازلة في أصل الكلام إنما هي ركوب

الشيء بعضه بعضاً، وسمى الكلام به إذا لم ينضد نضداً مستويًا، وأركب بعض ألفاظه رقاب بعض،

وتداخلت أجزاءه، تشبيهاً بتعاضل الكلاب والجراد، على ما ذكرناه، وتسمية القدم بحافر ليست بمداخلة

كلام في كلام، وإنما هو بعد في الاستعارة.

والدليل على ما قلنا أنك لا ترى في شعر زهير شيئاً من هذا الجنس، ويوجد في أكثر شعر الفحول نحو ما

نفاه عنه عمر رضى الله عنه وحده، فما وجد منه في شعر النابغة قوله:

يثرن الثرى حتى يباشرن برده

إذا الشمس مجت ريقها بالكلال

معناه: يثرن الثرى حتى يباشرن برده بالكلال إذا الشمس مجت ريقها. وهذا مستجهن جداً، لأن المعنى تعمى فيه.

وقول الشماخ:

تخامص عن برد الوشاح إذا مشت تخامص حافي الخيل في الأمعر الوجي

معناه تخامص الحافي الوجي في الأمعر.

وقول لبيد:

في التبشير مع الصبح الأول

وشمول قهوة باكرتها

أي في التبشير الأول مع الصبح.

وكقول ذي الرمة:

أواخر الميس أصوات الفراريج

كأن أصوات من إيغالهن بنا

يريد كأن أصوات آخر الميس أصوات الفراريج من إيغالهن.

وقوله أيضاً:

أجاريّ تصهالٍ وصوتٍ صلاصلٍ

نضا البرد عنه وهو من ذو جنونه

كأنه من تخليطه كلامٌ مجنونٌ أو هجرٌ مبرسم يريد: وهو من جنونه ذو أجاريّ.

وكقول أبي حية النميري:

يهوديّ يقاربُ أو يزيلُ

كما خط الكتاب بكفّ يوماً

يريد: كما خط الكتاب بكف يهوديّ يوماً يقارب أو يزيل.

وقول الآخر:

إذا خاف يوماً نبوةً فدعاهما

هما أخوا في الحرب من لا أخأ له

يريد: أخوا من لا أخ له في الحرب.

وليس للمحدث أن يجعل هذه الأبيات حجةً، ويبين عليها، فإنه لا يعذر في شيء منها، لاجتماع الناس

اليوم على مجانية أمثالها، واستجادة ما يصحّ من الكلام ويستبين، واستبدال ما يشكّل ويستبهم.

فمن الكلام المستوى النظم، الملتئم الرّصف قول بعض العرب:

كأنك لم تحزن على ابن طريف

أي شجر الخابور مالك مورقاً

كتاب الصناعتين - ابو هلال العسكري

فتى لا يحب الزَّادَ إلا من التَّقَى
ولا الخيل إلا كل جرداء شطبةٍ
وأجرد شطبٍ في العنانِ خنوفِ
مقاماً على الأعداءِ غير خفيفِ
أرى الموتَ حلالاً بكلِّ شريفِ
فلا تجزعا يا بني طريفِ فإنني

والمنظوم الجيد ما خرج مخرج المنثور في سلاسته، وسهولته واستوائه، وقلة ضروراته، ومن ذلك قول بعض المحدثين:

وقوفك تحت ظلالِ السيوفِ
كأنك مطَّع في القلوبِ
فكراتُ طرفك مردودةٌ
وفي راحتك الردى والندى
وأفضية الله محتومةٌ
وأنت منفذُ أقدارها
أقر الخلافة في دارها
إذا ما تتاجت بأسرارها
إليك بغامض أخبارها
وكلتاها طوغ ممتارها
وأنت منفذُ أقدارها

ولا تكاد القصيدة تستوى أياها في حسن التأليف، ولا بد أن تتخالف، فمن ذلك قول عبيد بن الأبرص:

وقد إلا لمتي شيب فودعني
وقد أسلي همومي حين تحضرني
زياة بقتود الرحل ناجية
تقرى الهجير بتبغيل وإرقال
منه الغواني وداع الصارم القالي
بجسرة كعلاء القين شمال

وفيها:

تحتى مسومة جرداء عجلزة
والشيب شين لمن أرسى بساحته
فهذا نظم حسن وتأليف مختار.

وفيها ما هو ردى لا خرفيه، وهو قوله:

بان الشباب فالى لا يلم بنا

وقوله:

فبت ألعبها طورا وتلعبني

ثم انصرفت وهي منى على بال

قوله: واحتل بي من مشيب كل محلال بغيض خارج عن طريقة الاستعمال وأبغض منه قوله: وهي ميني
على بال.

وفيها:

وكبش ملمومة باد نواجذها شهباء ذات سراييل وأبطال
السراييل: الدروع، فلو وضع السيوف موضع الدروع لكان أجود.

وفيها:

أوجرت جفرتة خرساً فمال به كما انثنى خضد من ناعم الضال
النصف الثاني أكثر ماءً من النصف الأول.

وفيها:

وقهوة كرضاب المسك طال بها في دنها كر حول بعد أحوال
هذا البيت متوسط.

باكرتها قبل أن يبدؤ الصباح لنا في بيت منهمر الكفين مفضال
النصف الثاني أجود من النصف الأول.
وقوله:

أما إذا دعيت نزال فإنهم يجثون للركبات في الأبدان
هذا ردئ الرصف.
وبعده:

فخلدت بعدهم ولست بخالد والدهر ذو غير وذو ألوان
متوسط.
وبعده:

إلا لأعلم ما جهلت بعقبيهم وتذكرى ما فات أي أوان
مختلّ النظم، ومعناه لست بخالد إلا لأعلم ما جهلت، وتذكرى ما فات، أي أوان كان.
وقول امر بن تولب:

لعمري لقد أنكرت نفسي ورايني مع الشيب أبدالي التي أتبدل
فضول أراها في أديمي بعدما يكون كفاف اللحم أو هو أفضل

سلاحي إليه مثل ما كنت أفعلُ
ضباعٍ علتُ مني به الجلدُ من علُ
حوادثُ أيّامٍ تمرُّ وأغفلُ
فكيف ترى طول السلامةِ تفعلُ
ينوءُ إذا رام القيامَ ويحملُ

بطئُ عن الدّاعي، فلستُ بأخذٍ
كأنّ محطاً في يدي حارثيةً
تدارك ما قبل الشبابِ وبعده
يوذُ الفتى طولَ السّلامةِ والغنى
يردُّ الفتى بعد اعتدالِ وصحةٍ
فهذه الأبيات جيدة السبك حسنة الرصف.
وفيها:

ولا الضيف فيها إن أناخَ محوّلُ

فلا الجارة الدنيا لها تلحينها

فالتّصف الأول محتلٌّ، لأنه خالف فيه وجه الاستعمال، ووجه أن يقول: فهي لا تلحى الجارة الدنيا، أي القرية.
وكذلك قوله:

بمعطنها لم يوردوا الماء قيلولاً

إذا هتكتُ أطناب بيتٍ وأهله

هذا مضطربٌ لتناوله المعنى من بعيد. ووجهُ الكلام أن يقول: إذا دنت إبلنا من حيٍّ ولم ترد إبلهم الماء قيلولاً من إبلنا. والقييل: شرب نصف النهار.
وأشدُّ اضطراباً منه قوله:

بيوتٌ علينا كلها فوه مقبلُ

وما قمعنا فيه الوطاب وحولنا

ووجهُ الكلام: أن يقول: لسنا نحقن اللبن فنجعل الأقماع في الوطاب، لأنّ حولنا بيوت أفواهم مقبلةٌ علينا، يرجون خيرنا، فاضطرب نظمُ هذه الأبيات لعدوِّ لها عن وجه الاستعمال.
ومثله:

إلى الأُنس البادين فهو مزملُ

رأت أمنا كيصا يلفف وطبه

وأودى عيالٌ آخرون فهزلوا

فقال فلان قد أغان عياله

قريب فيجرى إذ يكفّ ويجملُ

ألم يك ولدانٌ أعانوا ومجلسُ

الكيس: الذي يتزل وحده. والوطب: وعاء اللبن. والأُنس البادون: أهله لأنه يرده إليهم، فمنهم من يتذمم فيسقى لبنه ومنهم من يرده كيصا مثل فعل الذي يتزل وحده. مزمل: مبرد.

فهذه الأبيات سمجة الرّصف، لأنّ الفصيح إذا أراد أن يعبر عن هذه المعاني، ولم يسامح نفسه عبر عنها بخلاف ذلك.

وكان القوم لا ينتقد عليهم، فكانوا يسامحون أنفسهم في الإساءة.

فأما مثال الحسن الرّصف من الرسائل فكما كتب بعضهم: ولولا أنّ أجود الكلام ما يدلّ قلبه على كثيره، وتغنى جملة عن تفصيله، لو سعت نطاق القول فيما انطوى عليه من خلوص المؤدّة، وصفاء المحبة، فجال مجال الطّرف في ميدانه، وتصرف تصرف الرّوض في افتنانه، لكنّ البلاغة بالإيجاز أبلغ من البيان بالإطناب.

ومن تمام حسن الرّصف أن يخرج الكلام مخرجاً يكون له فيه طلاوة وماء، وربما كان الكلام مستقيم الألفاظ، صحيح المعاني، ولا يكون له رونق ولا رواء، ولذلك قال الأصمعي لشعر ليبيد: كأنه طيلسان طبراني، أي هو محكم الأصل ولا رونق له.

والكلام إذا خرج في غير تكلف وكد وشدة تفكر وتعمّل كان سلساً سهلاً، وكان له ماء ورواء ورقراق، وعليه فرند لا يكون على غيره مما عسر بروزه واستكره خروجه، وذلك مثل قول الحطيئة:

هم القوم الذين إذا ألمت **ومن الأيام مظلمة أضاعوا**

وقوله:

لهم في بني الحاجل أيد كأنها **تساقط ماء المزن في البلد القفر**

وكقول أشجع:

قصر عليه تحية وسلام **نشرت عليه جمالها الأيام**

وإذا سيوفك صافحت هامّ العداء **طارت لهنّ عن الفراخ الهامّ**

برقت سماؤك للعدوّ فأمرت **هاماً لها ظلّ السيوف غمام**

رأى الإمام وعزمه وحسامه **جند وراء المسلمين قيام**

وكقول النمر:

خاطر بنفسك كي تصيب غنيمه **إنّ الجلوس مع العيال قبيح**

فالمال فيه تجلّة ومهابة **والفقر فيه مذلة وقبوح**

وكقول الآخر:

نامت جدودهم وأسقط نجمهم **والنجم يسقط والجدود تنام**

وكقول الآخر:

لعن الإله تَعَلَّة بن مسافرٍ لعناً يشنُّ عليه من قَدَّام

ففي هذه الأبيات مع جودتها رونق ليس في غيرها مما يجرى مجراها في صحة المعنى وصواب اللفظ.
ومن الكلام الصحيح المعنى واللفظ، القليل الحلاوة العديم الطلاوة قول الشاعر:

أرى رجالاً بأدنى الدِّين قد قنعوا ولا أراهم رضوا في العيش بالدِّونِ

فاستغن بالله عن دنيا الملوك كما اس ستغنى الملوك بدنياهم عن الدِّينِ

ومن الشعر المستحسن الرونق قول دعبل:

وإنَّ امرءاً أمست مساقطُ رحله بأسوانَ لم يتركْ له الحرصُ معلماً

حللتُ محلاً يقصرُ البرقُ دونهُ ويعجز عنه الطيفُ أن يتجسَّماً

الباب الخامس ذكر الإيجاز والإطناب

فصلان

الفصل الأول من الباب الخامس في ذكر الإيجاز

قال أصحاب الإيجاز: الإيجاز قصور البلاغة على الحقيقة، وما تجاوز مقدار الحاجة فهو فضلٌ داخل في باب الهذر والخلط، وهما من أعظم أدواء الكلام، وفيهما دلالة على بلادة صاحب الصناعة. وفي تفضيل الإيجاز يقول جعفر بن يحيى لكتّابه: إن قدرتم أن تجعلوا كتبكم توفيعات فافعلوا. وقال بعضهم: الزيادة في الحدّ نقصان. وقال محمد الأمين: عليكم بالإيجاز فإنّ له إفهاماً، وللإطالة استبهاماً. وقال شبيب بن شبة: القليل الكافي خيرٌ من كثير غير شاف. وقال آخر: إذا طال الكلام عرضت له أسباب التكلّف، ولا خير في شيء يأتي به التكلّف. وقد قيل لبعضهم: ما البلاغة؟ فقال: الإيجاز. قيل: وما الإيجاز؟ قال: حذف الفضول، وتقريب البعيد.

وسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلاً يقول لرجل: كفاك الله ما أهّمك. فقال: هذه البلاغة. وسمع آخر يقول: عصمك الله من المكاره. فقال: هذه البلاغة. وقوله صلى الله عليه وسلم: أوتيت جوامع الكلم.

وقيل لبعضهم: لم لا تطيل الشّعْر؟ فقال: حسبك من القلادة ما أحاط بالعنق. وقيل ذلك لآخر، فقال: لستُ أبيعُه مدارعة.

وقيل للفرزدق: ما صيّرك إلى القصائد القصار بعد الطوال؟ فقال: لأني رأيتها في الصدور أوقع، وفي المحافل أجول.

وقالت بنت الحطيئة لأبيها: ما بال قصارك أكثر من طوالك؟ فقال: لأنّها في الآذان أوجب، وبالأفواه أعلق. وقال أبو سفيان لابن الزبير: قصرت في شعرك؟ فقال: حسبك من الشّعْر غرّة لائحة، وسمة واضحة. وقيل للنابعة الذبياني: ألا تطيل القصائد كما أطال صاحبك ابن حجر؟ فقال: من انتحل انتقر. وقيل لبعض المحدثين: مالك لا تزيد على أربعة واثنين؟ قال: هنّ بالقلوب أوقع، وإلى الحفظ أسرع.

وبالألسن أعلق، وللمعاني أجمع، وصاحبها أبلغ وأوجز.
وقيل لابن حازم: ألا تطيل القصائد؟ فقال:

إلى المعنى وعلمي بالصواب
حذفتُ به الفضولَ من الجوابِ
متقفةً بألفاظِ عذابِ
وما حسنَ الصبأ بأخي الشبابِ
كأطواقِ الحمامِ في الرقابِ
تهادأها الرواةُ مع الركابِ

أبى لي أن أطيلَ الشعرَ قصدي
وإجازي بمختصرٍ قريبٍ
فأبعثنَّ أربعةً وستاً
خوالداً ما حداً ليلٌ نهاراً
وهنَّ إذا وسمتُ بهنَّ قوماً
وكنَّ إذا أقمْتُ مسافراتِ

وقال أمي المؤمنين علي بن أبي طالب رضى الله عنه: ما رأيتُ بليغاً قطَّ إلا وله في القول إيجاز، وفي المعاني إطالة.

وقيل لإياس بن معاوية: ما فيك عيبٌ غير أنك كثير الكلام. قال: أفنسمعون صواباً أم خطأ؟ قالوا: بل صواباً. قال: فالزيادة من الخير خيرٌ. وليس كما قال، لأنَّ للكلام غاية، ولنشاط السامعين نهاية، وما فضل عن مقدار الاحتمال دعا إلى الاستثقال، وصار سبباً للملال، فذلك هو الهذر والإسهاب والخلط، وهو معيب عند كل لبيب.

وقال بعضهم: البلاغة بالإيجاز أنجع من البيان بالإطناب. وقال: المكثار كحاطب الليل. وقيل لبعضهم: من أبلغ الناس؟ قال: من حلَّى المعنى المزبى باللفظ الوجيز، وطبَّق المفصل قبل التحزير.

المزير: الفاضل، والمزى: الفضل. وقوله: "وطبَّق المفصل قبل التحزير". مأخوذ من كلام معاوية رضى الله عنه وهو قوله لعمرو بن العاص لما أقبل أبو موسى: يا عمرو، إنه قد ضمَّ إليك رجلٌ طويل اللسان، قصير الرأي والعرفان، فأقلل الحزَّ، وطبَّق المفصل، ولا تلقه بكلِّ رأيك. فقال عمرو: أكثر من الطعام، وما بطن قومٌ إلا فقدوا بعض عقولهم.
والإيجاز: القصر والحذف.

فالقصر تقليل الألفاظ، وتكثير المعاني، وهو قول الله عزَّ وجل: "ولكم في القصص حياة".
ويتبين فضل هذا الكلام إذا قرنته بما جاء عن العرب في معناه، وهو قولهم: "القتل أنفى للقتل". فصار لفظ القرآن فوق هذا القول لزيادته عليه في الفائدة، وهو إيانة العدل لذكر القصص وإظهار الغرض المرغوب عنه فيه لذكر الحياة، واستدعاء الرغبة والرَّهبة لحكم الله به وإيجازه في العبارة. فإنَّ الذي هو نظير قولهم: "القتل أنفى للقتل" إنما هو "القصص حياة" وهذا أقلُّ حروفاً من ذلك، ولبعده من الكلفة بالتكرير، وهو

قولهم: "القتل أنفى للقتل". ولفظ القرآن برئ من ذلك، وبجسن التأليف وشدة التلاؤم المدرك بالحسن، لأنَّ الخروج من الفاء إلى اللام أعدل من الخروج من اللام إلى الهمزة.

ومن القصر أيضاً قوله تعالى: "إذا لذهب كلِّ إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض" لا يوازي هذا الكلام في الاختصار شيء. وقوله تعالى "يا أيها الناس إنما بغيتكم على أنفسكم". وقوله عز اسمه: "ولا يحقُّ المكر السيئ إلا بأهله" وإنما كان سوء عاقبة المكر والبغي راجعاً عليهم وحائقاً بهم، فجعله للبغي والمكر اللذين هما من فعلهم إيجازاً واختصاراً. وقوله سبحانه: "أفتضرب عنكم الذكر صفحاً". وقوله تعالى: "ولا تجعلوا الله عرضةً لأيمانكم". وقوله تعالى: "فلما استياسوا منه خلصوا نجياً" تحيّر في فصاحته جميع البلغاء، ولا يجوز أن يوجد مثله في كلام البشر. وقوله تعالى: "ولقد راودته عن نفسه فاستعصم". وقوله تعالى: "يا أرض ابلي مائك ويا سماء أقلعي" الآية. تتضمّن مع الإيجاز والفصاحة دلائل القدرة. وقوله تعالى: "الآ له الخلق والأمر" كلمتان استوعبتا جميع الأشياء على غاية الاستقصاء. وروى أن ابن عمر رحمه الله قرأها، فقال: من بقي له شيء فليطلبه. وقوله تعالى: "واختلاف ألسنتكم وألوانكم" اختلاف اللغات والمناظر والهيئات. وقوله تعالى في صفة خمرة أهل الجنة: "لا يصدّعون عنها ولا يتزفون" انتظم قوله سبحانه ولا يتزفون عدم العقل وذهاب المال ونفاد الشراب. وقوله تعالى: "أولئك لهم الأمن" دخل تحت الأمن جميع المحبوبات، لأنه نفى به أن يخافوا شيئاً أصلاً من الفقر والموت وزوال التّعمة والجور، وغير ذلك من أصناف المكاره، فلا ترى كلمة أجمع من هذه.

وقوله عز وجل: "والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس" جمع أنواع التّجارات، وصنوف المرافق التي لا يبلغها العدّد والإحصاء. ومثله قوله سبحانه: "ليشهدوا منافع لهم" جمع منافع الدنيا والآخرة. وقوله تعالى: "فاصدع بما تؤمر" ثلاث كلمات تشتمل على أمر الرسالة وشرائعها وأحكامها على الاستقصاء، لما في قوله فاصدع من الدلالة على التأثير، كتأثير الصدع.

وقوله تعالى: "وكل أمر مستقر" ثلاث كلمات اشتملت على عواقب الدنيا والآخرة. وقوله تعالى: "وله ما سكن في الليل والنهار" وإنما ذكر الساكن ولم يذكر المتحرّك، لأنّ سكون الأجسام الثقيلة مثل الأرض والسماء في الهواء من غير علاقة ودعامة أعجب وأدلّ على قدرة مسكنها. وقوله عز وجل: "خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين" فجمع جميع مكارم الأخلاق بأسرها، لأنّ في العفو صلة القاطعين، والصفح عن الظالمين، وإعطاء المانعين، وفي الأمر بالعرف تقوى الله وصلة الرّحم، وصون اللسان عن الكذب، وغضّ الطّرف عن الحرّمات، والتبرؤ من كل قبيح، لأنه لا يجوز أن يأمر بالمعروف وهو يلبس شيئاً من المنكر، وفي الإعراض عن الجاهلين الصّبر والحلم وتزيه النفس عن

مقابلة السفية بما يوتغ الدين ويسقط القدرة.

وقوله تعالى: "أخرج منها ماؤها ومرعاها"، فدلّ بشيئين على جميع ما أخرج من الأرض قوتاً ومتاعاً للناس، من العشب والشجر والحطب واللّباس والتّار والملح والماء، لأنّ النار من العيدان والملح من الماء، والشاهد على أنّه أراد ذلك كلّه قوله تعالى: "متاعاً لكم ولأنعامكم".
وقوله تعالى: "تسقى بماء واحد ونفض بعضها على بعض في الأكل"، فانظر هل يمكن أحداً من أصناف المتكلمين إيراد هذه المعاني في مثل هذا القدر من الألفاظ.
وقوله عز وجل: "ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين" جمع الأشياء كلها حتى لا يشدّ منها شيء على وجه.

وقوله تعالى: "وفيها ما تشتهي النفس وتلدّ الأعين" جمع فيه من نعم الجنة ما لا تحصره الأفهام، ولا تبلغه الأوهام.

وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إياكم وخضراء الدّمن". وقوله صلى الله عليه وسلم: "حبّك الشيء يعمي ويصم". وقوله صلى الله عليه وسلم: "إنّ من البيان لسحراً". وقوله عليه الصلاة والسلام: "مما ينبّ الربيع ما يقتل حبطاً أو يلمّ". وقوله صلى الله عليه وسلم: "الصحة والفراغ نعمتان". وقوله عليه الصلاة والسلام: "نبيّة المؤمن خير من عمله". وقوله صلى الله عليه وسلم: "ترك الشّرّ صدقة". وقوله صلى الله عليه وسلم: "الحمي في أصول النخل".

فمعاني هذا الكلام أكثر من ألفاظه، وإذا أردت أن تعرف صحّة ذلك فحلها وابنها بناء آخر، فإنّك تجدها تجي في أضعاف هذه الألفاظ.

قوله صلى الله عليه وسلم: "إذا أعطاك الله خيراً فليبين عليك، وابدأ بمن تعول وارترض من الفضل، ولا تلم على الكفاف، ولا تعجز عن نفسك".

وقوله صلى الله عليه وسلم: فليبين عليك أي فليظهر أثره عليك بالصدقة والمعروف، ودلّ على ذلك بقوله: "وابدأ بمن تعول، وارترض من الفضل"، أي اكسر من مالك وأعط، واسم الشيء الرضيحة. "ولا تعجز عن نفسك" أي لا تجمع لغيرك وتبخل عن نفسك، فلا تقدّم خيراً.
وقول أعرابي: اللهم هب لي حقل، وأرض عن حقلك.

وقال آخر: أولئك قوم جعلوا أموالهم مناديل لأعراضهم، فالخير بهم زائد، والمعروف لهم شاهد، أي يقون أعراضهم بأموالهم.

وقيل لأعرابي يسوق مالا كثيراً: لمن هذا المال؟ فقال: لله في يدي.

وقال أعرابي لرجل يمدحه: إنه ليعطي عطاء من يعلم أن الله مادته.
وقول آخر: أما بعد فعظ الناس بفعلك، ولا تعظهم بقولك، واستحي من الله بقدر قربه منك، وخفه بقدر قدرته عليك.

وقال آخر: إن شككت فاسأل قلبك عن قلبي.
ومما يدخل في هذا الباب المساواة، وهو أن تكون المعاني بقدر الألفاظ والألفاظ بقدر المعاني لا يزيد بعضها على بعض، وهو المذهب المتوسط بين الإيجاز والإطناب، وإليه أشار القائل بقوله: كأن ألفاظه قوالب لمعانيه، أي لا يزيد بعضها على بعض.
فما في القرآن من ذلك قوله عز وجل: "حورٌ مقصوراتٌ في الخيام". وقوله تعالى: "ودّوا لو تدهن فيدهنون" ومثله كثير.

ومن كلام النبي صلى الله عليه وسلم: "لا تزال أمتي بخير ما لم تر الأمانة مغنما والزكاة مغرماً". وقوله صلى الله عليه وسلم: "إياك والمشاركة فإنها تميم الغرّة وتحّي العرّة".
ومن ألفاظ هذه الفصول ما كانت معانيه أكثر من ألفاظه، وإنما يكره تمييزها كراهة الإطالة.
ومن نثر الكتاب قول بعضهم: سألت عن خبري وأنا في عافية لا عيب فيها إلا فقدك، ونعمة لا مزيد فيها إلا بك.

وقوله: علمتني نبوتك سلوتك، وأسلمني بأسى منك إلى الصبر عنك. وقوله: فحفظ الله النعمة عليك وفيك، وتولّى إصلاحك والإصلاح لك، وأجزل من الخير حظّك والحظّ منك، ومنّ عليك وعلينا بك.
وقال آخر: يمتست من صلاحك بي، وأخاف فسادك بك، وقد أظنبت في ذم الحمار من شبّهك به.
ومن المنظوم قول طرفة:

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً ويأتيك بالأخبار من لم تزود

وقول الآخر:

تهدى الأمور بأهل الرأي ما صلحت فإن تأبّت فبالأشرار تنقاد

وقول الآخر:

فأما الذي يحصّيهم فمكثّر وأما الذي يطريهم فمقلّل

وقول الآخر:

أهابك إجلالاً وما بك قدرة عليّ ولكن ملء عين حبيبها

وما هجرتك النفس أنك عندها قليل، ولكن قلّ منك نصيبها

كتاب الصناعتين - أبو هلال العسكري

وقول الآخر:

وقلبي إليها بالموّدة قاصدٌ

أصدّ بأيدي العيس عن قصد أهلها

وقول الآخر:

بلى كل ما شفّ النفوس يضيرها

يقول أناسٌ لا يضيرك فقدّها

وقال الآخر:

وحولٌ نلتقي فيه قصير

يطولُ اليومُ لا ألقاك فيه

فقلتُ لصاحبي: فمن يضير

وقالوا: لا يضيرك نأي شهرٍ

قوله: لصاحبي يكاد يكون فضلاً.

وأما الحذف فعلى وجوه، مها أن تحذف المضاف وتقيم المضاف إليه مقامه وتجعل الفعل له، كقوله الله تعالى: "واسأل القرية"، أي أهلها.

وقوله تعالى: "وأشربوا في قلوبهم العجل"، أي حبه وقوله عز وجل: "الحجُّ أشهرٌ معلومات"، أي وقت الحج وقوله تعالى: "بل مكرُّ الليل والنهار"، أي مكركم فيهما.

وقال المتنخل الهذلي:

من الخرس والصراصرة القطاطِ

يمشي بيننا حانوتٌ خمرٍ

يعنى صاحب حانوت فأقام الحانوت مقامه.

وقال الشاعر:

سواسيةً أحرارُها وعبيدُها

لهم مجلسٌ صهّبُ السبّال أدلّةً

يعنى أهل المجلس.

ومنها أن يوقع الفعل على شيئين وهو لأحدهما ويضمّر للآخر فعله، وهو قوله تعالى: "فأجمعوا أمركم وشركاءكم" معناه: وادعوا شركاءكم، وكذلك هو في مصحف عبد الله بن مسعود.

وقال الشاعر:

وعينيه إن مولاهُ ثابَ له وفرُّ

تراه كأنَّ اللهَ يجدُ أنفه

أي ويفقأ عينيه.

وقول الآخر:

وزجّجَ الحواجبَ والعيوناً

إذا ما الغانياتُ برزنَ يوماً

العيون لا تزجج، وإنما أراد وكحلن العيون.
ومنها أن يأتي الكلام على أن له جواباً فيحذف الجواب اختصاراً لعلم المخاطب، كقوله عز وجل: "ولو أن قرآناً سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض" أو كلم به الموتى بل لله الأمر جميعاً" أراد لكان هذا القرآن، فحذف.
وقوله تعالى: "ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رؤوفٌ رحيم"، أراد لعذبكم.
وقال الشاعر:

فأقسم لو شيء أتانا رسوله **سواك ولكن لم نجد لك مدفعاً**

أي لرددناه.
وقوله تعالى: "ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة"، فذكر أمة واحدة ولم يذكر بعدها أخرى، وسواء يأتي من اثنين فما زاد.
وكذلك قوله تعالى: "أمن هو قانتٌ آناء الليل ساجداً وقائماً"، ولم يذكر خلافه، لأن في قوله تعالى: "قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون" دليلاً على ما أراد.
وقال الشاعر:

أراد فما أدري أهم هممته **وذوالهم قدماً خاشع متضائل**

ولم يأت بالآخر.
وربما حذفوا الكلمة والكلمتين، كقوله تعالى: "فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم". وقوله تعالى: "وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً"، أي ووصى بالوالدين إحساناً.
وقال النمر:

فإن المنية من يخشها **فسوف تصادفه أينما**

أي أينما ذهب وقال ذو الرمة:

لعرفانها والعهد ناء وقد بدا **لذي نهية أن لا إلى أم سالم**

المعنى أن لا سبيل إليها ولا إلى لقاءها، فاكتفى بالإشارة إلى المعنى، لأنه قد عرف ما أراد، كما قال النمر بن تولى:

فلا وأبي الناس لا يعلمو **ن لا الخير خير ولا الشر شر**

أي ليسا بدائمين لأحد. والنهية: العقل، والجمع نهي.
وقوله تعالى: "في يوم عاصف"، أي في يوم ذي عاصف. وقوله تعالى: "وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء"، أي ولا من في السماء بمعجز.
ومثل قول الشنفرى:

لا تدفنوني إن دفنى محرّم **عليكم ولكن خامري أمّ عامر**

أي ولكن دعوني للتي يقال لها: خامري أمّ عامر إذا صيدت، يعنى الضبيع.
ومنها القسم بلا جواب، كقوله تعالى: "ق والقرآن المجيد بل عجبوا"، معناه والله أعلم: ق والقرآن المجيد لتبعثنّ، والشاهد ما جاء بعده من ذكر البعث في قوله: "أئذا متنا وكنا ترابا".
ومن الحذف قوله تعالى: "إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه"، أي كباسط كفيه إلى الماء ليقبض عليه.
وقال الشاعر:

إني وإياكم وشوقاً إليكم **كقابض ماء لم تسقه أنامله**

ومن الحذف إسقاط لا من الكلام في قوله تعالى: "يبين الله لكم أن تضلّوا"، أي "لأن لا تضلّوا". وقوله تعالى: "أن تحبط أعمالكم"، أي لا تحبط أعمالكم.
وقال امرؤ القيس:

فقلت يمين الله أبرح قاعداً **ولو قطعوا رأسي لديك وأوصالي**

أي لا أبرح قاعداً.
وقال آخر:

فلا وأبي دهمان زالت عزيزة **على قومها ما فتل الزند قاح**

ومن الحذف أن تضمير غير مذكور، كقوله تعالى: "حتى توارت بالحجاب" يعنى الشمس بدأت في الغيب. وقوله تعالى: "ما ترك على ظهرها من دابة" يعنى على ظهر الأرض. وقوله تعالى: "فأثرن به نقعاً"، أي بالوادي. وقوله تعالى: "والنهار إذا جلاها" يعنى الدنيا أو الأرض. "ولا يخاف عقباها"، يعنى عقى هذه الفعلة.

وقول لبيد:

حتى إذا ألفت يداً في كافرٍ **وأجنّ عورات الثغور ظلامها**

يعني المس تبدا في المغيب.

وضرب منه آخر قوله تعالى: "واختار موسى قومه سبعين رجلاً"، أي من قومه.

وقال العجاج:

تحت الذي اختار له الله الشجر

أي من الشجر وضرب منه ما قال تعالى في أول سورة الرحمن: "فبأي آلاء ربكما تكذبان" وذكر قبل ذلك الإنسان، ولم يذكر الجان ثم ذكره.

ومثله قول المثقب:

أريد الخير أيهما يليني

أم الشر الذي هو يبتغيني

فما أدري إذا يممت أرضاً

أألخير الذي أنا أبتغيه

فكفى عن الشر قبل ذكره، ثم ذكره.

ومن الحذف قوله تعالى: "يشترون الضلالة ويريدون أن تضلوا السبيل"، أراد يشترون الضلالة بالهدى. وقوله تعالى: "وتركنا عليه في الآخرين"، أي أبقينا له ذكراً حسناً في الباقين فحذف الذكر. ومن ذلك قوله تعالى: "فبعث الله غراباً يبحث في الأرض"، أي يبحث التراب على غراب آخر ليواريه، فيرى هو كيف يوارى سواة أخيه. وقوله تعالى: "فترى الين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم"، أي في مرضاتهم. ومن الحذف قول صعصعة وقد سئل عن علي بن أبي طالب رضى الله عنه، فقال: لم يقل فيه مستزيد: لو أنه، ولا مستقر: إنه، جمع الحلم، والعلم، والسلم، والقرابة القرية، والهجرة القديمة، والبصر بالأحكام، والبلاء العظيم في الإسلام.

وقال علي رضى الله عنه: سبق رسول الله صلى الله عليه وسلم، وصلى أبو بكر، وثلت عمر، وخبطتنا فتنة فما شاء الله.

وقال القيسي: مازلت أمتطي النهار إليك، وأستدل لفضلك عليك، حتى إذا جئني الليل، فقبض البصر، ومحا الأثر، أقام بدني، وسافر أجلي، والاجتهاد عاذر، وإذا بلغتك فقط. فقوله: فقط من أحسن حذف وأجود إشارة.

وأخبرنا أبو أحمد، قال: أخبرنا إبراهيم بن الزغل العبشمي، قال: حدثنا المبرد أن عبد الله بن يزيد بن معاوية أتى أخاه خالدًا، فقال: يا أخي، لقد هممت اليوم أن أفتك بالوليد بن عبد الملك. فقال خالد: بئس والله ما هممت به في ابن أمير المؤمنين، وولى عهد المسلمين فقال: إن خيلي مرّت به فبعث بها وأصغري

فيها. فقال: أنا أكفيك، فدخل على عبد الملك، فقال: يا أمير المؤمنين إن الوليد ابن أمير المؤمنين مرّت به خيل ابن عمّه عبد الله بن يزيد، فعبث بها وأصغره فيها. وعبد الملك مطرّق، ثم رفع رأسه وقال: "إنّ الملوك إذا دخلوا قريةً أفسدوها وجعلوا أعزّة أهلها أذلةً". فقال خالد: "وإذا أردنا أن نهلك قريةً أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحقّ عليها القول فدمرناها تدميراً". فقال عبد الملك: أي عبد الله تكلمني، لقد دخل عليّ فما أقام لسانه لنا؟ فقال خالد: أفعلى الوليد تعول؟ فقال عبد الملك: إن كان الوليد يلحن فإن أخاه خالد. فقال له الوليد: اسكت، فوالله ما تعدّ في العير ولا في التّفير. فقال اسمع يا أمير المؤمنين، ثم أقبل عليه فقال: ويحك فمن للعير والتّفير غيري؟ جدّي أبو سفيان صاحب العير، وجدّي عتبة بن ربيعة صاحب التّفير، ولكن لو قلت غنيمات وحييلات الطّائف ورحم الله عثمان قلنا صدقت. وذلك أنّ النبي صلى الله عليه وسلم طرد الحكم بن أبي العاص فصار إلى الطائف يرعى غنيمة ويأوى إلى حبله وهي الكرمة ورحم الله عثمان، أي لردّه إياه. فهذا حذفٌ بديع. وكذلك قول عبد الملك: إن كان الوليد يلحن فإنّ أخاه سليمان. وقول خالد: إن كان عبد الله يلحن فإنّ أخاه خالد، حذفٌ حسنٌ أيضاً. ومثل هذا كثيرٌ في كلامهم، ولا وجه لاستيعابه. ومن الحذف الرديّ قول الحارث بن حلزة:

ل النوكِ ممّن عاشَ كذاً

والعيشُ خيرٌ في ظلال

وإنما أراد: والعيش الناعم خيرٌ في ظلال النوك من العيش الشاقّ في ظلال العقل، وليس يدلّ لحن كلامه على هذا، فهو من الإيجاز المقصر. ومن الحذف الرديّ أيضاً قول الآخر:

أحبُّ من الأكثرِ الرائي

أعاذلٍ عاجلٍ ما أشتهي

يعني عاجل ما أشتهي مع القلّة أحبّ إلىّ من رائته مع الكثرة. ومثله قول عروة بن الورد:

ومقتلهم عند الوغى كان أعزراً

عجبت لهم إذ يقتلون نفوسهم

يعني إذ يقتلون نفوسهم في السلم.

ومثله من نثر الكتّاب ما كتب بعضهم: فإنّ المعروف إذا زجا كان أفضل منه إذا توافر وأبطأ. وتمام المعنى أن يقول: "إذا قل وزجا". فترك ما به يتمّ المعنى، وهو ذكر القلّة. وكتب بعضهم: فما زال حتى أتلف ماله، وأهلك رجاله، وقد كان ذلك في الجهاد والإبلاء أحقّ بأهل الحزم وأولى. والوجه أن يقول: فإنّ إهلاك المال والرجال في الجهاد والإبلاء أفضل من فعل ذلك في

الموادعة.

ومثل هذا مقصر غير بالغ مبلغ ما تقدم في هذا الباب من الحذف الجيد.
وأقبح من هذا كله قول الآخر:

لا يرمضون إذا جرّت مشافرهم
ولا ترى مثلهم في الطّعن ميّالاً
ويفشلون إذا نادى ربيهم
ألا اركبن فقد أنست أبطالا
أراد: ولا يفشلون فتركه، فصار المعنى كأنه ذمّ.

وقول المخبل في الزّبرقان:

وأبوك بدرٌ كان ينتهسُ الحصَى
وأبى الجواد ربيعةٌ بن قبالٍ
فقال الزبرقان: لا بأس، شيخان اشتركا في صنعة.

الفصل الثاني من الباب الخامس في ذكر الإطناب

قال أصحاب الإطناب: المنطق إنما هو بيان، والبيان لا يكون إلا بالإشباع، والشفاء لا يقع إلا بالإقناع، وأفضل الكلام أبينه، وأبينه أشده إحاطةً بالمعاني، ولا يحاط بالمعاني إحاطة تامّة إلا بالاستقصاء، والإيجاز للخواصّ، والإطناب مشتركٌ فيه الخاصة والعامة، والغني والفطن، والريض والمريّاض، ولمعنى ما أطيلت الكتب السلطانية في إفهام الرعايا.

والقول القصد أن الإيجاز والإطناب يحتاج إليهما في جميع الكلام وكلّ نوع منه، ولكلّ واحد منهما موضع، فالحاجة إلى الإيجاز في موضعه كالحاجة إلى الإطناب في مكانه، فمن أزال التدبير في ذل عن جهته، واستعمل الإطناب في موضع الإيجاز، واستعمل الإيجاز في موضع الإطناب أخطأ.
كما روى عن جعفر بن يحيى أنه قال مع عجه بالإيجاز: متى كان الإيجاز أبلغ كان الإكثار عيباً. ومتى كانت الكناية في موضع الإكثار كان الإيجاز تقصيراً.

وأمر يحيى بن خالد بن برمك اثنين أن يكتبوا كتاباً في معنى واحد، فأطال أحدهما، واختصر الآخر، فقال للمختصر وقد نظر في كتابه: ما أرى موضع مزيد. وقال للمطيل: ما أرى موضع نقصان.
وقال غيره: البلاغة الإيجاز في غير عجز، والإطناب في غير حطل. ولا شك في أن الكتب الصادرة عن السلاطين في الأمور الحسيمة، والفتوح الجليلة، وتفخيم النعم الحادثة، والترغيب في الطاعة، والتّهي عن المعصية، سبيلها أن تكون مشبعة مستقصاة، تملأ الصدور، وتأخذ بمجامع القلوب، ألا ترى أن كتاب

المهلب إلى الحجاج في فتح الأزارفة: الحمد لله الذي كفى بالإسلام فقد ما سواه، وجعل الحمد متصلاً بنعمته، وقضى ألا ينقطع المزيد من فضله، حتى ينقطع الشكر من خلقه، ثم إننا كنا وعدونا على حالتين مختلفتين، نرى فيهم ما يسرنا أكثر مما يسوعنا، ويرون فينا ما يسوؤهم أكثر مما يسرهم. فلم يزل ذلك دأبنا ودأبهم، ينصرنا الله ويخذلهم، ويمحصنا ويمحقهم، حتى بلغ الكتاب بنا وبهم أجله، فقطع دابر القوم الذي ظلموا والحمد لله رب العالمين.

وإنما حسن في موضعه مع الغرض الذي كان لكاتبه فيه، فأما إن كتب مثله في فتح يوازي ذلك الفتح في جلالة القدر وعلو الخطر، وقد تطلعت أنفس الخاصة والعامة إليه وتصرفت فيه ظنهم، فيورد عليهم مثل هذا القدر من الكلام في أفصح صورة وأسمجها وأشوهها وأهجنها كان حقيقاً أن يتعجب منه. وكذلك لو كتب عن السلطان في العدل والتوبيخ وما تحب القلوب منه من التغيير والتفكير. يمثل ما روى أن الوليد بن يزيد كتب إلى والي العراقين حين عتب عليه: إني أراك تقدم في الطاعة رجلاً وتؤخر أخرى، فاعتمد على أيتها شئت، والسلام.

و يمثل ما كتب جعفر بن يحيى إلى عامل شكى: قد كثر شاكوك، وقل شاكروك، فإما عدلت، وإما اعتزلت.

ومثل هذا ما كتب به بعض الكتاب إلى عامله على الخراج، وقد وقع عليه تحامل على الرعيّة: إن الخراج عمود الملك، وما استغزر. يمثل العدل، ولا ستر. يمثل الجور. فهذا الكلام في غاية الجودة والوجازة، ولكن لا يصلح من مثل صاحبه وبالإضافة إلى حاله، فالإطناب بلاغة، والتطويل عيب، لأن التطويل بمتزلة سلوك ما يبعد جهلاً بما يقرب. والإطناب بمتزلة سلوك طريق بعيد نزه يحتوي على زيادة فائدة.

وقال الخليل: يختصر الكتاب ليحفظ، ويسط ليفهم. وقيل لأبي عمرو ابن العلاء: هل كانت العرب تطيل؟ قال: نعم، كانت تطيل ليسمع منها، وتوجز ليحفظ عنها. والإطناب إذا لم يكن منه بدٌ إيجاز، وهو في المواعظ خاصة محمود، كما أن الإيجاز في الإفهام محمود ممدوح.

والموعظة كقول الله تعالى: "أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتاً وهم نائمون. أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون. أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلى القوم الخاسرون". فتكرير ما كرر من الألفاظ هنا في غاية حسن الموقع. وقيل لبعضهم: متى يحتاج إلى الإكثار؟ قال: إذا عظم الخطب. وأنشد:

صموتٌ إذا ما الصمتُ زينَ أهلهُ

وفتاقُ أباكارِ الكلامِ المحبّرِ

وقال آخر:

يرمونَ بالخطبِ الطّوالِ وتارةً

وحيَ الملاحظِ خشيةَ الرّقباءِ

وقال بعضهم:

إذا ما ابتدئَ خاطباً لم يقلّ

له أطلّ القولَ أو قصرَ

طبيبٌ بداءِ فنونِ الكلا

م لم يعي يوماً ولم يهذرِ

فإنّ هو أطنبَ في خطبةٍ

قضى للمطيلِ على المقصرِ

وإنّ هو أوجزَ في خطبةٍ

قضى للمقلِّ على المكثّرِ

ووجدنا الناس إذا خطبوا في الصلح بين العشائر أطالوا، وإذا أنشدوا الشعر بين السّماطين في مديح الملوك أطنبوا، والإطالة والإطناب في هذه المواضع إيجاز.

وقيل لقيس بن خازمة: ما عندك في حمالات داحس؟ قال: عندي قرا كل نازل، ورضا كل ساخط، وخطبة من لدن مطلع الشمس إلى أن تغرب، أمر فيها بالتواصل وأنهى عن التقاطع. فقيل لأبي يعقوب الخريبي: هلا اكتفى بقوله: "أمر فيها بالتواصل" عن قوله: "وأهى عن التقاطع"؟ فقال: أو ما علمت أن الكناية والتعريض لا تعمل عمل الإطناب والتكشيف.

وقد رأينا الله تعالى إذا خاطب العرب والأعراب أخرج الكلام مخرج الإشارة والوحي، وإذا خاطب بني إسرائيل أو حكى عنهم جعل الكلام مبسوطاً.

فمما خاطب به أهل مكة قوله سبحانه: "إنّ الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً، ولو اجتمعوا له، وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه، ضعف الطالب والمطلوب". وقوله تعالى: "إذا لذهب كلّ إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض". وقوله تعالى: "أو ألقى السّمع وهو شهيد"، في أشباه لهذا كثيرة. وقل ما تجد قصة لبني إسرائيل في القرآن إلا مطوّلة مشروحة ومكرّرة في مواضع معادة، لبعده فهمهم كان، وتأخر معرفتهم.

وكلام الفصحاء إنما هو شوب الإيجاز بالإطناب والفصيح العالي بما دون ذلك من القصد المتوسّط، ليستدلّ بالقصد على العالي، وليخرج السامع من شيء إلى شيء فيزداد نشاطه وتتوفّر رغبته، فيصرفه في وجوه الكلام إيجازه وإطنابه، حتى استعملوا التكرار ليتوكّد القول للسامع.

وقد جاء في القرآن وفصيح الشعر منه شيء كثير، فمن ذلك قوله تعالى: "كلاً سوف تعلمون، ثم كلاً

سوف تعلمون". وقوله تعالى: "فإن مع العسر يسراً إنَّ مع العسر يسراً". فيكون للتوكيد كما يقول القائل: ارم ارم، واعجل اعجل. وقد قال الشاعر:

كم نعمة كانت لكم كم كم وكم كانت وكم

وقال آخر:

هلاً سألت جموع كند ة يوم ولوا ابن أينا

وإنما جاءوا بالصفة وأرادوا توكيدها فكرهوا إعادتها ثانية، فغيروا منها حرفاً، ثم أتبعوها الأولى، كقولهم: عطشان عطشان كرهوا أن يقولوا: عطشان عطشان، فأبدلوا من العين نونا. وكذلك قالوا: حسن بسن. وشيطان ليطان، في أشباه له كثيرة.

وقد كرر الله عز وجل في سورة الرحمن قوله: "فبأي آلاء ربكما تكذبان"، وذلك أنه عدّد فيها نعماءه وأذكر عباده آلاءه، وتبهم على قدرها، وقدرته عليها، ولطفه فيها، وجعلها فاصلة بين كل نعمة ليعرف موضع ما أسداه إليهم منها.

وقد جاء مثل ذلك عن أهل الجاهلي، قال مهلهل:

على أن ليس عدلاً من كليب

فكررها في أكثر من عشرين بيتاً.

وهكذا قول الحارث بن عبّاد:

قرباً مربوط النعامة مني

كررها أكثر من ذلك، هذا لما كانت الحاجة إلى تكريرها ماسّة، والضرورة إليه داعية، لعظم الخطب، وشدّة موقع الفجيعة، فهذا يدلّك على أن الإطناب في موضعه عندهم مستحسن، كما أن الإيجاز في مكانه مستحبّ.

ولا بدّ للكاتب في أكثر أنواع مكاتباته من شعبة من الإطناب يستعملها إذا أراد المزاوجة بين الفصلين، ولا يعاب ذلك منه. وذلك مثل أن يكتب: عظمت نعمنا عليه، وتظاهر إحساننا لديه. فيكون الفصل الأخير داخلاً في معناه في الفصل الأول، وهو مستحسن لا يعيبه أحد.

ولما أحيط بمروان قال خادمه باسل: من أغفل القليل حتى يكثر، والصغير حتى يكبر، والخفي حتى يظهر أصابه مثل هذا.

وهذا كلام في غاية الحسن، وإن كان معنى الفصلين الأخيرين داخلاً في الفصل الأول.

وهكذا قول الشاعر:

إن شرخَ الشَّبَابِ والشَّعْرَ الأَسْوَدَ

فالشعر الأسود داخل في شرخ الشباب.

وكذلك قول أبي تمام:

ود ما لم يعاصَ كانَ جنوناً

من عناءٍ ونضرةٍ من شحوبٍ

رب خفضٍ تحتَ السرىِّ وغناءٍ

الغناء داخل في الخفض، والعناء داخل في السرى فاعلم.

ومما هو أجل من هذا كله قول الله عز وجل: "إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن

الفحشاء والمنكر والبغى"، فالإحسان داخل في العدل، وإيتاء ذي القربى داخل في الإحسان، والفحشاء

داخل في المنكر، والبغى داخل في الفحش.

وهذا يدل على أن أعظم مدار البلاغة على تحسين اللفظ، لأن المعاني إذا دخل بعضها في بعض هذا

الدخول، وكانت الألفاظ مختارة حسن الكلام، وإذا كانت مرتبة حسنة المعارض سيئة كان الكلام

مردوداً. فاعتمد على ما مثله لك، وقس عليه إن شاء الله.

الباب السادس

حسن الأخذ وحل المنظوم

فصلان

الفصل الأول من الباب السادس في حسن الأخذ

ليس لأحد من أصناف القائلين غنى عن تناول المعاني ممن تقدمهم والصعب على قوالب من سبقهم، ولكن عليهم إذا أخذوها أن يكسوها ألفاظاً من عندهم، ويبرزوها في معارض من تأليفهم، ويوردوها في غير حليتها الأولى، ويزيدوها في حسن تأليفها وجودة تركيبها وكمال حليتها ومعرضها، فإذا فعلوا ذلك فهم أحق بما ممن سبق إليها، ولولا أن القائل يؤدى ما سمع لما كان في طاقته أن يقول، وإنما ينطق الطفل بعد استماعه من البالغين.

وقال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضى الله عنه: لولا أن الكلام يعاد لنفد. وقال بعضهم: كل شيء ثيته قصر إلا الكلام فإنك إذا ثيته طال. على أن المعاني مشتركة بين العقلاء، فرما وقع المعنى الجيد للسوقي والنبطي والزنجي، وإنما تتفاضل الناس في الألفاظ ورفضها وتأليفها ونظمها. وقد يقع للمتأخر معنى سبقه إليه المتقدم من غير أن يلم به، ولكن كما وقع للأول وقع للآخر. وهذا أمر عرفته من نفسى، فلست أمتري فيه، وذلك أتى عملت شيئاً في صفة النساء:

سفرن بدوراً وانتقبن أهلة

وظننتُ أُنِي سبقتُ إلى جمع هذين التشبيهين في نصف بيت، إلى أن وجدته بعينه لبعض البغداديين، فكثرت عجبى، وعزمتُ على ألا أحكم على المتأخر بالسرق من المتقدم حكماً حتماً. وسمعت ما قيل: إن من أخذ معنى بلفظه كان له سارقاً، ومن أخذه ببعض لفظه كان له سالحاً، ومن أخذه فكساه لفظاً من عنده أجود من لفظه كان هو أولى به ممن تقدمه. وقالوا: إن أبا عذرة الكلام من سبك لفظه على معناه، ومن أخذ معنى بلفظه فليس له فيه نصيب. على أن ابتكار المعنى والسبق إليه ليس هو فضيلة يرجع إلى المعنى، وإنما هو فضيلة ترجع إلى الذي ابتكره وسبق إليه، فالمعنى الجيد جيدٌ وإن كان مسبوقةً إليه، والوسط وسط، والردئ رديء، وإن لم يكونا مسبوقةً إليهما.

وقد أطبق المتقدمون والمتأخرون على تداول المعاني بينهم، فليس على أحد فيه عيبٌ إلا إذا أخذه بلفظه كله، أو أخذه فأفسده، وقصّر فيه عمّن تقدمه، وربما أخذ الشاعر القول المشهور ولم يبال، كما فعل النابغة فإنه أخذ قول وهب بن الحارث ابن زهرة:

تبدو كواكبهِ والشمسُ طالعةٌ تجري على الكاسِ منه الصّابُ والمقرُّ
وقال النابغة:

تبدو كواكبُهُ والشمسُ طالعةٌ لا النور نورٌ ولا الإظلام إظلامٌ
وأخذ قول رجل من كندة في عمرو بن هند:
هو الشمس وافت يومَ دجنٍ فأفضلتُ على كلِّ ضوءٍ والملوك كواكبُ
فقال:

بأنك شمسٌ والملوك كواكبٌ إذا طلعت لم يبدُ منهنَّ كوكبٌ
وسنشبع القول في هذا الباب.

والحاذق يخفي ديبه إلى المعنى يأخذه في سترة فيحكم له بالسبق إليه أكثر من يمرّ به. وأحد أسباب إخفاء السرّ أن يأخذ معنى من نظم فيورده في نثر، أو من نثر فيورده في نظم، أو ينقل المعنى المستعمل في صفة خمر فيجعله في مديح، أو في مديح فينقله إلى وصف، إلا أنه لا يكمل لهذا إلا المبرّز، والكمال المقدّم، فممن أخفى ديبه إلى المعنى وستره غاية السّتر أبو نواس في قوله:

أعطتك ريحانها العقارُ وحنّ من ليك انسفارُ
إن كان قد أخذه من قول الأعشى، على ما حكوا، فقد أخفاه غاية الإخفاء، وقول الأعشى:
وسبيئة ممّا تعتق بابل كدم الذبيح سلبتها جربالها

سئل الأعشى عن سلبتها جربالها. فقال: شربتها حمراء، وبلها بيضاء. فبقي حسن لوها في بدني. ومعنى "أعطتك ريحانها العقار"، أي شربتها فانتقل طيبها إليك. وهكذا قوله:

لا ينزل الليلُ حيثُ حلتُ فدخرُ شرايها نهارُ
من قول قيس بن الخطيم:

قضى الله حين صورها ال خالق ألا تكنها السدّف

وهذا المعنى منقولٌ من الغزل إلى صفة الخمر فهو خفيٌّ.

ومن هذا ما نقله من قول أوس بن حجر في صفة الفرس، فجعله في صفة امرأة:

ولا قصرٌ أزرى بها فتعطلاً

فجردها صفراء لا الطول عابها

وقول أبي نواس:

دون السمين ودونها المهزولُ

فوق القصيرة والطويلة فوقها

وإن كان أخذه من قول ابن الأحمر:

فمن يرها لم ينسها ما تكلماً

نفوت القصار والطوال تفتتها

أو من قول ابن عجلان النهدي:

تطول القصار والطوال تطولها

ومخملة باللحم من دون ثوبها

فقد أخذه بلفظه، وأحد هذين أخذه من قول أوس، والإحسان فيه له.

ومما أخذه ونقله من معنى إلى معنى قوله:

ورياها على سفرٍ

كميت جسمها معنا

وممن أخفى الأخذ أبو تمام في قوله:

إليك كما ضم الأنايب عاملُ

جمعت عرى أعمالها بعد فرقة

قالوا: هو من قول الحبال الربيعي:

فما الكفُّ إلا إصبعٌ ثمَّ إصبعُ

أولئك إخوان الصفاء رزيتهم

وهكذا قوله وقد نقله من معنى إلى آخر:

تحاول ثأراً عند بعض الكواكبِ

مكارمُ لجت في علو كأنما

قالوا هو من قول الأخطل:

بعقر التالي طالبٌ بذنوبِ

عروق لحق السائلين كأنه

وهكذا قول بشار:

إلا شهادة أطراف المساويكِ

يا أطيّب الناس ريقاً غير مختبرِ

من قول سليك:

خليق الثنايا بالعدوبة والبردِ

وتبسم عن ألمى اللثات مفلجِ

ومن قول الآخر:

كتاب الصناعتين- ابو هلال العسكري

كما شيم في أعلى السحابة بارقُ

وما ذقتُهُ إلا بعيني تفرساً

ومما أخذه وزاد فيه عن الأول قوله:

أفناهم الصبرُ إذ أبفاكمُ الجزعُ

من قول السموعل:

وتكرهه آجالهمُ فنتطولُ

يقربُ حبُّ الموتِ آجالنا لنا

أورده أبو تمام في نصف بيت واستوفى التطبيق.

ومن هذا الضرب قوله:

أبقيتَ شيئاً لديّ من صلتكُ

علمني جودك السباح فما

من قول ابن الخياط:

ولم أدري أنّ الجودَ من كفه يعدي

لمستُ بكفي كفه أبتغي الغنى

أفدتُ وأعداني فأتلفتُ ما عندي

فلا أنا منه ما أفاد ذوو الغنى

ومن نقل المعنى من صفة إلى أخرى البحري فإنه قال في المتوكل:

في وسعه لسعي إليك المنبرُ

ولو أنّ مشتاقاً تكلفَ غير ما

أخذه من قول العرحي في صفة نساء:

حيّاً الحطيمُ وجوههن وزمزمُ

لو كان حيّاً قبلهنّ ظعائنا

إلا أنه غير خاف.

ومن أخذ المعنى فزاد على السابق إليه زيادةً حسنة أبو نواس في قوله:

ويلطمُ الوردَ بعنابِ

بيكي فيذري الدرّ من نرجسِ

أخذه من قول الأسود بن يعفر:

قنأتُ أنامله من الفرصادِ

يسعى بها ذو تومتين كأنما

وأخذ بعض المتأخرين بيتَ أبي نواس، فزاد عليه زيادةً عجيبة، فقال:

ورداً وعضتُ على العنابِ بالبردِ

وأسبلتُ لؤلؤاً من نرجسِ فسقتُ

فجاء بما لا يقدرُ أحدٌ أن يزيد عليه.

ومن ذلك أيضاً قوله وقد زاد فيه على الأوّل:

كتمشني البرء في السقمِ

فتمشّت في مفاصلهم

أخذه من قول مسلم:

مجرى المعافاة في أعضاء منتكس

تجري محبتها في قلب عاشقها

وجميع ذلك مأخوذ من قول بعض ملوك اليمن:

وظلوعها من حيث لا تمسى

منع البقاء تقلب الشمس

يجري حمام الموت في النفس

يجري على كبد السماء كما

ومن ذلك قول مسلم:

وأحسدها إذا هبت جنوبا

أحب الرياح ما هبت شمالاً

خمساً تردى برداء الغلام

راح إذا ما الشيخ والى بها

أحسن رصفاً من قول حسان رضى الله عنه:

ود ما لم يعاص كان جنونا

إن شرخ الشباب والشعر الأس

وقول أبي تمام:

ما الحب إلا للحبیب الأول

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى

أبين وأدخل في الأمثال من قول كثير:

أبيناً وقلنا الحاجبية أول

إذا ما أردت خلة أن تزلنا

وقد زاد أبو تمام أيضاً في قوله:

فيادمع أنجدي على ساكني نجد

وأنجدت من بعد إتهام داركم

على الأعرابي في قوله:

على الخد مما ليس يرقاً حائراً

ومستجد للحزن دمعاً كأنه

بقوله: "أنجدي على ساكني نجد"، وقد زاد أيضاً في قوله:

أولئك عقا لأنه معاقله

وإن بين حياطناً عليه فإنما

على زهير في قوله: والسيوف معاقله لما جاء به مت التجنيس في قوله: عقالاته، ومعاقله. على أن قوله

زهير في معناه لا يلحقه لاحق، وإنما زاد عليه أبو تمام في اللفظ.

وأخذ قول أبي تمام إبراهيم بن العباس، فقال: وأصبح ما كان يجرزهم يبرزهم، وما كان يعقلهم يقتلهم.

ونقله إلى موضع آخر، فقال: واستزلوه من معقل إلى عقال، وبدلوه آجالاً من آمال. وقوله: "آجالاً من

آمال" مأخوذ من قول مسلم:

موفٍ على مهجٍ في يومٍ ذي رهجٍ
ينالُ بالرفقِ ما يعيا الرجالُ بهِ
وقد أخذَ أيضاً قولَ أبي دهبِل:

ما زلتَ في العفو للذنوبِ وإط
حتّى تمنى البراةُ أنّهمُ
فجاء به في بيت واحد وهو قوله:

وتكفل الأيتامَ عن آبائهمُ
حتى وددنا أننا أيتامُ
وسبق أيضاً من تقدمه في قوله حتى صار لا يلحقه فيه أحدٌ بعده:

وركب كأطرافِ الأسنّةِ عرسوا
لأمرٍ عليهم أن تيمّ صدورهم
سبقاً بيناً بهذه المعاني، وإنما أخذ البيت الأول من قول البعيث:

أطافت بركبِ كالأسنّةِ هجّد
بخاشعةِ الأصواءِ غيرِ صحوئها
والبيت الثاني من بعض الأعراب:

غلامٌ وغيّ تقحّمها فأبلى
وكان على الفتى الإقدامُ فيها
وبين القولين بونٌ بعيد.
وزاد أيضاً في قوله:

إذا شبّ ناراً أفعدتُ كلَّ قائمٍ
على الآخر في قوله:

أتاني وأهلي بالمدينةِ وقعة
فقول أبي تمام: "وقام لها من خوفه كلُّ قاعد" زيادة حسنة.
وكذلك قوله في ابني عبد الله بن طاهر:

نجمانِ شاءَ اللهُ ألا يطلعَا
إنَّ الفجيرةَ بالرياضِ نواضراً
لهفي على تلك المخابلِ فيهما
إلا ارتداد الطرفِ حتّى يأفلا
لأجل منها بالرياضِ ذوابلا
لو أمهلت حتّى تكون شماتلا

للمكرماتِ وكان هذا كاهلاً
أيقنت أن سيكونُ بديراً كاملاً

عليه ولم أتعبُ عليه البواكياً
لو أن المنايا أنسأتُهُ ليالياً

سيغرقُ في البحرِ الذي أنتَ حائضُ

إلى أحدٍ إلا إليك ضميرُها

ومن جدواك راحلتي وزادي
وإن قلقتُ ركابي في البلادِ

فقصّرَ عمّا فيك من صالحِ جهدي

ولا كلُّ ما فيه يقولُ الذي بعدي
أتاني الذي فيه بأدنى الذي عندي

فأنتَ مما نثني وفوقَ الذي نثني
لغيرك إنساناً فأنتَ الذي نعني

لو ينسآنَ لكانَ هذا غارباً
إنَّ الهلالَ إذا رأيتَ نموّه

أحسنُ وأجودُ مما أخذَ منه هذه المعاني وهو قول الفرزدق:

وجفنُ سلاحٍ قد رزيتَ فلم أنحُ

وفي جوفه من دارمِ ذو حفيظةٍ

لا يقع بيتُ الفرزدق مع أبيات أبي تمام موقعا.
وقد أجاد أيضاً في قوله:

وقد علمَ القرنُ المساميكَ أنه

وزاد فيه على من أخذه منه وهو لقيط بن يعمر:

إني أخافُ عليها الأزلَمَ الجذعاً

بيت أبي تمام أكثر ماءً وأبين معنى.

وأخذ قول الفرزدق:

وما أمرتني النفسُ في رحلةٍ لها

فشرحه فقال:

وما طوّفتُ في الآفاقِ إلا

مقيمُ الظنِّ عندك والأمني

وإلى بيت الفرزدق يشيرُ القائل:

مدحتك جهدي بالذي أنتَ أهله

فما كلُّ ما فيه من الخيرِ قلته

وكنتُ إذا هياتُ مدحاً لما جدٍ

ومن هاهنا أخذ أبو نواس قوله:

إذا نحنُ أثنينا عليكِ بصالحٍ

وإن جرتِ الألفاظُ يوماً بمدحةٍ

ويشير إلى قول الخنساء:

كتاب الصناعتين - أبو هلال العسكري

وما بلغ المهدون في القول مدحةً

وإن أطنبوا إلا الذي فيك أفضل

وقال البحري:

فمن لؤلؤ تجلوه عند ابتسامها

ومن لؤلؤ عند الحديث تساقطه

أحسن لفظاً وسبكا من قول أبي حية:

إذا هن ساقطن الحديث كأنه

سقاط حصي المرجان من سلك ناظم

وبيت البحري أيضاً أتم معنى، لأنه تضمن ما لم يتضمنه بيت أبي حية من تشبيه الثغر بالدر. وقد زاد أيضاً في قوله:

وفرسان هيجاء تجيش صدورها

بأحقادها حتى يضيق ذروعها

تقتل من وتر أعز نفوسها

عليها بأيدي ما تكاد تطيعها

إذا احتربت يوماً ففاظت نفوسها

تذكرت القربى فغاضت دموعها

شواجر أرماح تقطع بينها

شواجر أرحام ملوم قطوعها

على من قال:

ونبكي حين نقتلكم عليكم

ونقتلكم كأننا لا نبالي

وقريب منه قول مهلهل:

لقد قتلت بني بكر برّبهم

حتى بكيت وما يبكي لهم أحد

وبيتا البحري أجود من بيتهما بغير خلاف، ومن قول فليح بن زيد الفهري أيضاً:

أتبكين من قتلى وأنت قتلتني

بحبك قتلاً بيننا ليس يشكل

فأنت كذباح العصافير دائباً

وعيناؤه من وجد عليهن تهمل

وبيته:

كلّ عان يترجى فكه

ولذات الخال عان ما يفك

أحسن رصفاً من قول زهير وهو الأصل:

وكلّ محبّ أحدث النأي عنده

سلو فؤاد غير حبك ما يسلو

وهكذا قوله:

قوم إذا لبسوا الدرّوع لموقف

لبستهم الأحساب فيه دروعا

أتم وأجود من قول الأول:

كتاب الصناعتين - ابو هلال العسكري

ليسوا الدروع على القلوب

بِ مظاهرينَ لدفع ذلك

وقال أعرابي:

إِنَّ النَّدَى حَيْثُ تَرَى الضَّعَاطَا

فأخذه بشَّارٍ وشرحه ويَّنه، فقال:

يَسْقُطُ الطَّيْرُ حَيْثُ يَنْتَثِرُ ال

حَبُّ وَتَغْشَى مَنَازِلُ الكَرَمَاءِ

ومثله قول الآخر:

يَزِدُّمُ النَّاسُ عَلَى بَابِهِ

وَالْمَنْهَلُ الْعَذْبُ كَثِيرُ الزَّحَامِ

وأخبرني أبو أحمد قال: أخبرني الصولي، قال: سمعت من ينشد المبرد لسلم الخاسر:

سَقَتْنِي بَعِينِيهَا الْهَوَى وَسَقِيَّتْهَا

فَدَبَّ دَبِيبَ الْخَمْرِ فِي كُلِّ مَفْصَلِ

فقال له المبرد: قد حسَّنه أبو نواس حيث يقول:

وَيَدْخُلُ حُبُّهَا فِي كُلِّ قَلْبٍ

مَدَاخِلَ لَا يَغْلُغُهَا الْمَدَامُ

وقول البحري: وغابر حبُّ غارِ بي ثمَّ أنجداً أجود من قول من تقدّمه، وهو الأصل:

أَغَارَ الْهَوَى يَا عَبْدَ قَيْسٍ وَأَنْجَدًا

وأخذ أيضاً أبو تمام خير الشماخ من أحيحة بن الجلاح لما أنشده الشماخ:

إِذَا تَتَعَنَّتِي وَحَمَلْتِ رِحْلِي

عَرَابَةٌ فَاشْرَقِي بَدْمِ الْوَتِينِ

فقال له أحيحة: بسست المجازاة جازيتها فنقل أبو تمام هذا الخبر، فقال:

لَسْتُ كَشَمَّآخِ الْمَذْمَمِ فِي

سَوْءِ مَكَافَاتِهِ وَمَجْتَرَمِهِ

أَشْرَقَهَا مِنْ دَمِ الْوَتِينِ لَقَدْ

ضَلَّ كَرِيمَ الْأَخْلَاقِ عَنْ شِيمِهِ

ذَلِكَ حَكْمٌ قَضَى بِفَيْصَلِهِ

أَحِيحَةُ بْنُ الْجَلَّاحِ فِي أَطْمِهِ

وأخبرنا أبو أحمد قال: قال أبو العيَّاء: سمعت أبا نواس يقول: والله ما أحسن الشماخ حيث يقول:

إِذَا بَلَغْتِي وَحَمَلْتِ رِحْلِي

عَرَابَةٌ فَاشْرَقِي بَدْمِ الْوَتِينِ

هَلَّا قَالَ كَمَا قَالَ الْفَرَزْدَقُ:

عَلَامَ تَلْفَتَيْنِ وَأَنْتِ تَحْتِي

وَخَيْرُ النَّاسِ كُلِّهِمْ أَمَامِي

مَتَى تَرِدِي الرَّصَافَةَ تَسْتَرِيحِي

مِنَ التَّهْجِيرِ وَالدَّبْرِ الدَّوَامِي

وكان قول الشماخ عيباً عندي، فلما سمعت قول الفرزدق تبعته، فقلت:

كتاب الصناعتين - ابو هلال العسكري

وإذا المطيُّ بنا بلغنَ محمداً
قربننا من خير من وطئ الحصى

فظهرهنَّ على الرجال حراماً
فلها علينا حرمةٌ وذمام

وقلت:

أقول لناقتي إذ بلغتني

لقد أصبحت عندي بالثمين

فلم أجعلك للغربان نحلاً

ولا قلتُ اشركي بدم الوتينِ

حرمتِ على الأزمة والولايا

وأعلاق الرحالة والوضيينِ

وتبع السماخ ذو الرمة فقال:

إذا ابن أبي موسى بلالاً بلغته

فقام بفأس بين وصليك جازراً

وسمع أبو تمام قول علي بن أبي طالب رضى الله عنه للأشعث بن قيس: إنك إن صيرت جرى عليك قضاء الله وأنت مأجور، وإن جزعت جرى عليك أمر الله وأنت موزور، فإتاك إن لم تسل احتساباً سلوت كما تسلو البهائم، فحكاها حكاية حسنة في قوله:

وقال علي في التعازي لأشعث

وخاف عليه بعض تلك المآثم

أتصبر للبلوى رجاءً وحسبةً

فتؤجر أم تسلو سلو البهائم

خلقنا رجالاً للتجدد والأسى

وتلك الغواني للبكا والمآثم

والبيت الأخير من قول عبد الله بن الزبير لما قتل مصعب: وإنما التسليم والسلوة لحزماء الرجال، وإن الهلع والجزع لربات الرجال.

وسمع قول زياد لأبي الأسود: لولا أنك ضعيفٌ لاستعملتك. فقال أبو الأسود: إن كنت تريدني للصراع فإني لا أصلح له، وإلا فغير شديد أن أمر وأهني، فقال أبو تمام:

تعجب أن رأيت جسمي نحيفاً

كأن المجد يدرك بالصرع

وزاد أبو تمام أيضاً بقوله:

أطال يدي على الأيام حتى

جزيت صروفها صاعاً بصاع

علي أبي طالب في قوله:

فإن يقتلا أو يمكن الله منهما

نكل لهما صاعاً بصاع المكايل

بيت أبي تمام أصفى وأنصح.
وكذلك قوله:

من النَّكَبَاتِ النَّاكِبَاتِ عن الهوى
فمحبوبها يمشي ومكروها يعدو
أحسن رصفاً مما أخذه منه. وهو الذي أنشدنيه أبو أحمد، قال: أنشدنا ابن دريد قال: أنشدنا الرياشي عن
المعمري حفص بن عمر لبعض المسجونين:

وتعجبنا الرؤيا فجلاً حديثنا،
فإن حسنت م تأت عجلي وأبطأت
إذا نحنُ أصبحنا، الحديثُ عن الرؤيا
وإن قبحت لم تحتبس وأنت عجلي
وأخبرني أبو أحمد، قال أخبرني الصولي، قال حدّثني أبو بكر هرون بن عبد الله المهلي، قال: كنا في حلقة
دعبل، فجرى ذكرُ أبي تمام، فقال دعبل: كان يتتبع معاني فيأخذها، فقال له رجل في مجلسه: ما من ذلك
أعزك الله؟ فقال: قلت:

وإن امرأ أسدى إلى بشافع
شفيحك فاشكر في الحوائج إنه
إليه ويرجو الشكر مني لأحمق
يصونك عن مكروها وهو يخلق
وقال هو، يمدح يعقوب بن أبي ربيعي:

إن الأميرَ بلاك في أحواله
فمتى أقوم بحق شكرك إذ جنت
فراقك أهزعه غداة نضاله
فلمت بين يديك حلوة عطائه
بالغيب كفك لي ثمار نواله
ولقيت بين يدي مر سؤاله
من جاهه فكأنها من ماله
فقال الرجل: أحسن والله فقال دعبل: كذبت قبحك الله قال: لئن كان سبق بهذا المعنى فتبعته لما
أحسنت، وإن كان أخذه منك لقد أجاد، فصار أولى به منك فغضب دعبل وقام.
وسمع بشار قول الجنون:

ألا إنما ليلى عصا خيزرانة
فقال: والله لو جعلها عصا من زبد أو مخ لما أحسن، ألا قال كما قلت:

وحوراء المدامع من معد
إذا قامت لسبحتها تننت
كأن حديثها قطع الجمان
كأن عظامها من خيزران
ولما قال بشار:

من راقبَ الناسَ لم يظفرَ بحاجتِهِ

تبعه سلم الخاسر، فقال:

وفازَ بالطَّيِّباتِ الفانكُ اللّهْجُ

من راقبَ الناسَ ماتَ غمًّا

وفازَ باللَّذَّةِ الجسورُ

فلما سمع بشار هذا البيت قال: ذهب ابن الفاعلة بيبي.

ومن حسن الاتباع أيضاً قول إبراهيم بن العباس حيث كتب: إذا كان للمحسن من الثواب ما يقنعه، وللمسيئ من العقاب ما يقمعه، ازداد المحسن في الإحسان رغبة، وانقاد المسيئ للحق رهبة. أخذه من قول علي بن أبي طالب رضى الله عنه أخبرنا به أبو أحمد، قال أخبرنا أبو بكر الجوهري، قال: أخبرنا أبو يعلى المنقري، قال: أخبرنا العلاء بن الفضل بن جرير قال: قال علي بن أبي طالب رضى الله عنه: يجب على الوالي أن يتعهد أموره، ويتفقد أعوانه، حتى لا يخفى عليه إحسان محسن، ولا إساءة مسيء. ثم لا يترك واحداً منهما بغير جزاء، فإن ترك ذلك تهاون المحسن، واجترأ المسيء، وفسد الأمر، وضاع العمل. وسمع بعض الكتاب قول نصيب:

فعاجوا فأتوا بالذي أنتَ أهلهُ

ولو سكتوا أثت عليك الحقائق

فكتب: ولو أمسك لساني عن شركك لنطق على أترك.

وفي فصل آخر:

ولو جحدتك إحسانك لأكذبتني

آثاره، ونمت على شواهده .

وقريب منه قولهم: شهادات الأحوال أعدل من شهادات الرجال، أخذه ابن الرومي فشرحه في قوله:

حال انسداد فمي عما يريكم

لكن فم الحال مني غير مسدود

حال تصيح بما أوليت معلنة

وكل ما تدعيه غير مردود

كلى هجاء وقتلى لا يحل لكم

فما يداريكم منى سوى الجود

وقريب منه أيضاً قول الشاعر:

أقاتل الحجاج عن سلطانه

بيد تفر بأنها مولاته

ماذا أقول إذا وقفت إزاءه

في الصف واحتجت له فعلاته

أخذه أبو تمام فقال:

ألبيس هجر القول من لو هجوته

إذا لهجاني عنه معروفه عندي

ومن أحسن الاتباع أيضاً أحمد بن يوسف وقد سمع قول علي رضي الله عنه: لا تكونن كمن يعجز عن شكر ما أوتي، ويلتمس الزيادة فيما بقي فكتب: أحق من أثبت لك العذر في حال شغلك من لم يخل ساعة من برك في وقت فراغك.

وأخذه أخذاً ظاهراً أحمد بن صبيح فقال: في شكر ما تقدم من إحسان الأمير شاغل عن استبطاء ما تأخر منه.

وأخذه سعيد بن حميد فقال: لست مستقلاً لشكر ما مضى من بلائك، فاستبطىء درك ما أوّمل من مزيدك.

من هذا أيضاً قول أبي نواس:

لا تسدبن إليّ عارفةً حتى أقومَ بشكرٍ ما سلفاً

وأخبرني أبو أحمد، قال: أخبرني علي بن سليمان الأخفش، قال، قال أبو تمام لابن أبي داود لما غضب عليه: أنت الناس كلهم، ولا طاقة لي بغضب جميع الناس. فقال ابن أبي داود: ما أحسن هذا من أين أخذته؟ قال: من قوله أبي نواس:

وليس لله بمستنكرٍ أن يجمعَ العالم في واحدٍ

ومن سمع هذا الكلام يظنه مسروقاً من قول جرير:

إذا غضبتُ عليّ بنو تميمٍ حسبتُ الناسَ كلهمُ غضاباً

وأخبرنا أبو أحمد قال: أخبرنا الأخفش، قال: أخبرنا المبرد عن الجاحظ قال، سمع قلب المعترلي أبياتاً للعتبي، وهي:

أقلتُ بطالتهُ وراجعهُ حلمٌ وأعقبهُ الهوى ندماً

ألقي عليه الدهرُ كلكلهُ وأعارهُ الإقتارَ والعدما

فإذا ألمَّ به أخو ثقةٍ غضَّ الجفونَ ومجمجَ الكلماً

فقال لبعض الملوك يستعطفه على رجل من أهله: جعلني الله فداك، ليس هو اليوم كما كان، إنه وحياتك أقلت بطالته، أي والله، وراجعه حلمه، وأعقبه وحقك الهوى ندماً، أنحى الدهر والله عليه بكلكله، فهو اليوم إذا رأى أخا ثقة غضَّ بصره من مجمج كلامه.

وبهذا يعرف أن حل المنظوم، ونظم الحلول أسهل من ابتدائهما، لأن المعاني إذا حلت منظوماً أو نظمت منشوراً حاضرة بين يديك تزيد فيها شيئاً فينحل، أو تنقص منها شيئاً فينتظم، وإذا أردت ابتداء الكلام وجدت المعاني غائبةً عنك فتحتاج إلى فكرٍ يحضركها.

والحلول من الشعر على أربعة أضرب، فضرب منها يكون بإدخال لفظة بين ألفاظه. وضرب ينحلّ بتأخير لفظة منه وتقدم أخرى فيحسن محلوله ويستقيم. وضرب منه ينحلّ على هذا الوجه ولا يحسن ولا يستقيم. وضربٌ تكسو ما تحله من المعاني ألفاظاً من عندك وهذا أرفع درجاتك. فأما الضربُ الأول فمثاله ما تقدّم من صدر كلام قليب المعتزلي وأما الضرب الثاني فمثاله ما ذكره بعض الكتاب من قول البحري:

نطلبُ الأكثر في الدنيا وقد نبلغ الحاجة فيها بالأقلّ

ثم قال: فإذا نثرت ذلك ولم تزد في ألفاظه شيئاً قلت: نطلب في الدنيا الأكثر، وقد نبلغ منها الحاجة بالأقل. وقوله:

**أطل جفوة الدنيا وتهوين شأنها
يرجى الخلود معشر ضلّ سعيهم
إذا ما حريز القوم بات وما له
فما الغافل المغرور فيها بعاقل
ودون الذي يبتغون غول الغوائل
من الله واق فهو بادي المقاتل**

فإذا ما نثرت ذلك من غير أن تزيد في ألفاظه شيئاً قلت: أطل تهوين شأن الدنيا وجفوتها، فما المغرور الغافل فيها بعاقل، ويرجو معشر ضلّ رأيهم الخلود، وغول الغوائل دون ما يرجون، وإذا بات حريز القوم ماله واق من الله فهو بادي المقاتل. وهذا المعنى مأخوذ من قول التغلبي:

**لعمرك ما يدري الفتى كيف ينقى
إذا هو لم يجعل له الله واقياً**

وأما الضرب الثالث فهو أن توضع ألفاظ البيت في مواضع، ولا يحسن وضعها في غيرها، فيختل إذا نثر بتأخير لفظ وتقدم آخر، فتحتاج في نثره إلى النقصان منه والزيادة فيه، كقول البحري:

**يسرُّ بعمران الديار مضللاً
ولم أرتض الدنيا أوان مجيئها
وعمرانها مستأنف من خرابها
فكيف أرتضائها أوان ذهابها**

فإذا نثر على الوجه قيل: يسر مضللاً بعمران الدنيا، ومن خرابها عمرانها مستأنف، ولم أرتض أوان مجيئها الدنيا، فكيف أوان ذهابها أرتضائها. فهذا نثرٌ فاسد، فإذا غيرت بعض ألفاظه حسن وهو أن تقول: يسرّ المضلّ بعمران الديار، وإنما تستأنف عمرانها من خرابها، وما ارتضيت الدنيا أوان مجيئها، فكيف أرتضيتها أوان ذهابها؟ ونحن نقول: إن من النظم ما لا يمكن حله أصلاً بتأخير لفظة وتقدم أخرى منه حتى يلحق به التغيير والزيادة والنقصان مثل قول الشاعر:

كتاب الصناعتين - أبو هلال العسكري

فلم يبق إلا صورة اللحم والدم

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده

فالمصراع الأول يمكن أن تؤخر ألفاظه وتقدم، فيصير نشرًا مستقيمًا، وهو أن تقول: فؤاد الفتى نصفٌ ولسانه نصف. ولا يمكن في المصراع الثاني ذلك حتى تزيد فيه أو تنقص منه، فتقول: لسان الفتى نصفٌ وفؤاده نصف، وصورته من اللحم والدم فضلٌ لا غناء بها دونهما ولا معولٌ عليها إلا معهما. وزيادة الألفاظ التي تحصل فيه ليست بضائرة، لأن بسط الألفاظ في أنواع المنثور سائغ، ألا ترى أنها تحتاج إلى الازدواج، ومن الازدواج ما يكون بتكرير كلمتين لهما معنى واحد، وليس ذلك بقبيح إلا إذا اتفق لفظاهما.

ويسوغ هذا في الشعر أيضاً كقول البحري:

فيعلم أسباب الهوى كيف تعلق

بودي لو يهوى العذول ويعشق

فيهوى، ويعشق سواءً في المعنى وهو حسن، إلا أن أكثر ما يحسن فيه إيراد المعنى على غاية ما يمكن من الإيجاز.

ومعنى قوله: "فلم يبق إلا صورة اللحم والدم". داخل في قوله: "لسان الفتى نصفٌ ونصفٌ فؤاده". والمصراع الثاني إنما هو تذييلٌ للمصراع الأول، فإذا أردت أن تحلّه حلاً مقتصرًا بغير لفظه قلت: الإنسان شطران: لسان وحنان. ومما لا يمكن حلّه بتقديم لفظة منه وتأخير أخرى أيضاً قول أبي نواس:

أما والله ما ذهبوا لتبقى

ألا يا بن الذين فنوا وبأدوا

فتحل المصراع الأول فتقول: ألا يا بن الذين ماتوا ومضوا، فيحسن. وتقول في المصراع الثاني: لتبقى أما والله ما ماتوا. أو لتبقى ما ماتوا ومضوا، أما والله، فلا يكون ذلك شيئاً، فتحتاج في نشره إلى تغييره وإبدال ألفاظه، فتقول: ألا يا بن الذين ماتوا ومضوا وطمعنا فناء، أما والله ما طمعنا لتقيم، ولا راموا إلا لترميم، ولا ماتوا لتحيا، ولا فنوا لتبقى.

وفي هذه الألفاظ طولٌ، وليس بضائر على ما خبرتك، فإن أردت اختصاره قلت: أما والله إن الموت لم يصبك في أبيك إلا ليصيبك فيك.

والضرب الرابع أن تكسو ما تحلّه من المنظوم ألفاظاً من عندك، وهذا أرفع درجاتك. ثم نرجع إلى السرقات: قال بعضهم للربيع بن خثيم، وقد رأى اجتهاده في العبادة: أتعبت نفسك، قتلت نفسك. فقال: راحتها أطلب. فقال الشاعر:

وتسكب عيناى الدموع لتجمدا

سأطلب بعد الدار عنكم، لتقربوا

وقال غيره:

تقول سليمي لو أقمت بأرضنا ولم تدر أنني للمقام أطوفُ

ومثل ذلك أن بعضهم رأى أعرابياً مقبلاً إلى مكة ليصوم فيها شهر رمضان والحُرُّ شديد، فقال له: أتجمع على نفسك الصوم وحرّ تهامة؟ فقال: من الحرّ أفرّ وقيل لروح بن قبيصة بن المهلب، وهو واقفٌ في الشمس على باب الخليفة: لقد طال وقوفك في الشمس فقال: الظلّ أريد، فقال أبو تمام:

ألفة النّحيب كم افتراقِ

أظلّ فكان داعيةً اجتماع

وليست فرحة الأوبات إلاّ

وقال امرؤ القيس:

فبعض اللّوم عاذلتي فإني

ستكفيني التجاربُ وانتسابي

يقول: لا أنتسب إلا إلى ميت.

وقال لبيد:

فإن لم تجد من دون عدنان والداً

ودون معدّ فلترعك العواذلُ

فأخذه الحسن البصري، فقال نثراً: إنّ امرءاً لم يعد بينه وبين آدم عليه السلام إلا أبا ميتاً لمعرق له في الموت، فأخذه أبو نواس، فقال:

وما الناس إلا هالكٌ وابن هالكٍ

وذو نسبٍ في الهالكين عريقُ

وقال الله عز وجل: "يحسبون كلّ صيحة عليهم هم العدو"، فأخذه الشاعر فقال وقصّر عنه:

مازلت تحسب كل شيء بعدهم

وخيلاً تكرّ عليهم ورجالا

وكذا قصّرت الخنساء في قولها:

ولولا كثرة الباكين حولي

وما يبكون مثل أخي ولكن

على إخوانهم لقتلت نفسي

عن قول الله تعالى: "ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم في العذاب مشتركون".

ومن خفي السرقة أن أبا مسلم قال لجلسائه: أي الأعراض الأم؟ فقالوا وأكثروا. فقال: ألأمها عرضٌ لم يرتع فيه حمداً ولا ذم، فأخذه المراغي، فقال:

هجوت زهيراً ثم إنني مدحتهُ

ومازلت الإشراف تهجى وتمدخُ

وأخذ عليُّ بن الجهم قول الفرزدق:

ما الباهليُّ بصادقٍ لك وعدُهُ

ومتى تعدك الباهليَّةُ تصدقُ

فقال:

الرُّحَّيُّونَ لا يوفونَ ما وعدُوا

والرُّحَّيَّاتُ لا يخلفنَ ميعادًا

وسمع بعضهم قول العرب: إذا فارق القمر الثريا تمد ولي الشتاء. فنظمه فقال:

إذا ما فارقَ القمرُ الثريَّا

لثالثةٍ فقد ذهبَ الشتاء

وسمعت قول النبي صلى الله عليه وسلم: "يسعى بدمتهم أدناهم وهم يدٌ على من سواهم حيثما كانوا"، فقلت:

يسعى بدمتَّهم أدناهم وهم

يدٌ على من سواهم حيثما كانوا

وهذا يدلُّك على صحَّة ما تقدَّم.

وسمع بعض الكتاب قول أبي تمام:

فإنَّ يجدَ علةً نغمٌ بها

حتى ترائنا نعادُ من مرضية

فكتب: من نزل منزلي من طاعتك ومشاركتك كان حقيقاً أن يهنأ بالنعمة تحدث عنه، ويعزى علي النائبة تلم بك. فنقل العيادة إلى المصيبة والتعزية. وقال بعضهم: الكتابة نقض الشعر. وقيل للعتابي: بم قدرت على البلاغة؟ فقال: بحل معقود الكلام. وأحسن أبو تمام في قوله:

إليك هتكنا جنح ليل كأنما

قد اكتحلت منه البلادُ بإثمٍ

وزاد فيه على أبي نواس، ومنه أخذ، وهو قوله:

أبن لي كيف صرت إلى حريمي

وجنح الليل مكتحلُّ بقارٍ

لأنَّ الاكتحال يكون بالإثم، ولا يكون بالقار.

ومن أخفى الأخذ ابن أبي عيينة في قوله:

ما كنت إلا كلحم ميتٍ

دعا إلى أكله اضطرارُ

أخذه من قول الأول:

وإنَّ بقومٍ سودوك لفاقةً

إلى سيِّدٍ لو يظفرون بسيدٍ

ذكر ذلك عن المأمون.

ومما زاد فيه المتأخرُ على المتقدم فحسن معرضه، وسهل مطلعَه قول ابن المعتز:

ولاحِ ضوءٌ هلالٍ كادَ يفضحنا
مثلَ القلّامةِ إذ قدّتْ من الظفرِ

وقال الأول:

كأنَّ ابنَ ليلتهِ جانِحاً
فسيطٌ لَدَى الأفقِ من خنصرِ

السيط: قلّامة الظفر.

وما يعرف للمتقدم معنى شريفٌ إلا نازعه فيه المتأخرُ وطلب الشركة فيه معه إلا بيت عنتره:

وترى الذبابَ بها يغنى وحدهُ
هزجاً كفعلِ الشاربِ المترنمِ

غرداً يحكُّ ذراعهُ بذراعِهِ
قدحَ المكبِّ على الزنادِ الأجدمِ

فإنه ما نوزع في هذا المعنى على جودته. وقد رامه بعض المجيدين فافتضح.

وأخذ البحري قول الشماخ:

وقربتُ مبراةً كأنَّ ضلوعها
من الماسخيّاتِ القسيِّ الموتراً

مبراة من البرة، وهي الحلقة تجعل في أنف الناقة فزاد عليه، فقال:

كالقسيِّ المعطّفاتِ بلِ ال
أسهمِ مبريّةِ بلِ الأوتارِ

وهذا ترتيب مصيب من أجل أنه بدأ بالأغلظ، ثم انحطَّ إلى الأدقّ، وقد عيب ترتيب أبي تمام في قوله:

أو كالخلوقِ أو كالملاّب

فبدأ بالأنفس ثم انحطَّ إلى الأحسّ، كما تقول، هو مثل النجم، بل القمر، بل الشمس، فترتفع من الشيء

إلى ما هو أعلى منه، وإذا قلت: هو مثل الشمس، بل القمر، بل النجم، لم يحسن.

وقال عروة بن الورد:

تقولُ سليمي لو أقمتَ بأرضنا
ولم تدرِ أني للمقامِ أطوفُ

أخذه أبو تمام وزاد عليه فقال:

ربَّ خفضِ تحتَ السُّرىِ وغناءِ
من عناءِ ونضرةِ من شحوبِ

وقال إبراهيم بن العباس للفضل بن سهل:

لفضلِ بنِ سهلٍ يدُ
تقاصرَ عنها المثلُ

فبسطتها للغنى

وسطوتها للأجل

وباطنها للندى

وظاهرها للقبل

فأتبعه ابن الرومي فأحسن الاتباع، فقال:

أصبحتُ بين خصاصةٍ وتجمّل

والحرُّ بينهما يموتُ هزيباً

فامدّدْ إلى يداً تعودُ بطنها

بذلَ النوالِ وظهرُها التَّقبيلاً

وقال بشار:

الدَّهرُ طلائعُ بأحداثه

ورسلُهُ فيها المقاديرُ

محجوبةٌ تنفذُ أحكامها

ليس لنا عن ذاك تأخيرُ

فأتبعه ابن الرومي وأحسن الاتباع أيضاً، فقال:

يظلُّ عن الحربِ العوانِ بمعزلٍ

وأثارُهُ فيا وإنَّ غابَ شهْدُ

كما احتجب المقدارُ والحكمُ حكمه

على الخلقِ طراً ليس عنه معرّدُ

إلا أن قول بشار أكثرُ ماءً وطلاوة.

ومما لم يسئ الاتباع فيه قوله أيضاً:

سكنتُ سكُوناً كان رهناً بوثبةٍ

عماسٍ، كذاك اللَّيْثُ للوثبِ يلبدُ

وإنما أخذه من قول النابغة:

وقلتُ يا قوم إنَّ اللَّيْثَ منقبضٌ

على برائته للوثبةِ الضَّارى

وكذلك قوله:

كأنَّ أباه حينَ سماءَ صاعداً

رأى كيفَ برقى في المعالي ويصعدُ

أخذه من قول البحري:

سماه أسرته العلاء، وإنما

قصدوا بذلك أن يتمَّ غلاه

وزاد أبو تمام أيضاً على الأفوه، والنابعة، أبي نواس، ومسلم، في معنى تداولوه، وهو قول الأفوه:

وترى الطيرَ على آثارنا

رأى عينِ ثقةٍ أن ستمار

وقول النابغة:

إذا ما غزوا بالجيش حلقَ فوقهم

عصائبُ طيرٍ تهتدي بعصائبِ

جوانحٍ قد أيقنَّ أن قبيله

إذا ما التقى الجمعان أولُّ غالبِ

كتاب الصناعتين - ابو هلال العسكري

وقول أبي نواس:

تتأبى الطير غدوته

ثقة بالشبع من جزره

وقول مسلم:

قد عود الطير عادات وثقن بها

فهن يتبعنه في كل مرتحل

فقال أبو تمام:

أقامت مع الرايات حتى كأنها

من الجيش إلا أنها لم تقاتل

فقوله أقمت مع الرايات زيادة وزاد عليه بعض المحدثين، فقال:

يطمع الطير فيهم طول أكلهم

حتى تكاد على أحيائهم تقع

وقال أبو تمام:

همّة تنطح النجوم وجد

آلف للحضيض فهو حضيض

أخذه البحري فحسّنه وهو قوله:

متحير يغدو بعزم قائم

في كل نائبة وجد قاعد

ومما أخذه أيضاً من أبي تمام فقسّمه تقسيماً حسناً قوله:

ملك له في كل يوم كريهة

إقدام عز واعتزاز مجرب

هو من قول أبي تمام:

ومجربون سقاهم من بأسه

فإذا لقوا فكأنهم أغمار

وقال أبو العتاهية:

كم نعمة لا يستقل بشكرها

الله في طي المكاره كامن

أخذه أبو تمام، فقال:

قد ينعم الله بالبلوي وإن عظمت

ويبتلى الله بعض القوم بالنعم

فزاد عليه لأنه أتى بضد المعنى.

وقال أبو تمام:

رأيت رجائي فيك وحدك همّة

ولكنه في سائر الناس مطمع

فأخذه البحري فاختصره، فقال:

ثنى ألمي فاحتازه عن معاشر

يببتون والآمال فيهم مطمع

كتاب الصناعتين - أبو هلال العسكري

وأخذه ابن الرومي، فقال:

وقد مرَّ دهرٌ والأمانِي وساوِسُ

به صدَّقَ اللهُ الأمانِي حديثها

وقال أبو تمام:

سبُّهُ جائني لغيرِ اللطامِ

رافعٌ كَفَّه لسبري فما أح

أخذه البحترِيّ فزاد عليه في حسنِ اللفظِ والسَّبكِ، فقال:

بأوجههمُ أو عدُّ أم وعيدُ

ووعدُّ ليس يعرفُ من عبوس

وقال الحنيف بن السَّجف:

لها عاندٌ يكسو السَّليبَ إزارها

وفرقتُ بين ابني هنيِمِ بطعنةٍ

يعنى بالعاند: الدم، فأخذه البحترِيّ فزاد عليه في اللفظِ، وقال:

محمرةٌ فكأنهم لم يسلبُوا

سلبوا وأشرفتِ الدماءُ عليهم

على أن محمرة حشو.

وقال أبو تمام:

أو خالطتْ هامته الخندريسُ

كأنما خامرُهُ أولقُ

وقال البحترِي:

من حدَّةٍ أو نشوةٍ أو أفكلِ

وتخال ريعانِ الشَّبَابِ يروعُهُ

فزاد عليه.

وقال أبو تمام:

عادًا غصني ساقًا وكان قضيبا

أنضرتْ أَيْكَتِي عطاياكَ حتى

فقال البحترِي وزاد:

والغصنَ ساقًا والقرارة نيقا

حتى يعودَ الذؤيبُ ليثًا ضيغماً

ومثل هذا كثير وفيما أوردتُ كفايةً إن شاء الله.

الفصل الثاني من الباب السادس في قبح الأخذ

وقبح الأخذ أن تعمد إلى المعنى فتتناوله بلفظه كله أو أكثره، أو تخرجه في معرض مستهجن، والمعنى إنما يحسن بالكسوة: أخبرنا بعض أصحابنا قال: قيل للشعبي، إنا إذا سمعنا الحديث منك نسمعه بخلاف ما نسمعه من غيرك فقال: إني أجده عارياً فأكسوه من غير أن أزيد فيه حرفاً، أي من غير أن أزيد في معناه شيئاً.

فما أخذ بلفظه ومعناه وادّعى لآخذه أو ادّعى له أنه لم يأخذه، ولكن وقع له كما وقع للأول، كما سئل ابن عمرو بن العلاء عن الشاعرين يتفقان على لفظ واحد ومعنى. فقال: عقول رجال توافت على ألسنتها، وذلك قول طرفة:

يقولون: لا تهلك أسيّ وتجلد

وقوفاً بها صحبي على مطيهم

وهو قول امرئ القيس:

يقولون: لا تهلك أسيّ وتجمّل

وقوفاً بها صحبي على مطيهم

فغير طرفة القافية.

وقال الحرث بن وعله:

وعضضتُ من نابي على جذم

الآن لماً ابيضّ مسربتي

وقال غسان السليطي:

وعضضتُ من نابي أجذامي

الآن لما ابيضّ مسربتي

وقال البعيث:

بخيرٍ وقد أعيأ كليباً قديمها

أترجو كليباً أن يجيئ حديثها

وقال الفرزدق:

بخيرٍ وقد أعيأ ربيعاً كبارها

أترجو ربيعاً أن تجيئ صغارها

ومثل هذا كثيرٌ في أشعارهم جداً.

والأخذ إذا كان كذلك كان معيباً وإن ادعى أن الآخر لم يسمع قول الأول، بل وقع لهذا كما وقع لذاك، فإنّ صحة ذلك لا يعلمها إلا الله عز وجل، والعيبُ لازمٌ للآخر. روى لنا أن عمر بن أبي ربيعة أنشد ابن عباس رضى الله عنه:

نشطٌ غداً دارُ جيراننا

فقال ابن عباس:

وللدارُ بعدَ غدٍ أبعدُ

فقال عمر: والله ما قلتُ إلا كذلك.

وإذا كان القوم في قبيلة واحدة، وفي أرض واحدة، فإنَّ حواظهم تقعُ متقاربة، كما أن أخلاقهم وشمائلهم تكون متضارعة، وأنشدت الصحاب إسماعيل ابن عباد:

كانت سراة الناس تحت أظله

فسبقني وقال:

فغدت سراة الناس فوق سراته

وكذلك كنت قلت.

فعلى هذا جائز ما يدعى لهم، والظاهر ما قلناه، فهذا ضرب.

والضرب الآخر من الأخذ المستهجن أن يأخذ المعنى فيفسده أو يعوصه، أو يخرج في معرض قبيح وكسوة مسترذلة، وذلك مثل قول أبي كريمة:

قفاه وجه يشبه البدر

قفاه وجه، ثم وجه الذي

وإنما أخذ هذا من قول أبي نواس:

بذ حسن الوجوه حسن قفاكا

بأبي أنت من مليح بديع

وأحسن ابن الرومي فيه فقال:

عنى ولكن سرى

ما ساءني إعراضه

من كل شيء حسن

سالفناه عوض

وإليه أشار عبد الصمد بن المعذل في قوله:

أفق السماء وقد تعلّى

لما رأيت البدر في

أفق الغروب وقد تدلّى

ورأيت قرن الشمس في

وأرى شبيههما أجلاً

شبهت ذلك وهذه

وقفنا الحبيب إذا تولى

وجه الحبيب إذا بدا

وأخذه أبو نواس من قول النابغة للنعمان بن المنذر: أيفاخركَ ابن جفنة والللات، لأمسك خيرٌ من يومه،
ولقدالك أحسنُ من وجهه، وليساركَ أسمح من يمينه، ولعبيدك أكثر من قومه، ولنفسك أكبر من جنده،
وليومك أشرف من دهره، ولوعدك أنجز من رفده، ولهنالك أصوب من جدّه، ولكرسيك أرفع من
سريره، ولفترك أبسطُ من شبره، ولأملك خيرٌ من أبيه.
والنابغة أحذق الجماعة، لأنه ذكر القذال، وهؤلاء قالوا: القفا، ولا يستحسن أن يخاطب الرجل فيقال له:
قفاك حاله كذا وكذا.

ومن ذلك قول الحسن بن وهب، وقد سمع قولى أعرابي اجتمع مع عشيق له في بعض الليالي: اجتمعت
معها في ظلمة الليل، وكان البدر يرنيها، فلما غاب أرتنيه، فقال:

اراني البدرُ سنَّتها عشاءً
أرنتيه بسنَّتها فكانتُ
فلما أزمع البدرُ الأفولا
من البدرِ المنورِ لي بديلاً

فأطال الكلام، وجعل المعنى في بيتين، وكرّر السنّة والبدر.
وقال البحترى فأربى على الأعرابيّ وزاد عليه:

أضرتُ بضوءِ البدرِ والبدرُ طالعُ
وسمع بعضهم قول محمود الوراق:

إذا كان شكري نعمة الله نعمةً
فكيف بلوغُ الشكرِ إلّا بفضلِهِ
وإن طالَتِ الأيامُ واتَّصلَ العمرُ
وإن مسَّ بالسرَّاءِ عمَّ سرورها
تضيّقُ بها الأوهامُ والبرُّ والبحرُ
وما منهما إلّا لهُ فيه نعمةً

فقال وأساء:

الحمدُ لله إنَّ الله ذو نعمٍ
شكري لهُ عملٌ فيه على لهُ
لم يحصها عدداً بالشكر من حمدا
شكرٌ يكون لشكر قبله مددا

فهذا مثال قبح الأخذ، فاعلمه.

وأخذ ابن طباطبا قول علي رضي الله عنه: قيمة كل امرئ ما يحسنه، فقال:

فيا لائمي دعني أغال بقيمتي
فقيمة كلِّ الناس ما يحسنونه

فأخذه بلفظه، وأخرجه بغيضاً متكلفاً والجيد قول الآخر:

فقيمة كل امرئ علمه

فهذا وإن كان أخذه ببعض لفظه فإن كلا في بيته أحسنُ موقعاً منه في بيت ابن طباطبا.

وقال قرواش بن حوط:

كما يدنو المصافحُ للعناقِ

دونوتُ له بأبيض مشرفي

أخذه أبو تمام فقصر عنه، وقال:

بأنه حنّ مشتاقاً إلى وطنِ

حنّ إلى الموتِ حتى ظنَّ جاهله

وأحسن تقسيمه البحرّي، فقال:

لقاءً أعادِ أم لقاءً حبابِ

تسرّع حتى قال من شهدَ الوغى

وقال ذو الرمة:

بأربعةٍ والشخصُ في العينِ واحدُ

وليلِ كجلبابِ العروسِ أدّرعته

وأعيسُ مهريٌّ وأروغُ ماجدُ

أحمُ علافيٌّ وأبيضُ صارمُ

أخذه أبو تمام فقصر وقال:

ثلاثةٌ أبداً يقرنُ في قرنِ

البيدُ والعيسُ والليلُ التمامُ معاً

وبيت البحرّي في معناه أجود من هذا، إلا أنه لا يلحق بيت ذي الرمة:

رابعُ العيسى والدُّجى والبيدِ

اطلباً ثالثاً سوايَ فإني

ومما قصر فيه البحرّي:

مشغوفةٌ بمواطنِ الكتمانِ

قومٌ ترى أرماحهمُ يومَ الوغى

أخذه من قول عمرو بن معد يكرب:

و الطّاعنينِ مجامعَ الأضغانِ

والضاربينَ بكلِّ أبيضٍ مرهفِ

قوله: "مجامع الأضغان أجود من قوله: مواطن الكتمان، لأنهم إنما يطاعنون الأعداء من أجل أضغانهم، فإذا

وقع الطعن في وضع الضغن فذلك غاية المراد.

ومما قصر فيه قوله:

فلو أنّها بذلت لنا لم تبدلُ

من غادةٍ منعتُ وتمنعُ نيلها

أخذه من قول عبد الصمد بن المعدل:

ظبيّ كأنّ بخصره

من دقّة ظمأً وجوعاً

ومن البليّة أنني

علّقتُ ممنوعاً ممنوعاً

بيت عبد الصمد أبيّن معنى مع شدة الاختصار. وبيت البحترى العويص لا يقام إعرابه إلا بعد نظر طويل.
وقال جابر بن السليك الحمداني:

أرمني بها الليلَ قدّامي فيغشم بي

إذ الكواكبُ مثلُ الأعينِ الحولِ

أخذه البحترى فقصرّ في النظم عنه فقال:

وخدانِ القلاصِ حولاً إذا قا

بلنَ حولاً من أنجمِ الأسحارِ

الأول أسلس.

وقال أبو تمام:

فلم يجتمعْ شرقٌ وغربٌ لقاصدٍ

ه لا المجدُ في كفِّ امرئٍ والدِّرَاهمُ

وقال البحترى فقصرّ:

ليفرّ وفرُّك الموفى وإنْ أع

وزَ أن يجمعَ الندى ووفورهُ

وأخذ أبو تمام قول الشاعر:

فقلتُ لهم لا تعذّلوني وانظروا

إلى النَّازِعِ المقصورِ كيف يكونُ

فقال وقصر:

هرمتَ بعديّ والرُّبعُ الذي أفلتُ

منهُ بدوركِ معذورٌ على الهرمِ

متكلف ردئ الاستعارة.

وقد يتفق المبتدئ للمعنى والآخذ منه في الإساءة، قال ابن أذينة:

كأنما عائبها دائماً

زيّنها عندي بتزيينِ

فأتى بعبارة غر مرضية ونسج غير حسن، وأخذه أبو نواس فقال:

كأنما أنثوا ولم يعلموا

عليك عندي بالذي عابوا

فأتى أيضاً برصفٍ مردّولٍ ونظمٍ مردود.

وقد يستوى الآخذ والمأخوذ منه في الإجادة، في التعبير عن المعنى الواحد. قال أعرابي:

فتمَّ عليها المسكُ والليلُ عاكفُ

كتاب الصناعتين - أبو هلال العسكري

وقال البحري:

فمنَّ بهنَّ المسكُ حتى تَضوَّعا

وحالونَ كتمانَ الترحُّلِ في الدجى

وقال أيضاً:

وجرسُ الحلى عليها رقيقاً

فكان العبيرُ بها واثياً

وقال النابغة:

وإن خلتُ أنَّ المنتأى عنك واسعُ

فإنَّكَ كالليلِ الذي هو مدركي

وقال أبو نواس:

فدهرُ شرَّابها نهارُ

لا ينزلُ الليلُ حيثُ حلتُ

فأحسنا جميعاً في العبارة، وللنابغة قصبة السبق.

ومثل ذلك قول لبيد:

ولا بدَّ يوماً أن تردَّ الودائع

وقال بشار:

وردَّ عليَّ الصبَّ ما استعارا

وقال الفرزدق:

وما حسنُ ليلٍ ليسَ فيه نجومُ

تفاريقُ شيبٍ في الشَّبَابِ لوامعُ

وقال أبو نواس:

تفاريقُ شيبٍ في سوادِ عذارٍ

كأنَّ بقايا ما عفا من حبابها

البيتان متساويان في حسن الرصف، وإن كان أبو نواس أساء في أخذه لفظ الفرزدق، وفي قول الفرزدق

أيضاً زيادةً، وهي: "وما حسنُ ليلٍ ليسَ فيه نجومُ".

وأنشد أبو أحمد، قال: أنشدنا أبو بكر عن عبد الرحمن عن عمه:

وتتدقُّ قدماً في الصدورِ صدورُها

حرامٌ على أرمحينَا طعنُ مدبرٍ

ومكلومةٌ لبَّأتها ونحورُها

مسلمةٌ أعجازُ خيلي في الوغى

أخذه أبو تمام، فقال:

صدور العوالي في صدور الكتائب

أناسٌ إذا ما استحك الروعُ كسروا

فأحسنا جميعاً.
ومثله قول الآخر:

ويقيمُ هامته مقامَ المغفرِ
فهدمتُ ركنَ المجدِ إنْ لم تعقرِ

يلقى السيوفَ بوجهه وبنحره
ويقول للطرفِ اصطبرِ لشباً القنأ

ومثله قول بكر بن النطاح:

وصدورَ القنأ بوجهٍ وقاحٍ

يتلقى الندى بوجه حيّ

وهذا كله مأخوذٌ من قول كعب بن زهير:

وما لهم عن حياض الموت تهليلُ

لا يقع الطعنُ إلا في نحورهم

وهو دون جميع ما تقدّم.

وقد أتيتُ في هذا الباب على كفاية، ولا أعلم أحداً ممن صنّف في سرق الشعر فمثل بين قول المبتدي وقول التالي، وبين فضل الأول على الآخر، والآخر على الأول، غيري، وإنما كانت العلماء قبلي يتّهبون على مواضع السرقة فقط، فقس بما أوردته على ما تركته، فإني لو استقصيته لخرج الكتاب عن المراد، وزاغ عن الإيثار، وباللّهِ التوفيق.

تم الجزء الأول من كتاب الصناعتين، ويتلوه في الجزء الثاني الباب السابع في التشبيه. والحمد لله وحده، وصلواته على سيدنا محمد وآله الطيبين الطاهرين وسلامه وهو حسبنا ونعم الوكيل

الباب السابع

التشبيه

فصلان

الفصل الأول من الباب السابع

في حد التشبيه وما يستحسن من منثور الكلام ومنظومه

التشبيه: الوصف بأن أحد الموصوفين ينوب مناب الآخر بأداة التشبيه، ناب منابه أو لم ينب، وقد جاء في الشعر وسائر الكلام بغير أداة التشبيه. وذلك قولك: زيد شديد كالأسد، فهذا القول الصواب في العرف وداخل في محمود المبالغة، وإن لم يكن زيد في شدته كالأسد على الحقيقة، على أنه قد روى أن إنساناً قال لبعض الشعراء: زعمت أنك لا تكذب في شعرك، وقد قلت:

ولأنت أجرأ من أسامة

أو يجوز أن يكون رجل أشجع من أسد فقال: قد يكون ذلك، فإنا قد رأينا مجزأة بن ثور فتح مدينة ولم تر الأسد فعل ذلك، فهذا قول.

ويصح تشبيه الشيء بالشيء جملة، وإن شابه من وجه واحد، مثل قولك: وجهك مثل الشمس، ومثل البدر، وإن لم يكن مثلهما في ضيائهما وعلوهما ولا عظمهما، وإنما شبهه بما معنى يجمعهما وإياه وهو الحسن. وعلى هذا قول الله عز وجل: "وله الجوار المنشئات في البحر كالأعلام"، إنما شبه المراكب بالجبال من جهة عظمها لا من جهة صلابتها ورسوخها ورزانتها، ولو أشبه الشيء الشيء من جميع جهاته لكان هو هو.

والتشبيه على ثلاثة أوجه: فواحد منها تشبيه شيئين متفقين من جهة اللون، مثل تشبيه الليلة باللبلة، والماء بالماء، والغراب بالغراب، والحرّة بالحرّة. والآخر تشبيه شيئين متفقين يعرف اتفاقهما بدليل، كتشبيه الجوهر بالجوهر، والسواد بالسواد. والثالث تشبيه شيئين مختلفين لمعنى يجمعهما، كتشبيه البيان بالسحر، والمعنى الذي يجمعهما لطافة التدبير ودقة المسلك. وتشبيه الشدة بالموت، والمعنى الذي يجمعهما كراهية الحال وصعوبة الأمر.

وأجود التشبيه وأبلغه ما يقع على أربعة أوجه: أحدها: إخراج ما لا تقع عليه الحاسة إلى ما يقع عليه، وهو قول الله عزّ وجل: "والذين كفروا أعمالهم كسرابٍ بقيعةٍ يحسبه الظّمان ماءً". فأخرج ما لا يحسّ إلى ما يحسّ، والمعنى الذي يجمعهما بطلان التّوهم من شدّة الحاجة وعظم الفاقة، ولو قال: يحسبه الرّأي ماء لم يقع موقع قوله: الظّمان، لأنّ الظّمان أشدّ فاقةً إليه، وأعظم حرصاً عليه.

وهكذا قوله تعالى: "مثل الذين كفروا برّبهم أعمالهم كرمادٍ اشتدّت به الرّيح في يومٍ عاصف". والمعنى الجامع بينهما بعد التّلاقي، وعدم الانتفاع.

وكذلك قوله عزّ وجل: "فمثلته كمثل الكلبٍ إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث"، أخرج ما لا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه من لهث الكلب. والمعنى أن الكلب لا يطيعك في ترك اللهث على حال، وكذلك الكافر لا يجيبك إلى الإيمان في رفق ولا عنف.

وهكذا قوله تعالى: "والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيءٍ إلا كباسط كفيّهِ إلى الماءٍ ليلبغ فاهُ وما هوَ ببالغهِ". والمعنى الذي يجمع بينهما الحاجة إلى المنفعة، والحسرة لما يفوت من درك الحاجة. والوجه الآخر إخراج ما لم تجر به العادة إلى ما جرت به العادة، كقوله تعالى: "وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلّةٌ"، والمعنى الجامع بين المشبه والمشبه به الانتفاع بالصورة.

ومن هذا قوله تعالى: "إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلنا من السّماء... إلى قوله: كأنّ لم تغن بالأمس"، هو بيان ما جرت به العادة إلى ما لم تجر به. والمعنى الذي يجمع الأمرين الزينة والبهجة، ثم الهلاك، وفيه العبرة لمن اعتبر، والموعظة لمن تذكّر.

ومنه قوله تعالى: "إنّا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في يومٍ نحسّ مستمرّاً، تتزع الناس كأنهم أعجاز نخلٍ منقعر"، فاجتمع الأمران في قلع الريح لهما وإهلاكهما والتخوُّف من تعجيل العقوبة. ومن هذا قوله تعالى: "فكانت وردةً كالدهانٍ" والجامع للمعنيين الحمرة ولين الجوهر، وفيه الدلالة على عظم الشّأن، ونفوذ السلطان.

ومنه قوله تعالى: "اعلموا أنّما الحياة الدّنيا لعبٌ وهوٌ... إلى قوله عزّ وجل: ثم يكون حطاماً"، والجامع بين الأمرين الإعجاب، ثم سرعة الانقلاب، وفيه الاحتقار للدّنيا والتّحذير من الاغترار بها.

والوجه الثالث: إخراج ما لا يعرف بالبدئية إلى ما يعرف بها، فمن هذا قوله عزّ وجل: "وجنة عرضها السّموات والأرض"، قد أخرج ما لا يعلم بالبدئية إلى ما يعلم بها، والجامع بين الأمرين العظم، والفائدة فيه التشويق إلى الجنة بحسن الصّفة.

ومثله قوله سبحانه: "كمثل الحمار يحمل أسفارا"، والجامع بين الأمرين الجهل بالحمول، والفائدة فيه الترغيب في تحفّظ العلوم، وترك الاتكال على الرّواية دون الدّراية.

ومنه قوله تعالى: "كأنهم أعجازٌ نخلٍ خاوية"، والجامع بين الأمرين خلوّ الأجساد من الأرواح، والفائدة الحثّ على احتقار ما يؤول به الحال.

وهكذا قوله سبحانه: "كمثل العنكبوت أتخذت بيتاً"، فالجامع بين الأمرين ضعف المعتمد، والفائدة التحذير من حمل النفس على التغيير بالعمل على غير أس.

والوجه الرابع: إخراج ما لا قوة له في الصفة على ما له قوة فيها، كقوله عزّ وجلّ: "وله الجوارِ المنشآتُ في البحرِ كالأعلام"، والجامع بين الأمرين العظم، والفائدة البيان عن القدرة في تسخير الأجسام العظام في أعظم ما يكون من الماء. وعلى هذا الوجه يجري أكثر تشبيهات القرآن، وهي الغاية في الجودة، والنهاية في الحسن.

وقد جاء في أشعار المحدثين تشبيه ما يرى العيان بما ينال بالفكر، وهو رديء، وإن كان بعض الناس يستحسنه لما فيه من اللطافة والدقة، وهو مثل قول الشاعر:

وكنت أعزّ عزاً من فنوع يعوضه صفوحٌ من ملولٍ

فصرتُ أدلّ من معنىٍ دقيقٍ به فقرٌ إلى فهمٍ جليلٍ

وكقول الآخر:

وندمانٍ سقيتُ الرّاحَ صرفاً وأفقُ اللّيلِ مرتفعُ السّجوفِ

صفتُ وصفتُ زجاجتها عليها كمعنىٍ دقّ في ذهنٍ لطيفِ

فأخرج ما تقع عليه الحاسّة إلى ما لا تقع عليه، وما يعرف بالعيان إلى ما يعرف بالفكر، ومثله كثيرٌ في أشعارهم.

وأما الطريقة المملوكة في التشبيه، والنهج القاصد في التمثيل عند القدماء والمحدثين فتشبيه الجواد بالبحر والمطر، والشجاع بالأسد، والحسن بالشمس والقمر، والسهم الماضي بالسيف، والعالي الرتبة بالنجم، والحليم الرزين بالجبل، والحيّ بالبكر، والفاتت بالحلم، ثم تشبيه اللئيم بالكلب، والجبان بالصّفر، والطائش بالفراش، والدليل بالنقد والنعل والفقع والوتد، والقاسي بالحديد والصّخر، والبليد بالجماد، وشهر قومٍ بخصالٍ محمودة، فصاروا أعلاماً فجروا مجرى ما قدّمناه، كالسموع في الوفاء، وحاتم في السخاء، والأحنف في الحلم، وسحبان في البلاغة، وقس في الخطابة، ولقمان في الحكمة. وشهر آخرون بأضداد هذه الخصال، فشبه بهم في حال الدم كباقل في العي، وهبّقة في الحمق، والكسعيّ في التدامة، والمتزوف ضرطاً في الجبن، ومارد في البخل.

والتشبيه يزيد المعنى وضوحاً ويكسبه تأكيداً، ولهذا ما أطبق جميع المتكلمين من العرب والعجم عليه، ولم يستغن أحدٌ منهم عنه.

وقد جاء عن القدماء وأهل الجاهلية من كلِّ جيلٍ ما يستدلُّ به على شرفه وفضله وموقعه من البلاغة بكلِّ لسان. فمن ذلك ما قال صاحب كليله ودمنة: الدنيا كالماء الملح كلما ازدادت منه شرباً ازدادت عطشاً. وقال صحبةُ الأشرار تورث الشرَّ كالريح إذا مرّت على المنتن حملت نتناً، وإذا مرّت على الطيب حملت طيباً. وقال من لا يشكر له كان كمن نثر بذره في السِّبَاح، ومن أشار على معجب كان كمن سارَّ الأصم. وقد نظمت هذا المعنى. فقلت:

ألا إنّما النعمى تجازى بمثلها
إذا كان مسداها إلى ما جدٍ حرّاً
فأمّا إذا كانت إلى غيرِ ماجدٍ
فقد ذهب في غرٍ أجرٍ ولا شكرٍ
إذا المرءُ ألقى في السِّبَاحِ بذوره
أضاع فلم ترجع بزرع ولا بذرٍ

وقال: لا يخفى فضل ذي العلم وإن أخفاه كالمسك يخبأ ويستتر، ثم لا يمنع ذلك رائحته أن تفوح. أخذه صاحب فكتب: فأنت أدام الله عزك وإن طويت عنّا خبرك، وجعلت وطنك وطرك، فأبناؤك تأتينا، كما وشى بالمسك ريّاه، ونمّ على الصباح محيّه.

وقال أيضاً: الرجل ذو المروءة يكرم على غير مال كالأسد يهاب وإن كان رابضاً، والرجل الذي لا مروءة له يهان وإن كان غنيا كالكلب يهون على الناس وإن عسى وطوف.

وقال: المودّة بين الصالحين سريعٌ اتصالتها بطيئٌ انقطاعها كأنية الذهب التي هي بطيئة الإنكسار هيئة الإعادة، والمودة بين الأشرار سريعٌ انقطاعها بطيئٌ اتصالتها كأنية الفخّار يكسرها أدنى شيء، ولا وصل لها.

وقال: لا يرّد بأس العدوّ القويّ. يمثّل التذلل له، كما أنّ العشبَ إنّما يسلمُ من الريح العاصف بليته لها وانثائه معها.

وقال: لا يجب للمذنب أن يفحص عن أمره لقبح ما ينكشف عنه، كالشيء المنتن كلما أثير ازداد نتناً. وقال أيضاً: من صنع معروفًا لعاجل الجزاء فهو كملقى الحبّ للطير لا لينفعها بل ليصيدها به.

وقال أيضاً: المال إذا كان له مدد يجتمع منه ولم يصرف في الحقوق أسرع إليه الهلاك من كل وجه، كالماء إذا اجتمع في موضع ولم يكن له طريقٌ إلى النفوذ تفجّر من جوانبه فضاع.

وقال أيضاً: الأدب يذهب عن العاقل السكر ويزيد الأحمق سكرًا، كالنهار يزيد البصير بصراً ويزيد الخفّاش سوء بصر.

وقد أحسن في هذا المعنى جعفر بن محمد رضى الله عنهما، فقال: الأدب عند الأحمق كالماء العذب في أصول الحنظل كلما ازداد ريثاً ازداد مرارة.
وقال صاحب كليله ودمنة: الدنيا كدودة القز لا تزداد بالإبريسم على نفسها لفاً إلاّ ازدادت من الخروج بعداً.
وقال: إذا عثر الكريم لم ينتعش إلا بكريم، كالفيل إذا توحل لم يقلعه إلا الفيلة.
وقال الشاعر في هذا المعنى:

وإذا الكريمُ كبتَ به أيامه لم ينتعش إلا بعطفِ كريم

وقال صاحب كليله أيضاً: يبقى الصالح من الرجال صالحاً حتى يصاحب فاسداً، فإذا صاحبه فصد، مثل مياه الأنهار تكون عذبة حتى تخالط ماء البحر، فإذا خالطته ملحت.
وقال بعض الحكماء: الدنيا كالمنجل استواؤها في اعوجاجها.

والتشبيه بعد ذلك في جميع الكلام يجرى على وجوه: منها تشبيه الشيء بالشيء صورة، مثل قول الله عز وجل: "والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم". أخذه ابن الرومي، فقال في ذم الدهر:

تأتي على القمر الساري نوائبه حتى يرى ناحلاً في شخص عزجون

وأين يقع هذا من لفظ القرآن.
ومن ذلك قول امرئ القيس:

كأنّ قلبَ الطيرِ رطباً ويابساً لدى وكرها العنّاب والحشقُ البالي

وقوله أيضاً:

كأنّ عيونَ الوحشِ حولِ خباننا وأرحلنا الجزعُ الذي لم يتقّب

وقول عدي بن الرقاع:

ترجى أغنّ كأنّ إبرة روقه قلمٌ أصاب من الدّواةِ مدادها

ومنها تشبيه الشيء بالشيء لونا وحسناً، كقول الله عز وجل: "كأنهنّ الياقوتُ والمرجان". وقوله تعالى: "كأنهنّ بيضٌ مكنون". وكقول حميد ابن ثور:

والليل قد ظهرتْ نحيزته والشمسُ في صفراءِ كالورسِ

وكقول الآخر:

قومٌ رباط الخيلِ وسطَ بيوتهم

ومنها تشبيهه به لوناً وسبوغاً، كقول امرئ القيس:

وأسنّة زرقٍ يخلنَ نجومًا

تضاعلُ في الطيّ كالمبردِ

ومشدودة السلكِ موضونةً

كفيضِ الأتنيّ على الجدجدِ

يفيضُ على المرءِ أردانها

شبهه الدرّع بالأتنيّ في بياضها وسبوغها، لأنها تعمّ الجسد كما يعمّ الأتنيّ الجدجد إذا تفجّر فيه، والأتنيّ: السيل.

ومنها تشبيهه به لوناً وصورة، كقول النابغة:

برداً أسفً لثأته بالإثمِ

تجلو بقامتي حمامة أيكّة

جفتُ أعاليه وأسفله ندى

كالأقحوانِ غداة غبّ سمائه

شبهه الثغر بالأقحوان لوناً وصورة، لأنّ ورق الأقحوان صورته كصورة الثغر سوداء، وإذا كان الثغر نقياً كان في لونه سواء.

وكقول امرئ القيس:

سناً لهبٍ لم تتصلّ بدخانِ

جمعت ردينيّاً كأنّ سنانه

ومما يتضمّن معنى اللون وحده قولُ الأعشى:

كدم الذبيحِ سلبتُها جريالها

وسبيبةٌ ممّا تعنقُ بابلُ

وقول الشماخ:

أشق كمفرقِ الرأسِ الدّهينِ

إذا ما الليلُ كان الصبحِ فيه

وقول زهير:

وقد صار لونُ الليلِ مثلَ الأرنديجِ

وقول امرئ القيس:

علىّ بأنواعِ الهمومِ ليبتلى

وليلِ كموجِ البحرِ مرخِ سدوله

وفي هذا معنى الهول أيضاً.

وقول كعب بن زهير:

تفرّقنَ منها في طيالسةٍ خضرِ

وليلةٍ مشتاقٍ كأنّ نجومها

وقول ذي الرمة:

وليل كجلباب العروس أرعته

وقوله أيضاً:

وقد لاح للساري الذي كمل السرى

كلون الحصان الأنبط البطن قائماً

ومنها تشبيهه به حركة، وهو قول عنترة:

غرداً يحكُّ ذراعَه بذراعِه

وقول الأعشى:

غراءً فرعاء مصقول عوارضها

وقول الآخر:

كأن مشيتها من بيت جارتها

وقول الآخر:

كأن أنوف الطير في عرصاتها

ومنها تشبيهه به معنى، كقول النابغة:

فإنك شمسٌ والملوك كواكبٌ

وقوله:

فإنك كالليل الذي هو مدركي

وكقول الآخر:

وكالسيف إن لاينته لان متته

وقول مسلم بن الوليد:

وإني وإسماعيل يوم وداعه

وقوله:

فإن أغش قوماً بعده أو أزرهم

وقول الآخر:

والدهر يقرعني طوراً وأقرعه

كتاب الصناعتين - ابو هلال العسكري

بأربعة والشخص في العين واحد

على أخريات الليل فتق مشهراً

تمايل عنه الجل واللون أشقر

قدح المكب على الزناد الأجدم

تمشي الهوينا كما يمشي الوجي الوجل

مر السحابة لا ريث ولا عجل

خراطيم أقلام تخط وتعجم

إذا طلعت لم يبذ منهن كوكب

وإن خلنت أن المنتأى عنك واسع

وحدها إن خاشنته خشان

لكالغمد يوم الروع فارقه النصل

فكالوحش يدينها من الأنس المحال

كأنه جبل يهوى إلى جبل

وقول الآخر:

أزاله عن مقره النظر

كم من فؤاد كأنه جبل

وقد يكون التشبيه بغير أداة التشبيه، وهو كقول امرئ القيس:

وإرخاء سرحان وتقريب تنقل

له أبطالا ظبي وساقا نعامة

هذا إذا لم يحمل على التشبيه فسد الكلام، لأن الفرس لا يكون له أبطالا ظبي ولا ساقا نعامة ولا غيره مما ذكره، وإنما المعنى له أبطالان كأيلطي ظبي وساقان كساقني نعامة. وهذا من بديع التشبيه، لأنه شبه أربعة أشياء بأربعة أشياء في بيت واحد، وكذلك قول المرقش:

نير وأطراف الأكف عنم

النشر مسك والوجوه دنا

فهذا تشبيه ثلاثة أشياء في بيت واحد.

وضرب منه آخر، ومنه قول امرئ القيس:

سمو حباب الماء حالا على حال

سموت إليها بعد ما نام أهلها

فحذف حرف التشبيه.

ثم نورد هاهنا شيئا من غرائب التشبيهات وبدائعها، ليكون مادة لمن يريد العمل برسمنا في هذا الكتاب، فمن بديع التشبيه قول امرئ القيس:

لدى وكرها العناب والحشف البالي

كأن قلوب الطير رطبا ويابسا

فشبه شيعين بشيعين مفصلا: الرطب بالعناب، واليابس بالحشف، فجاء في غاية الجودة.

ومثله قول بشار:

وأسيافنا ليل تهاوى كواكب

كأن مثار النقع فوق رعوسنا

فشبه ظلمة الليل بثمار النقع، والسيوف بالكواكب.

وبيت امرئ القيس أجود، لأن قلوب الطير رطبا ويابسا أشبه بالعناب والحشف من السيوف بالكواكب. ومثل قول النمرى:

إلا جبينك والمذروبة الشرع

ليل من النقع لا شمس ولا قمر

وقول العتابي:

ليلاً كواكب البيض المباتير

مدت سناكبها من فوق رؤسهم

ومن بديع التشبيه قول الآخر:

حذر الكواشح والعدو الموبق
صبحان باتا تحت ليل مطبق

تشرت إلى غدائراً من شعرها
فكأنني وكأنها وكأنه

شبه ثلاثة أشياء بثلاثة أشياء مفصلة.

وقال البحرني:

كالغيث والبرق تحت العارض البرد

تبسّم وقطوب في ندى ووعى

وأتم ما في هذا قول الوأواء:

ورداً وعضت على العناب بالبرد

وأسبلت لؤلؤاً من نرجس فسقت

فشبه خمسة أشياء بخمسة أشياء في بيت واحد: الدمع اللؤلؤ، والعين بالنرجس، والحد بالورد، والأنامل بالعناب، لما فيهن من الخضاب، والثغر بالبرد. ولا أعرف لهذا البيت ثانياً في أشعارهم.

وقول البحرني:

إرهامه والليث في إقدامه

كالسيف في إخامه والعيث في

فشبه ثلاثة أشياء بثلاثة أشياء.

وقلت في مثله:

ظلماته والغيث في أزماته

كالسيف في غمراته والبرد في

وقال البحرني:

دموغ التصابي في خدود الخرائد

شقانق يحملن الندى فكأنه

فشبه شيئين بشيين.

ومثله قول أبي نواس:

يندب شجواً بين أتراب

يا قمرأ أبصرت في مأم

ويلطم الورد بعناب

يبكى فيلقى الدر من نرجس

أخذه بعض المتأخرين فقلبه هجاء فقال:

تندب شجواً بتخاليط

يا قرده أبصرت في مأم

وتلطم الشوك ببلوط

تبكى فنلقى البعر من كوة

وشبهت الهلال تشبيهاً يتضمن صفته من لدن هو هلال إلى أن يكمل، فقلت:

تحت سقف مرصع باللجين

وكؤوس إذا دجا الليل دارت

كتاب الصناعتين - ابو هلال العسكري

ينجلي كل ليلة إصبعين

فراريح يلقي بينهن سويق

كنزو الدبا في العرفج المتقارب

فاقتص منه فحاض في أحشائه

عريان يمشي في الدجى بسراج

متبختر يمشي بكم مسبل

وسير كصدر السيف لا يتعرج

قلم أصاب من الدواة مدادها

سيف على شرف يسلم ويغمد

بها هبوات الصيف من كل جانب

يدا مذنب يستغفر الله تائب

وتخضر من حر الهجير غباغه

أخو فجرة عالي به الجذع صالبه

وكان الهلال مرآة تبر

ومن بديع التشبيه قول سلمة بن عباس:

كان بني ذالان إذ جاء جمعهم

هذا لدقة أصواتهم وعجلة كلامهم، وقوله:

حديث بني قرط إذا ما لقيتهم

وقال بعض المدثين وهو ابن نباتة في فرس أبلق أغر:

وكانما لطم الصباح جبينه

وقال آخر:

ليل يجر من الصباح ذلالا

ومن مليح التشبيه وبديعه قول ابن المعتز:

والصبح يتلو المشتري فكأنه

وقوله في صفة فرس:

ومحجل غير اليمين كأنه

وقال أعرابي:

بغزو كولغ الذئب غاد ورائح

وقول لبن الرقاع:

ترجى أغن كأن إبرة روقه

وقول الطرماح:

يبدو وتضمرة البلاد كأنه

وقول ذى الرمة في الحرباء:

ودوية جرداء جداء خيمت

كأن يدي حربائها متملماً

وقوله فيها:

وقد جعل الحرباء يصفر لونه

ويسبح بالكفين حتى كأنه

كتاب الصناعتين- ابو هلال العسكري

أخذه البحري فقال:

مثل اطراد كواكب الجوزاء
في أخريات الجذع كالحرباء

فتراه مطرداً على أعواده
مستشرفاً للشمس منتصباً لها

وقال ذو الرمة:

على الجذل إلا أنه لا يكبر
حنيفاً وفي قرن الضحى يتتصر

يصلى بها الحرباء للشمس مائلاً
إذا حول الظل العشى رأيتَه

الحرباء: دوية كالعظاية تأتي شجرة تعرف بالتنضية فتمسك بيديها غصنين منها، وتقابل بوجهها الشمس، فكيفما دارت الشمس دارت معها، فإذا غربت الشمس نزلت فرعت.. والحرباء، فارسية معربة، وإنما هي خرباء، أي حافظ الشمس، والشمس تسمى بالفارسية خُر، وقد ملح ابن الرومي في ذكرها حيث يقول في قينة:

أبدأ قبيح، قبح الرقباء
أبدأ يكون رقيبها الحرباء

ما بالها قد حسنت رقيبها
ما ذاك إلا أنها شمس الضحى

وقال ابن الرومي أيضاً في مصلوب:

غائراً موفياً على أهل نجد
كان له شاغلٌ عن الدسّيند

كم بأرض الشأم غادرت منهم
يلعبُ الدسّيندُ فرداً وإن

وقال ابن المعتز:

كهامة الأسود شابت لحيته

وقد علا فوق الهلالِ كرتَه

وقال:

وصدغه كالصّولجان المنكسر

ورأسه كمثل فرقٍ قد مطر

ومن بديع التشبيه قول الآخر:

وتغيبُ فيه وهو جتلٌ أسحمٌ
وكأنه ليلٌ عليها مظلمٌ

بيضاء تسحبُ من قيام فرعها
فكانها فيه نهار ساطع

ومن بديعة قول مسلم:

كأن دجاها من قرونك تنشر

أجدك ما تدرين أن ربّ ليلة

وقول الفرزدق:

والشيبُ ينهضُ في الشباب كأنه

وقلت:

ليلٌ يصيحُ بجانبه نهارُ

شمس هوتُ وهلالُ الشهر يتبعها

تبدو الثريا وأمرُ الليل مجتمعُ

وقلت:

كأنها سافرٌ قدام منقلبِ

كأنها عقربٌ مقطوعةُ الذنبِ

تلوحُ الثريا والظلامُ مقطَّبُ

تسير وراءُ والهلالُ أمامها

وقال عبد الله بن المعتز:

فيضحك منها عن أغرٍ مفلجِ

كما أوأمتُ كفٌ إلى نصفِ دملجِ

أهلاً وسهلاً بالناي والعودِ

قد انقضت دولة الصيام وقدُ

وقال آخر:

وكأس ساقٍ كالغصنِ مقذودِ

بشرٍ سقمُ الهلالِ بالعيدِ

تبدو الثريا كفاغرٍ شره

يفتحُ فاه لأكلِ عنقودِ

قال أبو الحرث: حمير فلان كالمشجب من حيث لقيته لا فقال أبو العبر:

لو كنتَ من شيءٍ خلافاً لم تكنُ

يا لبيتَ لي من جلدِ وجهك رقعة

لتكونَ إلا يشجباً في مشجبِ

فأقدَّ منها حافراً للأشهبِ

وقال بعض الحكماء: العقل كالسيف والنظر كالمسنن. ونظر عبادة إلى سوداء تبكي، فقال: كأنها تتورُ

شنان يكف، فنظمته وقلت:

سوداء تذرفُ دمعها

مثل الأتونِ إذا وكفُ

وقال ابن المعتز:

وكانَّ عقربَ صدغه وقفتُ

لما دنتُ من نارِ وجنته

وقلت:

كانَّ نهوضِ النجمِ الأفقِ أخضرُ

تبلجُ ثغرٍ تحتِ خضرةِ شاربِ

وقال أوس بن حجر:

حتى تلفَّ بدوركُم وقصورِكُم

جمعُ كناصيةِ الحصانِ الأشقرِ

وقلت:

كتاب الصناعتين - ابو هلال العسكري

بكرنا إليه والظلامُ كأنه
غرابٌ على عرفِ الصباحِ يرنقُ
وقلت:

إذا التوى الصدغُ فوق وجنته
رأيتَ تفاحةً بها عضه
وقلت:

والغيم يأخذه ريح فتنفسه
كالقطن يندف في زرقِ الدبايح
وقلت:

وقهوة من يد المغنوج صافية
كأنها عصرت من خد مغنوج
وقلت:

قم بنا نذعر الهموم بكأس
والثريا لمفرق الليل تاج
وقلت:

وقد انجرت المجرة فيه
نقشُ عاج يلوح في سقفِ ساج
وقلت:

وكانَّ النجومَ والليلُ داج
تجئ على زرق الزجاج وتذهب
وقلت:

فأذريت دما بالدماء مصبغاً
كما يتواهى عقدُ عقدٍ منسق
وقلت:

وقد باشر الليل الصباح كأنه
بقية كحل في حماليقٍ أزرق
وهذا الجنس كثير، وفيما أوردته كفاية إن شاء الله.

الفصل الثاني

في البيان عن قبح التشبيه وعيوبه

والتشبيه يقبح إذا كان على خلاف ما وصفناه في أول الباب، من إخراج الظاهر فيه إلى الخافي،
والمكشوف إلى المستور، والكبير إلى الصغير، كما قال النابغة:

تحدي بهم أدم كأن رحالها
علق أريق على متون صوار
وقال لييد:

فحمة ذفراء تترى بالعرى

وقال خفاف بن ندبة:

قردُمانياً وتركا كالبصل

أبقى لها التعداد عن عنداتها

ومتونها كخيوطه الكتان

العنداء: القوائم، والمتون: الظهر، يقول: دقت حتى صارت متونها وقوائمها كالخيوط، وهذا بعيد جداً. ومثل هذا محمود غير معيب عند أصحاب الغلو ومن يقول بفضله. وإذا شبه أيضاً صغيراً بكبير وليس بينهما مقاربة فهو معيب أيضاً، كقول ساعدة ابن جوبة:

كسأها رطيب الريش فاعتدلت لها

قداح كأعناق الطباء الفوارق

شبه السهام بأعناق الطباء وليس بينهما شبه. ولو وصفها بالدقة لكان أولى. ومن معيب التشبيه قول بشر:

وجرّ الرامسات بها ذويلا

كأن شمالها بعد الدبور

رماد بين أطار ثلاث

كما وشم النواشر وبالنؤور

فشبه الشمال والدبور بالرماد.

ومن خطأ التشبيه قول الجعدي:

كأن حجاج مقلتها قلباً

والحجاج: العظم الذي ينبت عليه شعر الحاجب وليس هذا مما يغور، وإنما تغور العين. ومن التشبيه الكريه المتكلف قول زهير:

فزلاً عنها ووافى رأس مرقبة

كمنصب العتر دمى رأسه النسك

ومن التشبيه الردئ اللفظ قول أوس بن حجر:

كأن هراً جنبياً تحت غرضتها

والنف ديكٌ برجليها وخنزيرٌ

وأعجب من هذا قول بشار:

وبعض الجود خنزير

ومن بعيد التشبيه قول أعرابي:

وما زلت ترجو نيل سلمى وودها

وتبعد حتى أبيض منك المسايح

ملا حاجبيك الشيب حتى كأنه

ظباء جرت، منها سنيحٌ وبارحُ

فشبه شعرات بيضاً في حاجبيه بظباء سوانح وبارح. وقال أبو تمام:

كتاب الصناعتين - أبو هلال العسكري

كأنني حين جردت الرجاء له

عضبٌ صببت به ماءً على الزمن

ولا يكاد يرى تشبيه أبرد من هذا.

وكتب آخر إلى أخ له يعتذر من ترك زيارته: قد طلعت في إحدى أثني بثره، فعظمت حتى كأنها الرمانة الصغيرة.

وقال عليّ الأسواري: فلما رأيته اصفرّ وجهي حتى صار كأنه لون الكشوث.

وقال له محمد بن الجهم: كم آخذ من الدواء الذي جئت به؟ قال: مقدار بعة. فجاء بلفظ قدر، ولم يين عن المراد، لأن البعر يختلف في الكبر والصغر، ولا يعرف أبعرة ظبي أراد أو بعة شاة أم بعة جمل. ومن التشبيه المتنافر قول الجماي يصف ليلاً:

كأنما الطرف يرمى في جوانبه

عن العمى وكأن النجم قندبل

اجتماع العمى والقندبل في غاية التنافر.

ومن ردئ التشبيه قول ابن المعتز:

أرى ليلاً من الشعر

على شمس من الناس

الجمع بين الليل والناس ردئ. وقد وقع ها هنا بارداً.

الباب الثامن

ذكر السجع والازدواج

لا يحسن منشور الكلام ولا يخلو حتى يكون مزدوجاً، ولا تكاد تجد لبليغ كلاماً يخلو من الازدواج، ولو استغنى كلام عن الازدواج لكان القرآن، لأنه في نظمه خارج من كلام الخلق، وقد كثر الازدواج فيه حتى حصل في أوساط الآيات فضلاً عما تزواج في الفواصل منه. كقول الله تعالى: "الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور". وقوله عز وجل: "أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم". وقوله تعالى: "ولستم بأخذيهِ إلا أن تغمضوا فيه". وقوله تعالى: "يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم". إلى غير ذلك من الآيات.

وأما ما زوج بينه بالفواصل فهو كثير. مثل قوله تعالى: "فإذا فرغت فانصب، وإلى بك فارغب". وقوله سبحانه: "فأما اليتيم فلا تقهر، وأما السائل فلا تنهر". وقوله عز وجل: "والعصر إن الإنسان لفي خسر". وقوله جل ذكره: "وأنه هو أضحك وأبكى وأنه هو أمات وأحيا"، وهذا من المطابقة التي لا تجد في كلام الخلق مثلها حسناً ولا شدة اختصار، على كثرة المطابقة في الكلام. وكذلك جميع ما في القرآن مما يجري على التسجيع والازدواج مخالف في تمكين المعنى، وصفاء اللفظ، وتضمن الطلاوة والماء لما يجري مجراه من كلام الخلق. ألا ترى قوله عز اسمه: "والعاديات ضبحاً فالموريات قدحاً فالمغيرات صبحاً فأثرن به نعتاً فوسطن به جمعاً". قد بان عن جميع أقسامهم الجارية هذا المجرى، من مثل قول الكاهن: والسماء والأرض، والقرض والفرض، والغمر والبرض. ومثل هذا من السجع مذموم لما فيه من التكلف والتعسف. ولهذا ما قال النبي صلى الله عليه وسلم لرجل، قال له: أندی من لا شرب ولا أكل، ولا صاح، فاستهل، فمثل ذلك يطل: أسجعاً كسجع الكهان لأن التكلف في سجعهم فاش، ولو كرهه عليه الصلاة والسلام لكونه سجعاً لقال: أسجعاً، ثم سكت، وكيف يذمه ويكرهه، وإذا سلم من التكلف، وبرئ من التعسف لم يكن في جميع صفوف الكلام أحسن منه.

وقد جرى عليه كثير من كلامه عليه السلام، فمن ذلك ما حدثنا به يوسف الإمام بواسط، قال حدثنا محمد بن خالد بن عبد الله أبو شهاب عن عوف عن زرارة ابن أوفى عن عبد الله بن سلام، قال: لما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة انجفل الناس قبله، فقيل: قدم رسول الله، فجئت في الناس لأنظر إليه.

فلما تبينت وجهه عرفت أنه ليس بوجه كذاب، فكان أول شيء تكلم به أن قال: أيها الناس، أفسوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلوا بالليل، والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام". وكان صلى الله عليه وسلم ربما غير الكلمة عن وجهها للموازنة بين الألفاظ وإتباع الكلمة أخواتها، كقوله صلى الله عليه وسلم: "أعيذه من الهامة، والسامة، وكل عين لامة". وغنما أراد ملامة. وقوله عليه السلام: ارجعن مآزورات، غير مأجورات. وإنما أراد موزورات، من الوزر. فقال: مآزورات، لمكان مأجورات، قصداً للتوازن وصحة التسجيع.

فكل هذا يؤذن بفضيلة التسجيع على شرط البراءة من التكلف والخلو من التعسف. وقد اعتمد في موضع تجنب السجع وهو معرض له، وكلامه كان يطالبه. فقال: "وما يدريك أنه شهيد، لعله كان يتكلم بما لا يعنيه، ويخل بما لا ينفعه". ولو قال: بما لا يعنيه، لكان سجعا. والحكيم العليم بالكلام يتكلم على قدر المقامات، ولعل قوله: "ينفعه" كان أليق بالمقام فعدل إليه.

والسجع على وجوه: فمنها أن يكون الجزآن متوازنين متعادلين، لا يزيد أحدهما على الآخر، مع اتفاق الفواصل على حرف بعينه. وهو كقول الأعرابي: سنة جردت، وحال جهدت، وأيد جمدت، فرحم الله من رحم، فأقرض من لا يظلم. فهذه الأجزاء متساوية لا زيادة فيها ولا نقصان، والفواصل على حرف واحد. ومثله قول آخر من الأعراب، وقد قيل له: من بقى من إخوانك؟ فقال: كلب نابح، وحمار رامح، وأخ فاضح. وقال أعرابي لرجل سأل لثيماً: نزلت بواد غير ممطور، وفناء غير معمور، ورجل غير مسرور، فأقم بندم، أو ارتحل بعدم. ودعا أعرابي، فقال: اللهم هب لي حَقَّك، وأرض عني خلقك. وقال آخر: شهادات الأحوال، أعدل من شهادات الرجال. ودعا أعرابي، فقال: أعوذ بك من الفقر إلا إليك، ومن الذلّ إلى لك. وقال أعرابي ذهب بابنه السيل: اللهم إن كنت قد أبليت، فإنك طالما عافيت. وقيل لأعرابي: ما خير العنب؟ قال: ما أخضرّ عوده، وطال عموده، وعظم عنقوده. وقال أعرابي: باكرنا وسمى، ثم خلفه ولى فالأرض كأنها وشى منشور، عليه لؤلؤ منشور، ثم أتتنا غيوم جراد، بمنجل حصاد، فاحترثت البلاد، وأهلكت العباد، فسبحان من يهلك القوى الأكل، بالضعيف المأكول.

فهذه الفصول متوازنة لا زيادة في بعض أجزائها على بعض، بل في القليل منها، وقليل ذلك مغتفر لا يعتدّ به. فمن ذلك قوله: "فسبحان من يهلك القوى الأكل" فيه زيادة على ما بعده وهو حسن.

ومنها أن يكون ألفاظ الجزأين المزدوجين مسجوعة، فيكون الكلام سجعاً في سجع، وهو مثل قول البصير: حتى عاد تعريضك تصريحا، وتمريضك تصحيحا. فالتعريض والتمريض سجع، والتصريح والتصحيح سجع آخر، فهو سجع في سجع، وهذا الجنس إذا سلم من الاستكراه فهو أحسن وجوه

السجع. ومثل قول صاحب: لكنه عمد للشوق فأجرى جواده عراً وقرحاً، وأورى زناده قدحاً فقدحاً. وقوله: هل من حق الفضل هضمه شغفا ببلدتك، وتظلمه كلفا بأهل جلدتك. وقوله: وقد كتبت إلى فلان ما يوجز الطريق إلى تخلية نفسه، وينجز وعد الثقة في فك حبسه، فهذان الوجهان من أعلى مراتب الازدواج والسجع.

والذي هو دونهما: أن تكون الأجزاء متعادلة، وتكون الفواصل على أحرف متقاربة المخارج إذا لم تكون من جنس واحد، كقول بعض الكتاب: إذا كنت لا تؤتى من نقص كرم، وكنت لا أوتى من ضعف سبب، فكيف أخاف منك خيبة أمل، أو عدول عن اغتفار زلل، أو فتوراً عن لم شعث، أو قصوراً عن إصلاح خلل. فهذا الكلام جيد التوازن ولو كان بدل ضعف سبب كلمة آخرها ميم ليكون مضاهياً لقوله: "نقص كرم لكان أجود، وكذلك القول فيما بعده.

والذي ينبغي أن يستعمل في هذا الباب ولا بد منه هو الازدواج، فإن أمكن أن يكون كل فاصلتين على حرف واحد، أو ثلاث، أو أربع لا يتجاوز ذلك كان أحسن، فإن جاوز ذلك نسب إلى التكلف. وإن أمكن أيضاً أن تكون الأجزاء متوازنة كان أجمل، وإن لم يكن ذلك فينبغي أن يكون الجزء الأخير أطول، على أنه قد جاء في كثير من ازدواج الفصحاء ما كان الجزء الأخير منه أقصر، حتى جاء في كلام النبي صلى الله عليه وسلم منه شيء كثير. كقوله للأَنْصارِ يفضّلهم على من سواهم: "إنكم لتكثرُونَ عند الفزع، وتقلّون عند الطّمع". وقوله صلى الله عليه وسلم: "رحم الله من قال خيراً فغنم، أو سكت فسلم". وكقول أعرابي: فلان صحيح النسب، مستحکم السبب، من أي أقطاره أتيت أتي إليك بحسن مقال، وكرم فعال. وقال آخر من الأعراب: اللهم اجعل خير عملي ما ولى أجلي.

وينبغي أيضاً أن تكون الفواصل على زنة واحدة، وإن لم يمكن أن تكون على حرف واحد، فيقع التعادل والتوازن، كقول بعضهم: اصبر على حرّ اللقاء، ومضض التزال، وشدة المصاع، ومداومة المراس. فلو قال: على حرّ الحرب، ومضض المنازلة، لبطل رونق التوازن، وذهب حسن التعادل. ومن عيوب الازدواج التجميعي، وهو أن تكون فاصلة الجزء الأول بعيدة المشاكلة لفاصلة الجزء الثاني، مثل ما ذكر قدامة: أن كاتباً كتب: وصل كتابك فوصل به ما يستعبد الحرّ، وإن كان قدّم العبودية، ويستغرق الشكر، وإن كان سالف ودك لم يبق منه شيئاً، فالعبودية بعيدة عن مشاكلة منه.

ومن عيوبه التطويل، وهو أن تجيء بالجزء الأول طويلاً، فتحتاج إلى إطالة الثاني ضرورة، مثل ما ذكر قدامة: أن كاتباً كتب في تعزية: إذا كان للمحزون في لقاء مثله أكبر الراحة في العاجل... فأطال هذا الجزء وعلم أن الجزء الثاني ينبغي أن يكون طويلاً مثل الأول وأطول، فقال: وكان الحزن راتباً إذا رجع

إلى الحقائق وغير زائل. فأتى باستكراه، وتكلف عجيب.
وقد أعجب العرب السجع حتى استعملوه في منظوم كلامهم، وصار ذلك الجنس من الكلام منظوما في
منظوم، وسجعا في سجع. وهذا مثل قول امرئ القيس:

سليم الشظى عبل الشوى شنج النسا

وقوله:

ردينية فيها أسنة قعضب

وأوتاده ماذية وعماده

وقوله:

يفتر عن ذي غروب خصر

فتور القيام قطيع الكم

وسمى أهل الصنعة هذا النوع من الشعر المرصع، وستراه في موضعه مشروحا مستقصيا إن شاء الله تعالى.

الباب التاسع

شرح البديع

وهو خمسة وثلاثون فصلا

الفصل الأول في الاستعارة والمجاز، الفصل الثاني في التطبيق، الفصل الثالث في التحنيس، الفصل الرابع في المقابلة، والفصل الخامسة في صحة التقسيم، الفصل السادس في صحة التفسير، الفصل السابع في الإشارة، الفصل الثامن في الأرداف والتوابع، الفصل التاسع في المماثلة، الفصل العاشر في الغلو، الفصل الحادي عشر في المبالغة، الفصل الثاني عشر في الكناية والتعريض، الفصل الثالث عشر في العكس والتبديل، الفصل الرابع عشر في التذليل، الفصل الخامس عشر في الترصيع، الفصل السادس عشر في الإيغال، الفصل السابع عشر في الترشيح، الفصل الثامن عشر في رد الأعجاز على الصدور، الفصل التاسع عشر في التكميل والتتميم، الفصل العشرون في الالتفات، الفصل الحادي والعشرون في الاعتراض، الفصل الثاني والعشرون في الرجوع، الفصل الثالث والعشرون في تجاهل العارف، الفصل الرابع والعشرون في الاستطراد، الفصل الخامس والعشرون جمع المؤنث والمختلف، الفصل السادس والعشرون في السلب والإيجاب، الفصل السابع والعشرون في الاستثناء، الفصل الثامن والعشرون في المذهب الكلامي، الفصل التاسع والعشرون في التشطير، الفصل الثلاثون في المحاورة، الفصل الحادي والثلاثون في الاستشهاد والاحتجاج، الفصل الثاني والثلاثون في التعطف، الفصل الثالث والثلاثون في المضاعف، الفصل الرابع والثلاثون في التطريز، الفصل الخامس والثلاثون في التطفل.

فهذه أنواع البديع التي ادعى من لا رواية له ولا دراية عنده أن المحدثين ابتكروها وأن القدماء لم يعرفوها، وذلك لما أراد أن يفتح أمر المحدثين، لأن هذا النوع من الكلام إذا سلم من التكلف، وبرئ من العيوب، كان في غاية الحسن، ونهاية الجودة.

وقد شرحت في هذا الكتاب فنونه، وأوضحت طرقه، وردت على ما أورده المتقدمون ستة أنواع: التشطير، المحاورة، والتطريز، والمضاعف، والاستشهاد، والتلطف. وشذبت على ذلك فضل تشذيب، وهذبت زيادة تهذيب، وبالله أستعين على ما يزلف لديه، ويستدعى الإحسان من عنده. وهو تعالى وليه وموليه إن شاء الله.

الفصل الأول

في الاستعارة والمجاز

الاستعارة: نقل العبارة عن موضع استعمالها في أصل اللغة إلى غيره لغرض، وذلك الغرض إما أن يكون شرح المعنى وفضل الإبانة عنه، أو تأكيده والمبالغة فيه، أو الإشارة إليه بالقليل من اللفظ، أو تحسين المعرض الذي يبرز فيه، وهذه الأوصاف موجودة في الاستعارة المصيبة، ولولا أن الاستعارة المصيبة تتضمن ما لا تتضمنه الحقيقة، من زيادة فائدة لكانت الحقيقة أولى منها استعمالاً. والشاهد على أن للاستعارة المصيبة من الموقع ما ليس للحقيقة أن قول الله تعالى: "يوم يكشف عن ساق" أبلغ وأحسن وأدخل مما قصد له من قوله لو قال: يوم يكشف عن شدة الأمر، وإن كان المعنيان واحداً، ألا ترى أنك تقول لمن تحتاج إلى الجد في أمره: شمر عن ساقك فيه، واشدد حيازيمك له، فيكون هذا القول منك أو كد في نفسه من قولك: جدّ في أمرك، وقول دريد بن الصمة:

صبورٌ على العزّاء طلاعُ أنجدٍ

كميشُ الإزارِ خارجُ نصفِ ساقه

وقال الهذلي:

أشمرٌ حتى ينصفَ الساقَ مئزري

وكنْتُ إذا جرى دعا لمضوفةٍ

ومن ذلك قوله تعالى: "ولا يظلمون نقيراً"، "ولا يظلمون فتيلاً"، وهذا أبلغ من قوله سبحانه: "ولا يظلمون شيئاً"، وإن كان في قوله: "ولا يظلمون شيئاً أنفى لقليل الظلم وكثيره في الظاهر. وكذا قوله تعالى: "ما يملكون من قطمير" أبلغ من قوله تعالى: "ما يملكون شيئاً"، وإن كان هذا أنفى لجميع ما يملك في الظاهر. وتقول العرب: ما رزأته زبالا. والزبال: ما تحمله النحلة بفيها، يريدون ما نقصته شيئاً. وقال النابغة:

ثمَّ لا يبرزُ العدوَّ فتيلاً

يجمع الجيشُ ذا الألوِّفِ ويعدو

ولو قلت أيضاً: ما يملك شيئاً البتّة، وما يظلمون شيئاً لما عمل عمل قولك: ما يملكون قطميراً. ولا يظلمون نقيراً، وإن كان في الأول ما يؤكده من قولك: البتّة، وأصلاً. كذا حكاه لي أبو أحمد عن أبيه عن عسل بن ذكوان. وليس يقتضى هذا أنهم يظلمون دون النقيير، أو يملكون دون القطمير، بل هو نفى لجميع الملك والظلم، لا يشك في ذلك من يسمعه.

وفضل هذه الاستعارة وما شاكلها على الحقيقة أنها تفعل في نفس السامع ما لا تفعل الحقيقة، ومن غير هذا النوع قوله تعالى: "سنفرغ لكم أيها الثقلان" معناه سنقصد، لأنّ القصد لا يكون إلا مع الفراغ ها هنا معنى ليس في القصد وهو التوعد والتهديد. ألا ترى قولك: سأفرغ لك، يتضمن من الإيعاد ما لا

يتضمّنه قولك: سأقصد لك. وهكذا قوله تعالى: "وأفئدتهم هواء"، أي لا تعي شيئاً، لأن المكان إذا كان خالياً فهو هواء حتى يشغله شيء. وقولك: هذا أوجز من قولك: لا تعي شيئاً، فلا يجازه فضل الحقيقة. وكذلك قوله تعالى: "أعثرنا عليهم"، معناه أطلعنا عليهم. والاستعارة أبلغ، لأنها تتضمن غفلة القوم عنهم حتى اطلعوا عليهم، وأصله أن من عثر بشيء وهو غافل نظر إليه حتى يعرفه، فاستعير عثرت مكان التبيين والإظهار. ومنه قول الناس: ما عرت من فلان على سوء قط، أي ما ظهرت على ذلك منه. ومنه قوله عز اسمه: "أو من كان ميتاً فأحييناهُ وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها"، فاستعمل النور مكان الهدى، لأنه أبين، والظلمة مكان الكفر لأنها أشهر. وكذلك قوله تعالى: "ووضعنا عنك وزرك الذي أنقض ظهرك"، وأصل الوزر ما حمّله الإنسان على ظهره. ومن ذلك قوله عز وجل: "ولكننا حملنا أوزاراً من زينة القوم فقذفناها" أي أحمالا من حليهم، فذكر الحمل وأراد الإثم لما في وضع الحمل عن الظهر من فضل الاستراحة، وحسن ذكر إنقاض الظهر وهو صوته لذكر الحمل، لأن حامل الحمل الثقيل جدير بإنقاض الظهر، والأوزار أيضاً: السلاح. ومنه قوله تعالى: "حتى تضع الحرب أوزارها". وقال الشاعر:

رماحاً طوالاً وخيالاً ذكورا

وأعددت للحرب أوزارها

وقوله تعالى: "ولستم بأخذيه إلا أن تغمضوا فيه"، أي ترخصوا. والاستعارة أبلغ، لأن قولك: أغمض عن الشيء أدعى إلى ترك الاستقصاء فيه من قولك: رخص فيه. وكذلك قوله تعالى: "هن لباس لكم وأنتم لباس لهن" معناه فإنه يماس المرأة وزوجها يماسها. والاستعارة أبلغ، لأنها أدل على اللصوق وشدة المماسية. ويحتمل أن يقال: إنهما يتجردان ويجتمعان في ثوب واحد ويتضامان فيكون كل واحد منهما للآخر بمنزلة اللباس، فيجعل ذلك تشبيهاً بغير أداة التشبيه.

ولا بد لكل استعارة ومجاز من حقيقة، وهي أصل الدلالة على المعنى في اللغة، كقول امرئ القيس:

بمنجرد قيد الأوابد هيكلي

وقد أعتدى والطير في وكناتها

والحقيقة مانع الأوابد من الذهاب والإفلات، والاستعارة أبلغ، لأن القيد من أعلى مراتب المنع عن التصرف، لأنك تشاهد ما في القيد من المنع، فلست تشك فيه. وكذلك قولهم: هذا ميزان القياس، حقيقته تعديل القياس، والاستعارة أبلغ، لأن الميزان يصور لك التعديل حتى تعينه، وللعيان فضل على ما سواه. وكذلك: العروض ميزان الشعر، حقيقته تقويمه. ولا بد أيضاً من معنى مشترك بين المستعار والمستعار منه، والمعنى المشترك بين قيد الأوابد ومانع الأوابد هو الحبس وعدم الإفلات، وبين ميزان القياس وتعديله حصول الاستقامة وارتفاع الحيف والميل إلى أحد

الجانبيين، وهكذا جميع الاستعارات والمجازات.

ومن ذلك قوله تعالى: "وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً" حقيقته عمدنا، وقدمنا أبلغ، لأنه دلّ فيه على ما كان من إمهاله لهم، حتى كأنه كان غائباً عنهم، ثم قدم فاطلع منهم على غير ما ينبغي فجازاهم بحسبه، والمعنى الجامع بينهما العدل في شدة النكير، لأن العمد إلى إبطال الفاسد عدل. وأما قوله: "هباءً منثوراً" فحقيقته أبطنا حتى لم يحصل منه شيء، والاستعارة أبلغ، لأنه إخراج ما لا يرى إلى ما يرى.

والشاهد أيضاً على أن الاستعارة أبلغ من الحقيقة أن قوله تعالى: "إننا لما طغى الماء حملناكم في الجارية" حقيقته علا وطما، والاستعارة أبلغ، لأن فيها دلالة القهر، وذلك أن الطغيان علوٌ فيه غلبة وقهر. وكذلك قوله تعالى: "بريح صرصر عاتية" حقيقته شديدة، والاستعارة أبلغ، لأن العتو شدةٌ فيها تمرد. وقوله تعالى: "سمعوا لها شهيقاً وهي تفور. تكادُ تميز من الغيظ" حقيقته الشهيق هاهنا الصوت الفظيع، وهما لفظتان، والشهيق لفظة واحدة فهو أوجز على ما فيه من زيادة البيان. وتميّز: حقيقته تنشق من غير تباين، والاستعارة أبلغ، لأن التميز في الشيء هو أن يكون كل نوعٍ منه مبايناً لغيره وصائراً على حدته، وهو أبلغ من الانشقاق، لأن الانشقاق قد يحصل في الشيء من غير تباين، والغيظ حقيقته شدة الغليان، وإنما ذكر الغيظ، لأن مقدار شدته على النفس مدرك محسوس، ولأن الانتقام منا يقع على قدره، ففيه بيان عجيب وزجر شديد لا تقوم مقامه الحقيقة البتة.

وقوله تعالى: "ولمّا سكّت عن موسى الغضب" معناه ذهب، وسكّت أبلغ، لأن فيه دليلاً على موقع العودة في الغضب إذا توّمل الحال، ونظر فيما يعود به عبادة العجل من الضرر في الدين، كما أن الساكت يتوقّع كلامه.

وقوله تعالى: "ذري ومن خلقتُ وحيداً". وحقيقته ذر بأسي وعذابي، إلا أن الأول أبلغ في التهديد، كما تقول إذا أردت المبالغة والإيعاد: ذري وإياه، ولو قال: ذر ضربي له وإنكاري عليه لم يسدّ ذلك المسد، ولعله لم يكن حسناً مقبولاً. وقوله عز وجل: "فمحونا آية الليل معناه كشفنا الظلمة، والأول أبلغ، لأنك إذا قلت: محوت الشيء فقد بينت أنك لم تبق له أثراً، وإذا قلت: كشفت الشيء مثل الستر وغيره لم تبين أنك أذهبتَه حتى لم تبق له أثراً. وقوله سبحانه: "وجعلنا آية النهار مبصرةً" حقيقته مضيئة، والاستعارة أبلغ، لأنها تكشف عن وجه المنفعة، وتظهر موقع النعمة في الإبصار.

وقوله تعالى: "واشتغل الرأس شيباً" حقيقته كثر الشيب في الرأس وظهر، والاستعارة أبلغ، لفضل ضياء النار على ضياء الشيب، فهو إخراج الظاهر إلى ما هو أظهر منه، ولأنه لا يتلافى انتشاره في الرأس، كما

لا يتلافى اشتعال النار. وقوله تعالى: "بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه"، حقيقة بل نورد الحق على الباطل فيدمغه. والقذف أبلغ من الإيراد، لأن فيه بيان شدة الوقع وفي شدة الوقع بيان القهر، وفي القهر ها هنا بيان إزالة الباطل على جهة الحجّة، لا على جهة الشك والارتياب، والدمغ أشد من الإذهاب، لأن في الدمغ من شدة التأثير وقوة النكاية ما ليس في الإذهاب. وقوله تعالى: "عذاب يوم عقيم" وقوله عز اسمه: "إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم" فالعقيم التي لا تجيء بولد، والولد من أعظم النعم، وأجسم الخيرات، ولهذا قالت العرب: شوهاء ولوذ، خير من حسناء عقيم. فلما كان ذلك اليوم لم يأت بمنفعة حين جاء، ولم يبق خيراً حين مر سمي عقيماً. ويمكن أن يقال: إنما سمي عقيماً لأنه لم يبق أحداً من القوم، كما أن العقيم لا يخلف نسلاً، وسمي الريح، عقيماً لأنها لم تأت بمطر ينتفع به ويبقى له أثر من نبات وغيره، كما أن العقيم من النساء لا تأتي بولد يرجى.

وفضل الاستعارة على الحقيقة في هذا أن حال العقيم في هذا أظهر قبحاً من مال الريح التي لا تأتي بمطر، لأن العقيم كانت عند العرب أكره وأشنع من ريح لا تأتي بمطر، ولأن العادة في أكثر الرياح ألا تأتي بمطر، وليست العادة في النساء أن يكون أكثرهن عقيماً.

وقوله تعالى: "وآية لهم الليل نسلخ منه النهار"، وهذا الوصف إنما هو على ما يتلوح للعين لا على حقيقة المعنى، لأن الليل والنهار اسمان يقعان على هذا الجو عند إظلامه لغروب الشمس وإضاءته لطلوعها، وليس على الحقيقة شيئين يسلخ أحدهما من الآخر، إلا أنهما في رأي العين كأنهما ذلك، والسلخ يكون في الشيء الملتحم بعضه ببعض، فلما كانت هوداي الصبح عند طلوعه كالملتحمة بأعجاز الليل أجرى عليها اسم السلخ، فكان أفصح من قوله: يخرج، لأن السلخ أدل على الالتحام المتوهم فيهما من الإخراج. وقوله تعالى: "فأنشرنا به بلدة ميتاً"، من قولهم: أنشر الله الموتى فنشروا، وحقيقته أظهرنا به النبات، إلا أن إحياء الميت أعجب، فعبر عن إظهار النبات به فصار أحسن من الحقيقة.

وقوله تعالى: "وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم"، يعنى الحرب، فنبه على ما له تخاف الحرب، وهو شوكة السلاح وهي حدّه، فصار أحسن من الحقيقة لإنبائه عن نفس المحذور. ألا ترى أن قولك لصاحبك: لأوردتك على حدّ السيف، أشدّ موقعاً من قولك له: لأحاربك.

وقوله تعالى: "وإذا مسّه فذو دعاء عريض"، أي كثير. والاستعارة أبلغ، لأن معنى العرض في مثل هذا الموضوع التمام. قال كثير:

أنت ابن فرعي قريش لو تقايسها في المجد صار إليك العرض والطول

أي صار إليك الحمد بتمامه، وقد يكون كثير غير تام.
وقوله تعالى: "والصَّيْحُ إِذَا تَنَفَّسَ"، حقيقته إذا انتشر، وتنفس أبلغ لما فيه من بيان الرُّوح عن النفس عن
إضاءة الصَّيْحُ لأن الليل كرباً وللصبح تفرّجاً قال الطرماح:

على أن للعينين في الصَّيْحِ راحةً بطرحهما طرفيهما كلَّ مطرح

والراحة التي يجدها الإنسان عند التنفس محسوسة.
وقوله تعالى: "مستهمُّ البأساء والضَّراءُ وزلزلوا"، حقيقته أزعجوا، والزلزلة أبلغ، لأنها أشد من الإزعاج
ومن كل لفظة يعبر بها عنه أيضاً.
وقوله تعالى: "أفرغ علينا صبراً"، حقيقته صبرنا، والاستعارة أبلغ، لأن الإفراغ يدل على العموم معناه
ارزقنا صبراً يعمّ جميعنا كإفراغك الماء على الشيء فيعمّه.
وقوله سبحانه: "ضربتُ عليهم الذَّلَّةُ"، حقيقته حصلت، إلا أن للضرب تبييناً ليس للحصول، وقالوا:
ضرب على فلان البعث، أي أوجب وأثبت عليه، والشيء يثبت بالعرب ولا يثبت بالحصول، والضرب
أيضاً ينبئ عن الإذلال والنقص، وفي ذلك الزجر وشدة النكير عن حالهم.
وقوله تعالى: "فنبذوه وراء ظهورهم"، حقيقته غفلوا عنه، والاستعارة أبلغ، لأن فيه إخراج ما لا يرى إلى
ما يرى، ولأن ما حصر وراء ظهر الإنسان فهو أحرى بالغفلة عنه مما حصل قدامه.
وقوله تعالى: "أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا"، حقيقته ذات سرور، والاستعارة
أبلغ، لأن العادة جرت في الأعياد بتوفير السرور عند الصَّغير والكبير، فتضمن من معنى السرور ما لا
تتضمّنه الحقيقة.

وكذلك قوله عز اسمه: "وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا". وقوله تعالى: "فدلاهما بغرور"، أخرج ما لا
يرى من تنقصهم بآيات القرآن إلى الخوض الذي يرى. وعبر عن فعل إبليس الذي لا يشاهد بالتدلي من
العلو إلى سفل وهو مشاهد. ولما كانوا يتكلمون في آيات القرآن، ويتقصونها بغير بصيرة شبه ذلك
بالخوض، لأن الخائض بطأ على غير بصيرة.

وكذلك قوله تعالى: "ويغونها عوجاً"، حقيقته خطأ، لأن الأعوجاج مشاهد والخطأ غير مشاهد. وكذلك
قوله سبحانه: "أو آوى إلى ركنٍ شديد"، أي إلى معين، والاستعارة أبلغ، لأن الركن مشاهد، والمعين لا
يشاهد من حيث أنه معين.

وكذلك قوله تعالى: "ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك"، حقيقته لا تكوننّ ممسكاً، والاستعارة أبلغ، لأن
الغل مشاهد والإمساك غير مشاهد، فصور له قبح صورة المغلول ليستدل به على قبح الإمساك.

وقوله تعالى: "ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر"، حقيقته لنزيبهم، والاستعارة أبلغ، لأن حسّ الذائق لإدراك ما يذوقه قوى، وللذوق فضل على غيره من الحواس. ألا ترى أنّ الإنسان إذا رأى شيئاً ولم يعرفه شتمه فإن عرفه وإلا ذاقه، لما يعلم أن للذوق فضلاً في تبين الأشياء.

وقوله تعالى: "فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عدداً"، حقيقته منعناهم بآذانهم، من غير صمم ييطل آلة السمع، كالضرب على الكتاب يمنع من قراءته ولا ييطله، والاستعارة أبلغ، لإيجازه وإخراج ما لا يرى إلى ما يرى.

وقوله عز اسمه: "وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال" ليس في جميع القرآن أبلغ ولا أفصح من هذا، وحقيقة القرض ها هنا أن الشمس تمسّهم وقتاً يسيراً ثم تغيب عنهم، والاستعارة أبلغ، لأن القرض أقل في اللفظ من كل ما يستعمل بدله من الألفاظ، وهو دال على سرعة الارتجاع، والفائدة أن الشمس لو طاولتهم بحرّها لصهرتهم، وإنما كانت تمسّهم قليلاً بقدر ما يصلح الهواء الذي هم فيه، لأن الشمس إذا لم تقع في مكان أصلاً فسد.

فهذه جملة مما في كتاب الله عز وجل من الاستعارة، ولا وجه لاستقصاء جميعه، لأن الكتاب يخرج عن حده.

وأما ما جاء في كلام العرب منه، فمثل قولهم: هذا رأس الأمر ووجهه، وهذا الأمر في جنب غيره يسير، ويقولون: هذا جناح الحرب وقلبها. وهؤلاء رؤوس القوم وجامعهم وعيونهم. وفلان ظهر فلان، ولسان قومه وناهم وعضدهم وهذا كلام له ظهر وبطن. وفي العرب بالجماع، والقبائل والأفخاذ، والبطون، وخرج علينا عنق من الناس. وله عندي يد بيضاء، وهذه سرّة الوادي، وبابل عين الأقاليم، وهذا أنف الجبل، وبطن الوادي، ويسمون النبات نوعاً. قال:

وجف أنواء السحاب المرتزق

أي جفّ البقل، ويقولون للمطر: سماء. قال الشاعر:

رعيناه وإن كانوا غضابا

إذا سقط السماء بأرض قوم

ويقولون: ضحكت الأرض، إذا أنبتت، لأنها تبدى عن حسن النبات كما يفتر الضاحك عن الثغر، ويقال: ضحكت الطلعة. والنور يضحك الشمس. قال الأعشى:

مؤزّر بعميم النبات مكتهل

يضاحك الشمس منها كوكب شرق

ويقولون: ضحك السحاب بالبرق، وحنّ بالرعْد، وبكى بالقطر. ويقولون: لقيت من فلان عرق القربة، أي شدة ومشفة. وأصل هذا أنّ حامل القربة يتعب من نقلها حتى يعرق. ويقولون أيضاً: لقيت منه عرق الجبين، والعرب تقول: بأرض فلان شجر قد صاح، وذلك إذا أطال فتبين للناظر بطوله، ودل على نفسه، لأنّ الصائح يدل على نفسه. ويقولون: هذا شجر واعد، إذا أقبل بماء ونضرة، كأنه يعد بالثمر، قال سويد بن أبي كاهل:

لعاغّ تهاده الدكادك واعدُ

ومثله قوله الشاعر:

ويرغبُ عن دمائِ بني عَقيل

يريد الرمحُ صدرَ أبي براءٍ

ومثله قوله تعالى: "جداراً يريدُ أن ينقضَّ".

وأنشد الفراء:

لزمانٌ بهمُ بالإحسانِ

إنَّ دهرًا يلفُّ شملي بسلمى

ومما في كلام النبي صلى الله عليه وسلم، والصحابة رضی الله عنهم، ونثر الأعراب، وفصول الكتاب من الاستعارة قوله صلى الله عليه وسلم: "الخيَل معقود بنواصيها الخيرُ إلى يوم القيامة". وقال طفيل:

ويعرفُ لها أيامها الخيرَ تعقبِ

وللخيلِ أيامٌ فمن يصطبرُ لها

وقول النبي صلى الله عليه وسلم: "كلّما سمع هيعة طار إليها". وقوله صلى الله عليه وسلم: "أكثرُوا من ذكر هادم اللذات". وقال عليه الصلاة والسلام: "البلاء موكل بالمنطق". ورأى عليّاً مع فاطمة رضی الله عنهما في بيت فردّ عليهما الباب وقال: "جدع الحلال أنفَ الغيرة". وقال عليّ رضي الله عنه: السفر ميزان القوم. وقوله: فأما وقد اتسع نطاق الإسلام فكل امرئ وما يختار. وقوله لابن عباس رضي الله عنه: أرغب راغبهم، واحلل عقدة الخوف عنهم. وقوله: العلم قفلٌ ومفتاحه المسألة. وقوله: الحلم والأناة توأمان، نتيجتهما علوّ الهمة. وقوله لبعض الخوارج: والله ما عرفته حتى فغر الباطل فمه، فنجمت نجوم قرن الماعزة. وقال في بعض خطبه يصف الدنيا: إن امرأ لم يكن منها في فرحة، إلا أعقبته بعدها ترحة، ولم يلق من سرّائها بطناً، إلا منحتته من ضرّائها ظهراً، ولم تظله فيها غيابه رخاء، إلا هبّت عليه مزنة بلاء، ولم يسم منها في جناح أمن، إلا أصبح منها على قوادم خوف. وقال أبو بكر رضي الله عنه: إن الملك إذا ملك زهده الله في ماله، ورغبه فيما في يدي غيره، وأشرب قلبه الإشفاق فهو يحسد على القليل، ويسخط الكثير، جدل الظاهر، حزين الباطن. فإذا وجبت نفسه،

ونضب عمره، وضحا ظلّه، حاسبه الله عز وجل فأشدّ حسابه، وأقلّ عفوه.

وكتب خالد بن الوليد رضى الله عنه إلى مرزبة فارس: الحمد لله الذي فضّ خدمتكم وفرّق كلمتكم. وقالت عائشة رضى الله عنها: كان عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم ديمة. وقال الحجاج: دلوني على رجل سمين الأمانة، أعجف الحيانة. وقال عبد الله بن وهب الراسبي لصحابه: لا خير في الرأي الفطير، والكلام العضيّب، فلما بايعوه، قال: دعوا الرأي يغبُ فإن غبوه يكشف لكم عن محضه. وقيل لأعرابي: إنك لحسن الكدنة، قال: ذاك عنوان نعمة الله عندي. وقال أكنم بن صيفي: الحلم دعامة العقل. وسئل عن البلاغة فقال: دنو المأخذ، وقرع الحجّة، وقليل من كثير. وقال خالد بن صفوان لرجل: رحم الله أباك، فإنه كان يقرى العين جمالا، والأذن بيانا. وقيل لأعرابية: أين بلغت قدرك، قالت: حين قام خطيبها. وقيل لأعرابية: كم أهلك؟ قالت: أب وأم وثلاثة أولاد، أنا سبيل عيشهم. وقيل لرؤية: كيف تركت ما وراءك؟ قال: التراب يابس، والمال عابس. وقال المنصور لبعضهم: بلغني أنك بخيل، فقال: ما أجمد في حق، ولا أذوب في باطل. وقال إبراهيم الموصلي: قلت للعباس بن الحسن: إني لأحبك قال: رائد ذاك عندي. وقال بعضهم: الاستطالة لسان الجهالة. وقال يحيى بن خالد: الشكر كفاء النعمة. وقال أعرابي: خرجت ي ليلة حندس، ألقت على الأرض أكارعها، فمحت صورة الأبدان، فما كنا نتعارف إلا بالآذان. وقال أعرابي لآخر: يسار النفس خير من يسار المال، ورب شبعان من النعم، غرّتان من الكرم. وغزت نميراً حنيفة فاتبعتهم نمير، فأتوا عليهم، فقيل لرجل: كيف كان القوم؟ فقال: أتبعوهم والله رفاً حقبوا كل جماليّة خيفائة، فما زالوا يحصفون آثار المطي بجوافر الخيل، فلما لقوهم جعلوا المران أرشية الموت، فاستقوا بها أرواحهم. وقال آخر: فلان أملس، ليس فيه مستقر لخير، ولا لشر. وقال أحمد بن يوسف وقد شتمه رجل بين يدي المأمون: رأيتَه يستملى ما يلقاني به من عينيك. وقيل لأعرابي: أي الطعام أطيب؟ قال: الجوع أبصر. ومدح أعرابي رجلاً فقال: كان يفتح من الرأي أبواباً منسدة، ويغسل من العار وجوهاً مسودة. ومدح أعرابي رجلاً فقال: كان والله إذا عرضت له زينة الدنيا هجنتها زينة الحمد عنده، وإن للصنائع لغارة على أمواله كغارة سيوفه على أعدائه. ومدح أعرابي قوماً فقال: أولئك غرر تضيئ من ظلم الأمور المشكّلة، قد صغت آذان المجد إليهم. وقال أعرابي يمدح رجلاً: إنه ليعطى عطاء من يعلم أن الله مادته. ومدح أعرابي رجلاً، فقال: لسانه أحلى من الشهد، وقلبه سجن للحقد. ومدح أعرابي رجلاً فقال: إن أسأت إليه أحسن، وكأنه المسيء، إن أكرمت إليه غفر، وكأنه المحرم، اشترى بالمعروف عرضه من الأذى، فهو وإن كانت له الدنيا بأسرها فوهبها، رأى بعد ذلك عليه حقوقاً، لا يستعذب الخنا، ولا يستحسن غير الوفا.

وذم أعرابي رجلاً فقال: يقطع نهاره بالمنى، ويتوسد ذراع الهمّ إذا أمسى. وذم أعرابي رجلاً فقال: إن فلاناً ليقدّم على الذنوب إقدام رجل قدم فيها نذراً، أو يرى أنّ في إتيانها عذراً. وقال أعرابي لرجل: لا تدنس شعرك بعرض فلان، فإنه سمين المال، مهزول المعروف، قصير عمر المنى، طويل حيات الفقر. وسأل أعرابي فقيل له: عليك بالصيارف، فقال: هناك قرارة اللؤم. وذكر أعرابي قوماً فقال: أولئك قوم قد سلخت أبقاؤهم بالهجاء، ودبغت جلودهم باللؤم، فلباسهم في الدنيا الملامة، وزادهم في الآخرة الندامة. وذمّ أعرابي قوماً فقال: هم أقل دنواً إلى أعدائهم، وأكثر تجرماً على أصدقائهم، يصومون عن المعروف ويفطرون على الفحشاء. وذمّ أعرابي رجلاً فقال: ذاك رجل تعدو إليه مواكب الضلالة، ويرجع من عنده بيدر الآثام، معدم مما يجب، مثر مما يكره.

وقال أعرابي: ما أشدّ جولة الهوى وفطام النفس عن الصبّ، ولقد تصدعت نفسي للعاشقين، لوم العاذلين قرطة في آذانهم، ولو عات الحب نيران في أبدانهم. وقال أعرابي: ما رأيت دمة تترقق في عين، وتجري على خد، أحسن من عبرة أمطرتهما عينها، فأعشب لها قلبي. وقال أعرابي وذكر قوماً زهاداً فاز قومٌ أدبّتهم الحكمة، وأحكمتهم التجارب، ولم تغرهم السلامة المنطوية على الهلكة، ورحل عنهم التسوييف الذي قطع به الناس مسافة آجالهم، فأحسنوا المقال، وشفعوه بالفعال، تركوا النعيم ليتنعموا، لهم عبرات متدافعة، لا تراهم إلا في وجه عند الله وجيهاً. ووصف أعرابي والياً فقال: كان إذا ولّى طابق من جفونه، وأرسل العيون على عيونه، فهو شاهد معهم، غائب عنهم، فالحسن آمن، والمسيء خالف. ووصف أعرابي داراً فقال: هي والله معتصرة الدموع، جرّت بها الرياح أذيالها، وحلّت بها السحاب أثقالها. وذكر أعرابي رجلاً فقال: كان الفهم منه ذا أذنين، والجواب منه ذا لسانين، لم أر أحداً كان أرتق لخلل الرأي منه، كان والله بعيد مسافة الرأي، يرمى بطرفه حيث أشار الكرم، يتحسّى مرارة الإخوان، ويسيعهم العذب. ووصف أعرابي قومه فقال: كانوا والله إذا اصطفوا تحت القتام سفرت بينهم السهام، بوقوف الحمام، وإذا تصافحوا بالسيوف فغرت المنايا أفواهها، فكم من يوم عارم قد أحسنوا أذبه، وحرب عبوس قد ضاحكتها أسنتهم، وخطب شين، قد ذلّوا مناكبه، إنما كانوا كالبحر الذي لا ينكش غماره، ولا ينهته تيّاره. وقيل لأعرابي: يزعم فلان أنه كساك ثوبا، فقال: إن المعروف إذا أمرٌ كدّر، وإذا محض امرٌ، ومن ضاق قلبه اتسع لسانه.

وذكر أعرابي رجلاً فقال: كلامه منقوض آثار القطا، وهو من ذا رثّ عقال المودة، مسودّ وجه الصداقة، ولئن كان لبني الآدميين سباخ إنه لمن سباخ بني آدم.

وقيل لأعرابي: لم لا تشرب النبيذ؟ فقال: لا أشرب ما يشرب عقلي.

وقال معاوية: العيال أرضة المال. وقال خالد بن صفوان: إياكم ومجانيق الضعفاء. وقال: لا تضع معروفك عند فاجر، ولا أحمق، ولا لثيم، فإن الفاجر يرى ذلك ضعفاً، والأحمق لا يعرف ما أوتى إليه فيشكره على مقدار عقله، واللثيم سبخة لا ينبت شيئاً ولا يثمر، ولكن إذا رأيت الثرى فازرع المعروف تحصد الشكر، وأنا الضامن.

وأهدت امرأة من العجم إلى هوى لها في يوم نوروز ورداً وكتبت إليه: هذا اليوم أحدُ فتیان الدهر وشاب أقسامه، والقصف فيه عروس، والورد في البرد كالدر في النحر، وقد بعثت إليك منه مهراً ليومك، فزوج السرور من النفس، والطرب من القلب، ولا تستقل براً، فإننا لا نستكثر على قبوله شكراً. وقال آخر في رجل: ماذا تثير الخبرة من دفائن كرمه. وقال أعرابي لخصمه: أما والله لئن هملجت إلى الباطل، إنك عن الحق لقطوف، ولئن أبطأت عنه لتسرعن إليه، فالعلم أنه إن لم يعد لك الحق عد لك الباطل، والآخرة من ورائك. وقال آخر: الخط مركب البيان. وقال آخر: القلم لسان اليد. وسمعت بعض الأطباء يقول: الماء مطية الطعام.

وقال الحسن بن وهب لكاتبه: لا ترق ماء معروف بالمن، فإن اعتدادك بالعرف يعقل لسان الشكر. وأمثال هذا كثير في منشور الكلام وفيما أورده كفاية إن شاء الله. فأما الاستعارة من أشعار المتقدمين فمثل قول امرئ القيس:

وليلٍ كموج البحر مرخٍ سدوله

فقلت له لما تمطى بصلبه

وقال زهير:

صحا القلبُ عن ليلي وأقصر باطله

وعرّى أفراسُ الصبّا ورواحله

وقول امرئ القيس:

فبات عليه سرجه ولجامه

وبات بعيني قائما غير مرسل

أي كن أراه وأحفظه، وعلى هذا مجاز قوله عز وجل: "تجري بأعيننا". وقال زهير:

إذا سدّت به لهواتُ ثغرٍ

يشار إليه جانبه سقيم

وقال النابغة:

وصدرٍ أراح الليلُ عازبَ همه

تضاعف فيه الحزنُ من كلِّ جانب

وفي هذا البيت ماء وطلاوة ليس مثله في بيت زهير. وقال عنترة:

جادت عليه كلُّ بكرٍ حرّة

فتركن كلَّ قرارة كالدّرهم

كتاب الصناعتين - ابو هلال العسكري

وقال مهلهل:

يستطعمون الموت كل همّام

تلقى فوارس تغلب ابنة وائل

وقال زهير:

ضروس تهرّ الناس أنيابها عصل

إذا لقت حرب عوان مضرّة

أخذه من قول أوس بن حجر:

رأيت لها ناباً من الشرّ أعصلاً

وإني امرؤ أعددت للحرب بعدما

وقال المسيّب بن علس:

سيتبعها ذنب أهب

وإنهم قد دعوا دعوة

أراد جيشاً كثيفاً.

وقال الأسود بن يعفر:

ولا يطمح بك العز الفطير

فأدّ حقوق قومك واجتنبهم

أراد عزّاً ليس بالمحكم كفطير العجين، والفطير من الجلد: ما لم يديغ.

وقال طفيل الغنوي:

يقتات شحم سنامها الرّحل

وجعلت كورى فوق ناجية

وقال الحرث بن حلزة:

ف الظلال وقلن في الكنّس

حتى إذا التفع الطباء بأطرا

الالتفاع: ليس اللّفاع وهو اللّحاف. ومثله قول الشّماخ:

خود جوازي بالرمل عين

إذا الأرتى توسد أبريه

أبراده: ظلّ الغداة والعشى. توسدته: جعلته بمثلة الوسادة.

وقال آخر:

يدأب فيه القوم حتى يطلّحوا

ومهمه فيه السراب يسبح

كأنما أمسوا بحيث أصبحوا

ثم يبيتون كأن لم يبرحوا

وقال عمرو بن كلثوم:

فمجدك حولي ولؤمك فارخ

ألا أبلغ النعمان عنى رسالة

وقال الحطيئة:

ألا يا لقلبٍ عارمِ النظراتِ

وقال الجعديّ:

فإن يطفُ أصحابُه يرسبُ

وقال أبو ذؤيب:

وإذا المنيةُ أنشبتُ أظفارها

وقال أبو خراش الهذلي:

وأوتر غيري من عيالكِ بالطعم

أردّ شجاعِ البطنِ لو تعلمينه

وقال لبيد:

واجتاب أرديةَ السرابِ إكامها

فبتلكِ إذ رقصَ اللوامعُ بالضحَى

وقال أيضاً:

إذ أصبحتُ بيدَ الشمالِ زمامها

وغداة ريحٍ قد كُشفتُ وقرّة

وقال أوس بن مغراء:

ويغذى بثدى اللؤم منها وليدُها

يشيبُ على لؤمِ الفعالِ كبيرُها

وقال الأخطل:

لنا من ليالينا العوازمِ أولُ

وأهجر هجرانا جميلاً وينتحي

وقال آخر:

طاروا إليه زرافات ووحداناً

قوم إذا الشر أبدى ناجذبه لهم

وقال:

وما خيرُ كفٍّ لا تنوء بساعدِ

هم ساعدُ الدهرِ الذي يتقى به

وقال آخر:

رأيتُ يدَ المعروفِ بعدك شلتِ

سأبكيكِ للدُّنيا وللدينِ إنني

وقال المقنّع:

ثغورَ حقوقِ ما أطاقوا لها سداً

أسدّ به ما قد أخلوا وضيعوا

وقال آخر:

وذابَ للشمسِ لعابِ فنزلُ

كتاب الصناعتين - ابو هلال العسكري

أخذه من قول النابغة:

إِذَا الشَّمْسُ مَجَّتْ رِيْقَهَا بِالْكَلاَكِلِ

وقال آخر:

وطلعت شمسٌ عيها مغفرٌ

جاءَ الشِّتَاءُ واجتالَّ القَبْرُ

جعل قطعة السحاب إلى جانب الشمس مغفراً لها، واجتال: انتفش.

وقال الحطيئة:

إِذَا قَسورَى اللّيلِ جيبِيتِ سرابِلُهُ

وما خلتُ سلمى قبلها ذاتَ رحلةٍ

وقال أيضاً:

من بعد موتٍ ساقطٍ أزره

ولوا وأعطونا الذي سُئلوا

ضرباً يطير خلاله شرره

إنا لنكسوهم وإن كرموا

وقال أبو داود:

وأعجازِ ليلِ مولى الذنْبِ

وقد اغتدى في بياض الصَّبّاحِ

وقال الأفوه:

حتى ارتووا عللا بأذنبه الردى

عافوا الإتاوة واستقتت أسلافهم

وقال ابن منذر:

بأشبية أطرافها في الكواكبِ

وقال الأخطل:

راح الزجاجُ وفي ألوانه صهْبُ

حتى إذا افتض ماءً المزن عذرتها

وقال غيره:

ترى الأكم فيه سجداً للحوافرِ

وجيش يظلّ البلق في حجراته

وقال ذي الرمة:

لدين الكرى من آخر الليل ساجد

سقاها الكرى كأنس النعاسِ فرأسه

قوله: سقاها الكرى جيد. وقوله: لدين الكرى بعيد عندي.

وقال مضر بن ربيعي:

على أحدٍ إلاّ عليك طريق

أذود سوامَ الطرفِ عنك وماله

كتاب الصناعتين - أبو هلال العسكري

وقال تأبط شراً:

بمنخرقٍ من شدِّهِ المتدارِكِ
له كالىٌّ من قلبِ شيحانِ فاتكِ
إلى سلَّةٍ من صارمِ الغربِ باتكِ
نواجذُ أفواهِ المنايا الضاحكِ

ويسبقُ وفدَ الرِّيحِ من حيثُ تنتحى
إذا حاصَ عينيه كرى النومِ لم يزلُ
ويجعلُ عينيه ربيئةً قلبه
إذا هزَّه في عظمِ قرنِ تهللتُ

في كل بيت من هذه الأبيات استعارة بديعة، وقد أخذ رؤبة قوله: "ويسبق وفد الريح" فقال:

يسبقُ وفدَ الرِّيحِ من حيثُ انخرقُ

وقال الراعي:

خرقُ تجرُّ به الرياحُ ذيو لا

يدعو أميرَ المؤمنين ودونهُ

وقال أوس:

سرٌّ يحدثنه في الحيِّ منشورُ

ليس الحديثُ ينهى بينهن ولا

ومما جاء في كلام المحدثين قول أبي تمام:

كأنَّ الدهرَ عنها في وثاقِ
عرينا من حواشِها الرقاقِ

ليالي نحن في غفلاتِ عيش
وأيام لنا ولهم لدانُ

وقال العباس بن الأحنف، أو الخليل:

وفرقَ الناسُ فينا قولهمُ فرقا
وصادقٌ ليس يدري أنه صدقا

قد سحبَ الناسُ أذيالَ الظنونِ بنا
فكاذبٌ قد رمى بالظنِّ غيركمُ

وقال مسلم:

نسجين من بين محلولٍ ومعقودِ

شجبتُها بلعابِ المزنِ فاغترلتُ

وقوله:

كأنه أجلُّ يسعى إلى أملِ

وقوله:

ويجعلُ الهامَ تيجانَ القنا الذُّبُلِ

يكسو السيوفَ نفوسَ الناكثين به

وقوله:

كتاب الصناعتين - ابو هلال العسكري

إذا ما نكحنا الحربَ بالبيض والقنا

وقوله:

والدهر آخذ ما أعطى مكدر ما

فلا يغرّتك من دهر عطيته

وقوله:

ولم ينطق بأسرارها الحجلُ

وقوله:

ولما تلاقينا قضى الليلُ نحبهُ

وماء كعين الشمس لا تقبلُ القذى

من الضحك الغرّ اللواتي إذا التقتُ

صدعنا به حدّ الشمول وقد طغت

تساقط يمناه الندى وشماله الر

حبي لا يطيرُ الجهلُ من عذباتها

بكفّ أبي العباس يستمطرُ الغنى

متى شئت رفعت الستور عن الغنى

وقال أيضاً:

كأنها ولسانُ الماء يقلبها

دارت عليه فزادت في شمائله

وقال أيضاً:

فأقسمت أنسى الدّاعياتِ إلى الصّبّا

فغطتُ بأيديها ثمارِ نحرِها

وقال أيضاً:

نفضتُ بك الأحلاسُ نفضَ إقامةٍ

أجلُ ينافسه الحمام وحفرةٍ

جعلنا المنايا عند ذاك طلاقها

أصفى ومفسدُ ما أهوى له بيدٍ

فليس يتركُ ما أعطى على أحدٍ

بوجه كأنّ الشمس من مائه مثلُ

إذا درجت فيه الصّبّا خلته يعلو

تحدّث عن أسرارها السبيلُ الهطلُ

فألبسها حلماً وفي حلمها جهلُ

ردى وعيون القول منطقهُ الفصلُ

إذا هي حلت لم يفت حلها نحلُ

ويستنزل النعمى ويسترعف النصلُ

إذا أنت زرتَ الفضل أو أذن الفضلُ

عقيقة ضحكت في عارضٍ بردٍ

لين القضيبي ولحظ الشادن الغردِ

وقد فاجأتها العينُ والسترُ واقعُ

كأيدي الأسارى ثقّلتها الجوامعُ

واسترجعت نزعها الأمصارُ

نفتت عليها وجهك الأحفارُ

أنتى عليها السهلُ والأوعارُ

تاه على كلِّ ما يليه

فأجنى إليها الذنب من حيث لا أدري
وإن سخطت كان اعتذاري من العذرِ

وإن كنتُ لم أذكرك إلا على ذكرى

حين تلوذ بأطرافِ الجلاميدِ

إليه تجرُّ أذيالها

بخمار الشيبِ في الرَّحِمِ
بعد أن جازت مدى الهرمِ
وهي تلو الدهرِ في القدمِ

كتمشي البرءِ في السقمِ
كصنيع الصُّبحِ في الظُّمِ

وحان من ليلك انسفارُ

فاذهب كما ذهب غوادي مزنة

أخذت نفسي عليها وجهك الأحفار بعضهم، فقال:

لو علم القبر ما يوارى

وقال:

ويخطئ عذري وجه جرمي عندها
إذا أذنبت أعددت عذراً لذنبها

وقال:

يذكرنيك اليأسُ في خطرة المنى

وقال:

تجرى الرياحُ بها حسرى مولهةً

وقال أبو الشيص:

خلع الصبا عن منكبيه مشيب

وقال أبو العتاهية:

أنته الخلافة منقادة

وقال أبو نواس:

فاسقنى البكرَ التي اختمرتُ

ثمت انصات الشباب لها

فهي لليوم الذي نزلتُ

ومنها قوله:

فتمشت في مفاصلهم

صنعت في البيت إذ مزجتُ

قوله: انصات الشباب لها: كأنها صوتت به، فانصات لها أي أجابها.

وقوله:

أعطتك ريحانها العقار

أي شربتها فتحول طيبها إليك.
وقوله:

تظلّ آذاننا مطاياها

لنا روامشُ ينتخبينَ لنا

الرامشة: ورقة آس لها رأسان.
وقال:

قد عاجمتها السنون والحقبُ

حتى تخيرت بنتَ دسكرة

وقوله:

وأفعمتُ في تمام الجسم والقصبُ
وجرّت الوعدَ بين الصدق والكذب

حتى إذا ما علا ماءُ الشباب بها
وجمّشتُ بخفيّ اللحظِ فانجشمتُ

وقوله في السحاب:

وجرّتُ على الرّبا ذنبا

وقال:

وباتَ طرفي من طرفه جنبا

فراحَ لا عطّنته عافيةً

وقال:

رقيقُ العيش بينهم غريبُ

دع الألبان يشربها رجال

وقوله:

عن مستهامِ نومه قوتُ

ولا عجيبُ إن جفت دمنةُ

وقوله:

جلا التّبسمَ عن غرِّ الثّنياتِ

فقمّتُ والليلُ يجلّوه الصّباح كما

وقوله:

عطلا فألبسها المزاجُ وشأحا

من قهوةٍ جاءتك قبل مزاجها

وقوله منها:

أهدتُ إليك بريحا التفّاحا

شكّ البزالُ فؤادها فكأنما

منها بهنّ سوى السّباب جراحا

صفراء تفترس النفوسَ فلا ترى

كتاب الصناعتين - ابو هلال العسكري

حتى إذا بلغ السامةَ باحا

عمرت بكاتمك الزمانُ حديثها

وقوله:

وهانَ عليّ مأثورُ القبيحِ

جريتُ مع الصبِّا طلقَ الجموحِ

قرانَ النعمِ بالوترِ الفصيحِ

وجدتُ ألدَّ عاريةِ الليالي

وقوله منها:

وصلُ بعري الغبوقِ عرى الصَّبوحِ

تمتَعُ من شبابٍ ليسَ يبقى

تنزُّلُ درَّةِ الرجلِ الشَّجِيحِ

وخذها من مشعشةِ كميِّتِ

مسافةً بين جثمانِي وروحي

فإني عالمٌ أن سوف ينأى

وقوله:

لن ينطقَ اللّهُوُ حتى ينطقَ العودُ

فاستنطقِ العودَ قد طال السُّكوتُ به

وقوله:

صفراءُ تعنقُ بين الماءِ والزبدِ

وقوله:

وقد لاحتِ الجوزاءُ وانغمسَ النَّسرُ

وقوله:

تجررُ أذيالَ الفجورِ ولا فجرُ

وقوله:

فدهرُ شرَّابها نهارُ

لا ينزلُ الليلُ حيثُ حلَّتْ

وقوله:

يظمُّ من صمِّ الحشا ويجاغُ

وريانُ من ماءِ الشبابِ كأنما

وقوله:

وتتخَّ عن طربٍ وعن قصفِ

وقوله:

عقدَ الحذارُ بطرفها طرفي

عينَ الخليفةِ بي موكِّلةً

صَحَّتْ عَلَانِيَتِي لَهُ وَأَرَى

وقوله:

دِينَ الضَّمِيرِ لَهُ عَلَى حَرْفِ

سَلْبُوا قِنَاعَ الطَّيْنِ عَنْ رَمَقٍ

وقوله:

حَيِّ الحَيَاةِ مَشَارِفِ الحَنْتِفِ
كَتَنَفْسِ الرِّيحَانِ فِي الأَنْفِ

فَتَنَفَسْتُ فِي البَيْتِ إِذْ مَزَجْتُ

نَتِيجَةُ مَزْنَةٍ مِنْ عَوْدِ كَرَمٍ

وقوله:

تَضَيُّ اللَّيْلِ مَضْرُوبِ الرُّوْاقِ

حَلَبْتُ لِأَصْحَابِي بِهَا دَرَّةَ الصَّبَا

وقوله:

بَصْفَاءِ مِنْ مَاءِ الكُرُومِ شَمُولِ

دَعَا هَمُّهُ مِنْ صَدْرِهِ بِرَحِيلِ

وقوله:

وَلَمَّا تَوَفَى اللَّيْلُ جَنَاحًا مِنَ الدُّجَى

وقوله:

وَقَامَ وَزْنَ الزَّمَانِ فَاعْتَدَلَا

وقوله: فَقَدْ أَصْبَحَ وَجْهَ الزَّمَانِ مَقْبَلًا وَقَوْلُهُ:

كَانَ الشَّبَابُ مَطِيَّةَ الجَهْلِ

وهو من قول النابغة:

فَإِنَّ مَطِيَّةَ الجَهْلِ الشَّبَابُ

وقوله:

وَحَطَّطْتُ عَنْ ظَهْرِ الصَّبَا رَحْلِي

وقوله:

لَهُ فِي كُلِّ مَكْرَمَةٍ حَمِيمٌ

فَقَدْ أَخَذَتْ مَطَالَعَهَا النُّجُومُ

وَمَتَّصِلٌ بِأَسْبَابِ المعَالِي

رَفَعْتُ لَهُ النِّدَاءَ بِقَمِّ فَخَذَهَا

وقوله:

تَغْصُّ بِهَ عَيْنِي وَيَلْفِظُهُ وَهَمِي

أَلَا لَا تَرَى مِثْلِي أَمْتَرَى اليَوْمَ فِي رَسْمِ

كتاب الصناعتين- ابو هلال العسكري

وقوله: تغص به، أي تمتلئ بالدموع، وبلغظه وهمي أي ينكره.
وقوله:

وكأنما يتلو طرائدها
نجمٌ تواترَ في قفا نجم
وقوله:

شمولاً تخطته المنون وقد أتتْ
سنونٌ لها في دنّها وسنونٌ
وقوله:

فتقربتُ بصرف عقار
نشأتُ في حجر أمّ الزّمانِ
وقوله:

ترى العينَ تستعفيك من لمعانها
وتحسر حتى ما تقلّ جفونها
وقوله:

في مجلس ضحك السرور به
عن ناجذيه وحلت الخمرُ
وقول أبي تمام:

وحسنٌ منقلب تبدو عواقبه
جاءت بشاشته في سوء منقلبِ
وقوله:

رخصت لها المهجاتُ وهي غوالِ
وقوله:

وتنظري خبيبَ الركاب ينصّها
محي القريض إلى مميتِ المالِ
وقوله:

تطلُّ الطلول الدمعَ في كلِّ منزلِ
دوارس لم يجفُّ الربيعُ ربوعها
وقوله:

فقد سحبتُ فيها السحابُ ذيولها
ليالي أضللت العزاءَ وخزلتْ
وقوله:

بسقيم الجفون غير سقيم
ومريب الأحاظ غير مريبِ

وقوله:

غليلي على خالد خالدٌ
ألا أيها الموتُ فجعتنا
أصبنا بكنز الغنى والإما
وضيف همومي طويلُ النَّوَاءِ
بماءِ الحياةِ وماءِ الحياءِ
م أمسى مصاباً بكنز الفناء

وقوله:

ثوى في الثرى من كان يحيا به الثرى
ويغمر صرفَ الدهرِ نائلُهُ الغمرُ

وقوله:

سعدتُ غربةَ النوى بسعادِ

وقوله:

إذا سيفُهُ أضحى على الهام حاكماً
غدا العفوُ منه وهو في السيفِ حاكمٌ

وقوله:

لئن أصبحت ميدانَ السّوافي
أظنّ الدمعَ في خدي سيبقى
وليلٍ بتُ أكلوه كأني
اراعى من كواكبه هجاناً
يكاد نداءه يتركه عديماً
سفيه الرمح جاهله إذا ما
لقد أصبحت ميدانَ الهُموم
رسوماً من بكائي في الرُّسومِ
سليمٌ أو شهدت على سليم
سواماً لا تزيغ إلى المسيم
إذا هطلت يداه على عديم
بدا فضلُ السّقيه على الحليم

وقوله:

عهدي بهم تستنيرُ الأرضُ إن نزلوا
ويضحكُ الدهرُ منهم عن غطارفةٍ

وقوله:

وضلَّ بك المرتادُ من حيث يهتدي

وقوله:

تردُّ الظنونُ به على تصديقها
وتحكّمُ الآمالُ في الأموال

وقوله:

كتاب الصناعتين - ابو هلال العسكري

بلا منة أحسنت أن تتطوّلا
وأوصالك نبلُ القدر أن تتبّلا

إذا أحسنَ الأَقوامُ أن يتطاولوا
تعظمتَ عن ذاك التعظّم منهمُ

وقوله:

بالعيس من تحت السُّهاد هجودا

فأطلبُ هدوًا في التقلُّل واستترُ

وقوله:

بك والليالي كلُّها أسحار

أيامنا مصقولةً أطرافُها

وقال البحترى:

ويريكَ عينِها الغزالُ الأهورُ

بيضاءُ يعطيكَ القضيْبُ قوامها

وقوله:

وريقُ الغيثِ أحياناً يُباكيها

فحاجبُ الشمسِ أحياناً يضاحكُها

وقوله:

وللقضيْبِ نصيبُ من تشيها

وقوله:

عرفت معارفها الصِّبا والشِّمالُ

أصباةً برسومِ رامةٍ بعدما

وقوله:

ورقّت كما رقَّ النسيمُ شمائله

صفتُ مثلَ ما تصفو المدامُ خلاله

وقوله:

نثرتُ وردها عليه الخدود

أخذه آخر فقال:

وحياةٌ نثر الوردَ على الخدِّ الأَسيل

وقوله:

وبحرٌ عداني فيضُهُ وهو مفعمُ

سحابُ خطاني جوْدُهُ وهو مسبلُ

وقوله:

وصبحنا بالصُّبحِ وهو مخلقُ

أرجنَ عليَّ الليلَ وهو ممسكُ

وقوله:

كتاب الصناعتين - ابو هلال العسكري

في مقامٍ تخرّ في ضنكهِ البي

وقوله:

ضُ على البيضِ ركعاً وسجوداً

جاري الجيادَ فطار عن أوهامها

وقوله:

سبقاً وكادَ يطيرُ عن أوهامهِ

فطواهنَّ طيهنَّ الفيافي

وقوله:

واكتسينَ الوجيفَ حتى عرينا

فأضللتُ حمي والتفتُ إلى الصبّا

وقوله:

سفاهاً وقد جزتُ الشبابَ مراحلِ

وإذا سرايا عطاياهِ سرتُ أسرتُ

وقوله:

ليلٌ يبيتُ الليلُ فيه غريباً

وقول ابن الرومي:

من النّومِ إلّا أنها تتخنّزُ

وما تعترِبها آفةٌ بشريّةٌ

تطيبُ وأنفاسُ الأنامِ تغيّرُ

كذلك أنفاسُ الرياحِ بسحرّةٍ

وقوله:

يمجُّهُ بين ثناياكا

يا ربَّ ريقِ باتِ بدرُ الدُّجى

والخمرُ يرويكُ وينهاكا

يروى ولا ينهاك عن شربه

وقول العتّابي:

غريبَ الكرى بين الفجاجِ السبّاسِ

وأشعتَ مشتاقٍ رمى في جفونهِ

تردّدُ ما بين الحشَى والتّرائبِ

أما الليالي شوقه غيرَ زفرةٍ

دجى اللّيلِ حتى مجّ ضوءَ الكواكبِ

سحبتُ له ذيلَ السّرى وهو لابسٌ

أحلّ لها أكلُ الذرى والغواربِ

ومن فوقِ أكوارِ المطايا لبانةٌ

بقيةٌ هنديّ حسامِ المضاربِ

إذا الدّرعُ اللّيلِ انجلى وكأنّه

وعهدَ الفيافي في وجوه شواحبِ

بركب ترى كسر الكرى في جفونهم

وقول أبي العتاهية:

أسرى إليه الردى في حلبة القدرِ

ومن ردئ الاستعارة قول علقمة الفحل:

عريفهم بأثافي الدهر مرجومٌ

وكل قوم وإن عزوا وإن كرموا

أثافي الدهر، بعيدٌ جداً.

وقول ذي الرمة:

وجوز الفلا صدع السيوف القواطعِ

تيممنا يا فوخ الدجى فصدعنا

وقال تأبط شرا:

وأنف الموت منخره رثيمٌ

نحز رقابهم حتى نزعنا

وقول الحطيئة:

وقلص عن برد الشراب مشافره

سقوا جارك العيمان لما جفوته

وقول الآخر:

على البكر يمره بساق وحافرِ

فما رقد الولدان حتى رأيتهم

وقول الآخر:

فأضحى يعض على الوظيفاً

قد أفنى أنامله أزمه

وإذا أريد بذلك الذم والهجاء كان أقرب إلى الصواب.

وأما القبيح الذي لا يشل في قباحته، فقول الآخر:

إلى ملك أظلافه لم تشققِ

سأمنعها أو سوف أجعل أمرها

وقول ذي الرمة:

ويقطع أنف الكبرياء من الكبرِ

يعز ضعاف القوم عزه نفسه

وقول خويلد الهذلي أو غيره:

وقد أخذت من أنف لحيتك اليدُ

تخاصم قوماً لا تلقى جوابهم

أي قبضت بيدك على مقدّم لحيتك كما يفعل النادمُ أو المهموم، وأنفُ كلِّ شيءٍ: مقدمه، وأنوف القوم: سادتهم، والأنف في هذا البيت هجينُ الموقع كما ترى. وقد وقع في غيره أحسنَ موقع، وهو قول الشاعر:

إذا شمَّ أنفَ الضيفِ ألحقَ بطنه
مراس الأواصي وامتحان الكرائم
ويقولون: أنف الريح، وأنف النهار، ورعيّنا أنفَ الربيع، أي أوله. قال امرؤ القيس:

قد غداً يحمّلني في أنفه
لاحقُ الإطلين محبوك ممرّ
وروى بعض الشيوخ الثقات: في أنفه مضموم الألف، قال: هو من قوله: كأس أنف. وروضة أنف. وقال أعرابي يصفُ البرق:

إذا شيمَ أنفُ الليلِ أومضَ وسطه
سناً كابتسامِ العامريّةِ شاغفُ
أراد أول الليل. ومن بعيد الاستعارة، قول أعرابي:

ما زال مجنوناً على استِ الدهرِ
ذا جسدٍ ينمي، وعقلٍ يجري
أي ينقص. وسئل مسلم بن الوليد عن قول أبي نواس:

رسم الكرى بين الجفون محيل
عفى عليه بكأ عليك طويل
قال: إن كان قول أبي العذافر:
باض الهوى في فؤادي وفرّخ التذكار
حسناً، كان هذا حسناً.

ومن عجيب هذا الباب قول بعض شعراء عبد القيس:

ولما رأيتُ الدهرَ وعراً سبيله
وأبدى لنا ظهراً أجبّ مسلّقاً
وجبهة قرد كالشراك ضئيلة
وصعر خديّه وأنفاً مجدّعا
ومعرفة حصاء غير مفاضة
عليه ولونا ذا عثا نين أنزعا
وما أعرف متى رأى هذا للدهر جبهة كالشراك مع هذا الذي عدده، فجاء بما يضحك الشكلى. وقال الكميت:

ولما رأيتُ الدهرَ يقلبُ بطنه
على ظهره فعل الممعك في الرمل

كما ظعننتُ عنا قضاةً ظعنةً

ومن ذلك قول الأخطل:

هي الجدّ مأدومَ النَّحِيْزَةِ بالهزلِ

إكسير هذا الخلقِ يَلْقَى واحدٌ

وقول أبي تمام:

منه على ألفٍ فيكرم خيمه

حتى اتقتهُ بكيمياءِ السُّودِدِ

فلا ترى شيئاً أبعد من إكسير الخلق، وكيمياء السودد.

وقد أكثر أبو تمام من هذا الجنس اغتراراً بما سبق منه في كلام القدماء مما تقدّم ذكره، فأسرف، فنعى عليه ذلك، وعيب به، وتلك عاقبة الإسراف. فمن ذلك قوله:

يا دهرُ قومٍ من أخدعيك فقدُ

وقوله:

أضجبتَ هذا الأنامَ من خرُقكُ

كانوا رداءَ زمانِهِم فتصدَّعوا

وقوله:

فكأنما لبس الزَّمانُ الصُّوفا

نزحتُ به ركيَّ العينِ إني

وقوله:

رأيتُ الدَّمعَ من خيرِ العتادِ

ولينَ أخادعِ الزَّمنِ الأبى

وقوله:

ضربةٌ غادرتهُ عوداً ركوبا

فضربتُ الشِّتاءَ في أخدعيهِ

وقوله:

خطوبُ كأنَّ الدَّهرَ منهنَّ يصرعُ

تروحُ علينا كلَّ يومٍ وليلةٍ

وقوله:

إلى مجتدى نصرٍ فقطع للزَّندِ

ألا لا يمدُّ الدَّهرُ كفاً بسبيئِ

وقوله:

إلا إذا أشرقته بكريم

والدَّهرُ ألامُ من شرقتَ بلؤمِهِ

وقوله:

لفكرٍ دهرًا أيُّ عبأيه أثقلُ

تحملت ما لو حملَ الدَّهرُ شطرُهُ

وقوله يصف قصيدة:

على كلِّ رأسٍ من يد المجدِّ مغفراً
من الذكر لم تنفخ ولا هي ترمُرُ

تحلُّ بقاع المجد حتى كأنَّها
لها بين أبواب الملوك مزامرُ

وقوله:

ثوى منذ أودى خالدٌ وهو مرتدُّ

به أسلمَ المعروفُ بالشَّامِ بعدما

وقوله:

كأنَّ المجدَّ قد خرفا

وقوله:

على كبد المعروف من نيله بردُ

إلى ملكٍ في أيكَةِ المجدِّ لم يزلُ

وقوله:

ئل ناراً أختتُ على كبده

في غفلةٍ أوقدتُ على كبد الننا

وقوله:

فيه فغودِرَ وهو منهم أبلقُ

حتى إذا اسودَّ الزمان توضحوا

وقوله:

صروفُ النوى من مرهفٍ حسن القدِّ

وكم ملكتُ منّا على قبجِ قدِّها

وقوله:

مضتُ حقبَةً حرس له وهو حائك

إذا الغيثُ غادى نسجه خلت أنه

وقوله يرثى غلاماً:

بعد إثباتِ رجله في الرِّكاب

أنزلتُهُ الأيامُ عن ظهرِها منْ

وقوله:

في متنه ابنا للصباح الأبلقِ

وكانَ فارسَه بصرفٍ إذ غدا

وقوله:

عادتُ هموماً وكانت قبلها همما

لما مخضتُ الأمانِيَّ التي احتلبتُ

وقوله:

أثرتمُ بعيرَ الظلمِ والظلمُ بارِك

كلوا الصِّبرَ مرّاً واشربوه فإنكم

كتاب الصناعتين - ابو هلال العسكري

وقد جنى أبو تمام على نفسه بالإكثار من هذه الاستعارات، وأطلق لسان عائبه، وأكد له الحجّة على نفسه، واختياراتُ الناس مختلفة بحسب اختلاف صورهم وألوانهم.
ومن ردئ الاستعارة أيضاً قولُ بعضهم:

أنا ناقةٌ وليس في ركبتي دماغ

وأنشد أبو العنيس:

وحضنَّ فوقه طيرُ البعادِ

ضرامُ الحبِّ عششَ في فؤادي

فعربدتِ الهمومُ على فؤادي

وقد نبذَ الهوى في دنِّ قلبي

ومثله كثير ولا وجه لاستيعابه، لأن قليلة دالٌّ على كثيره، وجمله مبينة عن تفسيره إن شاء الله.

الفصل الثاني من الباب التاسع

في المطابقة

قد أجمع الناس أن المطابقة في الكلام هي الجمع بين الشيء وضده في جزء من أجزاء الرسالة أو الخطبة أو البيت من بيوت القصيدة، مثل الجمع بين البياض والسواد، والليل والنهار، والحرّ والبرد.
وخالفهم قدامة بن جعفر الكاتب، فقال: المطابقة إيرادُ لفظتين متشابهتين في البناء والصيغة مختلفتين في المعنى، كقول زياد الأعجم:

وللوم فيهم كاهلٌ وسنامٌ

ونبتهم يستتصرون بكاهلٍ

وسمى الجنس الأول التكافؤ. وأهل الصنعة يسمون النوع الذي سماه المطابقة التعطّف. قال: وهو أن يذكر اللفظ ثم يكرّره، والمعنى مختلف، وستراه في موضعه إن شاء الله.

والطباق في اللغة: الجمع بين الشيئين، يقولون: طباق فلان بين ثوبين، ثم استعمل في غير ذلك، فقيل: طباق البعير في سيره، إذا وضع رجله موضع يده، وهو رادعٌ إلى الجمع بين الشيئين. قال الجعدي:

طباق الكلاب يطأن الهراساً

وخيلٍ تطابق بالدار عين

وفي القرآن: "سبع سمواتٍ طباقاً"، أي بعضهن فوق بعض، كأنه شبهه بالطبّق يجعل فوق الإناء، قال امرؤ القيس:

طبّق الأرضِ تحرّى وتدرّ

وكل فقرة من فقر الظهر والعنق طبق، وذلك أن بعضها منضود على بعض.
 فمما في كتاب الله عز وجل من الطَّباق قوله تعالى: "يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ".
 وقوله تعالى: "ليخرجكم من الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ" أي من الكفر إلى الإيمان.
 وقوله عز وجل: "باطنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ".
 وقوله سبحانه: "لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم"، وهذا على غاية التساوي والموازنة.
 وقوله تعالى: "يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ".
 وقوله جلَّ شأنه: "ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ولا يملكون موتاً ولا حياةً ولا نشوراً".
 وقوله عز اسمه: "لا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ".
 وقوله سبحانه: "فأولئك يبدلُ اللهُ سيئاتهم حسنات".
 وقوله جل ذكره: "وأنه هو أضحك وأبكى، وأنه هو أَمَاتَ وَأَحْيَا".

وقد تنازع الناسُ هذا المعنى، قال ابن مطير:

تضحك الأرضُ من بكاءِ السماءِ

وقال آخر:

ضحك المزنُ بها ثمَّ بكى

وقال آخر:

وله بكأ من ودقهِ المتسرَّبِ

فله ابتسَامٌ في لوامعِ برقهِ

وقال آخر:

ضحك المشيبُ برأسه فبكى

لا تعجبي يا سلمُ من رجلٍ

فلم يقرب أحدٌ من لفظ القرآن في اختصاره وصفائه، ورونقه وبهائه، وطلاوته ومائه، وكذلك جميع ما في القرآن من الطَّباق.

ومما جاء في كلام النبي صلى الله عليه وسلم من الكلام المطابق قوله للأَنْصار: "إنكم لتكثرون عند الفزع، وتقلون عند الطمع". وقوله عليه الصلاة والسلام: "خيرُ المالِ عينٌ ساهرةٌ لعينِ نائمةٍ"، يعنى عينَ الماءِ ينامُ صاحبُها وهي تسقى أرضه. وقوله عليه الصلاة والسلام: "إياكم والمشاركةُ فإنها تميمُ الغرّةِ وتحى العرّةِ". ومن سائر الكلام قول الحسن: ما رأيتُ يقيناً لا شكَّ فيه أشبه بشكِّ لا يقين فيه من الموت. وقال أيضاً رضى الله عنه: إنَّ من خوِّفك حتّى تبلغَ الأَمَنَ خيرٌ ممن يؤمنك حتّى تلقى الخوف. وقال أبو الدرداء رضى

الله عنه: معروف زماننا منكرُ زمانٍ قد فات، ومنكره معروفُ زمانٍ لم يأت. وقال بعضهم: ليت حلما عنك لا يدعو جهل غيرنا إليك. وقال عبد الملك: ما حمدتُ نفسي على محبوبٍ ابتدأته بعجز، ولا لمثها على مكروه ابتدأته بحزم. وقالوا: الغنى في الغربية وطن، والفقر في الوطن غربة. وقال أعرابي لرجل: عن فنا وإن ضحك لك، فأنته يضحك منك. فإن لم تتخذهُ عدواً في علانيتك، فلا تجعلهُ صديقاً في سريرتك. وقال عليّ رضي الله عنه: أعظم الذنوب ما صغر عندك. وشم رجل الشَّعبيّ، فقال: إن كنتَ كاذباً فغفر الله لك، وإن كنت صادقاً فغفر الله لي. وأوصى بعضهم غلاماً، فقال: إن الظنَّ إذا أخلفَ فيك أخلف منك. ونحوه قول الآخر: لا تتكل على عذرٍ مني فقد اتَّكلتُ على كفاية منك. وقال الحسن: أما تستحيون من طول ما لا تستحيون ونحوه قول الأعرابي: فلانٌ يستحي من أن يستحي. وقال: من خاف الله أخاف الله منه كلَّ شيء، ومن خاف الناسَ أخافهُ الله من كلِّ شيء. وقيل لأبي داود وابنته تسوس دابته في ذلك، فقال: كما أكرمتها بهواني، معناه إن كانت تصونني عن سياسة دأبي وتبذل مني، فها إني أصونُها وأتبدلُ دوها بالقيام في أمر معاشها، وإصلاح حالها، فأخذ اللفظ بعضهم فقال في السلطان:

**أهينُ لهم نفسي لأكرمها بهم
ولن تكرم النفس التي لا تهينها**

وقال بعضهم لعليل: إن أعلك الله في جسمك، فقد أصحك من ذنوبك. وقال بعضهم: الكريم واسع المغفرة، إذا ضاقت المغفرة.

وقال كثيرين هراسة يوماً لابنه: يا بني، إن من الناس ناساً ينقصونك إذ ازدتهم، وتهون عليهم إذا أكرمتهم، ليس لرضاهم موضعٌ فتقصده، ولا لسخطهم موقعٌ فتحذره، فإذا عرفت أولئك بأعيانهم فأبد لهم وجه المودة، وأمنعهم موضع الخاصة، ليكون ما أبديت لهم من وجه المودة حاجزاً دون شرهم، وما منعتهم من موضع الخاصة قاطعاً بحرمتهم.

وقال خالد بن صفوان لرجل يصف له رجلاً: ليس له صديقٌ في السر، ولا عدوٌ في العلانية.

وقال آخر: في العمل ما هو ترك للعمل، ومن ترك العمل ما هو أكثر العمل.

وقال آخر: إنا لا نكافئ من عصى الله فينا بأكثر من أن نطيع الله فيه.

وقال الحسن: كثرة النظر إلى الباطل تذهب بمعرفة الحق من القلب.

وقال سهل بن هرون: من طلب الآخرة طلبته الدنيا حتى توفيه رزقه فيها، ومن طلب الدنيا طلبه الموت حتى يخرج منه.

وكتب رجلٌ إلى محمد بن عبد الله: إن من التَّعمة على المثني عليك ألا يخاف الإفراط، ولا يأمن التقصير، ولا يحذر أن تلحقه نقيصة الكذب، ولا ينتهي به المدح إلى غايةٍ إلا وجد في فضلك عوناً على تجاوزها.

وفي الحديث: "ما قلّ وكفى خيرٌ مما كثُرُ وألمى". وقال معاوية: ليس بين أن يملك الملكُ جميع رعيته أو يملكه جميعها إلا حزم، أو توان.

وقال بعضهم: إذا شربت التبيد فاشربه مع من يفتضح بك، ولا تشربه مع من تفتضح به.
وقال بعضهم: سوداءٌ ولودٌ خيرٌ من حسناء عقيم. وقال ابن السّمك للرشيد: يا أمير المؤمنين، تواضعك في شرفك أشرفُ من شرفك.

وقال ابن المعتز: طلاقُ الدنيا مهرُ الآخرة. وقالوا: غضبُ الجاهل في قوله، وغضبُ العاقل في فعله.

وشرب أحدهم بحضرة الحسن بن وهب قدحاً وعبس، فقال له: والله ما أنصفتها، تضحك في وجهك، وتعبس في وجهها وقال ظاهر بن الحسين لابنه: التبذير في المال ذمّه حسب التقدير فيه، فاتق التبذير، وإياك والتقتير. وقال أعرابي: أتيت بغداد فإذا ثيابُ أحرار على أجساد عبيد، إقبالُ حظّهم إداراً حظّ الكرم، شجرٌ فروعه عند أصوله، شغلهم عن المعروف رغبتهم في المنكر.
وقال أعرابي: الله مخلف ما أتلف الناس، والدهر متلفٌ ما أخلف الله، فكم من منيةٍ علّتها طلبُ الحياة، وحياةٍ سببها التعرّضُ للموت، وهذا مثل قول الشاعر:

تأخرت استبقي الحياة فلم أجد نفسي حياةً مثل أن أتقدّم

وقال آخر: كدرُ الجماعة خيرٌ من صفو الفرقة. وقال بعضهم: وكان اعتدادي بذلك اعتداد من لا تنضب عنه نعمة تغمرك، ولا يمرّ عليه عيش يجلو لك.

وقال بعضهم: وكان سروري بذلك سرور من لا تأفل عنه مسرةٌ طلعت عليك، ولا تظلم عليه محلة أنارت لك.

وقال المنصور: لا تخرجوا من عزّ الطاعة إلى ذلّ المعصية. ووصف أعرابي غلاماً فقال: ساع في الهرب، قطوفٌ في الحاجة.

وكتب سعيد بن حميد في كتاب فتح: ظنّاً كاذباً لله في حتمّ صادق، وأملاً خائناً لله في قضاء نافذ.
وقال الأفوه الأودي: سهماً تقرّ به العيون وإن كان قليلاً خيرٌ مما وجلت به القلوب وإن كان كثيراً.
ونحوه قول الشاعر:

ألا كلُّ ما قرّرت به العينُ صالحٌ

ومن الأشعار في الطباق قول زهير:

ليثٌ بعثرَ يصطادُ الرجالُ إذا

ما الليثُ كذبَ عن أقرانه صدقاً

وقول امرئ القيس:

كجلمودٍ صخرٍ حطّه السَّيْلُ من علٍ

مكر مفرٍّ مقبلٍ مدبرٍ معاً

وقول الطّيفيل الغنوى يصف فرسا:

يضانٌ وهو ليوم الرّوعِ مبذولٌ

بساهم الوجه لم تقطع أباجله

وقول الآخر:

بمقدارٍ سمدنٍ له سموداً

رمى الحدثنانُ نسوةَ آلِ حربٍ

وردّ وجوههنّ البيضَ سوداً

فردّ شعورهنّ السّودَ بيضاً

وقال حسين بن مطير:

بأحسنَ ممّا زينتها عقودها

ومبتلةُ الأردافِ زانتَ عقودها

وسودٍ نواصيها وبيضِ خدودها

بصفرٍ تراقبها وحمراً أكفها

وقال في وصف السحاب:

ضحكٌ يراوحُ بينه وبكاءٌ

وله بلا حزنٍ ولا بمسرةٍ

وقال آخر:

لقد سرّني أنّي خطرتُ ببالك

لئن ساعني أن نلتني بمساءةٍ

وقال النابغة:

وإن علواً حزنا تشظّت جنادلُ

وإن هبطا سهلاً أثارا عجاجةً

وقال مسافع:

من العيش أو آسى على إثرِ مدبرٍ

أبعدَ بنى أمّي أسراً بمقبلٍ

وأبناءً معروفٍ ألمٍّ ومنكرٍ

أولاك بنو خيرٍ وشرٍّ كليهما

وقال أوس بن حجر:

فذقنا طعمَ طاعتنا وذاقوا

أطعنا ربنا وعصاه قومٌ

وقال الفرزدق:

لا يعذرون ولا يفون لجارٍ

لعن الإلهُ بنى كليبٍ إنهم

وتنامُ أعينهم عن الأوتارِ

يستيقظون إلى نهيقِ حمارهم

وقال امرؤ القيس:

كتاب الصناعتين - ابو هلال العسكري

بماءٍ سحابٍ زلَّ عن ظهرِ صخرَةٍ
إلى بطنٍ أخرى طيّب طعمه خصرُ
وقال النابغة:

ولا يحسبون الخيرَ لا شرّاً بعده
ولا يحسبون الشرَّ ضربةً لازبٍ
وقال بيهس بن عبد الحرث، يصف الشيب:

حتى كأنّ قديمه وحديثه
ليلٌ تفتح مدبراً بنهارُ
فطابق بين قديم وحديث، وليل ونهار، فأخذه الفرزدق، فقال:

والشيبُ ينهضُ في الشباب كأنه
ليلٌ يصيحُ بجانبه نهارُ
طابق بين الشيب والشباب، والليل والنهار، وهذا أحسن من قول بيهس سبكا ورفصفاً، وفيه نوع آخر من البديع، وهو يصيح بجانبه نهاره أخذه من قول السماخ:

ولاقي بصحراء الإهالة ساطعاً
من الصبح لما صاح بالليل نفاً
وقال أبو داود قبله:

تصيحُ الرُدَيْنِيَّاتُ في حجاتهم
صباحُ العوالي في النّفافِ المتّقبِ
وقال آخر:

تصيحُ الرُدَيْنِيَّاتُ فينا وفيهمُ
صياحُ بنات الماء أصبحن جوعاً
وقال آخر في صفة قوس:

في كفه معطية منوعُ
وقال آخر:

مرحتُ وصاح المروُ من أخفافها
وقال آخر في صفة ناقة:

خرقاءُ إلا أنها صناعُ
وقال آخر:

فجاء ومحمودُ القرى يستنفرُه
إليها وداعي الليل بالصبح يصفُرُ
ومما فيه ثلاث تطبيقات قول جرير:

وباسطُ خيرٍ فيكمُ بيمينه
وقابضُ شرٍّ عنكمُ بشمالياً
فطابق بباسط وقابض، وخير وشر، ويمين وشمال، ومثله قول الآخر:

فلا الجودُ يفنى المالَ والجُدُّ مقبلٌ

ولا البخلُ يبقي المالَ والجُدُّ مدبرٌ

ومثله قول الآخر:

فسرّى كإعلاني وتلك سجيّتي

وظلمةٌ ليلى مثلُ ضوءِ نهارياً

ومما فيه طباقان، قول المتلمّس:

وإصلاحُ القليلِ يزيدُ فيه

ولا يبقي الكثيرُ على الفسادِ

وقال أوس بن حجر:

فتحدركم عبسٌ إلينا وعامرٌ

وترفعنا بكرٌ إليكم وتغلبُ

إذا ما علوا قالوا أبونا وأمنا

وليس لهم عالين أمٌ ولا أبٌ

وقول قيس بن الخطيم:

إذا أنت لم تنفعَ فضرٌّ فإنما

يرجى الفتى كيما يضرّ وينفعا

وهذا تطبيق وتكميل، ومثله قول عديّ بن الرّعاء:

ليس من ماتَ فاستراحَ بميتٍ

إنما الميتُ ميّتُ الأحياءِ

فاستوفى المعنى في قوله: ليس من مات فاستراح بميت، وكملّ في قوله: إنما الميت ميّت الأحياء، وقد طابق جماعة من المتقدمين بالشيء وخلافه على التقريب، لا على الحقيقة، وذلك كقول الخطيئة:

وأخذت أطرارَ الكلام فلم تدعُ

شتماً يضرّ ولا مديحاً ينفعُ

والهجاء ضدّ المديح، فذكر الشتم على وجه التقريب، وهكذا قول الآخر:

يجزون من ظلمِ أهلِ الظلمِ مغفرةً

ومن إساءةِ أهلِ السوءِ إحساناً

فجعل ضدّ الظلم المغفرة.

ومن المطابقة في أشعار الحديثين، قول أبي تمام:

أصمّ بك الناعي وإن كان أسمعاً

وأصبح مغنى الجودِ بعدك بلقعا

وقالوا: هذا أحسن ابتداء في مرثية إسلامية، وقال أبو تمام أيضاً:

وضلّ بك المرتادُ من حيث يهتدي

وضرّت بك الأيامُ من حيث تنفعُ

وقد كان يدعى لابسُ الصبرِ حازماً

فأصبح يدعى حازماً حين يجزغُ

وقال سديف في النساء:

وأصحّ ما رأيتِ العيونَ جوارحاً

ولهنّ أمراضٌ ما رأيتِ عيوناً

كتاب الصناعتين - أبو هلال العسكري

وقال عمارة بن عقيل:

كان يوماً عنانه بشمالي

وأرى الوحش في يميني إذا ما

وقال أبو تمام:

أفناهم الصبر إذا أبقاكم الجزع

فيم الشماتة إعلاناً بأسدٍ وغي

فجاء بتطبيقتين في مصراع.

وقال البحري:

ما رأينَ المفارق السودَ سوداً

إن إيامه من البيض بيضٌ

وقال النمرى:

وبها الخليطُ نزولُ

ومنازلُ لك بالحمى

وسرورهنَّ طويلُ

أيامهنَّ قصيرةٌ

ونحوسهنَّ أقولُ

وسعودهنَّ طوالعُ

ب وقينة وشمولُ

والمالكية والشبا

وقال آخر:

ت فأيقظهم قدرٌ لم ينم

براذينُ ناموا عن المكرما

ويا حسنهم في زوال النعم

فيا قبحهم في الذي خولوا

وقال آخر:

فتى من بني العباس ليس بطائل

أفاطم قد زوجت من غير خبرة

وإن كان حراً الأصل عبدُ الشمائل

فإن قلت من آل النبي فإنه

ونحوه في معناه، لاقى التطبيق، قول علي بن الجهم في بعض بني هاشم:

إن تكن منهم بلا شك فللعود قتارُ

ومثله:

فما خبت من فضة بعجيب

ومثله:

ولم يأتته من عند أم ولا أب

لئيم أتاه اللؤم من عند نفسه

وقول أبي تمام:

كتاب الصناعتين - أبو هلال العسكري

والدمعُ يحملُ بعضُ ثقلِ المغرَمِ
في مثلِ حاشيةِ الرِّداءِ المعلمِ

يذابُ بعينِ لؤلؤٍ وعقيقِ

ويبتلى اللهُ بعضُ القومِ بالنعمِ

كانَ الفراقُ بما كرهتُ عجولاً
أصبحتُ منها فارغاً مشغولاً

ليلٌ وإشراقُ الوجوهِ نهارُ

وعدتُ ريحُه البليلِ سموماً
في صميمِ الفؤادِ تكللاً صميماً
تُغرُّ أيامُ كنتُ بهيماً
مثلُ ما سمى اللديغِ سليماً

لما رويتُ بها عطشتُ

فقيسوا به في المجدِ عادوا توالياً
فكنِ باقياً حتى ترى الدهرَ فانياً

نثرتُ فريدَ مدامعِ لم تنظمِ
وصلتُ نجيعاً بالدموعِ فخذُها

أخذه من قولِ أبي الشَّيْصِ:

وصلتُ دماً بالدمعِ حتى كأنما

وقولِ أبي تمام:

جفوفُ البلى أسرعتُ في الغصنِ الرطبِ

وقوله:

قد ينعمُ اللهُ بالبلوى وإن عظمتُ

وقولِ الآخر:

عجلَ الفراقُ بما كرهتُ وطالما

وأرى التي هامَ الفؤادُ بذكرها

وقال بكرُ بنِ النطّاح:

وكأنِ إظلامَ الدروعِ عليهمُ

وقولِ أبي تمام:

أصبحتُ في روضةِ الشَّبَابِ هشيماً

شعلةً في المفارقِ استودعتني

غرّةً مرةً ألا إنما كنِ

دقةً في الحياةِ تدعى جلالاً

وقولِ آخر:

فجلستُ منها قبلةً

وقلت:

إذا معشرُ في المجدِ كانوا هوادياً

رأيتُ جمالَ الدهرِ فيك مجدداً

وقلت:

كتاب الصناعتين - ابو هلال العسكري

وهو يقصيني جهده

لاك ولا يرضاك عبده

كل أن يخلف وعده

وجه أن ينقض عهده

ليت ما صدك صدّه

قل لمن أدنيه جهدي

ولمن ترضاه مو

أملح بمليح الش

أم جميل بجميل ال

ما الذي صدك عني

وقلت:

فلماذا أبيعُه وبنفسي أشتريه

وقلت:

وراء كل محبب مكروه

في كل خلق خلّة مذمومة

ومن عيوب التطبيق قول الأخطل:

فعصيت قولي والمطاع غراب

قلت المقام وناعب قال النوى

وهذا من غث الكلام وبارده، وقال:

خلفته يوم الوغى منتوفا

كم جفيل طارت قدامي خيله

سيكون بعدك حافرا ووظيفا

أعلمت نابك وهو رأس أنه

وقال آخر في القاسم بن عبيد الله:

هو مقسم أن الهواء ثخين

من كان يعلم كيف رقة طبعه

وقال أبو تمام:

ويا شعبي بمقدمه وريي

فيا تلج الفؤاد وكان رضفا

وقال:

ت برغم الزمان صنعا ربيبا

وإذ الصنع كان وحشا فملي

وقال:

خشن وإني بالنجاح لوائق

قد لأن أكثر ما تريد وبعضه

وقوله:

لو أن القضاء وحده لم يبرد

لعمري لقد حررت يوم لقيته

وقوله:

وإن خفرت أموال قوم أكفهم
من النيل والجدوى فكفاه مقطّع

وقوله:

يوم أفاض جوى أفاض تعزياً
خاض الهوى بحرى حجاه المزيد

فجعل المحجى في هذا البيت مزبداً، ولا أعرف عاقلاً يقول: إن العقل يزيد، وليس المزيد هاهنا نعتاً للبحرين، لأنه قال بحرى حجاه المزيد، فلو جعل المزيد نعتاً للبحرين لقال المزيدين، وخوض الهوى بحر التعزى أيضاً من أبعده الاستعارة. ونحو منه قوله أيضاً:

يا يوم شرّد يوم لهوى لهوه
بصبايتي وأذل عزّ تجلدى

وقوله:

غرض الظلام أو اعترته وحشة
فاستأنست روعاته بسهادي
بل ذكرة طرقت فلما لم أبت
بانث تفكر في ضروب رقادي
أغرت همومي فاستلبن فصولها
نومي ونمن على فضول وسادي

وهذه الأبيات مع قبح التطبيق الذي في أولها، وهجته الاستعارة لا يعرف معناها على حقيقته.

الفصل الثالث

في ذكر التجنيس

التجنيس أن يورد المتكلم كلمتين تجانس كل واحدة منهما صاحبتهما في تأليف حروفها على حسب ما ألف الأصمعي كتاب الأجناس. فمنه ما تكون الكلمة تجانس الأخرى لفظاً واشتقاق معني، كقول الشاعر:

يوماً خلجت على الخليج نفوسهم
عصبا وأنت لمثلها مستام

خلجت: أي جذبت، والخليج: بحر صغير يجذب الماء من بحر كبير، فهاتان اللفظتان متفقتان في الصيغة واشتقاق المعنى والبناء، ومنه ما يجانس في تأليف الحروف دون المعنى، كقول الشاعر:

فأرفق به أن لوم العاشق اللوم

وشرط بعض الأدباء من هذا الشرط في التجنيس وخالفه في الأمثلة فقال: وممن جنس تجنيسين في بيت زهير، في قوله:

بعزيمة مأمورٍ مطيعٍ وأمرٍ مطاعٍ فلا يلقى لحزمهم مثلُ

وليس المأمور والأمر والمطيع والمطاع من التجنيس، لأن الاختلاف بين هذه الكلمات لأجل أن بعضها فاعل، وبعضها مفعول به، وأصلها إنما هو الأمر والطاعة. وكتاب الأجناس الذي جعلوه لهذا الباب مثلاً إنما يصف على هذه السبيل، ويكون المطيع مع المستطيع، والأمر مع الأمير تجنيساً. وجعل أيضاً من التجنيس قول الآخر:

ذو الحلم منا جاهلٍ دون ضيفه ذو الجهل منا عن أذاه حليمٌ

ليس بتجنيس، وكذلك قول خدش بن زهير:

ولكن عايشٌ ما عاش حتى إذا ما كاده الأيام كيدا

وقال الشنفرى:

وإني لخلوٌ إن أريد خلوتي ومرٌ إذا النفس العزوف أمرت

وقال العجير السلولي:

يسرك مظلوما ويرضيك ظالما وكل الذي حملته فهو حامله

وقول الآخر:

وساعٍ مع السلطان يسعى عليهم ومحترس من مثله وهو حارسٌ

وقول تأبط شراً:

يرى الوحشه الأنس الأنيس ويهتدي بحيث اهتدت أم النجوم الشوابك

وقول الآخر:

صببت عليه ولم تنصب من كذب إن الشقاء على الأشقين مصبوبٌ

ليس في هذه الألفاظ تجنيس، وإنما اختلفت هذه الكلم للتصريف.

فمن التجنيس في القرآن قول الله تعالى: "وأسلمت مع سليمان".

وقوله عز وجل: "فأقم وجهك للدين القيم".

وقوله تعالى: "تقلّب فيه القلوب والأبصار".

وقوله سبحانه وتعالى: "والتفت الساق بالساق إلى ربك يومئذ المساق".

وقوله تعالى: "وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ".
وقوله عزّ وجل: "فَرُوحٌ وَرِيحَانٌ وَجَنَّةٌ نَعِيمٌ". الرّوح: الراحة، والريحان الرزق.
وقوله سبحانه: "ثُمَّ كُلِيْ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ".
وقوله تعالى: "أَزْفَتِ الْأَزْفَةَ"، الأزفة: اسم ليوم القيامة.
فهذا كقول امرئ القيس:

لَقَدْ طَمَحَ الطَّمَّاحُ

وليس هذا كقولهم: أمر الأمر. هذا ليس بتجنيس.
وفي كلام النبيّ صلى الله عليه وسلم: "عَصِيَّةٌ عَصَتِ اللَّهُ وَرَسُولَهُ، وَغَفَا وَغَفَرَ اللَّهُ لَهَا، وَأَسْلَمَ سَالِمَهَا اللَّهُ".
وقوله صلى الله عليه وسلم: "الظلم ظلمات يوم القيامة".
أخذه أبو تمام، فقال:

جَلَا ظِلْمَاتِ الظُّلْمِ مِنْ وَجْهِ أُمَّةٍ أَضَاءَ لَهَا مِنْ كَوْكَبِ الْعَدْلِ أَفْلَهُ

وقيل له صلى الله عليه وسلم: من المسلم؟ فقال: "من سلم المسلمون من لسانه ويده".
وقال معاوية لابن عباس رضى الله عنهم: ما بالكم يا بني هاشم تصابون في أبصاركم؟ فقال: كما تصابون في بصائركم يا بني أمية. وقال صدقة بن عامر وقد مات له بنون سبعة فرأهم قد سجّوا: اللهم إني مسلم مسلم. وقال رجل من قريش لخالد بن صفوان: ما اسمك؟ قال خالد بن صفوان بن الأهتم، فقال الرجل: إن اسمك لكذب، ما خلّد أحد، وإن أباك لصفوان وهو حجر، وإن جدك لأهتم وإن الصحيح خيرٌ من الأهتم. قال خالد: من أيّ قريش أنت؟ قال: من بني عبد الدار، قال: فمثلك يشتم تميما في عزّها وحسبها، وقد هشمتك هاشم، وأمّتك أمية، وجمحت بك جمح، وخزمتك مخزوم، وأقصتك قصي، فجعلتك عبد دارها وموضع سناها، تفتح لهم الأبواب إذا دخلوا، وتغلقها إذا خرجوا. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا يكون ذو الوجهين عند الله وجيها". وكتب بعض الكتاب: العذر مع التّعذّر واجب. وقيل لبعضهم: ما بقي من نكاحك؟ قال: ما يقطع حجّتها ولا يبلغ حاجتها. وروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال: هاجروا ولا تهجّروا، أي لا تشبّهوا بالمهاجرين من غير إخلاص. وكتب بعض الكتاب: قد رخصت الضرورة في الإلحاح، وأرجو أن تحسن النظر، كما أحسنت الانتظار.

وأخبرنا أبو أحمد، قال: حكى لي محمد بن يحيى عن عبد الله بن المعتز، قال: قدّم في بعض المجالس إلى صديق لنا بخورا، فقال له صاحب المجلس: تبخّر، فإنه ندّ، فلما استعمله لم يستطبه، فقال: هذا ندّ عن

النَّد.

ومثله ما حكى لنا أبو أحمد عن الصّولي أن إبراهيم بن المهدي زار صديقاً له استدعى زيارته، فوجده سكران، فكتب في رقعة جعلها عند رأسه:

رحنا إليك وقد راحت بك الراح

وروى بعضهم أن عبد الله بن إدريس سئل عن النبيذ، فقال: جلّ أمره عن المسئلة، أجمع أهل الحرمين على تحريمه. وذم أعرابي رجلاً فقال: إذا سأل الحف، وإذا سئل سوّف، يجسد على الفضل، ويزهد في الإفضال.

وكتب العتابي إلى مالك بن طوق: أما بعد فاكتسب أدباً، تحي نسباً، واعلم أن قريابك من قرب منك خير، وأن ابن عمك من عمك نفعه، وأن أحبّ الناس إليك أحدهم بالمنفعة عليك. وقال آخر: اللهم تفتح اللهم.

وأخبرنا أبو القاسم عبد الوهاب بن إبراهيم الكاغدي، قال: أخبرنا أبو بكر العقدي، قال: أخبرنا أبو جعفر الخراز، قال: دخل فيروز حصين على الحجاج وعنده الغضبان بن القبعثري فقال له الحجاج: زعم الغضبان أن قومه خير من قومك، فقال: أذكاءك يا غضبان؟ قال: نعم، فقال فيروز: أصلح الله الأمير اعتبر قومي وقومه بأسمائهم، هذا غضبان، غضب الله عليه، والقبعيري اسم قبيح من بني ثعلبة شرّ السباع، ابن بكر شرّ الإبل، ابن وائل له الويل، وأنا فيروز فيروز به، حصين حصنٌ وحرز، والعنبر ريح طيبة، من بني عمرو، عمارة وخير، من تميم تمّ، فقومي خير من قومه وأنا خير منه. وأخبرنا أبو أحمد عن أبي بكر عن أبي حاتم عن الأصمعي، قال سمعت الحّي يتحدثون أن جريراً، قال: لولا ما شغلني من هذه الكلاب لشببت تشبباً تحنّ منه العجوز إلى شبابها. ومن أشعار المتقدمين في التجنيس قول امرئ القيس:

ليلبسني من دائه ما تلبّسا

لقد طمح الطّماح من بعد أرضه

وأخذه الكميت فقال:

رجا الملك بالطّماح نكباً على نكب

ونحن طمحناً لامرئ القيس بعدما

وقال الفرزدق وذكر واديا:

وأوسعه من كلّ سافٍ وحاصب

خفاف أخفّ الله عنه سحابة

وقال زهير:

كأنّ عيني وقد سال السليلُ بهم

وقال الفرزدق:

قد سال في أسلاتنا أو عضّه

وقال النابغة:

وأقطع الخرق بالخرقاء لاهية

وقال غيره:

على صرماة فيها أصرماها

وقال قيس بن عاصم:

ونحن حفزنا الحوفزان بطعنة

وقال:

وقاظ أسيرا هانئ وكأئما

وقال أمية بن أبي الصلت:

فما أعتبت في النائبات معتب

وقال أوس بن حجر:

قد قلت للركب لولا أنهم عجلوا

وفيها:

عرّ عرائر أبحار نشأن معا

وفيها:

لكن بفرناج فالخلصاء أبت بها

وفيها:

حتى أشب لهن الثور من كئيب

وقال الكميت:

فقل لجدام قد جذمتم وسيلة

وقال طرفة:

بحسام سيفك أو لسانك وال

كتاب الصناعتين - ابو هلال العسكري

وجيرة ما هم لو أنهم أمم

عضب بضربته الملوك تقتل

وخرّبت الفلاة بها مليل

سقته نجيعا من دم الجوف أشكلا

مفارق مفروق تغشين عندما

ولكنها طائت وضلت حلومها

عوجوا عليّ فحيوا الحي أو سيروا

خشن الخلائق عما يتقى زور

فحنبل فعلى سراء مسرور

فأرسلوهن لم يدروا بما ثيروا

إلينا كمختار الرداف على الرّحل

كلم الأصيل كأرغب الكلم

وقال القحيف:

بخيل من فوارسها اختيال

وقال النعمان بن بشير لمعاوية:

ألم تبتدركم يوم بدر سيوفنا

وقال العبسي:

أبلغ لديك بني سعد مغلظة

وذا كم أن ذل الجار حالفكم

وقال جليح بن سويد:

أقبلن من مصر بيارين البرا

وقال ذو الرمة:

كأن البرى والعاج عيجت متونه

وقال حيان بن ربيعة الطائي:

على عشر نهى به السيل أبطح

لقد علم القبائل أن قومي

وقال القطامي:

لهم حد إذا لبس الحديد

فلما ردّها في الشول شالت

وقال جرير:

بذيال يكون لها لفاعا

وما زال معقولا عقال عن الندى

وقال امرؤ القيس:

وما زال محبوسا عن الخير حابس

بلاد عريضة وأرض أريضة

وقال آخر:

مدافع غيث في فضاء عريض

وطيب ثمار في رياض أريضة

وقال حميد الأرقط:

مرتجز في عارض عريض

ومن أشعار المحدثين قول الشاعر:

إلى رد أمر الله فيه سبيل

وسميته يحيى ليحيى ولم يكن

كتاب الصناعتين - ابو هلال العسكري

تيممتُ فيه الفألَ حينَ رزقته

وقال البحتري:

ولم أدر أن الفألَ فيه يفيلُ

نسيمُ الروضِ في ريحِ شمال

وهذا من أحسن ما في هذا الباب، وقال أبو تمام:

وصوبُ المزنِ في راحِ شمول

سعدتُ غربةَ النوى بسعادِ

وهذا من الابتداءات المليحة، وقال فيها:

فهي طوع الإتهامِ والإنجادِ

عائقُ معتقٍ من اللومِ إلا

من معاناة مغرم أو نجاد

مليتكَ الأحسابِ أيّ حياة

لو تراخت يداك عنها فواقا

وحياً أزيمةٍ وحيّةٍ وادِ

أكلتها الأيامُ أكلَ الجرادِ

كادت المكرمات تنهدُّ لولا

أنها أيّدتُ بحيّ أيادِ

وقال البحتري:

راحتُ لأربُعك الرياحِ مريضةً

وقال مسلم بن الوليد:

وأصابَ مغناك الغمامُ الصيّبُ

لعبت بها حتى محت آثارها

ريحان رائحتان باكرتان

وقال آخر:

لا تصغِ للومِ إن اللومَ تضليلُ

فقد مضى القيظُ واحتنت رواحله

واشرب في الشربِ للأحزانِ تحليلُ

وطابت الراح لما آل أيلول

لم يبقَ في الأرضِ نبتٌ يشتكى مرهاً

إلا وناظره بالطلِّ مكحولُ

وقال اليزيديّ للأصمعي:

وما أنت هل أنت إلا امرؤ

إذا صح أصلك من باهلة

وللباهليّ على خبزه

كتابٌ لأكله الآكله

وقال آخر:

قد بلغت الأشدَّ لا شدك الل

ه وجاوزته وأنت مليمٌ

وقال مسلم:

كتاب الصناعتين - ابو هلال العسكري

يورَى بزندِكِ أو يسعَى بمجدكِ أو

يفرى بحدِّكِ كلُّ غيرٍ محدودٍ

وقال:

وليس ببالي حين يحنكُ جمرُها

صدودُ صداءٍ واجتنابِ بني جنبِ

وقال البحري:

لولا عليُّ بن مرٍّ لاستمرَّ بنا

خلفٌ من العيش فيه الصَّابُ والصَّبْرُ

بردُ الحشا وهجيرُ الروح محتفل

ومسعرٌ وشهابُ الحرب يستعرُ

ألوى إذا شابك الأعداءُ كرَّهم

حتى يروح وفي أظفاره الظَّفْرُ

جافى المضاجع ما ينفك في لجبِ

يكاد يقمرُ من لألائه القمر

وقال:

حيا الأرض أَلقت فوقه الأرض تَقَلِّها

وهول الأعداءِ فوقه التراب هائلُ

ستبكيه عينٌ لا ترى الخير بعده

إذا فاض منها هاملٌ عاد هاملُ

وقال الطائي:

ورمى بثغرتِه النَّحورَ فسَدَّها

طلق اليدين مؤملاً مرهوباً

وأنشدني العتي:

دنس القميص غليظُه

من غير لحمته سداه

وشعاره من شعره

فكأنه من مسك شاه

وجنس أبو تمام أربع تجنيسات في بيت واحد، ولعله لم يسبق إليه وهو قوله:

بحوافرٍ حفرٍ وصلبٍ صلَّبِ

وأشاعرٍ شعرٍ وخلقٍ أخلقِ

وقوله أيضاً:

لسلمى سلامان وعمره عامر

وهند بني وسعدى بني سعدى

ومما جنس فيه تجنيسين، قوله:

ففصلنَ منه كلَّ مجمعٍ مفصلٍ

وفعلنَ فاقرةً بكلِّ فقار

ومن التجنيس ضرب آخر، وهو أن تأتي بكلمتين متجانستَي الحروف، إلا أن في حروفها تقدماً وتأخيراً،

كقول أبي تمام:

بيضُ الصفائح لا سودُ الصفائف في

متونهنَّ جلاءُ الشكِّ والرَّيبِ

كتاب الصناعتين- ابو هلال العسكري

وقلت في حية:

منقوشة تحكى صدور صحائف إبان يبدو من صدور صفائح

وقيل لابنة الحسن: كيف زينت مع عقلك؟ فقالت: طول السواد، وقرب الوساد. ومن التجنيس نوع آخر يخالف ما تقدم بزيادة حرف أو نقصانه، وهو مثل قوله الله عز وجل: "وهم ينهون عنه وينأون عنه". وقوله تعالى: "كعرض السماء والأرض". وقوله جل ذكره: "والليل وما وسق، والقمر إذا اتسق". وقوله سبحانه: "ذلكم بما كنتم تفرحون في الأرض بغير الحق، وبما كنتم تمرحون". وكتب عبد الحميد: الناس أحياف مختلفون، وأطوار متباينون، منهم علق مضنة لا يباع، ومنهم غلّ مظنة لا يبتاع.

ورفع رجل هاشمي يسمى عبد الصمد صوته في مجلس المأمون عند مناظرة، فقال المأمون:

لا ترفعن صوتك يا عبد الصمد إن الصواب في الأسد لا الأشد

وكتب كافي الكفاة رحمه الله: فأنت أدام الله عزك، وأن طويت عتًا خبرك، وجعلت وطنك وطرك، فأبناؤك تأتينا، كما وشى بالمسك رياه، ودلّ على الصبح محياه. وقال عليّ رضي الله عنه: كل شيء يعز حين يتر، والعلم يعز حين يغزر وقال بعضهم: عليك بالصر، فإنه سبب النصر، ولا تخض الغمر، حتى تعرف الغور. وقال آخر: راش سهامه بالعقوق، ولوى ماله عن الحقوق.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "الخيّل معقودٌ في نواصيها الخيرُ إلى يوم القيامة". ودعا علي بن عبد العزيز المافروخي صاعد بن مخلد في يوم مطيرن فتخلف عنه واعتذر إليه. فكتب إليه عليّ: ما شقّ طريق هدى إلى صديق. وإنما جعلت الماطر، لليوم الماطر. فركب إليه. ومن المنظوم قول الأعشى:

رب حيّ أشقاهم آخر الدهر رحيّ سقاهم بسجال

وقوله:

بليون المعزابة المعزال

وقول أوس بن حجر:

أقول فأما المنكرات فأتقى وأما الشذا عنى الملم فأشذب

وقال امرؤ القيس:

بسام ساهم الوجه حسن

وقال ابن مقبل:

يمشيين هيل النقا مالت جوانبه

وقال زهير:

ينهال حيناً وينهاه الثرى حيناً

هم يضربون حبيبك البيض إذا لحقوا

وقال:

لا ينكلون إذا ما استلحموا وحموا

في متناه متناه كوكبه

وقال الحطيئة:

وإن أنعموا لا كدروها ولا كدوا

وإن كانت النعماء فيهم جزوا بها

وقال آخر:

مطاعين في الهيجا مطاعيم في القرى

وقال أبو ذؤيب:

وطال عليهم حميها وسعارها

إذا ما الخلاجيمُ العلاجيمُ نكلوا

وقال آخر:

على الهام منها قبيضُ بيضُ مفلقٍ

وقال:

وعطاؤه متخرق جزل

كفاه مخلقةً ومتلفة

ومن شعر المحدثين قول البحترى:

ومهفهف الكشحين أحوى أحورٍ

من كل ساجى الطرف أغيذَ أجيدٍ

وقوله:

وسر مبعداً عنهنَّ إن كنتَ عاذلاً

ققف مسعداً فيهنَّ إن كنتَ عاذراً

وقوله:

وسيبُ أمير المؤمنين ونائله

سنان أمير المؤمنين وسيفه

وقوله:

أو لشاكٍ من الصبابة شافٍ

هل لما فاتٍ من تلافٍ تلافٍ

وقول أبي تمام:

تصول بأسيافٍ قواضٍ قواضبٍ

يمدّونَ من أيدي عواصٍ عواصمٍ

كتاب الصناعتين - أبو هلال العسكري

إذا الخيلُ جابتُ قسطلُ الحربِ صدَّعُوا صدورَ العوالي في صدورِ الكتائبِ

وقوله:

مغارمَ في الأقوامِ وهي مغانمُ

ولم أرَ كالمعروفِ تدعى حقُّوقه

وقول الآخر:

تلك المحاجر في المعاجرُ

الله ما صنعت بنا

ب من الحناجر في الحناجرُ

أمضى وأنفذُ في القلو

وقلت:

له حسنات كلهنّ ذنوبُ

عذيري من دهرِ موارِ مواربِ

وقلت:

ن دوامِ دوامِ

آفة السر من جفو

ع الهوامي الهوامِ

كيف يخفى معَ الدمو

وقلت أيضاً:

معالم جذب لم يطق محوها المطرُ

خليفة شهيم كلما اسمحت محت

ومما عيب من التجنيس قول أبي تمام:

تغرّق الأسدَ في آذيها اللبسا

أهيسُ أليسُ لجاؤُ إلى همم

ومما عيب من التجنيس الأول قول أبي تمام:

عنه فلم تتخون جسمه الكمدُ

خان الصفا أخُ خان الزمانِ أخا

وقوله:

بالأشترين عيون الشّركِ فاصطلما

قرّت بقرانَ عينِ الدينِ وانشرت

فهذا مع غثاثة لفظه وسوء التجنيس فيه يشتمل على عيب آخر، وهو أن انتشار العين لا يوجب

الاصطلام، وقوله:

ن ومن عَقَّ منزلاً بالعقيقِ

إن من عَقَّ والديه لملعو

وقوله:

خسنتِ عليه أختُ بني خشينِ

وهذا في غاية المهجانة والشناعة.

وقد جاء في أشعار المتقدمين من هذا الجنس نيد يسير منه قول امرئ القيس:

وسنّ كسنيقٍ سناءً وسنماً
ذعرت بمدلاج الهجير نهوض

ولم يعرف الأصمعي وأبو عمرو معنى هذا البيت، وقال الأعشى:

وقد غدوت إلى الحانوت يتبعني
شاوٍ مثل شلول شلشل شول

تبعه مسلم بن الوليد، فقال:

سلتُ وسلتُ ثم سلّ سليلها
فأتى سليلٌ سليلها مسلولا

وقال أبو الغمر يصف السحاب:

نسجته الجنوبُ وهي صناعٌ
فترقى كأنه حبشي

وقرى كل قرية كل يقرؤ
ها قرى لا يجف منه قرى

وهذا مستهجن لا يجوز لتأخر أن يجعله حجة في إتيان مثله، لأن هذا وأمثاله شاذ معيب، والعيب من كل أحد معيب، وإنما الاقتداء في الصواب لا في الخطأ.

وقد قال بعض المتأخرين ما هو أقبح من جميع ما مر في قوله وليس من التجنيس:

ولا الضّعف حتى يتبع الضّعف ضعفه ولا ضعف الضّعف بل مثله ألف

وقوله:

ففلقلتُ بالهمّ الذي قلل الحشا
قلاقل عيسٍ كلهنّ قلاقل

وقيل لأبي القمقام: ألا تخرج إلى الغزاة بالمصيصة؟ فقال: أمصني الله إذا بظر أمي ومن التجنيس المعيب قول بعض المحدثين، أنشده ابن المعتز:

أكابد منكم أليم الألم
وقد انحل الجسم بعد الجسم

وقول الآخر:

كم رأسٍ رأسٍ بكى من غير مقلته
دماً وتحسبُه بالقاع مبتسماً

وقول إبراهيم أبو الفرج البندنجي في عبيد الله بن عبد الله بن طاهر:

هي الجأذُرُ إلا أنها حور
كأنها صور لكنّها صور

نور الحجال ولكن من معايبها
إذا طلبت هواها أنها نور

غيداء لو بل طرفُ البابلي بها
لارتدّ وهو بغير السحر مسحور

أصلاً وقد فصلتُ من مكّة العيرُ
وأرض عروة من بطحان فالنيرُ
من طول شوق وهجّيراه تهجيرُ
ما اعتمّ بالآل في أرجائها القورُ

كشّافَ طخياء لا ضيقاً ولا حرجاً
لقليل في هرم قد جنّ أو هرماً

إن الرواح جلا روحَ العراق لنا
تشكو العقوقَ وقد عَقَّ العقيق لها
يحتثُّها كلُّ زول دأبه دأب

مقوِّرة الآل من خوض الفلاة إذا
هذا البيت قريب من قول أبي تمام:

أحطت بالحزم حيزوماً أبا همم
وقال المخزومي في طاهر بن الحسين:
ولو رأى هرمٌ معشار نائله

الفصل الرابع

في المقابلة

المقابلة: إيراد الكلام، ثم مقابله مثله في المعنى واللفظ على جهة الموافقة أو المخالفة. فأما ما كان منها في المعنى فهو مقابلة الفعل بالفعل، مثاله قول الله تعالى: "فتلك بيوتهم حاوية بما ظلموا"، فحواء بيوتهم وخراهما بالعذاب مقابلة لظلمهم. ونحو قوله تعالى: "ومكروا مكراً ومكرنا مكراً"، فالمكر من الله تعالى العذاب، جعله الله عز وجل مقابلة لمكرهم بأنبيائه وأهل طاعته. وقوله سبحانه: "نسوا الله فسيهم". وقوله تعالى: "إن الله لا يغيّر ما بقومٍ حتّى يغيّروا ما بأنفسهم". ومن ذلك قول تأبط شرا:

كما هزّ عطفى بالهجان الأوارك

ومن لو رأني صادياً لسقاني
ومن لو رأني عانياً لفداني

أهزّب به في ندوة الحيّ عطفه

وقول الآخر:

ومن لو أراه صادياً لسقيته

ومن لو أراه عانياً لفديته

فهذا مقابلة باللفظ والمعنى.

وأما ما كان منها بالألفاظ، فمثل قول عدي بن الرّقاع:

ولقد ثبتت يد الفتاة وسادةً

لي جاعلاً إحدى يديّ وسادها

وقال عمرو بن كلثوم:

ورثناهنّ عن آباءِ صدقٍ

ونورثها إذا متنا بنينا

ومن النثر قول بعضهم: فإن أهل الرأي والتّصح لا يساويهم ذو الأذن والغشّ، وليس من جمع إلى الكفاية الأمانة، كمن أضاف إلى العجز الخيانة. فجعل بإزاء الرأي الأذن وبإزاء الأمانة الخيانة، فهذا على وجه المخالفة.

وقيل للرّشيد: إن عبد الملك بن صالح يعدّ كلامه، فأنكر ذلك الرّشيد، وقال: إذا دخل فقولوا له: ولد لأمر المؤمنين في هذه الليلة ابن ومات له ابن، ففعلوا. فقال: سرّك الله يا أمير المؤمنين فيما ساءك، ولا ساءك فيما سرك، وجعلها واحدة بواحدة، ثواب الشاكر، وأجر الصابر، فعرفوا أنّ بلاغته طبع. وكتب جعفر بن محمد بن الأشعث إلى يحيى بن خالد يستعفيه من عمل: شكري لك على ما أريد الخروج منه شكر من نال الدخول فيه.

وكتب بعض الكتاب إلى رجل: فلو أن الأقدار إذ رمت بك في المراتب إلى أعلاها بلغت بك من أفعال السوّد منتهاها لوازنت مساعيك مراقيك، وعادلت النعمة عليك النعمة فيك، ولكنك قابلت رفيع المراتب بوضيع الشّيم، فعاد علوّك بالاتفاق إلى حال دونك بالاستحقاق، وصار جناحك في الانهياص إلى مثل ما عليه قدرك في الانخفاض، ولا عجب أن القدر أذنب فيك فأنا، وغلط بك فعاد إلى الصواب، فأكثر هذه الألفاظ مقابلة وقال الجعدي:

فتى كان فيه ما يسرُّ صديقَه

على أنّ فيه ما يسوءُ الأعدايا

وقال آخر:

وإذا حديث ساعني لم أكتب

وإذا حديث سرنى لم أشر

وهذا في غاية التقابل.

ومن مقابلة المعاني بعضها لبعض، وهو من النوع الذي تقدم في أول الفصل قول الآخر:

وذي أخوةٍ قطعَت أقرانَ بينهم

كما تركوني واحداً لا أخاً ليا

وقول الآخر:

أسرناهم وأنعمنا عليهم

وأسقينا دماءهم الترابا

فما صبروا لبأس عند حرب

ولا أدوا لحسن يد ثوابا

فجعل بإزاء الحرب أن لم يصبروا، وبإزاء النعمة أن لم يشبوا، فقابل على وجه المخالفة. وقال آخر:

كتاب الصناعتين - أبو هلال العسكري

جزى الله عنا ذات بعلٍ تصدقتُ

على عزبٍ حتى يكونَ له أهلُ

فإننا سنجزئها بمثلِ فعالها

إذا ما تزوجنا وليس لها بعلُ

فجعل حاجته وهو عزب بحاجتها وهي عزب، ووصاله إياها في حال عزبتها، كوصالها إياه في حال عزبته، فقابل من جهة الموافقة.

ومن سوء المقابلة قول امرئ القيس:

فلو أنها نفس تموت سوياً

ولكنها نفس تساقط أنفسا

ليس سوية بموافق لتساقط ولا مخالف له، ولهذا غيرَه أهلُ المعرفة فجعلوه جميعاً، لأنه بمقابلة تساقط أليق. وفساد المقابلة أن تذكر معنى تقتضى الحال ذكرها بموافقة أو مخالفة، فيؤتى بما لا يوافق ولا يخالف، مثل أن يقال: فلان شديد البأس، نقى الثغر، أو جواد الكف، أبيض الثوب. أو تقول: ما صاحبت خيراً، ولا فاسقا، وما جائي أحمر، ولا أسمر. ووجه الكلام أن تقول: ما جاعني أحمر ولا أسود، وما صاحبت خيراً ولا شريراً، وفلان شديد البأس، عظيم النكايه، وجواد الكف، كثير العرف. وما يجرى مع ذلك، لأن السمرة لا تخالف السواد غاية المخالفة، ونقاء الثغر لا يخالف شدة البأس ولا يوافق، فاعلم ذلك وقس عليه.

ومما يقرب من هذا قول أبي عدي القرشي:

يا بنَ خيرِ الأخيارِ من عبدِ شمسٍ

أنت زينُ الورىِ وغيثُ الجنودِ

فوضع زين الورى مع غيث الجنود في غاية السماحة.

وقريب منه قول الآخر:

خودٌ تكاملُ فيها الدلُّ والشنبُ

ومثله قول أبي تمام:

وزيرُ حقٍ وواليِ شرطةٍ ورحى

ديوانِ ملكٍ وشيعيٍّ ومحتسبُ

ومن مختار المقابلة وكان ينبغي تقديمه فلم يتفق ما كتب الحسن بن وهب: لا ترض لي بيسير البر، فإني لم أرض لك بيسير الشكر، ودع عني مؤونة التقاضي كما وضعت عنك مؤونة الإلحاح، وأحضر من ذكرى في قلبك ما هو أكفى من قعودي بصدرك، فإني أحق من فعلت به، كما أنك أحق من فعله بي، وحقق الظن، فليس وراءك مذهب، ولا عنك مقصّر.

الفصل الخامس

في صحة التقسيم

التقسيم الصحيح: أن تقسم الكلام قسمة مستوية تحتوى على جميع أنواعه، ولا يخرج منها جنس من أجناسه، فمن ذلك قول الله تعالى: "هو الذي يريكم البرق خوفاً وطمعاً"، وهذا أحسن تقسيم، لأن الناس عند رؤية البرق بين خائف وطمع، ليس فيهم ثالث.

ومن القسمة الصحيحة قول أعرابي لبعضهم: النعم ثلاث، نعمة في حال كونها، ونعمة ترحى مستقبله، ونعمة تأتي غير محتسبة، فأبقى الله عليك ما أنت فيه، وحقق ظنك فيما ترتجيه، وتفضل عليك بما لم تحسبه، فليس في أقسام النعم التي يقع الانتفاع بها قسم رابع سوى هذه الأقسام.

ووقف أعرابي على مجلس الحسن، فقال: رحم الله عبداً أعطى من سعة، أو آسى من كفاف، أو آثر من قلة. فقال الحسن، ما ترك لأحد عذراً، فانصرف الأعرابي بخير كثير.

وقول إبراهيم بن العباس: وقسم الله تعالى عدوه أقساماً ثلاثة، روحاً معجلة إلى عذاب الله، وجثة منصوبة لأولياء الله، ورأساً منقولاً إلى دار خلافة الله ليس لهذه الأقسام رابع أيضاً، فهي في نهاية الصحة. ومن المنظوم قول نصيب:

فقال فريق القوم. لا، وفريقهم نعم، وفريق لا يمن الله ما ندري

فليس في أقسام الإجابة عن المطلوب إذا سئل عنه غير هذه الأقسام.
قال الشماخ:

متى ما تقع أرساغه مطمئنةً على حجرٍ يرفض أو يتدحرج

والوطاء الشديد إذا صادف الموطوء رخواً ارفض منه، أو صلباً تدحرج عنه.
وقول الآخر:

يا اسم صبراً على ما كان من حدثٍ إن الحوادث ملقى ومنتظرٌ

وليس في الحوادث إلا ما لقي أو انتظر لقيه.
وقول الآخر:

والعيش شح وإشفاق وتأميلٌ

وكان عمر رضى الله عنه يتعجب من صحة هذه القسمة. وقول زهير:

فإن الحق مقطعه ثلاثٌ يمين أو نفاً أو جلاء

فذلكم مقاطع كل حق ثلاث كلهن لكم شفاء

وكان يعجب أيضاً بهذا البيت ويقول: لو أدركت زهيراً لو ليته القضاء لمعرفته.
ومن عيوب القسمة قول بعض العرب:

سقاء سقيتين الله سقياً **طهوراً والغمام يرى الغماما**

فقال سقيتين ثم قال: سقياً طهوراً، ولم يذكر الأخرى، وقيل: أراد في الدنيا وفي الآخرة، وهذا مردود، لأن الكلام لا يدل عليه. وقول عبيد الله بن سليم:

فهبطت غيثاً ما يفزع وحشهُ **من بين مسرب ناوى وكنوس**

فقسم قسمة رديئة، لأنه جعل الوحش بين سمين وداخل في كناسة. وكان ينبغي أن يقول: من بين سمين وهزيل، أو بين كانس وظاهر، ويجوز أن يكون السمين كانساً وراتعاً والكانس سميناً وهزيلاً، وما أعرف لهذا شبهاً إلا قول كيسان حين سأل فقال: علقمة بن عبدة، جاهلي أو من بني تميم؟ ومثله ما كتب بعضهم: فمن بين جريح مضر ج بدمايه، وهارب بلفت إلى ورائه، فالجريح قد يكون هارباً، الهارب قد يكون جريحاً، ولو قال: فمن قتيل لصح المعنى. ومثله قول قيس بن الخطيم:

وسلوا ضريح الكاهنين ومالكاً **كم فيهما من دارع ونجيب**

ليس النجيب من الدارع في شيء وقريب منه قول الأخطل:

إذا التقت الأبطال أبصرت لونه **مضيئاً وأعناق الكمامة خضوع**

كان ينبغي أن يقول: وألوان الكمامة كاسفة، ومضيئة مع خضوع ردى جداً.
ومن القسمة الرديئة قول جرير:

صارت حنيفة أثلاثاً فتلتهم **من العبيد وتلت من مولينا**

فأنشده ورجلٌ من حنيفة حاضر، فقبل له: من أي قسم أنت. فقال: من الثلث الملغى ذكره. ومن هذا الجنس ما ذكره قدامة أن ابن ميادة كتب إلى عامل من عماله هرب من صارفه: إنك لا تخلو في هربك من صارفك أن تكون قدّمت إليه إساءة خفته معها، أو خشيت في عملك خيانة رهبت يكشفه إياك عنها، فإن كنت أسأت

فأول راض سنة من يسيرها

وإن كنت خفت خيانة فلا بد من مطالبتك بها.

فكتب العامل تحت هذا التوقيع: في الأقسام ما لم يدخل فيما ذكرته، وهو أي خفت ظلمه إياي بالبعد عنك، وتكثيره عليّ الباطل عندك، فوجدت الهرب إلى حيث يمكنني فيه دفع ما يتخرّصه أنفسي للظنّه

عني، وبعدي عمّن لا يؤمن ظلّمه أولى بالاحتياط لنفسه.
ومن القسمة الرديئة أيضاً قول ابن القرية: الناس ثلاثة، عاقل، وأحمق، وفاجر، فالفاجر يجوز أن يكون
أحمق، ويجوز أن يكون عاقلاً، والعاقل يجوز أن يكون فاجراً، وكذلك الأحمق.
وإذا دخل أحد القسمين في الآخر فسدت القسمة، كقول أمية بن أبي الصلت:

ربُّ الأنام ورب من يتأبد

الله نعمتنا تبارك ربُّنا

داخل في الأنام من يتأبد.

وكذلك قول الآخر:

لمالي وإن عبث العابثُ

أبادرُ إهلاكَ مستهلك

فعبث العابث داخل في إهلاك المستهلك.

وكذلك قول الآخر:

وتومض أحيانا إذا طرفها غفل

فما برحت تومي إليك بطرفها

فتومي وتومض واحد.

وقول جميل:

حبّ وصلتك أو أنتك رسائلي

لو كان في قلبي كقدر قلامه

فإتيان الرسائل داخل في الوصل.

ومن ذلك أيضاً ما كتب بعضهم: ففكرت مرة في عزلك، ومرة في صرفك وتقليد غيرك.

وفي فصل آخر كتب هذا الرجل إلى عامل: فتارة تسرق الأموال وتختزلها، وتارة تقتطعها وتحتجبها. فمعنى
الجزأين واحد.

الفصل السادس

في صحة التفسير

وهو أن يورد معاني فيحتاج إلى شرح أحوالها، فإذا شرحت تأتي في الشرح بتلك المعاني من غير عدول
عنها أو زيادة تزداد فيها، كقول الله تعالى: "ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من
فضله". فجعل السكون لليل، وابتغاء الفضل للنهار، فهو في غاية الحسن، ونهاية التمام.
ومن النثر ما كتب بعضهم: إن لله عز وجل نعماً لو تعاون خلقه على شكر واحدة منها لأفنوا أعمارهم
قبل قضاء الحق فيها، ولى ذنوبٌ لو فرقت بين خلقه جميعاً لكان كل واحد منهم عظيم الثقل منها، ولكنه

يستر بكرمه، ويعودُ بفضلِهِ، ويؤخر العقوبة انتظاراً لمراجعة من عبده، ولا يخلى المطيع والعاصي من إحسانه وبرّه.

فذكر جملتين، وهما نعم الله تعالى وذنوب عبده، ثم فسر كل واحدة منهما مرتين تفسيراً صحيحاً. قوله: يستر بكرمه راجع إلى الذنوب، وقوله: يعود بفضلِهِ راجع إلى النعم، فاستوفى. ثم قال: ويؤخر العقوبة فهذا أيضاً راجع إلى الذنوب، وقوله: "ولا يخلى المطيع والعاصي من إحسانه وبره" راجع إلى النعم، فهو تفسير صحيح في تفسير صحيح.

ومن ذلك قول بعض أهل الزمان وقد كتب إليه بعض الأشراف كتاباً وسأله أن يصلح ما يجد فيه من سقم، فكتب إليه: فأما ما رسمه من سدّ ثلمه، وجبر كسره، ولمّ شعثه، فأيّ ثلم يوجد في أديم السماء، وأيّ كسر يلقى في حاجب ذكاء، وأيّ شعث يرى في الزهرة الزهراء ففسر الثلاثة، ولم يغادر منها واحداً. ومثاله من المنظوم قول الفرزدق:

طريد دمٍ أو حاملاً ثقل مغرم

لقد جئت قوماً لو لجأت إليهم

وراءك شذرا بالوشيح المقوم

لألفيت فيهم معطياً أو مطاعنا

فسر قوله: "حاملاً ثقل مغرم"، بقوله: "تلقى فيهم من يعطيك" وقوله: طريد دم بقوله: "تلقى فيهم من يطاعن دونك".

وقال ابن مطير في السحاب:

ضحكٌ يراوح بينه وبكاء

وله بلا حزنٍ ولا بمسرةٍ

وقول المقتنع:

فالنَّجْحُ يهلكُ بين العجزِ والضَّجْرِ

لا تضجرنَّ ولا يدخلك معجزةٌ

وضرب منه قول صالح بن جناح اللخمي:

إلى الجهل في بعض الأحابيين أحوج

لئن كنت محتاجاً إلى اللحم إنني

ولى فرسٌ للجهل بالجهل مسرج

ولى فرسٌ للحلم بالحلم ملجم

ومن رام تعويجي فإني معوج

فمن رام تقويمي فإني مقوم

وقول سهل بن هرون:

بفقد حبيب أو تعذر إفضال

فواحسرتا حتى متى القلب موجع

فراقُ حبيبٍ مثله يورثُ الأسى

وخلة حر لا يقومُ لا مالي

وقال آخر:

شبهُ الغيثِ فيه والليثُ والبد

ر فسمحٌ ومحربٌ وجميل

وقلت:

كيف أسلو وأنتَ حقفٌ وغصنٌ

وغزالٍ لحظاً وردفاً وقدًا

وقال آخر:

فألقتُ قناعاً دونَه الشمسُ واتقت

بأحسنِ موصولين كَفَّ ومعصم

ومن عيوب هذا الباب ما أنشده قدامة:

فيأيها الحيران في ظلمةِ الدجى

ومن خاف أن يلقاه بغىً من العدا

تعال إليه تلق من نورٍ وجهه

ضياءً ومن كفيه بحراً من الندى

وكان يجب أن يأتي بإزاء بغى العدا بالتصرة أو بالعصمة أو بالوزر أو ما يجانس ذلك مما يحتمى به الإنسان، كما وضع بإزاء الظلمة الضياء. فأما إذا وضع بإزاء ما يتخوف من بغى العدا بحراً من الندى فليس ذلك تفسيراً لذلك.

ومن فساد التفسير ما كتب بعضهم: من كان لأمير المؤمنين كما أنت له من الذب عن ثغوره والمصارعة إلى ما يهيب به إليه من صغر أمره وكبيره كان جديراً بنصح أمير المؤمنين في أعماله، والاجتهاد في تشمير أمواله، فليس الذي قدّم من الحال التي عليها هذا العامل من الذب عن الثغور والمصارعة في الخطوب ما سبيله أن يفسّر بالنصح في الأعمال وتشمير الأموال. ولعله لو أضاف إلى ذكر الذب عن الثغور ذكر الحيطة في الأمور لكان بهذا المضاف يجوز أن يفسّر بالنصح في العمال والتشمير للأموال.

الفصل السابع

في الإشارة

الإشارة أن يكون اللفظ القليل مشاراً به إلى معان كثيرة، بإيماء إليها ولحظة تدل عليها، وذلك كقوله تعالى: "إذ يغشى السدرة ما يغشى". وقول الناس: لو رأيت علياً بين الصفيين، فيه حذف وإشارة إلى معان كثيرة.

وأخبرنا أبو أحمد، قال أخبرنا أبو بكر الصولي، قال أخبرنا الحزنبل، قال: لما ولى المهدي بالله وزارته سليمان بن وهب قام إليه رجل من ذي حرمته، فقال: أعز الله الوزير خادمك المؤمل لدولتك، السعيد

كتاب الصناعتين - أبو هلال العسكري

بأيامك، المنطوي القلب على مودتك، المبسوط اللسان بمدحتك، المرهّن الشكر بنعمتك، وإنما أنا كما قال القيسي: مازلتُ أمتطي النهار إليك، وأستدلّ بفضلك عليك، حتى إذا أحتنى الليل، فقبض البصر، ومحا الأثر، قام بدني، وسافر أملى، واجتهاد عذر، وإذا بلغتك فقط. فقال سليمان: لا بأس عليك فيني عارف بوسيلتك، محتاج إلى كفايتك، ولست أؤخر عن يومي هذا توليتك بما يحسنُ عليك أثره، ويطيب لك خيره إن شاء الله. فقوله: "وإذا بلغتك فقط" إشارة إلى معان كثيرة يطول شرحها.

وكتب آخر إلى آخر: أتعبرني وأنا أنا والله لأزرن عليك الفضاء، ولأبعضنك لذيد الحياة، ولأحبّين إليك كرية الممات، ما أظنك تربع على ظلعك، وتقيس شريك بفترك، حتى تذوق وبال أمرك، فتعتذر حين لا تقبل المعذرة، وتستقبل حين لا تقال العثرة. فقول: وأنا أنا إشارة إلى معان كثيرة، وتهديد شديد، وإبعاد كثير.

ومن المنظوم قول امرئ القيس:

فإن تهلكُ شنوءة أو تبدلُ
فسيروى إن في غسان خالا
بعزّهم عززت وإن يذلوا
فذلهم أنالك ما أنالا

فقولوه: "إن في غسان خالا وأنا لك ما أنالا إشارة إلى معان كثيرة. وضرب منه قوله:

على سابح يعطيك قبل سؤاله
أفانين جرى غير كزّ ولا وان

فقوله: أفانين جرى مشار به إلى معان لو عدت لكثرت، وضم إلى ذلك جميع أوصاف الجودة في قوله: يعطيك قبل سؤاله. وأنشدنا أبو أحمد لبعضهم:

لم أت مطلباً إلا لمطلب
وهمة بلغت بي أفضل الرتب
أعملت عيسى إلى البيت العتيق على
ما كان من دأب فيها ومن نصب
حتى إذا ما انقضى حجّي تثبت لها
فضل الزمام فأمت سيد العرب
هذارجائي وهذى مصر معرضة
وأنت أنت وقد ناديت من كذب

فقوله: أنت أنت مشار به إلى نعوت من المدح كثيرة. ومن هذا قول أبي نواس:

أنت الخصيب وهذا مصر

الفصل الثامن

في الأرداف والتوابع

الأرداف والتوابع: أن يريد المتكلم الدلالة على معنى فيترك اللفظ الدالّ عليه، الخاص به، ويأتي بلفظ هو ردفه وتابع له، فيجعله عبارة عن المعنى الذي أراده، وذلك مثل قول الله تعالى: "فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ"، وقصور الطرف في الأصل موضوعة للعفاف على جهة التوابع والأرداف، وذلك أن المرأة إذا عفت قصرت طرفها على زوجها، فكان قصور الطرف ردفا للعفاف، والعفاف ردف وتابع لقصور الطرف. وكذلك قوله تعالى: "ولكم في القصاص حياة"، وذلك أن الناس يتكافون عن الحرب من أجل القصاص فيحيون فكان حياتهم ردف للقصاص الذي يتكافون عن القتل من أجله، ونحوه قول الشاعر:

وفي العتاب حياة بين أقوام

ومن ذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد سئل عن الفرع، فقال: حق، وإن تركه حتى يكون ابن مخاض أو ابن لبون خير من أن تكفى إناءك، وتولّه ناقتك، وتدعه يلصق لحمه بوبره. الفرع: أول شيء تنتجه الناقة، وكانوا يذبحونه لله عز وجل. فقال: هو حق، إلا أنه ينبغي أن يترك حتى يكون ابن مخاض أو ابن لبون فيصير للحمة طعم، وقال هو خير من أن تكفى إناءك" فهذه من الإرداف أراد أنك إذا ذبحته حين تضعه أمه بقيت الأم بلا ولد ترضعه فانقطع لبنها، فردف ذلك أن يخلو إناؤك من اللبن، فكانك قد كفأته. ومثله قول امرئ القيس:

ولو أدركته صفر الوطاب

وأفلهنّ علباء جريضا

أي لو أدركته يعني الخيل قتلته، واستقن إليه فصفرت وطابه، ومن ذلك قول الأعشى:

م وأسرى من معشر أقبال

ربّ ردف هرقنه ذلك اليو

الردف: القدح العظيم الضخم، يقول: استقت الإبل فخلا الردف، فكانك قد هرقته. ومن الأرداف قول المرأة لمن سألته: أشكو إليك قلة الجرذان، وذلك أن قلة جرذان البيت ردف لعدم خيرها، ويقولون: فلان عظيم الرماد، يريدون أنه كثير الإطعام للأضياف، لأن كثرة الإطعام يردف كثرة الطبخ، ومن المنظوم قول التعلبي:

ونحن خلعنا قيده فهو سارب

وكل أناس قاربوا قيده فحلهم

أراد أن يذكر عزّ قومه، فذكر تسريح الفحل في المرعى، والتوسيع له فيه، لأن هذه الحال تابعة للعزّة رادفة للمنعة، وذلك أن الأعداء لعزهم لا يقدمون عليهم فيحتاجون إلى تقييد فحلهم، مخافة أن يساق فيتبعه السرح، ومن ذلك قول الآخر:

ومهما فيّ من عيبٍ فإنّي **جبان الكلب مهزولُ الفصيل**

يعني أن كلبه يضرب إذا نبح على الأضياف، فيدرف ذلك جنبه عن نبجهم، وأن اللبن الذي يسمن به الفصيل يجعل للأضياف فيدرف ذلك هزال الفصيل. وقول الآخر:

وكل أناسٍ سوف تدخلُ بينهمُ **دويهيّةٌ تصفرُّ منها الأناملُ**

يعني الموت، فعبر عنه باصفرار الأنامل، لأنها تصفر من الميت، فكان اصفرارها ردف، وقول امرئ القيس:

وتضحى فتيت المسك فوق فراشها **نئوم الضحا لم تنتطق عن تفضلٍ**

أراد أنها مكفّية، ونعومة الضحا وترك الانتطاق للخدمة يردفان الكافية، فعبر بهما عنها وأراد أنها من أهل الترفّ والنعمة فتستعمل المسك الكثير فينتشر في فراشها، وهذه الحال لتردف الترف والنعمة، وقول عمر بن أبي ربيعة:

بعيدة مهوى القرطِ أما لنوفل **أبوها وأما عبدُ شمس وهاشم**

فأراد أن يصف طول عنقها فأتى بما دلّ عليه من طول مهوى القرط، وبعد مهوى القرط ردف لطول العنق. وقول الخنساء:

ومخرّقٍ عنه القيمص تخالهُ **بين البيوتِ من الحياءِ سقيما**

أرادت وصفه بالجود فجعلته مخرّق القيمص، لأن العفاة يجذبونه، فتمزيق قميصه ردف لجوده. وقول الشاعر:

طويلُ نجادِ السيف لا متضائل **ولا رهلُ لبّاتهُ وبأدله**

أراد وصفه بطول القامة، فذكر طول نجاهه، لأن طوله ردف لطول القامة. وقد أدخل بعض من صنّف في هذا أمثلة باب الأرداف في باب المماثلة، وأمثلة باب المماثلة في باب الأرداف، فأفسد البابين جميعاً، فلخصت ذلك وميزته وجعلت كلاً في موضعه، وفيه دقّة وإشكال.

الفصل التاسع

في المماثلة

المماثلة: أن يريد المتكلم العبارة عن معنى، فيأتي بلفظة تكون موضوعاً لمعنى آخر، إلا أنه ينبغي إذا أورده عن المعنى الذي أراد، كقولهم: فلان نقى الثوب، يريدون به أنه لا عيب فيه. وليس موضوع نقاء الثوب البراء من العيوب، وإنما استعمل فيه تمثيلاً. وقول امرئ القيس:

ثيابُ بني عوف طهاري نقيّةٌ وأوجههم عند المشاهد غرّانُ

وكذلك قولهم: فلان طاهر الجيب، يريدون أنه ليس بخائن ولا غادر.
وقولهم: فلان طيب الحجر، أي عفيف. قال النابغة:

رفاقُ النعال طيبٌ حجاتهم يحيونَ بالريحان يومَ السباسبِ

وقال الأصمعي: إذا قالت العرب: الثوب والإزار، فإنهم يريدون البدن، وأنشد:

ألا أبلغُ أبا حفصٍ رسولا فدى لك من أخي ثقةً إزارِي

وقالوا في قول ليلى:

رموها بأثواب خفافٍ فلا ترى لها شبيهاً إلا النعام المنفراً

أرى رموها بأحسامهم وهي خفاف عليها. ووضع الثوب موضعاً آخر في قول الشاعر:

فتلك ثيابُ إبراهيم فينا بواقٍ ما دنسنا ولا بلينا

ويقولون: فلان أوسع بني أبيه ثوبا، أي أكثرهم معروفاً، وفلان غمر الرداء، إذا كان كثير المعروف، قال كثير:

غمرُ الرداء إذا تبسمَ ضاحكا علقْتُ لضحكته رقابُ المال

وكذلك قولهم: فلان رحب الذراع، وفلان دنس الثوب، إذا كان غادراً فاجراً، قال الشاعر:

ولكنني أنفى عن الذم والدي وبعضهم للذم في ثوبه دسمٌ

ويقولون: دم فلان في ثوب فلان، أي هو صاحبه. قال أبو ذؤيب:

تبراً من دم القتيل وبزّه وقد علقْتُ دمَّ القتيل إزارها

هذيل تؤنث الإزار، أي علقت دم القتيل هي، ورواه أبو عمرو الشيباني وبزّه، بالرفع، أيوزره إزارها وقد علقته دمه، ويقولون للفرس: إنه لطرب العنان، وللبعير: قد سفه جديله، والجديل: الزمام. وقال ذو الرمة:

وأشقر موشي القميص نصبتُه على خضر مقلات سفيه جديها

وفي القرآن: "كأَلِي نَقَضتْ غَزَلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةِ أَنْكَاثًا"، فَمَثَلِ الْعَمَلِ ثُمَّ إِحْبَاطِهِ بِالتَّقْضِ بَعْدَ الْفَتْلِ. وكذلك قوله تعالى: "وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا". وقوله عز وجل: "هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِي نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ". وقوله سبحانه: "وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً غَلَّ عُنُقَكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ" فَمَثَلِ الْبَخِيلِ الْمَمْتَنِعِ مِنَ الْبَدْلِ بِالْمَغْلُولِ، لِمَعْنَى يَجْمَعُهَا، وَهُوَ أَنَّ الْبَخِيلَ لَا يَمُدُّ يَدَهُ بِالْعَطِيَّةِ فَشَبَّهَهُ بِالْمَغْلُولِ. ويقولون: عرَكَتْ هَذِهِ الْكَلِمَةَ بَجَنِي، إِذَا أَغْضِيَتْ عَنْهَا، وَفَلَانٌ قَدْ طَوَى كَشْحَهُ عَنِ فُلَانٍ، إِذَا تَرَكَ مَوَدَّتَهُ وَصَحْبَتَهُ. ويقولون: كَبَا زَنْدَ الْعَدُوِّ، وَصَلَفَ زَنْدَهُ، وَأَفْلَ نَجْمَهُ، وَذَهَبَتْ رِيحُهُ، وَأَطْفَتُ جَمْرَتَهُ، وَأَخْلَفَ نَوْؤَهُ، وَأَخْلَقَتْ جَدَّتَهُ، وَانْكَسَرَتْ شَوْكَتُهُ، وَكَلَّ حَدَّهُ، وَانْقَطَعَ بَطَائِنُهُ، وَتَضَعُضُ رُكْنَهُ، وَضَعْفَ عَقْدَهُ، وَذَلَّتْ عَضُدَهُ، وَفَتَّ فِي عَضُدِهِ، وَرَقَّ جَانِبُهُ، وَلَانَتْ عَرِيكَتُهُ، يُقَالُ ذَلِكَ فِيهِ إِذَا وَلَّى أَمْرَهُ، تَمَثِيلًا وَتَشْبِيهًا. وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "إِيَّاكُمْ وَخَضِرَاءَ الدَّمَنِ"، أَرَادَ الْمَرْأَةَ الْحَسَنَاءَ فِي مَنْبَتِ السُّوءِ، فَآتَى بغير اللفظ الموضوع لها تمثيلاً. وقال بعضهم: كُنَّا فِي رَفْقَةٍ فَضَلَّلْنَا الطَّرِيقَ، فَاسْتَرَشَدْنَا عَجُوزًا فَقَالَتْ: اسْتَبْطَنَ الْوَادِي، وَكُنَّ سَيْلًا حَتَّى تَبْلُغَ.

وكتب أحمد بن يوسف إلى عبد الله بن طاهر عن المأمون بعزله عن ديار مصر، وتسليم العمل إلى إسحاق بن إبراهيم: أما بعد فإن أمير المؤمنين قد رأى تولية إسحاق بن إبراهيم ما تتولاه من أعمال المعاونة بديار مصر، وإنما هو عمك نقل منك إليك. فسلمه من يدك إلى يدك والسلام. واغتاب رجل رجلاً عند سلم بن قتيبة، فقال له سلم: اسكت، فوالله لقد تلمّظت مضغة طالما لفظها الكرام. ومن المنظوم قول طرفه:

أبيني، أفي يمني يديك جعلتني فأفرح أم صيرتني في شمالك

أي أبيني منزلي عندك أوضيعة هي أم رفيعة، فذكر اليمين وجعلها بدلا من الرفعة، والشمال وجعلها عوضاً من الضعة. وأخذ الرماح بن ميادة، فقال:

ألم تك في يمني يديك جعلتني فلا تجعلن بعدها في شمالكا

ولو أنني أذنبت ما كنت هالكا على خصلة من صالحات خصالكا

وقال آخر:

تركت الركاب لأربابها وأكرهت نفسي على ابن الصعق

جعلت يدي وشاحاً له وبعض الفوارس لا تعتنق

فقوله: جعلت يدي وشاحاً تمثيل. وقول زهير:

ومن يعص أطراف الزجاج فإنه يطبع العوالي ركبت كل لهزم

أراد أن يقول: من أبي الصلح رضى بالحرب، فعدل عن لفظه، وأتى بالتمثيل، فجعل الرّج للصلح، لأنه مستقبل في الصلح، والسنان للحرب لأن الحرب به يكون، وهذا مثل قولهم: من عصى الصوت أطاع السيف، ومنه قول امرئ القيس:

وما ذرفت عينك إلا لتضربي بسهميك في أعشار قلب مقتل

فقال: بسهميك، وأراد العينين. وقال العباس بن مرداس:

كانوا أمّ المؤمنين دريّة والشمس يومئذ عليهم أشمس

أراد تألؤ البيض في الشمس، فكان على كل رأس شمساً، وقال قدامة: من أمثلة هذا الباب قول الشاعر:

أوردتهم وصدور العيس مسنفة والصبح بالكوكب الدري منحور

وقال: قد أشار إلى الفجر إشارة إلى طريقه بغير لفظه. وليس في هذا البيت إشارة إلى الفجر، بل قد صرح بذكر الصبح، وقال: هو منحور بالكوكب، أي صار في نحره، ووضع هذا البيت في باب الاستعارة أولى منه في باب المماثلة.

ومما عيب من هذا الباب قول أبي تمام:

أنت دلو وذو السمّاح أبو موسى قليب وأنت دلو القليب

أيها الدلو لا عدمتك دلو من جياذ الدلاء صلب الصليب

الفصل العاشر

في الغلو

الغلو تجاوز حد المعنى والارتفاع فيه إلى غاية لا يكاد يبلغها، كقول الله تعالى: "وبلغت القلوب الحناجر". وقال تأبط شرا:

ويوم كيوم العيكتين وعطفة عطفت وقد مسّ القلوب الحناجر

وقال الله تعالى: "وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال"، بمعنى لتكاد تزول منه. ويقال إنها في مصحف ابن مسعود مثبتة، وقد جاءت في القرآن مثبتة وغير مثبتة. قال الله تعالى: "وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك

بأبصارهم".
وقال الشاعر:

ينقارضون إذا التقوا في موطنٍ **نظراً يزيل مواطئ الأقدام**

وكاد إنما هي للمقاربة، وهي أيضاً مع إثباتها توسع، لأن القلوب لا تقارب البلوغ إلى الحناجر وأصحابها أحياء.

وقوله تعالى: "ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سمّ الخياط"، وهذا إنما هو على البعيد، ومعناه لا يدخل الجمل في سمّ الخياط ولا يدخل هؤلاء الجنة.
ومثله قول الشاعر:

إذا زال عنكم أسود العين كنتم **كراماً وأنتم ما أقام الأئم**
وقول الآخر:

فرجى الخير وانتظري إياي **إذا ما القارظ العزى أبا**
وقال النابغة:

فإنك سوف تحلم أو تناهى **إذا ما شبت أو شاب الغراب**

ومثال الغلو من الشر قول امرأة من العجم كانت لا تظهر إذا طلعت الشمس فقيل لها في ذلك، فقالت: أخاف أن تكسفيني. وقال أعرابي: لنا ثمرة فطساء جرداء، تضع التمرة في فيك، فتجد حلاوتها في كعبك. وقيل لأعرابي: ما حضر فرسك؟ قال يحضر ما وجد أرضاً. ووصف أعرابي فرسه، فقال: إن الوابل ليصيب عجزه، فلا يبلغ إلى معرفته حتى أبلغ حاجتي. وذم أعرابي رجلاً، فقال: يكاد يعدى لؤمه من تسمى باسمه.

وكتب بعضهم يصف رجلاً، فقال: أما بعد، فإنك قد كتبت تسأل عن فلان، كأنك قد هممت بالقدوم عليه، أو حدثت نفسك بالفود إليه، فلا تفعل، فإن حسن الظن به لا يقع إلا بخذلان الله تعالى، وإن الطمع فيما عنده لا يخطر على القلب إلا بسوء التوكل على الله تعالى، والرجاء لما في يديه لا ينبغي إلا بعد اليأس من رحمة الله تعالى، لا يرى إلا أن الإقتار الذي نهى الله عنه هو التبذير الذي يعاقب عليه، والاقتصاد الذي أمر به هو الإسراف الذي يغضب منه، وأن الصنعة مرفوعة، والصلة موضوعة، والهمة مكروهة، والثقة منسوخة، والتوسع ضلالة، والجود فسوق، والسخاء من همزات الشياطين، وأن مواساة الرجل أخاه من الذنوب على نفسه، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء، ومن آثر على نفسه فقد ضللاً

بعيداً، وخسر خسراً مبيناً، كأنه لم يسمع بالمعروف إلا في الجاهلية الذين قطع الله دابرهم، ومحا معالمهم، ونهى المسلمين عن اتباع آثارهم وحظر عليهم أن يختاروا مثل اختيارهم، يظنُّ أن الرَّحمة لم تأخذ أهل مدين إلا لسخاء كان فيهم، ولم تهلك عاداً بالريح العقيم إلا لتوسّع كان فيهم، فهو يخشى العقاب على الإنفاق، ويرجو الثواب على الإمساك، ويعذر نفسه في العقوق، ويلوى ما له عن الحقوق، خيفة أن يتزل به قوارع العالمين. وبأمرها بالبخل خشية أن يصيبه ما أصلب القرون الأولين، فأقم رحمك الله على مكانك، واصطبر على عسرتك، عسى الله أن يبدلنا وإياك خيراً منه زكاةً وأقرب رحماً. وقال سكينه بنت الحسين رضى الله عنهما وقد أثقلت ابنتها بالدر: ما ألبسْتُها إياه إلا تلفضحه، ونحوه قول الشاعر:

والطيب فيه المسك والعنبر

جارية أطيب من طيبها

والحلي فيه الدرُّ والجوهر

ووجهها أحسن من حليها

وقال ابن مطير:

بأحسن مما زينتها عقودها

مخصرة الأوساط زانت عقودها

وقيل لأعرابي: فلان يدعي الفضل على فلان، فقال: والله لئن كان أطول من مسيره ما بلغ فضله، ولو وقع في ضحضاح معروفه غرق. وقال أعرابي: الناس يأكلون أماناتهم لقما، وفلان يحسوها حسواً، ولو نازعت فيه الخنازير لقضى به لها لقرب شبهه منها، وما ميراثه عن آدم إلا أنه سمى آدمياً. وذكر أعرابي رجلاً، فقال: كيف يدرك بثاره وفي صدره حشو مرفقة من البلغم، وهو المرء لو دقَّ بوجهه الحجارة لرضَّها، ولو خلا بالكعبة لسرقها.

وأخبرنا أبو أحمد، قال: أخبرنا الصولي، قال: حدثنا الحسن بن الحسين الأزدي قال: حدثنا ابن أبي السرى، عن رزين العروضي، قال: لقيت أبا الحرث حميراً ومعه غلام محمد بن يحيى البرمكي متعلق به، فقلت له: ما لهذا متعلق بك؟ فقال: لأني دخلت أمس على مولاة وبين يديه خوان من نصف خشخاشة، فتنفست فطار الخوان في أنفي فهذا يستعدى عليّ، فقلت له: أما تستحي مما تقول؟ فقال: الطلاق له لازم لو أن عصفوراً نقر حبة من طعام بيدره ما رضى حتى يؤتى بالعصفور مشويماً بين رغيفين، والرغيفان من عند العصفور قلت: قبحك الله ما أعظم تعدّيك فقال: عليّ المشي إلى بيت الله الحرام إن لم يكن صعود السماء على سلم من زيد حتى يأخذ بنات نعش أيسر عليه من أن يطعمك رغيفاً في اليوم. ومن المنظوم قول امرئ القيس:

من الدرِّ فوق الإتب منها لأثرا

من القاصرات الطرف لو دبَّ محولاً

وقول الأعشى:

فتىّ لو ينادي الشمس ألفت قناعها
ينادي: أي يجالس، وقول أبي الطمحان:

أضاعت لهم أحسابهم ووجوههم
ومثله:

وجوة لو أن المدلجين اعتشوا بها
وقول الآخر:

من البيض الوجوه بني سنان
وقول النابغة الجعدي:

بلغنا السماء مجدنا وسناؤنا
وقول التمرى

تظلّ تحفرّ عنه إن ضربت به
وقول الطرماح:

تميمٌ بطرق اللؤم أهدى من القطأ
ولو أنّ برغوثاً على ظهرِ قملةٍ
ولو أنّ أمّ العنكبوتِ بنتٌ لها

ولو جمعت يوماً تميمٍ جمعها
ولو أنّ يربوعاً يزققُ مسكه
يزقق: أي يجعل منه زقاقا.
وقال الآخر:

وتبكي السموات إذا ما دعا
لما اشتهى يوماً لحوم القطا
ومثله في الإفراط قول الخثعمي:

يدلى يديه إلى القليب فيستقى

أو القمر الساري لألقي المقالدا

دجى الليل حتى نظم الجزع ثاقبه

صدعن الدجى حتى ترى الليل ينجلي

لو أنك تستضئ بهم أضاعوا

وإننا لنرجو فوق ذلك مظهرا

بعد الذراعين والساقين والهادي

ولو سلكت سبل المكارم ضلت
يكرُّ على صفّي تميم لولت
مظلتها يوم الندى لاستظلت

على ذرّة معقولة لاستقلت
إنّ نهلت منه تميم وعلت

وتستغيث الأرض من سجدته
صرعها في الجوّ من نكهته

في سرجه بدل الرشاء المحصد

كتاب الصناعتين- ابو هلال العسكري

وكما أفرطوا في صفة الطّول كذلك أفرطوا في صفة القصر، قال بعضهم:

فأقسم لو خرت من استك بيضةً

وقال آخر في صفة كثير عزة وكان قصيراً:

يعضُّ القراد بأسته وهو قائمٌ

قصيرٌ القميص فاحش عند بيته

وقال بعض المحدثين:

شمسٌ طلاً لقامته

وقصيرٌ لا تعملُ الشُّ

قُ به من دمامته

يعثرُ الناس في الطري

وقال أبو عثمان الناجم:

ج في القيمة والقامة

ألا يا بيدقَ الشطرن

وقال أبو نواس يصف قدراً:

وينضج ما فيها بعود خلال

يغصّ بحيزوم الجراة صدرها

وتنزلها عفواً بغير جعل

وتغلى بذكرِ النار من غير حرّها

ربيع اليتامى عام كل هزال

هي القدر قدر الشيخ بكر بن وائل

وقال آخر في خلاف ذلك:

ترى الفيل فيها طافياً لم يقطع

بقدر كأنّ الليل شحمة قعرها

ومن الإفراط قول المؤمل:

تشبه البدر إذ بدا

من رأى مثل حبّتي

خلُ أرافها غدا

تدخلُ اليوم ثم تد

ومثله قول الآخر:

يتك في في الدار يطوف

أنت في البيت وعرن

ومثله قول الآخر:

له حاجة من أنفه ومطرّق

لقد مرّ عبد الله في السوقِ راكباً

توهمت أن السوق منها سيغرق

وعنت له في جانب السوق مخطّة

على وجهه منه كنيفٌ معلق

فأفذر به أنفاً وأفذر برّبّه

ومثله في الإفراط قول آخر في إمام بطى القراءة:

كتاب الصناعتين - أبو هلال العسكري

إن قرأ العاديات في رجب

بل هو لا يستطيع في سنة

وقال ابن مقبل:

لم تفن آياتها إلى رجب

بختم تبت يدا أبي لهب

يقفل من ضغم اللجام لهاته

وقال إبراهيم بن العباس:

تقلقل عود المرخ في الجعبة الصقر

يا أخا لم أر في الدهر خلاً

كنت لي في صدر يومي صديقا

وقال ابن الرومي:

مثله أسرع هجر ووصلا

فعلَى عهدك أمسيت أم لا

يا ثقبلاً على القلوب خفيفاً

طر مخيفا أو قع مقيتاً فطو

وقبول النفوس إياك عندي

إن قوماً أصبحت تنفق فيهم

في الموازين دون وزن النقيير

رأ كسفاة وتارة كثير

آية فيك للطيف الخبير

لعلَى غاية من التسخير

ومن الناس من يكره الإفراط الشديد ويعيبه، وإذا تحرز المبالغ واستظهر فأورد شرطاً، أو جاء بكاد وما يجرى مجراها يسلم من العيب، وذلك مثل قول الأول:

لو كنت من شيء سوى بشرٍ

وقول العرجي:

كنت المنور ليلة البدر

لو كان حياً قبلهنّ طعائناً

وقول الأسدي:

حيا الحطيم وجوهنّ وزمزم

فلو قاتل الموت امرؤ عن حميمه

فتى لا يقول الموت من وقعة به

وقول الآخر:

لقاتلت جهدي سكرة الموت عن معن

لك ابنك خذه ليس من حاجتي دعني

لو كان يخفى على الرحمن خافية

قوم أقام بدار الذلّ أو لهم

وقول البحري:

من خلقه خفيت عنه بنو أسد

كما أقامت عليه جذمة الودد

ولو أن مشتاقاً تكلف غير ما

في وسعه لسعى إليك المنبر

ومن عيوب هذا الباب أن يخرج فيه إلى المحال، ويشوبه بسوء الاستعارة، وقبيح العبارة، كقول أبي نواس في الخمر:

توهمتها في كأسها فكأنما

توهمت شيئاً ليس يدرك بالعقل

وصفراء أبقى الدهر مكنون رُوحها

وقد مات من مخبورها جوهر الكل

فما يرتقى التكييف منها إلى مدى

تحذبه إلا ومن قبله قبل

فجعلها لا تدرك بالعقل وجعلها لا أول لها، وقوله: جوهر الكل والتكييف في غاية التكلف، ونهاية التعسف. ومثل هذا من الكلام مردود، لا يشتغل بالاحتجاج عنه له، والتحسين لأمره، وهو بترك التداول أولى، إلا على وجه التعجب منه ومن قائله. ومن الغلو الغث قول المتنبي:

فتى ألف جزء رأيه في زمانه

أقل جزء بعضه الرأي أجمع

وقوله:

تتقاصر الأفهام عن إدراكه

مثل الذي الأفلاك فيه والدنا

سئل عمل فيه الأفلاك والدنا، فقال: علم الله، ونيته لا تدل عليه، فأفرط وعمي، وجمع دنيا على قول أهل الأدوار والتناسخ.

الفصل الحادي عشر

في المبالغة

المبالغة أن تبلغ أقصى غاياته، وأبعد نهاياته، ولا تقتصر في العبارة عن على أدنى منازل وأقرب مراتبه، ومثاله من القرآن قول الله تعالى: "يوم تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى". ولو قال: تذهل كل امرأة عن ولدها لكان بياناً حسناً وبلاغة كاملة، وإنما خص المرضعة للمبالغة، لأن المرضعة أشفق على ولدها لمعرفة حاجته إليها، وأشغف به لقربه منها ولزومها له، لا يفارقها ليلاً ولا نهاراً، وعلى حسب القرب تكون الحبة والإلف، ولهذا قال امرؤ القيس:

فمئلك قبلى قد طرقت ومرضع

فألهيته عن ذي تائم محول

لما أراد المبالغة في وصف محبة المرأة له، قال: إني أهيتها عن ولدها الذي ترضعه لمعرفته بشغفها به، وشفقتها عليه في حال إرضاعها إياه.
وقول تعالى: "كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءً". لو قال يحسبه الرائي لكان جيداً، ولكن لما أراد المبالغة ذكر الظمآن، لأن حاجته إلى الماء أشد، وهو على الماء أحرص، وقد ذكرناه قبل. ومثل ذلك قول دريد بن الصمة:

وحولي من بني جشم فنامُ

متى ما تدع قومك أدع قومي

بدا حضر الحبيبة والحذامُ

فوارس بهمة حشد إذا ما

فالمبالغة الشديدة في قوله: الحبيبة. ومن المبالغة نوع آخر، وهو أن يذكر المتكلم حالاً لو وقف عليها أجزأته في غرضه منها، فيجاوز ذلك حتى يزيد في المعنى زيادة تؤكد، ويلحق به لاحقة تؤيده. كقول عمير بن الأهمم التغلبي:

ونتبعه الكرامة حيث مالا

ونكرم جارنا ما دام فينا

فإكرامهم الجار ما دام فيهم مكرمة، وإتباعهم إياه الكرامة حيث مال من المبالغة. وقول الحكم الخضري:

من الكلب أمسى وهو غرثانُ أعجفُ

وأقبحُ من قردٍ وأبخلُ بالقرى

فالكلب بخيل على ما ظفر به، وهو أشد بخلاً إذا كان جائعاً أعجف. ومن ها هنا أخذ حماد عجرد قوله في بشار:

إذا ما عمى القردُ

ويا أقبح من قردٍ

وقول رواس بن تميم:

لنأخذه من كل أبلخ ظالم

وإننا لنعطي النصف منا وإننا

المبالغة في قوله أبلخ.

وقول أوس بن غلفاء الهجيمي:

رأت صقراً، وأشرد من نعم

وهم تركوك أسلح من حبارى

فقوله: رأيت صفراً من المبالغة.

وكتبت في فصل إلى بعض أهل الأدب: قربك أحبُّ إلى من الحياة في ظل اليسر والسعة، ومن طول البقاء في كنف الخفض والدعة، ومن إقبال الحبيب مع إدبار الرقيب، ومن شمول الخصب بعد عموم الجذب، وأقرّ لعيني من الظفر بالبغية بعد إشرافي على الخيبة، وأسّرّ لنفسي من الأمن بعد الخوف، والإنصاف بعد الحيف. وأسأل الله أن يطيل بقاءك، ويدم نعماءك، ويرزقني عدلك ووفاءك، ويكفيني نبوك وجفاءك.

فقولي: "الحياة في ظل اليسر والسعة". و"البقاء في كنف الخفض والدعة".
وقولي: "إقبال الحبيب مع إدبار الرقيب" وقولي: "الخصب بعد عموم الجذب"، وما بعده إلى آخر الفصول
مبالغات.

ومن عيوب هذا الباب قول بعض المتأخرين:

فلا غيضةً بحارك يا جموماً على علل الغرائب والدخال

أراد أن يقول: إنك كثير الجود على كثرة سؤالك فلا نقصت، فعبّر عنه بهذه العبارة الغثة، والجموم: البئر
الكثيرة الماء، وقوله:

ليس قولي في شمس فعلك كالشمس س ولكن في الشمس كالإشراق

على أن حقيقة معنى هذا البيت لا يوقف عليها.
ومن ردئ المبالغة قول أبي تمام:

ما زال يهذي بالمكارم والعللا حتى ظننا أنه محموم

أراد أن يبالغ في ذكر المدح باللّهج بذكر الجود، فقال: ما زال يهذي فجاء بلفظ مذموم، والجيد في
معناه قول الآخر:

ما كان يعطي مثلها في مثله إلا كريم الخيم أو مجنون

قسم قسمين: ممدوحاً ومذموماً، ليخرج الممدوح من المذموم إلى الممدوح المحمود.
ومن جيد المبالغة قول عمرو بن حاتم:

خليلي أمسى حب خرقاء قاتلي ففي الحب مني وقدة وصدوغ

ولو جاورتنا العام خرقاء لم نبلى على جدبنا ألا يصبوب ربيع

قوله: على جدبنا مبالغة جيدة.

الفصل الثاني عشر

في الكتابة والتعريض

وهو أن يكنى عن الشيء ويعرض به ولا يصرح، على حسب ما عملوا باللحن والتورية عن الشيء. كما
فعل العنبري إذ بعث إلى قومه بصرة شوك وصرّة رمل وحنظلة، يريد: جاءكم بنو حنظلة في عدد كثير
ككثرة الرمل والشوك.

وفي كتاب الله تعالى عز وجل: "أو جاء أحدٌ منكم من الغائط أو مستم النساء"، فالغائط كناية عن الحاجة، وملامسة النساء كناية عن الجماع.

وقوله تعالى: "وفرش مرفوعة" كناية عن النساء.

ومن مליح ما جاء في هذا الباب قول أبي العيلاء، وقيل له: ما تقول في ابني وهب؟ قال: "وما يستوي البحران هذا عذبٌ فراتٌ سائغٌ شرابه وهذا ملحٌ أجاج" سليمان أفضل، قيل: وكيف؟ قال: "أفمن يمشي مكباً على وجهه أهدى أم من يمشي سوياً على صراط مستقيم".

ومن التعريض الجيد ما كتب به عمرو بن مسعدة إلى المأمون: أما بعد، فقد استشفع بي فلان إلى أمير المؤمنين، ليتطوّل عليه في إلحاقه بنظرائه من المرتزقين فيما يرتزقون، فأعلمته أن أمير المؤمنين لم يجعلني في مراتب المستشفع بهم، وفي ابتدائه بذلك تعدّى طاعته والسلام. فوقع في كتابه: قد عرفنا تصريحك له، وتعريضك بنفسك، وأجنبناك إليهما، وأوقفناك عليهما. ومن المنظوم قول بشار:

زاد في ذا شبرٍ وفي ذاك شبرٌ

وإذا ما التقى ابن نهيا وبكر

أراد أنهما يتبادلان، وقال آخر في ابن حجاج:

لأعناقهم نقرأ كما ينقر الصقرُ

أبوك أب ما زال للناس موجعا

فليس بمعوج له أبداً سطرٌ

إذا عوج الكتاب يوماً سطورهم

وقال بعض المتقدمين:

وبين بني دودان نبعاً وشوحطاً

وقد جعل الوسميّ يثبت بيننا

التبع والشوحط، كأنه كتّى بهما عن القسي والسهام، ومثله قول الآخر:

شياطين ينزو بعضهم على بعض

وفي البقل ما لم يدفع الله شرّه

وقول رؤبة:

فكلهم يعدو بقوس وقرن

يا بن هشام أهلك الناس اللبن

وهذه كتابات عن القتال والوقائع بينهم أيام الربيع، وهو وقت الغزو عندهم.

وكتب كافي الكفاة: إن فلانا طرق بيته وهو الخيف، لا خوف على من دخله، ولا يد على من نزله، فصادف فتياناً يعاطون كريمته الكؤوس تارة، والفؤوس مرة، فمن ذي معول يهدم، ومن ذي مغول يثلم. فبائع الرقيق يكتب من بينهم بالغلظ، فوثبت العفيفة خفيفة ذفيفة، تحكم يمناها في أحادعه، وتتقى يسراها وقع أصابعه، والحاضرون يحرضونها على القتال، ويدعوها إلى التزل، والشيخ يناديهم:

تجمعتُ من كل أوبٍ وبلدةٍ
على واحدٍ لازلتُمُ قرنَ واحدٍ
ثم علم أن الحرب خدعة، ولكل امرئٍ فرصة، فتلقأها بالأثافي طلاقاً بتأً وفراقاً بتلا. وأخذ ينشد:

إني أبيُّ ذو محافظةٍ
وابن أبيِّ من أبيين
ولكن بعد ماذا، بعد ما ضمّوا الخصر، وأموا الخصر، وأدمنوا العصر، وافتتحوا القصر.

وكان ما كان مما لست أذكرُهُ
وظنَّ شراً ولا تسأل عن الخبر
فأكثر هذا الكلام كنايات.

ومما عيب من هذا الباب ما أخبرنا به أبو أحمد، قال: قال أبو الحسن بن طباطبا الأصبهاني يصف غلاماً:

منعم الجسم يحكى الماء وقتَه
وقلبه قسوة يحكى أبا أوس
أي قلبه حجر، أراد والد أوس بن حجر، فأبعد التناول. فكتب إليه أبو مسلم قال: وأنشدنيها أبو مسلم، ولم ينسبها إلى نفسه:

أبا حسنٍ حاولت إيرادَ قافيةٍ
وقلت أبا أوس تريد كنايةً
عن الحجر القاسي فأوردت داهية
فإن جاز هذا فاكسرن غير صاغر
مصلبة المعنى فجاءتك واهية
وإلا أقمنا بيننا لك جدّه
فمى بأبي القرم الهمام معاوية
فتصبح ممنونا بصفيين ثانية

أراد: فاكسرن فمى بصخر، وإلا أقمنا بيننا لك حرباً وهو جد معاوية، وقال أبو نواس في جلد عميرة:

إذا أنت أنكحت الكريمة كفئها
وقلُّ بالرفقا ما نلت من وصل حرّة
فانكح حسينا راحة بنت ساعدٍ
ومن شنيع الكناية، قول بعض المتأخرين:

إني على شغفي بما في خمريها
لأعفُ عما في سراويلاتها
وسمعت بعض الشيوخ يقول: الفجور أحسن من عفاف يعبر عنه بهذا اللفظ. قال: وقريب من ذلك قول الآخر:

وما نلت منها محرماً غير أني
إذا هي بالتُ بلتُ حيث تبُولُ

الفصل الثالث عشر

في العكس

العكس العكس: أن تعكس الكلام فتجعل في الجزء الأخير منه ما جعلته في الجزء الأول، وبضعهم يسميه التبديل، وهو مثل الله عز وجل: "يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي". وقوله تعالى: "ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له". وكقول القائل: اشكر لمن أنعم عليك، وأنعم على من شكرك. وقول الآخر: اللهم أغن بالفقر إليك، ولا تفقرني بالاستغناء عنك. وقول بعض النساء لولدها: رزقك الله حظاً يخدمك به ذوو العقول، ولا رزقك عقلاً تخدم به ذوي الحظوظ. وقال بعضهم لرجل كان يتعهده: أسأل الله الذي رحمني بك، أن يرحمك بي. وقال بعض القدماء: ما أقل منفعة المعرفة مع غلبة الشهوة وما أكثر قلة المعرفة مع ملك النفس وقال بعضهم: كن من احتيالك على عدوك، أخوف من احتيال عدوك عليك. وقال آخر: ليس معي من فضيلة العلم إلا أي أعلم أي لا أعلم وفي معناه قول الشاعر:

جهلت ولم تعلم بأنك جاهلٌ **فمن لي بأن تدري بأنك لا تدري**

وعزّي رجل أخاه على ولد، فقال: عوّضك الله منه ما عوّضه منك يعني الجنة. وقال بعضهم: إني أكره للرجل أن يكون مقدار لسانه فاضلاً عن مقدار علمه، كما أكره أن يكون مقدار علمه فاضلاً عن مقدار لسانه. وقال عمر بن الخطاب رضوان الله عنه: إذا أنا لم أعلم ما لم أر فلا علمت ما رأيت. وقيل للحسن بن سهل وكان يكثر العطاء: ليس في السرف خير، فقال: ليس في الخير سرف. فعكس اللفظ واستوفي المعنى.

وقال بعضهم: كان الناس ورقاً لا شوك فيه، فصاروا شوكاً لا ورق فيه. ومثاله من المنظوم قول عدي بن الرقاع:

ولقد ثبتت يد الفتاة وسادةً **لي جاعلاً إحدى يدي وسادها**

وقال بعض المحدثين:

لساني كتوم لأسراركم **ودمعي نموم لسرى مذيع**

قلولا دموعي كتمت الهوى **ولولا الهوى لم تكن لي دموغ**

وقال آخر:

تلك الثنايا من عقدها نظمت **أو نظم العقد من ثناياها**

والعكس أيضاً م وجه آخر، وهو أن يذكر المعنى ثم يعكسه إيراد خلاف، كقول الصباحب: وتسمى شمس المعالي وهو كسوفها

الفصل الرابع عشر

في التذييل

وللتذييل في الكلام موقع جليل، ومكان شريف خطير، لأن المعنى يزداد به انشراحا والمقصد اتضاحا. وقال بعض البلغاء: للبلاغة ثلاثة مواضع، الإشارة، والتذييل، والمساواة. وقد شرحنا الإشارة والمساواة فيما تقدم، فأما التذييل فهو إعادة الألفاظ المترادفة على المعنى بعينه، حتى يظهر لمن لم يفهمه، ويتأكد عند من فهمه، وهو ضدّ الإشارة والتعرض، وينبغي أن يستعمل في المواطن الجامعة، والمواقف الحافلة، لأن تلك المواطن تجمع البطئ الفهم، والبعيد الذهن، والثاقب القرينة، والجيد الخاطر، فإذا تكررت الألفاظ على المعنى الواحد توكد عند الذهن اللّغن، وصح للكليل البليد. ومثاله من القرآن قول الله عز وجل: "ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازي إلاّ الكفور"، ومعناه وهل يجازى بمثل هذا الجزاء إلاّ الكفور. وقوله تعالى: "وما جعلنا لبشرٍ من قبلك الخلد أفإن متّ فهم الخالدون". و"إن كلّ نفسٍ ذائقة الموت" جميعاً تذييل.

ومثاله من النثر قول بعضهم: قبول السّعاية شر من السّعاية، لأنّ السّعاية إخبار ودلالة، والقبول إنفاذ وإجازة، وهل الدّال المخبر، مثل المميز المنفذ، فإذا كان كذلك فالخزم أن يمقت الساعي على سعائته إن كان صادقاً للؤمه في هتك العورة، وإضاعة الحرمة، وأن يجمع له إلى المقت العقوبة إن كان كاذباً، لجمعه على إضاعة الحرمة، وهتك العورة ومبارزة الرحمن بقول الزور واختلاق البهتان. فقوله: "وهل الدال المخبر مثل المميز المنفذ" تذييل ما تقدم من الكلام. وكتب رجل إلى أخ له: أما بعد، فقد أصبح لنا من فضل الله تعالى ما لا نحصيه، ولسنا نستحي من كثرة ما نعصيه، وقد أعيانا شكره، وأعجزنا حمده، فما ندري ما نشكر: أجميل ما نشر، أم قبيح ما ستر، أم عظيم ما أبلى، أم كثير ما عفا، فاستزد الله من حسن بلائه بشكره على جميع آلائه. فقوله: فما ندري ما نشكر تذييل لقوله قد أعيانا شكره.

وكتب سليمان بن وهب لبعضهم: بلغني حسن محضرك، فغير بديع من فضلك، ولا غريب عندي من برّك، بل قليل اتّصل بكثير، وصغير لحق بكبير، حتى اجتمع في قلب قد وطّن لموتك، وعنق قد ذلّت لطاعتك، ونفس قد طبعت على مرضاتك، وليس أكثر سؤلها، وأعظم إرهما، إلا طول مدتك، وبقاء نعمتك، قوله: فغير بديع من فضلك ولا غريب عندي من برّك تذييل لقوله: بل قليل اتّصل بكثير، وصغير

لحق بكبير" فأكد ما تقدم.

ومن المنظوم قول الحطيئة:

ومن يقيس بأنف الناقة الدنيا

قوم هم الأنف والأذنبُ غيرُهم

فاستوفى المعنى في النصف الأول، وذيل بالنصف الثاني.

وقول الآخر:

وعلامَ أركبُه إذا لم أنزلِ

فدعوا نزالِ فكننتُ أولَ نازلِ

وقول طرفة:

لكالطَّولِ المرخَى وثنياه باليد

لعمرك إن الموت ما أخطأ الفتى

فالنصف الآخر تشبيه وتذييل.

وقول أبي نواس:

بك قاطنين وللزمان عرام

عرم الزمان على الذين عهدتهم

قوله: "وللزمان عرام" تذييل.

الفصل الخامس عشر

في الترصيع

وهو أن يكون حشو البيت مسجوعاً، وأصله من قولهم: رصّعت العقد، إذا فصلته. ومثاله قول امرئ القيس:

له حجبات مشرفاتُ على الفال

سليمُ الشظى عبلُ الشوى شنج النساء

وقوله:

ردينية فيها أسنةٌ قعضبِ

وأوتاده ماذيةٌ وعماده

وقوله:

م تفتُرُ عن ذي غروبِ خصر

فتور القيامِ قطيع الكلا

وضرب منه قوله:

كتيس ظباء الحلب العدوان

مخش مجشٍ مقبلٍ مدبرٍ معاً

وضرب منه، قوله في صفة الكلب:

أَلصَّ الضَّرَّوسُ حَبِيَّ الضَّلُّوعِ

فقوله: الضَّرَّوسُ مع الضَّلُّوعِ، سجع، وإن لم يكن القاطع على حرف واحد، وقد أحكمنا هذا في السجع والازدواج.

وقال زهير:

قوداء فيها إذا استعرضتها خضعُ

كبداء مقبلةً عجزاء مدبرةً

وقال أوس:

تستنّ أولادها في قرقرٍ ضاحي

جشاً حناجرها علما مشافرُها

وقال طرفة:

ذلولٍ بأجماع الرجال ملهَدٍ

بطئٍ عن الجلىّ سريعٍ إلى الخنا

وقال النمري:

تتهلُّ حتى يكاد الصبح ينجاب

من صوب ساريةٍ علّتْ بغاديةٍ

وقال تأبط شراً:

حرقت باللوم جلدي أي تحراقٍ

بل من لعدالةٍ خذالةٍ أشبٍ

وقال أيضاً:

هبَّاطٍ أوديةٍ جوال آفاقٍ

حمل ألويةٍ شهد أنديهٍ

وقال النمر:

يواشك بالسببِ الأغبرِ

طويل الذراع قصير الكراع

وقال الأفوه الأودي:

كأن أطرافها لما اجتلى الطنْفُ

سودَّ غدائرُها بلجِّ محاجرِها

وقال العجير

حمّ الذري مرسله منها العرى

وقال سليك:

إذا أسهلت خبّت وإن أحزنت مشت

وقال بشامة بن الغدير:

وكلاً أراه طعاماً وبيلاً

هوانُ الحياة وخزي الممات

كتاب الصناعتين - ابو هلال العسكري

وقال الراعي:

قد مسّها من عقيد القار تنصيل

سود معاصمها خضر معاقمها

وقالت ليلي الأخيلىة:

لسان ومجدام السرى غير فاتر

وقد كان مرهوب السنان وبين ال

وقال ذو الرمة:

كأنها فضة قد مسها ذهب

كحلاء في برج صفراء في نعج

وقال عامر بن الطفيل:

وفي السرّ منها والصريح المهذب

إني وإن كنت ابن فارس عامر

أبى الله أن أسمو بأب ولا أب

فما سوّدتني عامر عن وراثته

أذاها وأرمى من رماها بمقنب

ولكنني أحمى حماها وأتقى

المقنب: جماعة الخيل.

ومثل هذا إذا اتفق في موضع من القصيدة أو موضعين كان حسناً، فإذا كثر وتوالى دلّ على التكلّف، وقد ارتكب قوم من القدماء الموالاتة بين أبيات كثيرة من هذا الجنس فظهر فيها أثر التكلّف، وبان عليها سمة التعسف، وسلم بعضها ولم يسلم بعض، فمن ذلك ما روى أنه للخنساء:

ديّ الطريقة نفاع وضرار

حامى الحقيقة محمود الخليفة مه

هذا البيت جيد، ثم قالت:

للمجد نامية تعنيه أسفار

فَعَال سامية وراذ طامية

هذا البيت ردى لتبرئ بعض ألفاظه من بعض، ثم قالت:

عقاد ألوية للخيل جرّار

جواب قاصية جزاز ناصية

آخر هذا البيت لا يجرى مع ما قبله، وإذا قسته بأوله وجدته فاتراً وبارداً، ثم قالت:

فأش حمالته للعظم جبار

حلو حلاوته فصل مقالته

وهذا مثل ما قبله، وقول أبي صخر الهذلي:

صفراء رعبلة في منصب سنم

وتلك هيكله خود مبتلة

هذا البيت صالح، وبعده:

كالدَّعص أسفلها مخصورة القدم

عذبٌ مقبلها جذلٌ مخلخلها

كأن قول: مخصورة القدم ناب عن موضعه غير واقع في موقعه، وبعده:

محض ضرائبها صيغت على الكرم

سود ذوائبها بيض ترائبها

وهذا البيت أيضاً قلق القافية، وبعده:

يروى معانقها من بارد شبم

سمحٌ خلانقها درمٌ مرافقها

هذا البيت ردئٌ لبعده ما بين الخلائق، والمرافق، وما بين الدّرم، والسمح، ولولا أن السجع اضطره لما قال: سمح وليس لعظم مرفقها حجم. وهذا مثل قول القائل لو قال: خلق فلان حسن وشعره جعد. ليس هذا من تأليف البلغاء ونظم الفصحاء. وقول أبي المثلّم:

لاف الكريمة جلدٌ غير ثنيان

أبي الهزيمة ناءٍ بالعظيمة مت

ناق الوسيقة لا نكس ولا وان

حامى الحقيقة نسأل الوديقة مع

البيت الثاني أجود من الأول، وقوله:

وهاب سلهبةٍ قطاعُ أقران

ربّاءٍ مرقبةٍ مناعٍ مغلبةٍ

وهذا البيت أيضاً صالح، وبعده:

شهاد أنديةٍ سرحان فتیان

هبطاً أودية حمّال ألوية

قوله: سرحان فتیان ناب قلق، وبعده:

من التلاد وهوب غير منانٍ

يعطيك ما لا تكاد النفس ترسله

كأن في ريطتيه نضح إرقان

التارك القرن مصفراً أنامله

هذا البيت جيّد وقد سمن سائر العيوب إذ لم يتكلّف فيه السجع ولم يتوخ الموازنة.

ومن جيد الباب قول ابن الرومي:

لفاء في هيفٍ عجزاء في قبب

حوراء في وطفٍ قنواء في ذلفٍ

ومن معيب هذا الباب أيضاً قول بعض المتأخرين:

دع ما نراك ضعفت عن إخفائه

عجب الوشاة من اللّحاة وقولهم

هذا ردئٌ لتعمية معناه.

الفصل السادس عشر

في الإيغال

وهو أن يستوفي معنى الكلام قبل البلوغ إلى مقطعه، ثم يأتي بالمقطع فيزيد معنى آخر يريد به وضوحاً وشرحاً وتوكيداً وحسناً، وأصل الكلمة من قولهم: أوغل في الأمر إذا أبعده الذهاب فيه. وأخبرنا أبو أحمد قال أخبرنا الصولي عن المبرّد عن التّوّزي، قال: قلت للأصمعي: من أشعر الناس؟ فقال: من يأتي بالمعنى الخسيس فيجعله بلفظه كبيراً، أو الكبر فيجعله بلفظه خسيساً، أو ينقضى كلامه قبل القافية، فإذا احتاج إليها أفاد بها معنى. قال: قلت: نحو من؟ قال: قول ذي الرّمة حيث يقول:

قف العيسَ في أطلال مية فاسألِ رسوماً كأخلاق الرّداء المسلسلِ

فتم كلامه بالرداء قبل المسلسل، ثم قال المسلسل، فزاد شيئاً بالمسلسل. ثم قال:

أظن الذي يجدي عليك سؤالها دموعا كتبذير الجمان المفصلِ

فتم كلامه، بالجمان، ثم قال: المفصل، فزاد شيئاً. قلت: ونحو من؟ قال: الأعشى حيث يقول:

كناطح صخرة يوماً ليفلقها فلم يضرها وأوهى قرنه الوعلُ

فتم كلامه بضرها، فلما احتاج إلى القافية قال: وأوهى قرنه الوعل، فزاد معنى. قلت: وكيف صار الوعل مفضلاً على كل ما ينطح؟ قال: لأنه ينحطّ من قلة الجبل على قرنيه فلا يضره.

وكتب بعض الكتاب: نبؤ الطرف من الوزير دليل على تغير الحال عنده، ولا صبر على الجفاء ممّن عود الله من البرّ، وقد استدلت بإزالة الوزير إياي عن المحل الذي كان يحلنيه بتطوّله على ما سؤت له ظنا بنفسي، وما أخاف عتبا لأني لم أجن ذنبا، فإن رأى الوزير أن يقومني لنفسي، ويدلّني على ما يراد مني فعل. تم كلامه عند قوله له يقومني ثم جاء بالمقطع وهو قوله: لنفسي فزاد معنى. وممن زاد توكيداً امرؤ القيس حيث يقول:

كأنّ عيون الوحش حول خبائنا وأرحلنا الجزع الذي لم يثقب

قوله: لم يثقب يزيد التشبيه توكيداً، لأن عيون الوحش غير مثقبة. وزهير حيث يقول:

كأنّ فتات العهن في كل منزل نزلن به حبّ الفنا لم يحطّم

القنا إذا كسر ابيض. والفنا: شجر الثعلب. ومن الزيادة قول امرئ القيس:

إذا ما جرى شأوين وابتلّ عطفه تقول هزيرُ الريح مرّت بأثاب

فالتشبيه قد تم عند قوله هزيز الريح وزاد بقوله مرت بأثاب: لأنه أخبر به عن شدة حفيف الفرس، وللريح في أغصان الأثاب حفيف شديد. والأثاب: شجر. وقول أبي نواس:

كأنه ناظر في السيّف بالطول

ذاك الوزير الذي طالت علاوته

فقوله بالطول أنفى للشبهة.

وقول راشد الكاتب:

سير الإداوة لما مسّه البلل

كأنه ويد الحسناء تغمزه

فقوله: لما مسه البلل تأكيد، ويدخل أكثر هذا الباب في التميم، وإنما يسمى إيغالا إذا وقع في الفواصل والمقاطع.

الفصل السابع عشر

في التوشيح

سمى هذا النوع التوشيح، وهذه التسمية غير لازمة بهذا المعنى، ولو سمي تبيينا لكان أقرب، وهو أن يكون مبتدأ الكلام ينبي عن مقطعه، وأوله يخبر بآخره، وصدوره يشهد بعجزه، حتى لو سمعت شعراً، أو عرفت رواية، ثم سمعت صدر بيت منه وقفت على عجزه قبل بلوغ السماع إليه، وخير الشعر ما تسابق صدوره وأعجازه، ومعانيه وألفاظه، فتراه سلساً في النظام، جارياً على اللسان، لا يتنافى ولا يتنافر، كأنه سبيكة مفرغة، أو وشى منمنم، أو عقد منظم من جوهر متشاكل، متمكن القوافي غير قلقعة، وثابتة غير مرحة، ألفاظه متطابقة، وقوافيه متوافقة، ومعانيه متعادلة، كل شيء منه موضوع في موضعه، وواقع في موقعه، فإذا نقض بناؤه، وحل نظامه، وجعل نثراً، لم يذهب حسنه، ولم تبطل جودته في معناه ولفظه، فيصلح نقضه لبناء مستأنف، وجوهره لنظام مستقبل.

فمما في كتاب الله عز وجل من هذا النوع قوله تعالى: "وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلّفوا ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم فيما فيه يختلفون"، فإذا وقفت على قوله تعالى: فيما، عرف فيه السامع أن بعده يختلفون، لما تقدم من الدلالة عليه.

وهكذا قوله تعالى: "قل الله أسرع مكرًا إن رسلنا يكتبون ما تمكرون" ذا وقف على يكتبون، عرف أن بعده ما يمكرون، لما تقدم من ذكر المكر.

وضرب منه آخر، وهو أن يعرف السامع مقطع الكلام، وإن لم يجد ذكره فيما تقدم، وهو كقوله تعالى:

"ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون"، فإذا وقف على قوله: لننظر مع ما تقدم من قوله تعالى: "جعلناكم خلائف في الأرض"، علم أن بعده تعملون لأن المعنى يقتضيه. ومن الضرب الأول قوله تعالى: "ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أعرفنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون". وهكذا قوله تعالى: "كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت"، إذا وقف على أوهن البيوت، يعرف أن بعده بيت العنكبوت. ومن أمثلة ذلك قول الراعي:

وإن وزن الحصى فوزنت قومي **وجدت حصى ضربيتهم رزينا**

إذا سمع الإنسان أول هذا البيت وقد تقدمت عنده قافية القصيدة استخراج لفظ قافيته، لأنه عرف أن قوله وزن الحصى سيأتي بعده رزين لعلتين: إحداهما أن قافية القصيدة توحيه، والأخرى أن نظام البيت يقتضيه، لأن الذي يفاخر برجاجة الحصى ينبغي أن يصفه بالرزانة. وقول نصيب:

وقد أيقنت أن ستبين ليلى **وتحجب عنك لو نفع اليقين**

وأشده أبو أحمد قول مضر بن ربيعي:

تمنيت أن ألقى سليما ومالكاً **على ساعة تنسى الحليم الأمانيا**

ومن عجيب هذا الباب قول البحري:

فليس الذي حلته بمحلل **وليس الذي حرّمته بحرام**

وذلك أن من سمع النصف الأول عرف الأخير بكماله، ونحوه قول الآخر:

فأما الذي يحصيه فمكثر **وأما الذي يطريه فمقلل**

وقول الآخر:

هي الدرّ منثوراً إذا ما تكلمت **وكالدرّ منظوماً إذا لم تكلم**

وقول الآخر:

ضعائف يقتلن الرجال بلا دم **ويا عجباً للقاتلات الضعائف**

وقول الآخر:

كتاب الصناعتين - أبو هلال العسكري

وقد لان أيام الحمى ثم لم يكذب
من العيش شيء بعد ذلك يلين
يقولون ما أبلأك والمال عامر
عليك وضاحي الجلد منك كنين
فقلت لهم: لا تعذلوني وانظروا
إلى النازع المقصور كيف يكون
إذا قلت: ضاحي الجلد منك، فليس شيء سوى الكنين، وكذلك إذا قلت: إلى النازع المقصور كيف،
فليس شيء سوى يكون.

ومما عيب من هذا الضرب قول أبي تمام:
صارت المكرمات بزلاً وكانت
أدخلت بينها بنات مخاض
وقول بعض المتأخرين:

فقلقت بالهم الذي قلقت الحشا
فلاقل عيس كلهن قلاقل
وإنما أخذه من قول أبي تمام فأفسده:
طلبتك من نسل الجديل وشدقم
كوم عقائل من عقائل كوم

الفصل الثامن عشر

في رد الأعجاز على الصدور

فأول ما ينبغي أن تعلمه أنك إذا قدمت ألفاظاً تقتضي جواباً فالمرضى أن تأتي بتلك الألفاظ بالجواب، ولا تنتقل عنها إلى غيرها مما هو في معناها، كقول الله تعالى: "وجزاء سيئة سيئة مثلها". وكتب بعض الكتاب في خلاف ذلك: من اقترف ذنباً عامداً، أو اكتسب جرماً قاصداً لزمه ما جناه، وحق به ما توخاه. والأحسن أن يقول: لزمه ما اقترف، وحق به ما اكتسب. وهذا يدل على أن لرد الأعجاز على الصدور موقعا جليلاً من البلاغة، وله في المنظوم خاصة محلا خطيرا.

وهو ينقسم أقساماً، منها ما يوافق آخر كلمة في البيت آخر كلمة في النصف الأول، مثل قول الأول:

تلقى إذا ما الأمر كان عرمرماً
وقال عنترة:
في جيش رأى لا يفلى عرمرم

فأحبتها إن المنية منهل
وقال جرير:
لا بد أن أسقى بذاك المنهل

زعم الفرزدق أن سيقنل مربعاً
أبشر بطول سلامة يا مربع

وقال المخبل:

وينفس فيما أورتنتي أوائلتي ويرغب عما أورتته أوائله

ومنها ما يوافق أول كلمة منها آخر كلمة في النصف الأخير، كقول الشاعر:

سريع إلى ابن العم يلطم وجهه وليس إلى داعي الوغى بسريع

وقول ابن الأسلت:

أسعى على جل بني مالك كل امرئ في شأنه ساع

ومنه ما يكون في حشو الكلام في فاصلته، كقول الله تعالى: "انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجاتٍ وأكبر تفضيلاً". وقوله تعالى: "قال لهم موسى ويلكم لا تفتروا على الله كذباً فيسحتكم بعذابٍ وقد خاب من افتري". وكقول امرئ القيس:

إذا المرء لم يخزن عليه لسانه فليس على شيء سواه بخزان

وقول الآخر:

كذلك خيمهم ولكل قوم إذا مستهم الضراء خيم

وقول زهير:

ولأنت تفري ما خلقت وبع ض القوم يخلق ثم لا يفري

وقال جرير:

سقى الرمل جون مستهل ربابه وماذاك إلا حب من حل بالرمل

أخذه من قول التمرى:

لعمرك ما أسقى البلاد لحبها ولكنما أسقيك حار بن تولب

وقول ابن مقبل:

يا حر من يعتذر من أن يلم به ريب المنون فإني لست أعتذر

وقول الخطيئة:

إذا نزل الشتاء بدار قوم تجنب جار بيتهم الشتاء

وقول الآخر:

رأت نضو أسفار أميمة واقفا على نضو أسفار فجن جنونها

وقول عمرو بن معد يكرب:

كتاب الصناعتين - أبو هلال العسكري

إذا لم تستطع شيئاً فدعه

وقول الآخر:

وجاوزه إلى ما تستطيع

أصدُّ بأيدي العيس عن قصد دارها

ومن الضرب الأول قول زهير:

وقلبي إليها بالموذة قاصدٌ

السترُ دونَ الفاحشات ولا

وقول الحطيئة:

يلقاك دون الخير من ستر

تدرون إن شدَّ العصاب عليكم

وقول أبي تمام:

ونأبى إذا شدَّ العصاب فلا ندر

أسأله ما باله حكم البلى

وقوله:

عليه وإلا فاتركوني أسأله

تجشم حمل الفاحات وقلما

وقول الآخر:

أقيمت صدور المجد إلا تجشما

مفيد إن تزور وأنت مقو

وقول الآخر:

تكن من فضل نعمته مفيدا

واستبدت مرة واحدة

ومنها ما يقع في حشو النصفين، كقول النمر:

إنما العاجز من لا يستبد

يود الفتى طول السلامة والغنى

وقلت:

فكيف ترى طول السلامة تفعل

ألا لا يذم الدهر من كان عاجزا

فمن لم تبلّغه المعالي نفسه

ولا يعدل الأقدار من كان وانبا

فغير جدير أن ينال المعاليا

وقفت على يحيى رجائي وإنما

وقفت على صوب الربيع رجائيا

إذا ما الليلي أدركت ما سعت له

تمطيت جدواه ففت الليليا

ومما عيب من هذا الباب قول ذي نواس البحلي:

يتيمنى برق المباسم بالضحي

وقال منصور بن الفرغ:

ولا بارق إلا الكريم يتيمه

كتاب الصناعتين- ابو هلال العسكري

بسطَ النوى بيننا بعداً لزرناك

زرناك شوقاً ولو أن النوى نشرتْ

وهذا أيضاً داخل في سوء الاستعارة، وقوله أيضاً:

فيضرب أغياناً له أن تحجّبا

إذا احتجب الغيث احتبى في نديّه

وهذا البيت على غاية الغثاثة.

الفصل التاسع عشر

في التتميم والتكميل

وهو أن توفي المعنى حظه من الجودة، وتعطيه نصيبه من الصحة، ثم لا تغادر معنى يكون فيه تمامه إلا تورده، أو لفظاً يكون فيه توكيده إلا تذكره، كقول الله تعالى: "من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمنٌ فلنحسبنا حياً طيباً". فيقوله تعالى: وهو مؤمنٌ تمّ المعنى. ونحو قوله سبحانه: "إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا" في قوله "استقاموا" تمّ المعنى وقد دخل تحته جميع الطاعات من جوامع الكلم ونحو قوله تعالى: "فاستقيموا إليه". ومن النثر قول أعرابية لرجل: كبت الله كلَّ عدو لك إلا نفسك. فيقولها: نفسك تمّ الدعاء، لأن نفس الإنسان تجرى مجرى العدو له، يعني إنها تورطه وتدعوه إلى ما يوبقه. ومثله قول الآخر: احرس أخاك إلا من نفسه. وقريب منه قول الآخر: من لك بأخيك كله. ومن المنظوم قول عمرو بن براق:

فما ليل مظلوم كريم بنائم

فلا تأمننَّ الدهر حراً ظلمته

فقوله: كريم تميم، لأن اللئيم بغضى على العار، وينام على الثار، ولا يكون منه دون المظالم تكبر. وقول عمرو بن الأيهم:

وأحرزنا الغرائب أن تنالا

بها نلنا الغرائب من سوانا

فالذي أكمل جودة المعنى قوله: "وأحرزنا الغرائب أن تنالا".

وقول الآخر:

ويعطوه عادوا بالسيف القواضب

رجال إذا لم يقبلِ الحق منهم

وقول طرفة:

صوبُ الربيع وديمةٌ تهمی

فسقى ديارك غير مفسدها

فقوله: غير مفسدها إتمام المعنى، وتحرز من الوقوع فيما وقع فيه ذو الرمة في قوله:

كتاب الصناعتين - أبو هلال العسكري

ألا يا سلمى يا دار ميّ على البلى ولا زال منهلاً بجر عائك القطرُ

فهذا بالدعاء عليها أشبه منه بالدعاء لها، لأن القطر إذا اهل فيها دائما فسدت، ومن العجب أن ذا الرّمة كان يستحسن قول الأعرابية وقد سألها عن الغيث، فقال: غيثاً ما شئنا، وهو يقول خلاف ما يستحسن. ومن التميم قول الراعي:

لا خيرَ في طول الإقامة لامرئٍ ونحوه قول الآخر:

إلا إذا ما لم يجد متحوّلاً

وإذا كنت في دار يهينك أهلها وقول الآخر:

ولم تك مكبولا بها فتحوّل

ومقام العزيز في بلد ال فقوله: إذا أمكن الرحيل تميم، وقول النمر:

ذُلّ إذا أمكن الرحيل محالٌ

لقد أصبح البيضُ الغواني كأنما وكنت إذا لاقيتهنّ ببلدة فقوله: على النكراء تميم، ولو كانت بينه وبينهن معرفة لم ينكر له منهن أهل ومرحب. وقول الآخر:

يرين إذا ما كنت فيهنّ أجرباً

ويقلنّ على النكراء أهلاً ومرحباً

وهل علمت بيتنا إلا وله فقوله: من غيره تميم، لأن لكل بيت شربة وأكلة من أهله. وقول الشماخ:

شربة من غيره وأكله

جماليةً لو يجعل السيف عرضها فقوله: على حده تميم عجيب. ويدخل في هذا الباب قول الآخر:

على حده لاستكبرت أن تضوراً

وقل من جدّ في أمرٍ يطالبه

فأصبح الصبر إلا فاز بالظفر وقول الخنساء:

فأصبح الصبر إلا فاز بالظفر

وإن صخرًا لتأتم الهداة به

كأنه علم في رأسه نارُ

فقولها: في رأسه نار تميم عجيب، قالوا: لم يستوف أحد هذا المعنى استيفاءها، وهو مأخوذ من قول الأعشى:

وتدفنُ منه الصالحاتُ وإن يسيئُ يكنُ ما أساءَ النارَ في رأسِ ككبأ

إلا أنها أخرجته في معرض أحسن من معرض الأعشى، فشهروا استفاض، وحمل معها بيت الأعشى ورذل، وهذا دليل على صحة ما قلنا من أن مدار البلاغة على تسحين اللفظ، وتجميل الصورة. وقول الآخر:

ألا لبيتَ النهارَ يعودُ ليلاً فإنَّ الصبحَ يأتي بالهموم
حوائجٌ لا نطيقُ لها قضاءً ولا رداً، وروعات الغريم
فقوله: ولا ردا تميم.

الفصل العشرون

في الالتفات

الالتفات في ضربين، فواحد أن يفرغ المتكلم من المعنى، فإذا ظننت أنه يريد أن يجاوزه يلتفت إليه فيذكره بغير ما تقدم ذكره به. أخبرنا أبو أحمد، قال: أخبرني محمد بن يحيى الصولي، قال قال الصمعي: أتعرف التفاتات جرير؟ قلت: لا، فما هي؟ قال:

أنتسى إذ تودّعنا سليماً بعود بشامةٍ سقى البشام

ألا تراه مقبلاً على شعره. ثم التفت إلى البشام فدعا له. وقوله:

طربَ الحمامِ بذي الأركِ فشاقتني لا زلتَ في عللٍ وأيكِ ناصرٍ

فالتفت إلى الحمام فدعا له.

ومنه قول الآخر:

لقد قتلْتُ بني بكرٍ برّبهم حتى بكيتُ وما يبكي لهم أحد

فقوله: وما يبكي لهم أحد التفات، وقول حسان:

إنّ التي ناولتني فرددتها قتلْتُ قتلْتُ فهاتها لم تقتل

فقوله: قتلت التفات.

والضرب الآخر أن يكون الشاعر آخذاً في معنى وكأنه يعترضه شك أو ظن أن راداً يردّ قوله، أو سائلاً

يسأله عن سببه، فيعود راجعاً إلى ما قدمه، فيما أن يؤكده، أو يذكر سببه، أو يزيل الشك عنه، ومثاله قول المعطل الهذلي:

تبين صلاة الحرب منا ومنهم إذا ما التقينا والمسلم بادن

فقوله: والمسلم بادن رجوع من المعنى الذي قدمه، حتى يبين أن علامة صلاة الحرب من غيرهم أن المسلم بادن، والمحارب ضامر.

قول عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر:

وأجمل إذا ما كنت لا بدّ مانعا وقد يمنع الشيء الفتى وهو مجمل

وقول طرفة:

وتصد عنك مخيلة الرجل الش نوف موضحة عن العظم

بحسام سيفك أو لسانك وال كلم الأصيل كأرغب الكلم

فكأنه ظن معترضا، يقول له: كيف يكون مجرى اللسان والسيف واحداً، فقال: والكلم الأصيل كأرغب الكلم، وإنما أخذه من امرئ القيس:

وجرح اللسان كجرح اليد

وأخذه آخر فقال:

والقول ينفذ ما لا تنفذ الإبر

ومن الالتفات قول حدير بن ربعان:

معاذيل في الهيجاء ليسوا بزادة مجازيع عند البأس والحرّ يصبر

فقوله: والحر يصبر التفات.

وقول الرّماح بن ميادة:

فلا صرّمه يبدو وفي اليأس راحة ولا ودة يصفو لنا فنكارمه

كأنه يقول: وفي اليأس راحة، والتفت إلى المعنى لتقديره أن معارضا يقول له: وما تصنع بصرمه؟ فيقول: لأنه يؤدّي إلى اليأس، وفي اليأس راحة.

الفصل الحادي والعشرون

في الاعتراض

الاعتراض، وهو اعتراضاً كلاماً في كلام لم يتم، ثم يرجع إليه فيتمه، كقول النابغة الجعدي:

ألا كذبوا كبير السنّ فاني

ألا زعمت بنو سعد بأني

وقول كثير:

رأوك تعلموا منك المطالاً

لو أنّ الباخلين وأنت منهم

وقول الآخر:

على مشرع يُروى ولما يصرد

فظلت بيوم دغ أخاك بمثله

وقول الآخر:

قد أحوجت سمعي إلى ترجمان

إن الثمانين وبلغتها

وكتب آخر: فإنك والله يدفع عنك علق مضنة، ينفس ويتنافس به، فيكون خلفاً مما سواه، ولا يكون في غيره منه، فإن رأيت أن تسمع العذر وتقبله، فلو لم تكن شواهد واضحة، وأنواره لائحة، لكان في الحق أن تهب ذنبي لجزعي، وإذلالني لإشفاقي، ولا تجمع عليّ لوعة لك، وروعة منك فعلت. فقوله: فإنك والله يدفع عنك اعتراض مليح.

وقول البحري:

أن الصبأ بعد الشباب تصابي

ولقد علمت وللشباب جهالة

وقلت:

وحاشاك من فعل الدنية وافيأ

أسحب أذيال الوفاء ولم يكن

الفصل الثاني والعشرون

في الرجوع

الرجوع، وهو أن يذكر شيئاً ثم يرجع عنه، كقول القائل: ليس معك من العقل شيء، بلى بمقدار ما يوجب الحجة عليك. وقال آخر: قليل العلم كثير، بل ليس من العلم قليل، وكقول الشاعر:

إليك وكلاً ليس منك قليل

أليس قليلاً نظرة إن نظرتها

أخذه ابن هرمة، فقال:

وكثير منها القليل المهغأ

ليت حظي كلحظة العين منها

وقال غيره:

وكثيرٌ ممَّنْ تحبُّ القليلُ

إنَّ ما قلَّ منك يكثرُ عندي

وقال دريد بن الصمة:

كافٍ إذا لم يكن في كربِه كافي
حتى شفيتُ وهل قلبي به شافي

عير الفوارس معروف بشكته
وقد قتلتُ به عبساً وإخوتها

وقول آخر:

عند الأميرِ وهل عليّ أمير

نبئتُ فاضحَ قومه يغتابني

وقول آخر:

عليّ، بلى إن كان من عندك النصرُ

وما بي انتصارٌ إن غدار الدهر ظالمي

وقال آخر:

جذام بن عمرو إن أجاب جذامُ

إذا شئتَ أن تلقى القناعةَ فاستخرِ

ومن مذموم هذا الباب قول أبي تمام:

من الأمر ما فيه رضا من له الأمرُ

رضيتُ وهل أرضى إذا كان مسخطي

الفصل الثالث والعشرون

في تجاهل العارف، ومزج الشك باليقين

تجاهل العارف ومزج الشك باليقين: هو إخراج ما يعرفه صحته مخرج ما يشك فيه ليزيد بذلك تأكيداً، ومثاله من المنشور ما كتبه إلى بعض أهل الأدب: سمعت بورود كتابك، فاستفزني الفرح قبل رؤيته، وهزّ عظمي المرح أمام مشاهدته، فما أدري أسمع بورود كتاب، أم ظفرت برجوع شباب، ولم أدر ما رأيت: أخط مسطور؟ م روض ممتور وكلام منثور؟ أم وشى منشور؟ ولم أدر ما أبصرت في أثناؤه: أآبيات شعر، أم عقود در؟ ولم أدر ما حملته: أغيث حلّ بوادي ظمان، أم عوث سيق إلى لهفان. ونوع منه ما كتب به كافي الكفاة:

وقلبي ما يقرُّ له قرار

كتبتُ إليك والأحشاء تهفو

عن سلامة، إن كان في عدم السالمين من أتصل سهاده، وطار رقاده، ففؤاده يجف، ودمعه يكف، ونهاره للفكر، وليله للسهر.

ومن المنظوم قول بعض العرب:

ليلايَ منكنَّ أم ليلى من البشرَ

يا الله يا طبيبات القاعِ قلنَ لنا

وقول آخر:

أنيقةُ أم دار المهى والنعائم
أرى بربعك أم سربِ الطِّباءِ النواعم
وأبلاكِ أم صوبُ الغمامِ السَّوامِ
مع الوصلِ أم أضغاثِ أحلامِ نائمِ

أنتِ ديارُ الحيِّ أيتها الرُّبَا ال
وسربُ طبَّاءِ الوحشِ هذا الَّذي
وأدمعنا اللَّاتي عفاك انسجامُها
وأيامنا فيك اللّواتي تصرّمتِ

وقال ذو الرمة:

وبين النِّقا أنتِ أم أمُّ سالمِ

أيا طبيبةِ الوعساءِ بينِ جلالِ

وقال بعض المتأخرين:

أريقكِ أم ماءِ الغمامةِ أم خمرُ

وقلت:

وفيض ندى كفيهِ أم باكرُ القطرِ

أغرّةِ إسمعيلَ أم سنّةِ البدرِ

وقلت أيضاً:

وقدّ ما بدا أم خيزرانُ
ولفظُ ما تساقطُ أم جمانُ
وليلُ ما أقاسي أم زمانُ

أنغرُ ما أرى أم أقحوانُ
وطرفُ ما تقلُّبُ أم حسامُ
وشوقُ ما أكابدُ أم حريقُ

وقال ابن المعتز:

حتّى الصِّباحِ موسداً كفيهِ
أم كأسه أم فيه أم عينيهِ

كم ليلةٍ عانقت فيها بدرها
وسكرتُ لا أدري أمنُ خمرِ الهوى

وقال أعرابي:

وأنتِ صحيحُ إنَّ ذا المحالُ
أأنتِ أخو ليلي؟ فقال: يقال!

أيا شبه ليلي ما لليلي مريضةُ
أقول لطبي مرَّ بي وهو راتع

كتاب الصناعتين-ابو هلال العسكري

الفصل الرابع والعشرون

في الاستطراد

وهو أن يأخذ المتكلم في معنى، فبينما يمرُّ فيه يأخذ في معنى آخر، وقد جعل الأو سبباً إليه، كقول الله عز وجل: "ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعةً فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت."، فبينما يدلُّ الله سبحانه على نفسه بإنزال الغيث واهتزاز الأرض بعد خشوعها قال: "إنَّ الذي أحيها لمحبي الموتى" فأخبر عن قدرته على إعادة الموتى بعد إقنائها وإحيائها بعد إرجائها، وقد جعل ما تقدّم من ذكر الغيث والنبات دليلاً عليه، ولم يكن في تقدير السامع لأوّل الكلام، إلا أنه يريد الدلالة على نفسه بذكر المطر، دون الدلالة على الإعادة، فاستوفى المعنيين جميعاً. ومثاله من المنظوم قول حسان:

فنجوتِ منجى الحارث بن هشام

إن كنتِ كاذبةً الذي حدتني

ونجا برأس طمرةٍ ولجام

ترك الأحبة أن يقاتل عنهم

وذلك أن الحارث بن هشام فرَّ يوم بدر عن أخيه أبي جهل، وقال يعتذر:

حتى علوا فرسي بأشقر مزبدٍ

الله يعلم ما تركت قتالهم

أقتل ولا يضررُ عدوٌّ مشهدي

وعلمت أنني إن أقاتل واحداً

في مأزق والخيل لم تتبددٍ

وشمعتُ ريح الموت من تلقائهم

طعماً لهم بعقاب يوم مرصد

فصدتُ عنهم والأحبة فيهمُ

وهذا أول من اعتذر من هزيمة رويت عن العرب.

ومن الاستطراد قول السموءل:

إذا ما رأته عامرٌ وسلولُ

وإن أناسٌ لا نرى القتل سبةً

فقوله: إذا ما رأته عامر وسلول استطراد.

وقال الآخر:

فليس به بأسٌ وإن كان من عكلٍ

إذا ما اتقى الله الفتى وأطاعه

وقول زهير:

كنَّ الجوادَ على علانته هرم

إن البخيل ملوم حيث كان ول

كتاب الصناعتين- ابو هلال العسكري

ومن ظريف الاستطراد قول مسلم:

كأن دجاها من قرونك ينشرُ
كغرة يحيى حين يذكرُ جعفرُ

أجدك ما تدرين أن ربَّ ليلةٍ
لهوت بها حتى تجلَّت بغرةٍ

وقال أبو تمام:

على الجراء أمينٍ غيرِ خوانٍ
فخلَّ عينيك في ظمان ريانٍ
تحت السنابك من مثني ووحدانٍ
من صخر تدمرٍ أو من وجه عثمان

وسابح هطل التَّعداء هتانٍ
أظمى الفصوص ولم تظماً عرائكه
فلو تراه مشيحاً والحصى زيمٍ
أيقنت إن لم تثبت أن حافره

فبينما يصف قوائم الفرس خرج إلى هجاء عثمان، وهو من قول الأعرابي: لو صكَّ بوجهه الحجاره لرضَّها، ولو خلا بالكعبة لسرقها. ومثله قول ابن المعتز:

لتكون إلا مشجباً في مشجبٍ
فأقدَّ منها حافراً للأشهبِ

لو كنت من شيءٍ خلافاً لم تكنُ
يا ليت لي من جلدٍ وجهك رقعةً

وقول البحري في القرس:

يوماً خلأق حمدويه الأحول

وما إن يعاف قذى ولو أرودتَه

وقال مسلم:

ن حتى ومقتُ ابن سلمٍ سعيدا
ثياباً من البخل زرقاً وسوداً
وتأبى خلأقُه أن يجودا

أحببت من حبها الباخلي
إذا سيل عرفاً كسا وجهه
يغار على المال فعل الجوادِ

وقال بشار:

على دهره إن الكريم معين
مخافة أن يرجى نداء حزين
فلم تلقه إلا وأنت كمين

خليلي من كعبٍ أعينا أهاكما
فلا تبخلا بخل ابن قزعة إنه
إذا جنَّته في الخلق أغلق بابَه

وقوله:

من الغي نحكى أحمد بن هشام

فما درّ قرن الشمس حتى كأننا

كتاب الصناعتين - ابو هلال العسكري

وقريب منه قول البحري:

إذا عطفته الريح قلت التفاتةً
لعلوة في جاديتها المتعصفر

وهذا الباب يقرب من باب حسن الخروج، وقد استقصيناها في آخر الكتاب.
ومن الاستطراد ما قلته:

انظر إلى قطر السماء ووبلها
وشمول ما نشرته من معروفها
بل ما يروعك من وفور عطائها
انظر بني زيد فإن محلهم
ودنوّ نائلها وبعد مجلّها
فانبث في حزن البلاد وسهلها
وعلوّ موضعها ولدّة ظلّها
من فوقها و عطاؤهم من قبلها

ومن الاستطراد ضرب آخر، وهو أن يجيء بكلام يظن أنه يبدأ فيه بزهد وهو يريد غير ذلك، كقول
الشاعر:

يا من تشاغل بالطلل
واصل غبوقك بالصبؤ
أقصر فقد قرّب الأجل
ح وعدّ عن وصف الملل

الفصل الخامس والعشرون

في جمع المؤنث والمختلف

وهو أن يجمع في كلام قصير أشياء كثيرة مختلفة أو متفقة، كقول الله تعالى: "فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصّلات".
وقوله عزّ اسمه: "إنّ الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى".
ومثاله من النثر ما كتب به الشيخ أبو أحمد: فلو عاش حتى يرى ما منينا به من وعد حقير، نقير، نذل، رذل، غثّ، رثّ، لئيم، زنيم، أشحّ من كلب، وأذلّ من نقد، وأجهل من بغل، سريع إلى الشر، بطئ عن الخير، مغلول عن الحمد، مكتوف عن البذل، جواد يشتم الأعراض، سخي بضرب الأبخار، لجوج حقوق، حرق، نزق، عسر، نكد، شكس، شرس، دعيّ، زنيم، يعتزى إلى أنباط سقاط، أهل لوم أعراق، ورقة أخلاق، وينتمي إلى أحببت البقاع ترابا، وأمرّها شرابا، وأكمدّها ثيابا، فهو كما قال الله تعالى: "والذي خبث لا يخرج إلا نكدا". ثم كما قال الشاعر:

ذو صلاح ولم يلد ذا صلاح
خالفوها في خفة الأرواح

ونائل ذا إذا صحا وإذا سكر

ورش وتو كاف وتتهملان

وجوع وطاعون وفقر ومغرم

وإن قيل عيش بالسدير غزير
وعمر وبن هند يعتدي ويجور

ر والعرقوب والكعب

ة والصهوة والجنب

ب والإحضار والعقب

طوال القرا نهذا أسيل المقلد

وصفر تراقبها وبيض خدودها

قوائم عوج مجمرات مقاذف

سواه لواه مزبدات خوانف

سبيل الردى منها إلى النفس مهيع

نبطى أبأؤه لم يلذه

معشر أشبهوا القروذ ولكن

ومن المنظوم قول امرئ القيس:

سماحة ذا وبرّ ذا ووفاء ذا

وقوله وقد جمع فيه جميع أوصاف الدمع من كثرته وقلته:

فدمعهما سكب وسح وديمة

وما جمع من أنواع المكروه في بيت كما جمع ابن أحمر:

نقائذ برسام وحمى وحصبة

وقال سويد بن خذاق:

أبي القلب أن يأتي السدير وأهله

بها البق والحمى وأسد خفية

وقال أبو داود:

حديد القلب والناظ

عريض الصدر والجبه

جواد الشد والتقري

وقال دريد:

سليم الشطى عبل الشوى شنج النساء

وقال ابن مطير:

بسود نواصبيها وحمر أكفها

وقال أوس بن حجر:

يشيعها في كل هضب ورملة

توائم آلاف توال لواحق

مزبدات: خفاف خوانف: هموى بأيديها في ضيعها.

ومن أشعار المحدثين قول أبي تمام:

غدا الشيب مختطا بفودي خطة

كتاب الصناعتين- ابو هلال العسكري

وذو الإلف يقلى والجديد يرقعُ

هو الزور يجفَى والمعاشر يجتوى

وقوله:

بهجة وابن الغزال في غيده

كالغصن في القدّ والغزاة في ال

وقوله:

من ناء ونضرة من شحوب

رب خفضٍ تحت السرى وغناء

وقول ابن المعتز:

ملك القلوب فأوبقت في أسره

والله ما أدري بكنه صفاته

أم نحره أو ردفه أم خصره

أوجهه أم شعره أم ثغره

وقول أبي تمام:

أو رهبة أو موكب أو فيلق

في مطلب أو مهرب أو رغبة

وقول البحري:

ونبلٍ وبذلٍ وبأسٍ وجودٍ

بحلٍ وعقدٍ وحزمٍ وفصلٍ

وقلت:

وبأسٍ وجودٍ وخيرٍ وخيرٍ

حليفٍ علاءٍ ومجدٍ وفخرٍ

وقال أبو تمام:

وفي نحر أعداء وفي قلب موكب

يروحك أن تلقاه في صدر فيلقٍ

وقلت:

ويعلو مبواه ويبكرُ هاطله

وما هو إلا المزن يصفو ظلاله

وقلت:

واخضر روضته وطاب غمامه

أنتَ الربيع الغضُّ رقّ نسيمه

وقلت:

حططنا إليه كي يزين القوافيا

فتى لم نزنه بالقوافي وإنما

وصالوا أسوداً واستهلّوا سواريا

من الغرّ لاحوا أشمسا ومضوا طبيّ

وقلت:

ومقومٍ ومعوجٍ ومهفهفٍ

يسبيك منه مفلجٍ ومضرجٍ

كتاب الصناعتين - ابو هلال العسكري

الفصل السادس والعشرون

في السلب والإيجاب

وهو أن تبني الكلام على نفي الشيء من جهة، وإثباته من جهة أخرى، أو الأمر به في جهة، والنهي عنه في جهة وما يجرى مجرى ذلك، كقول الله تعالى: "ولا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً". وقوله تعالى: "فلا تخشوا الناس واخشوني".

وقوله تعالى: "مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً". ومثاله من النثر قول رجل ليزيد بن المهلب: قد عظم قدرك من أن يستعان بك، أو يستعان عليك، ولست تفعل شيئاً من المعروف، إلا وأنت أكبر منه، وهو أصغر منك، وليس العجب من أن تفعل، وإنما العجب من ألا تفعل. وقول الشعبي للحجاج: لا تعجب من المخطئ كيف أخطأ، واعجب من المصيب كيف أصاب.

وأخبرنا أبو أحمد، قال: حدثنا ابن الأنباري، قال: حدثنا أبي عن بعض أصحابه عن العتيبي، قال: قيل لبعض العلماء: إن صاحبنا مات وترك عشرة آلاف، فقال: أما العشرة آلاف فلا تترك صاحبكم. وقال بعض الأوائل: ليس معي من فضيلة العلم إلا أي أعلم أي لا أعلم. ومن المنظوم قول امرئ القيس:

هضيم الحشا لا يملأ الكف خصرها ويملاً منها كل حجلٍ ودملج
وقال السموءل:

وننكر إن شئنا على الناس قولهم ولا ينكرون القول حيث نقول
وقال:

لا يعجبان بقول الناس عن عرضي ويعجبان بما قالوا وما سمعا
وقال آخر:

خفيف الحاذ نسال الفيافي وعبد للصحابة غير عبد
وقال الأعشى:

صرمت ولم أصرمكم وكصارم أخ قد طوى كشحاً وآب ليذهبا
وقال آخر:

حتى نجا من خوفه وما نجا

ومن شعر المحدثين قول البحترى:

شكر إحسانك الذي لا يؤدي

فابقَ عمر الزمان حتى نؤدى

وقال أبو تمام:

وليس له مال على الجود سالم

إلى سالم الأخلاق من كل عائبٍ

وقال آخر:

أنى وإن كنت لا ألقاه ألقاه

أبلغ أخانا تولى الله صحبته

وكيف يذكره من ليس ينسأه

الله يعلم أنى لست أذكره

وقال آخر:

وكالدرّ منظوما إذا لم تكلم

هي الدرّ منثوراً إذا ما تكلمت

وتملأ عين الناظر المتوسم

تعبدُ أحرار القلوب بدلها

وقال آخر:

ولا تتقي بالصبر منى على الغدر

ثقي بجميل الصبر منى على الدهر

إذا كانت العلياء في جانب الفقر

ولست بنظارٍ إلى جانب الغني

وقال أبو تمام:

ولا تقفا فيض الدموع السوامج

خليلي من بعد الجوى والأسى قفا

وقلت:

سناةً تعالى فيه قدرك عن قدرى

أفي هذه الأيام زدت ولم تزد

وقلت:

والدَّهر ما بينها تفنى عجائبه

أخو عزائم لا تفنى عجائبها

لكن من المجد ما تقضى مآربه

تقضى مآربه من كل فائدةٍ

الفصل السابع والعشرون

في الاستثناء

والاستثناء على ضربين، فالضرب الأول هو أن تأتي معنى تريد توكيده والزيادة فيه فتستثنى بغيره، فتكون الزيادة التي قصدتها، والتوكيد الذي توحيته في استثنائك، كما أخبرنا أبو أحمد، قال: أخبرني أبو عمر الزاهد، قال: قال أبو العباس: قال ابن سلام، لجندل بن جابر الفزاري:

فتى كملت أخلاقه غير أنه جوادٌ فما يبقي من المال باقيا

فتى كان فيه ما يسرُّ صديقه على أن فيه ما يسوءُ الأعدايا

فقال هذا استثناء، فتيين هذا الاستثناء لهم، كما قال النابغة:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهنّ فلول من قراع الكتائب

ومثله قول أبي تمام:

تتصلّ ربيها من غير جرم إليك سوى النصيحة في الوداد

وقلت:

ولا عيب فيه غير أن ذوي الندى خساسٌ إذا قيسوا به ولثامٌ

والضرب الآخر استقصاء المعنى والتحرز من دخول النقصان فيه، مثل قول طرفة:

فسقى دبارك غير مفسدها صوب الربيع وديمة تهمة

وقول الآخر:

فلا تبعدن إلا من السوء إنني إليك وإن شطت بك الدار نازع

وقال الربيع بن ضبع:

فنبتُ ولا يفنى صنيعي ومنطقي وكل امرئ إلا أحاديثه فان

وقال أعرابي يصف قوسا:

خرقاء إلا أنها صناع

وقال آخر في الخيل:

منها الدجوجي ومنها الأرمك كالليل إلا أنها تحرك

الفصل الثامن والعشرون

في المذهب الكلامي

جعلهُ عبد الله بن المعتزّ الباب الخامس من البديع، وقال: ما أعلم أتّي وجدت شيئاً منه في القرآن. وهو ينسب إلى التكلّف، فنسبه إلى التكلّف وجعله من البديع.

ومن أمثلة هذا الباب قول أعرابي لرجل: إني لم أضر وجهي عن الطلب إليك قصر نفسك عن ردّي، فضعتني من كرمك، بحيث وضعت نفسي من رجائك.
وقول أبي الدرداء: أخوف ما أخاف أن يقال لي: عملت فما عملت؟ وقول طاهر ابن الحسين للمأمون: يا أمير المؤمنين، يحفظ على من قلبك، ما لا أستعين على حفظه إلاّ بك. وقال بعض الأوائل: لولا أنّ قولي لا أعلم تشييت لأني أعلم لقلت: لا أعلم. وقال آخر: لولا العمل لم يطلب العلم، ولولا العلم لم يكن عمل، ولأن أدع الحق جهلاً به أحب إليّ أن أدعه زهداً فيه.
وأنشد عبد الله قول الفرزدق:

وأخرى يعاصيها الهوى فيطيعها

إذا قلّ من أحرارهن شفيحها

فما فعلتُ تعذّل ولم تلم

مقام شاهد عدل غير متهم

أحمقٍ إني أعده إنسانا

كالذي لم يكن وإن كان كانا

أن يغضب أن يرضى

على الأرض له أرضا

لكل امرئ نفسان: نفسٌ كريمةٌ

ونفسك في نفسيك تشفع للندی

وأنشد لإبراهيم بن المهدي يعتذر للمأمون:

البرّ بي منك وطأ العذر عندك لي

وقام علمك بي فاحتج عندك لي

وأنشد:

إنّ هذا يرى ولا رأى لل

ذاك بالظنّ عنده وهو عندي

ومثله:

أما يحسن من يحسنُ

أما يرضى بأن صرتُ

الفصل التاسع والعشرون

في التشطير

وهو أن يتوازن المصراعان والجزآن، وتتعدل أقسامهما مع قيام كل واحد منهما بنفسه، واستغنائه عن صاحبه.

فمثاله من النثر قول بعضهم: من عتب على الزمان طالت معتبته، ومن رضى عن الزمان طابت معيشته. وقال الآخر: الجود خير من البخل، والمنع خير من المطل. وقول الآخر: رأس المداراة ترك المماراة، فالجزآن من هذه الفصول متوازنا الألفاظ والأبنية.

وقد أوردت من هذا النوع في باب الازدواج ما فيه كفاية.

وأما مثاله من المنظوم، فكقول أوس بن حجر:

فتحدركم عبسٌ إلينا و عامرٌ وترفعنا بكرٌ إليكم وتغلبُ

وقول ذي الرمة:

أستحدث الركب عن أشياعهم خبراً أم راجع القلب من أطرابه طربُ

وقول الآخر:

فأما الذي يحصيهام فمكثرٌ وأما الذي يطربهم فمقللٌ

وقول الآخر:

فكأنها فيه نهار ساطعٌ وكأنه ليل عليها مظلمٌ

ومن شعر المحدثين قول البحري:

شوقي إليك تقيض منه الأدمعُ وجوى إليك تضيق عنه الأضلعُ

وقول أبي تمام:

بمصعدٍ من حسنه ومصوبٍ ومجمعٍ من نعته ومفرقٍ

وقوله:

تصدع شمل القلب من كلِّ وجهٍ وتشعبه بالبت من كلِّ مشعبٍ

بمختبلٍ ساجٍ من الطرفِ أكحلٍ ومقتبلٍ صافٍ من الثغرِ أشنبٍ

وقوله:

أحاولت إرشادي فعقلي مرشدي أو استمتت تأديبي فدهري مؤدبي

وقول البحري:

فقف مسعداً فيهن إن كنت عاذراً وسر مبعداً عنهن إن كنت عاذلاً

وقال:

ومذهب حبّ لم أجد عنه مذهباً
وشاغل بثّ لم أجد عنه شاغلاً

وقال:

طلّبتهم إن وجّه الجيش غازياً
وساقتهم إن وجّه الجيش قافلاً

وقال:

إذا اسودّ فيه الشكّ كان كواكباً
وإن سار فيه الخطبُ كان حبالاً
لأذكرته بالرّمح ما كان ناسياً
وعلمته بالسيف ما كان جاهلاً
فمن كان منهم ساكتاً كنت ناطقاً
ومن كان منهم قائلاً كنت فاعلاً

وقال:

فلأجرينّ الدمع إن لم تجرّه
ولأعرفنّ الوجد إن لم تعرفِ

وقال في جيش:

يسودّ منه الأفق إن لم ينسدّد
وتموتُ منه الشمس إن لم تكسفِ

وقلت:

وعلى الرّبّي حلّ وشاهنّ الحيا
فمسهمّ ومعصبّ ومفوفّ
والبرق يلمع مثل سيفٍ ينتضى
والسيل يجري مثل أفعى تزحفُ
والقطر يهمي وهو أبيض ناصعُ
ويصير سيلاً وهو أغبر أكلفُ

الفصل الثالثون

في المجاورة

المجاورة: تردد لظفتين في البيت، ووقوع كل واحدة منهما بجانب الأخرى أو قريباً منها، من غير أن تكون إحداهما لغواً لا يحتاج إليها، وذلك كقول علقمة:

ومطعم الغنم يوم الغنم مطعمه
أنّى توجّهه والمحروم محرومُ

فقوله: الغنم يوم الغنم مجاورة، والمحروم محروم مثله.

وقول الآخر:

وتندق منها في الصدور صدورها

وقول أوس بن حجر:

و الققططنة والبرعوم مذعورُ

كأنها ذو وشوم بين مآفته

وقول أبي تمام:

يستصغر الحدث العظيم عظيمها

إننا أتيناكم نصورُ مآرباً

وقوله:

وسطوا على أحداثه أحداثا

ردعوا الزمان وهم كهولُ جلة

وقول الآخر:

أنضاء شوق على أنضاء أسفار

وقول الآخر:

إنما يغفر العظيم العظيم

وقول أبي تمام:

إليك ولكن مذهبي فيك مذهبي

وما ضيق أقطار البلاد أضافني

وقول أبي الشيص:

فاتوك أنقاضا على أنقاض

وقول أبي النجم:

تدني من الجدول مثل الجدول

وقول رؤبة:

ترمي الجلاميد بجلمودٍ مدق

وقول الآخر:

ماء العناقيد في ظل العناقيد

قم فاسقتني من كروم الرند ورد ضحا

وقول آخر، وقد بعث إلى جارية يقال لها راحج براح:

قل لمن تملك القلوب

وإن كان قد ملك

قد شربناك فاشربي

وبعثنا إليك بك

ومن هذا النوع قول الشاعر:

كتاب الصناعتين - ابو هلال العسكري

فلوني والمدام ولون ثوبي

وقلت:

كأن الكأس في يده وفيه

وقلت أيضاً:

دعونا ضرةً البدر المنير

مطرزة الشوارب بالغوالي

ترى ما شئت من قد رشيق

الأمسها وقد لبست حريراً

فأنس ثم لهو ثم زهر

وقلت أيضاً:

ودار الكاس في يد ذي دلال

ومنه أيضاً قول أبي تمام:

دأب عيني البكاء والحزن دأبي

وقوله أيضاً:

كأن العهد عن عفر لدينا

وقوله:

طلبت أنفس الكماة فشقت

وقوله:

أيام للأيام فيك غضارة

وقال ابن الرومي:

مشارك الحظ لا محصله

منهك المال لا ممنعه

وقول مسلم:

أنتك المطايا تهتدي بمطية

قريب من قريب من قريب

عقيق في عقيق في عقيق

فوافتنا على خضر نضير

مضمخة السوالف بالعبير

وما أحببت من ردف وتير

فأحسبها حريراً في حرير

سرور في سرور في سرور

رشيق القد يعرف بالرشيق

فاتركيني وقيت ما بي لما بي

وإن كان التلاقي عن تلاقي

من وراء الجيوب منها الجيوب

والدهر في وفيك غير ملوم

محصل المجد غير مشتركه

ممنع العرض غير منهكه

عليها فتى كالتصل يؤنسه النصل

الفصل الحادي والثلاثون

في الاستشهاد والاحتجاج

وهذا الجنس كثير في كلام القدماء والمحدثين، وهو أحسن ما يتعاطى من أجناس صنعة الشعر، ومجراه مجرى التذييل لتوليد المعنى، وهو أن تأتي بمعنى ثم تؤكده بمعنى آخر يجري مجرى الاستشهاد على الأول، والحجة على صحته.

فمثاله من النثر ما كنت به كافي الكفاة في فصل له: فلا تقس آخر أمرك بأوله، ولا تجمع من صدره وعجزه، ولا تحمل خوافي صنعك على قوادمه، فالإناء يملؤه القطر فيفعم، والصغر يقترن بالصغير فيعظم، والداء يلمّ ثم يصطلم، والجرح يتباين ثم ينفثق، والسيف يمس ثم يقطع، والسهم يرد ثم ينفذ. ومن الاستشهاد قول الآخر:

وام من كان عاشقاً للمعالي
سر منهنّ في الحروب العوالي

إنما يعشقُ المنايا من الأق
وكذاك الرّماح أول ما يك

وقال أبو تمام:

وإذا أبو الأشبال أخرج عاتاً

هم مزقوا عنه سبائب حلمه

وقال أيضاً:

للمشرفيّ العضب ما لم يعتقُ

عتقت وسيلته وأية قيمة

وقال أيضاً:

ف دعاهم ربعٌ خصيب
طمع العلم أنه سيصيبُ

يأخذ الزائرين قسراً ولو ك
غير إن الرامي المسدد يحتا

وقال أيضاً:

لا يزخر الوادي بغير شعاب
بيئاً بلا عمدٍ ولا أطناب

فاضمّم قواصبيهم إليك فإنه
والسهم بالريش اللّوام ولن ترى

وقال ابن الرومي:

بيغى لها حربة يشق لها
ولا يرى عليّة يعاملها

وظائف باسته على طبق
معاملا كل سفلة سفلت

ناس وشرّ الأمور سافلها

قلت له لم هوأك في سفل الن

كتاب الصناعتين- ابو هلال العسكري

أم عصابة فضلت غرامها

كر مختارها أسافلها

وكرها سفلة يشاكلها

أفرقة وافقتك طاعتها

قال وجدت الكعوب من قصب الس

واست الفتى سفلة فغايتها

وقول بشار:

فإن الخوافي قوة للقوادم

فلا تجعل الشورى عليك غضاضة

وقول الفرزدق:

وما كاد لولا ظلمهم يتصرم

وقد يملأ القطر الإناء فيفعم

تصرم مني ود بكر بن وائل

قوارص تأتيني ويحتقرونها

وقال أبو تمام:

طريق الردى منها إلى النفس مهيع

وذو الإلف يقلى والجديد يرقع

ولكنه في القلب أسود أسفع

وأنف الفتى من وجهه وهو أجدع

غدا الشيب مختطاً بفودي خطة

هو الزور يجفى والمعاشر يجتوى

له منظر في العين أبيض ناصع

ونحن نرجيه على السخط والرضا

وقال:

والماء رزق جمامه للأول

لي حرمة والت على سجالكم

وقال آخر:

لا خير في حب الحبيب الأول

خير البرية وهو آخر مرسل

أعلق بأخر من كلفت بحبه

أتشك في أن النبي محمداً

وقال أبو تمام، في خلاف ذلك:

ما الحب إلا للحبيب الأول

وحنينه أبداً لأول منزل

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى

كم منزل في الأرض يألفه الفتى

وقال ديك الجن في المعنى الأول:

وعلى الفم المتبسم المتقبل

غض وينسى كل حب أول

اشرب على وجه الحبيب المقبل

شرباً يذكر كل حب آخر

نقل فؤادك حيث شئت فلن ترى
ما إن أحنّ إلى خرابٍ مقفرٍ
مقتي لمنزلي الذس استحدثته
وقال العلوي الأصبهاني:

دع حبّ أول من كلفت بحبه
ما قدّ تولى لا ارتجاع لطيبه
إنّ المشيبَ وقدّ وفي بمقامه
دنياك يومك دون أمسك فاعتبر
وقال آخر، في خلاف القولين:

قلبي رهينٌ بالهوى المقتبلِ
أنا مبتلى ببلّيتين من الهوى
فهما حياتي كالطعام المشتهى
قسم الفؤاد لحرمة ولذّة
إني لأحفظُ عهد أول منزل
وقال آخر في خلاف الجميع:

الحبّ للمحبوب ساعة حبه
وقلت:

كان لي ركنٌ شديد
زعزعتُه نوبُ الدّه
ما بقاء الحجر الصل
وتدخل أكثرُ هذه الأمثلة في التشبيه أيضاً.

كهوى جديد أو كوصل مقبل
درست معالمه كأن لم يؤهل
أما الذي ولى فليس بمنزلي

ما الحبّ إلا للحبيب الآخر
هل غائب اللذات مثل الحاضر
أوفى لديّ من الشّبّاب الغادر
ما السالفُ المفقودُ مثل الغابر

فالويلُ لي في الحبّ إن لم أعدل
شوقٌ إلى الثاني وذكرُ الأول
لا بدّ منه وكالشرب السلسل
في الحبّ من ماضٍ ومن مستقبل
أبدأ وألف طيباً آخر منزل

ما الحبّ فيه لآخر ولأول

وقعت فيه الزلازل
روكراتُ النوازل
د على وقع المعاول

الفصل الثاني والثلاثون

في التعطف

والتعطف أن تذكر اللفظ ثم تكرر، والمعنى مختلف، قالوا: وأول من ابتدأه امرؤ القيس، في قوله:

كتاب الصناعتين- ابو هلال العسكري

إِلا إِنِّي بِالِ عَلَى جَمَلِ بِالِ

يسوق بنا يالٍ ويتبعنا بالٍ

وليس هذا من التعطف على الأثل الذي أصلوه، ولك أن الألفاظ المكررة في هذا البيت على معنى واحد يجمعها البلى فلا اختلاف بينها، وإنما صار كل واحد منها صفة لشيء، فاختلقت لهذه الجهة لا من جهة اختلافها في معانيها، وكذلك قول الآخر:

عود على عود على عود خلق

وإنما التعطف على أصلهم، كقول الشماخ:

كادتُ تساقطني والرحل إذ نطقتُ

حمامةً فدعتُ ساقاً على ساق

أي دعت حمامة، وهو ذكر القماري ويسمى الساق عندهم على ساق شجرة، وقول الأفوه:

وأقطع الهوجل مستأنساً

بهوجل عيرانة عنتريس

فالهوجل الأول: الأرض البعيدة الأطراف، والهوجل الثاني: الناقة العظيمة الخلق.

ومما يدخل في التعطف ما أنشدنا أبو أحمد، قال: أنشدنا أبو عبد الله المفجع، قال: أنشدنا أبو العباس ثعلب:

أتعرف أطلالاً شجونك بالخال

وعيش ليالٍ كان في الزمن الخالي

الخال: موضع. والخالي، من الخلوة.

ليالي ريعان الشباب مسلطاً

عليّ بعضيان الإمارة والخال

يعني أنه يعصى أمر من يلي أمره وأمر من ينصحه ليصلح حاله، وهو من قولهم: فلان خال مال، إذا كان يقومُ به ويصلحه.

وإذ أنا خدنٌ للغويّ أخي الصبّا

وللمرح الذّيالٍ واللّهو والخال

الخال ها هنا: من الخيلاء وهو الكبر.

إذا سكنتُ ربعا رثمتُ رباعها

كما رثم الميثاء ذو الرثية لخالي

الخالي: الذي لا أهل له.

ويقتادني ظبي رخيماً دلالة

كما اقتاد مهراً حين يألفه الخالي

الخالي: الذي يقطع الخلا وهو النبات الرطب.

ليالي سلمى تستنيك بدلها

وبالمنظر الفتان والجيد والخال

كتاب الصناعتين - ابو هلال العسكري

الخالى: الذي يرشم على الخد شبيه الشامة.

إذا القوم كعُوا لستُ بالرَّعشِ الخالي

وقد علمت أني وإن ملت للصبأ

الخالى الذي لا أصحاب معه يعاونونه.

إذا ضن بعضُ القوم بالعصب والخالِ

ولا أرتدي إلا المروءة حلّة

الخال: ضرب من البرود.

تتكبّتها واشتمتُ خالاً إلى خالِ

وإن أنا أبصرت المحول ببلدة

الخال: السحابة المخيلة للمطر.

وإلا فصارمه وخال إذاض خال

فحالف بخلقى كلِّ حرٍّ مهذب

المخالاة: قطع الحلف، يقال: أخلّ من فلان، وتخلّ منه، أي فارقه، وقال النابغة:

قالت بنو عامر خالوا بني أسد

إذا احتلفت عبس وذبيان بالخالِ

فإني حليف للسماحة والتدى

الخال: موضع.

ومثله:

وحسن لذة أيام الصبا عودي

يا طيب نعمة أيام لنا سلفتُ

إذا ترنم صوت الناي والعود

أيام أسحبُ ذيلي في بطالتها

كالمسك والعنبر الهندي والعود

وقهوة من سلاف الخمر صافية

إذا جرت منك مجرى الماء في العود

تسلّ عقلك في لين وفي لطف

ومن هذا نوع، قول أبي تمام:

في حدّه الحدُّ بين الجدِّ واللعبِ

السيف أصدق أنباء من الكتب

ولم أجد منه شيئاً في القرآن إلا قوله تعالى: "ويوم تقوم الساعة يقسمُ المجرمون ما لبثوا غير ساعة". والله أعلم.

الفصل الثالث والثلاثون

في المضاعفة

وهو أن يتضمّن الكلام معنيين: معنىً مصرّح به، ومعنى كالمشار إليه، وذلك المضاعفة مثل قول الله تعالى: "ومنهم من يستمعون إليك أفأنت تسمع الصّم ولو كانوا لا يعقلون، ومنهم من ينظر إليك أفأنت تهدي العمى ولو كانوا لا يبصرون" فالعنى المصرّح به في هذا الكلام أنه لا يقدر أن يهدي من عمي عن الآيات، وصمّ عن الكلم البيّنات، بمعنى أنه صرف قلبه عنها فلم ينتفع بسماعها ورؤيتها، والمعنى المشار إليه أنه فضّل السمع على البصر، لأنه جعل مع الصمم فقدان العقل، ومع العمى فقدان النظر فقط. ومن نثر الكتاب ما كتب به الحسن بن وهب: كتابي إليك، وشطر قلبي عندك، والشطر الآخر غير خلو من تذكرك، والثناء على عهدك، فأعطاك الله بركة وجهك، وزاد في علوّ قدرك، والنعمة عندك وعندنا فيك.

فقوله: بركة وجهك فيه معنيان: أحدهما أنه دعا له بالبركة، والآخر أنه جعل وجهه ذا بركة عظيمة، ولعظمها عدل إليها في الدعاء عن غيرها من بركات المطر وغير، ومثله قول أبي العيّن: سألتك حاجة فرددت بأقبح من وجهك، فتضمن هذا اللفظ قبح وجهه وقبح رده. ومن المنظوم قول الأخطل:

قومٌ إذا استنبح الأضياف كلبهم قالوا لأهمهم بولى على النار

فأخبر عن إطفاء النار، فدل به على بخلهم، وأشار إلى مهانتهم، ومهانة أهمهم عندهم. وقول أبي تمام:

يخرج من جسمك السقام كما أخرج ذمّ الفعّال من عنقك
يسحّ سحاً عليك حتى يرى خلقك فيها أصحّ من خلقك

فدعا له بالصحة وأخبر بصحة خلقه، فهما معنيان في كلام واحد. وقال جحظة:

دعوت فأقبلت ركضاً إليك وخالفت من كنت في دعوته
وأسرعت نحوك لما أمرت كأني نوالك في سرعته

وقال ابن الرومي:

بنفس أبت إلاّ ثبات عقودها لمن عاقدته وانحلال حقودها
ألاّ تلکم النفس التي تم فضلها فما نستزيد الله غير خلودها

فذكر تمام فضلها وأراد خلودها، ومن ذلك قول الآخر:

نهبت من الأعمار ما لو حويته لهنّنت الدنيا بأنك خالد

كتاب الصناعتين - أبو هلال العسكري

وكتب بعضهم: فإن رأيت صليتي بكتابك العادل عندي رؤية كل حبيب سواك وتضمنيه من حوائجك ما أسر بقضائه فعلت إن شاء الله. فقله: سواك مضاعفة.
ومن هذا الباب نوع آخر، وهو أن تورد الاسم الواحد على وجهين وتضمنه معنيين كل واحد منهما معني، كقول بعضهم:

أفدي الذي زارني والسيف يخفره ولحظ عينيه أمضى من مضاربه
فما خلعت نجادي في العناق له حتى لبست نجاداً من ذوائبه
فجعل في السيف معنيين: أحدهما أن يخفره، والآخر أن لحظه أمضى من مضاربه.
وضرب منه آخر قول ابن الرومي:

بجهل كجهل السيف والسيف منتضى وحلم كحلم السيف والسيف مغد
وضرب منه قول مسلم:
وخال كخال البدر في وجه مثله لقينا المنى فيه فحاجزنا البذل

الفصل الرابع والثلاثون

في التطريز

وهو أن يقع في أبيات متوالية من القصيدة كلمات متساوية في الوزن، فيكون فيها كالطراز في الثوب، وهذا النوع قليل في الشعر.

وأحسن ما جاء فيه قول أحمد بن أبي طاهر:

إذا أبو قاسم جادت لنا يده لم يحمّد الأجودان: البحر والمطر
وإن أضاعت لنا أنوار غرته تضاعل الأنوران: الشمس والقمر
وإن مضى رأيه أو حدّ عزمته تأخر الماضيان: السيف والقدر
من لم يكن حذراً من حدّ صولته لم يدر ما المزعجان: الخوف والحذر

فالتطريز في قوله: الأجودان، والأنوران، والماضيان، والمزعجان.
ونحوه قول أبي تمام:

أعوام وصل كاد ينسى طولها ذكر النوى فكأنها أيام

نجوى أسيّ فكأنها أعوام
فكأنهم وكأنها أحلام

ثم انبرت أيام هجر أردفت
ثم انقضت تلك السنون وأهلها
وقلت في مرتبة:

وغدت ظلمة القبور ضياءً
ففقدنا به الغنى والغناء
فعدمنا منه السنّ والسناء
فرزينا به الثرى والثراء
فحرماننا منه الجدّ والجداء
فلبسنا به البلى والبلاء

أصبحت أوجه القبور وضاء
يوم أضحى طريدةً للمنايا
يوم ظلّ الثرى يضم الثرى
يوم فانتت به بوادرُ شوْمٍ
يوم ألقى الردى عليه جرانا
يوم ألوت به هنات الليالي

ومن ذلك قول زياد الأعجم:

في أن وجود لذي الرجاء يقلُّ جدُّ
بعد الكرامة والحياء يقلُّ عد
للمستزيد من العفاة يقلُّ زد

ومتى يؤامر نفسه مستلحياً
أو أن يعود له بنفحة نائلٍ
أو في الزيادة بعد جزل عطية

الفصل الخامس والثلاثون

في التلطف

وهو أن تتلطف للمعنى الحسن حتى تهجّته، والمعنى المهجين حتى تحسنه، وقد ذكرت طرفاً منه في أوّل الكتاب، إلا أني لم أسمّه هناك بما الاسم فيشهر به ويكون باباً برأسه، كماخوانه من أبواب الصنعة. فمّن ذلك أن يحيى بن خالد البرمكي قال لعبد الملك بن صالح: أنت حقوق، فقال: إن كان الحقّ عندك بقاء الخير والشر فإنهما عندي لباقيان. فقال يحيى: ما رأيت أحداً احتجّ للحقّ حتى حسّنه غيرك. وقد مر هذا الفصل في أوّل الكتاب.

ورأى الحسن على رجل طيلسان صوف، فقال له: أيعجبك طيلسانك هذا؟ قال: نعم، قال: إنه كان على شاة قبلك، فهجّته من وجه قريب.

وأخبرنا أبو أحمد، قال: أخبرنا الصولي، قال: حدثنا محمد بن القاسم أبو العيّن، قال: لما دخلتُ على المتوكل دعوتُ له، وكلمته فاستحسن كلامي، وقال لي: يا محمد، بلغني أنّ فيك شراً، قلت: يا أمير

المؤمنين، إن يكن الشَّرُّ ذكر المحسن بإحسانه، والمسئء بإساءته، فقد زكَّى الله عز وجل وذم؟ فقال في التركية: "نعم العبدُ إنَّه أوابٌ"، وقال في الذم: "هَمَّازٌ مَشَاءٌ بِنَمِيمٍ مَنَاعٌ لِلخَيْرِ مَعْتَدٌ أَثِيمٌ، عَتَلٌ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٌ"، فذمه الله تعالى حتى قذفه، وقد قال الشاعر:

إذا أنا بالمعروف لم أثن دائماً
ولم أشتم الجبس اللئيم المذمماً
ففيهم عرفتُ الخيرَ والشرَّ باسمه
وشقَّ لي اللهُ المسامعَ والفما
وفي الخبر بعض طول.

وكان عبد الله بن أمية وسم دوابه عدَّة، فلما جاز بها الحجاج جعل إلى جانبه للفرار. وقيل لعبادة: إن السَّودان أسخن، فقال: نعم، للعيون. وقال رجل لرجل كان يراه فيبغضه: ما اسمك؟ فقال: سعد، قال: على الأعداء. وسمعت والدي رحمه الله يقول: لعن الله الصبر فإن مضرت عاجلة، ومنفعته آجلة، يتعجل به ألم القلب، بأمثال المنفعة في العاقبة، ولعلها تفوتك لعارض يعرض، فكنت قد تعجلت الغم من غير أن يصل إليك نفع، وما سمعت هذا المعنى من غيره، فنظمته بعد ذلك، فقلت:

الصَّبْرُ عَمَّنْ تَحَبَّه صَبْرُ
من كان دون المرام مصطبراً
ونفع من لأم في الهوى ضررُ
فلمست دون المرام أصطبرُ
منفعة الصَّبْر غيرُ عاجلةٍ
وربما حال دونها الغيرُ
فقم بنا نلتمس ما ربنا
أقام أو لم يقم بنا القدر
إن لنا أنفساً تسودنا
أعانهن الزمان أو بذرُ
وابغ من العيش ما تسرَّ به
إن عدل الناس فيه أو عذروا

ومن المنظوم قول الحطيئة في قوم كانوا يلقبون بأنف الناقة فيأنفون، فقال فيهم:

قومٌ هم الأنف والأذنانُ غيرُهم
فكانوا بعد ذلك يتجحون بهذا البيت.

ومدح ابن الرومي البخل وعذر البخيل، فقال:

لا تلم المرءَ على بخله
لا عجب بالبخل من ذي حجى
ولمه يا صاحٍ على بذله
وكرم ما يكرم من أجله
وعذر أبو العتاهية البخيل في منعه منه، بقوله:

عني بخفته على ظهري
فعلت ونزه قدره قدري
ألا يضيق بشكره صدري
من بخله من حيث لا يدري
عني يداه مؤومة الشكر

جزى البخيل عليّ صالحةً
أعلى فأكرم عن نداء يدي
ورزقت من جدواه عارفة
وظفرت منه بخيرٍ مكرمة
ما فاتني خيرٌ امرئٍ وضعت
وقال ابن الرومي، يعذر إنسانا في المنع:

على الكواهل حتى أدها ذاك
إغابهم بل هم ملوا عطاياكا
لكنه أسبق الراعين مرعاكا
عليهم لا على الأموال بقياكا
وما بخلت ولا أمسكت إمساكا

أجممت حسرى أياديك التي ثقلت
وما مللت العطايا فاسترحت إلى
وما نهتهم عن المرعى وخامته
تدبر الناس ما دبّرتة فإذا
أمسكت سيبك إضرأ لرغبتهم

وكان شمُ الورد يضُرُّه، فكان يذمه ويمدح النرجس، واحتال في تشبيهه، حتى هجّن فيه أمره وطمس حسنه وهو قوله:

فقلت من بغضه عندي ومن عبطه
عند الرياث وباقي الروث في وسطه

وقائل لم هجوت الورد معتمداً
كأنه سرمٌ بغل حين يخرجه

ومثله قول يزيد المهلي:

مقالاً له فضل على القول بارع
وإن هي لم تمكن فعذرُك واسعُ

ألا مبلغٌ عني الأميرَ محمداً
لنا حاجةٌ إن أمكنتك قضيتَها

وقال ابن الرومي أيضاً:

وإذا ما اضطررت وفي الأمر ضيقُ
يدافع بالله ما لا يطيق

وإني لذو حلف كاذب
وما في اليمين على مدفع

وقد فرغنا من شرح أبواب البديع، وتبيين وجوهها وإيضاح طرقها، والزيادة التي زدنا فيها ستة فصول، وأبرزناها في قوالبها من الألفاظ من غير إخلال ولا إهدار. وإذا أردت أن تعرف فضلها على ما عمل في معناها قبلها، فمثل بينها وبينه فإنك تقضي لها عليه، ولا تنصرف بالاستحسان عنها إليه، إن شاء الله. وقد عرض لي بعد نظم هذه الأنواع، نوع آخر لم يذكره أحد وسميته المشتق، وهو على وجهين، فوجه

كتاب الصناعتين-ابو هلال العسكري

منهما أن يشتق اللفظ من اللفظ، والآخر أن يشتق المعنى من اللفظ، فاشتقاق اللفظ من اللفظ، هو مثل قول الشاعر في رجل يقال له بنخاب:

وكيف ينجح من نصف اسمه خابا

وقلت، في البانياس:

خوف وحيفٌ وإقلال وإفلاس

في البانياس إذا أوطئت ساحتها

من حل في بلد نصف اسمه ياس

وكيف يطمع في أمن وفي دعة

واشتقاق المعنى من اللفظ، مثل قول أبي العتاهية:

وبهارون إذا ما قلبا

حلقتُ لحية موسى باسمه

وقال ابن دريد:

ما كان هذا النحو يقرأ عليه

أو أوحى النحو إلى نبطويه

وصبر الباقي صراخاً عليه

أحرقه الله بنصف اسمه

الباب العاشر

ذكر مبادئ الكلام ومقاطعته

والقول في حسن الخروج والفصل والوصل وما يجري مجرى ذلك

الفصل الأول

في ذكر المبادئ

قال بعض الكتّاب: أحسنوا معاشر الكتّاب الابتداءات فإنهم دلائل البيان. وقالوا: ينبغي للشاعر أن يحترز في أشعاره، ومفتتح أقواله، مما يتطير منه، ويستجفى من الكلام والمخاطبة والبكاء ووصف إقفار الديار وتشيت الألف ونعي الشباب وذمّ الزمان، لا سيّما في القصائد التي تتضمن المدائح والتهاني. ويستعمل ذلك في المراثي، ووصف الخطوب الحادثة، فإن الكلام إذا كان مؤسسا على هذا المثال تطير منه سامعه، وإن كان يعلم أن الشاعر إنما يخاطب نفسه دون الممدوح، مثل ابتداء ذي الرّمة:

كأنه من كلى مفريّة سرب

ما بال عينك منها الماء ينسكب

وقد أنكر الفضل بن يحيى البرمكي على أبي نواس ابتداءه:

عليك وإني لم أحنك ودادي

أربع البلى إن الخشوع لبادي

قال فلما انتهى إلى قوله:

بنى برمك من رائحين وغاد

سلام على الدنيا إذا ما فقدتم

وسمعه استحکم تطيره، وقيل: إنه لم يمض أسبوع حتى نكبوا.

ومثله ما أخبرنا به أبو أحمد، قال: حدثنا الصولي، قال: حدثنا محمد بن العباس اليزيدي، قال: حدثني عمي عن أخيه أبي محمد، قال: لما فرغ من بناء قصره بالميدان الذي كان للعباسية، جلس فيه وجمع الناس من أهله وأصحابه، وأمر أن يلبس الناس كلهم الدياج، وجعل سريره في الإيوان المنقوش بالفسافسا الذي كان في صدره صورة العنقاء، فجلس على سرير مرصع بأنواع الجواهر، وجعل على رأسه التاج الذي فيه الدرّة اليتيمة، وفي الإيوان أسرة أنوس عن يمينه وعن يساره، من عند السرير الذي عليه المعتصم إلى باب الإيوان، فكلما دخل رجل رتبته هو بنفسه في الموضع الذي يراه، فما رأى الناس أحسن من ذلك اليوم،

فاستأذنه إسحاق بن إبراهيم في التّشيد فأذن له، فأنشده شعراً ما سمع الناس أحسن منه في صفته وصفة المجلس، إلا أن أوله تشييب بالديار القديمة، وبقية آثارها فكان أول بيت منها:

يا دارُ غيرك البلى فمحاكِ
يا ليت شعري ما الذي أبلاكِ

فتطيّر المعتصم منها، وتغامز الناس، وعجبوا كيف ذهب على إسحاق مع فهمه وعلمه وطول خدمته للملوك، قال: فأقمنا يوماً هذا، وانصرفنا، فما عاد منا اثنان إلى ذلك المجلس، وخرج المعتصم إلى سرّ من رأى، وخرّب القصر.

وأنشد البحثري أبا سعيد قصيدة أولها:

لك الويلُ من ليلٍ تطاول آخرُهُ
ووشك نوى حيّ تزّم أباعرُهُ

فقال أبو سعيد: بل الويل والحرب لك فغيّره وجعله له الويل وهو ردئ أيضاً. وأنشد أبو حكيمة أبا دلف:

ألا ذهب الأير الذي كنت تعرف

فقال أبو دلف: أمك تعرف ذلك.

وأنشد أبو مقاتل الداعي:

لا تقل بشري ولكن بشريان
غرّة الداعي ويوم المهرجان

فأوجعه الداعي ضرباً، ثم قال: هلا قلت: إن تقل بشري فعندي بشريان. فإن أراد أن يذكر داراً فليذكرها كما ذكرها الخريمي:

ألا يا دارُ دام لك الحبورُ
وساعدك الغضارةُ والسرور

وكما قال أشجع:

قصرٌ عليه تحيةٌ وسلام
نشرت عليه جمالها الأيام

وقالوا: أحسن ابتداءات الجاهلية قول النابغة:

كليني لهم يا أميمة ناصبِ
وليل أفاسيه بطئ الكواكب

وأحسن مرثية جاهلية ابتداء قول أوس بن حجر:

أيتها النفس أجملِي جزعا
إنّ الذي تحذرين قد وقعا

قالوا: وأحسن مرثية إسلامية ابتداء قول أبي تمام:

أصمّ بك الناعي وإن كان أسمعا
وأصبح مغنى الجود بعدك بلقعا

وقول الآخر:

ما مثل من أنعى بوجود

أنعى فتى الجود إلى الجود

بقية الماء من العود

أنعى فتى مص الثرى بعده

وقد بكى امرؤ القيس واستبكى، ووقف واستوقف، وذكر الحبيب والمثل في نصف بيت، وهو قوله:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل

فهو من أجود الابتداءات.

ومن أحكم ابتداءات العرب قول السموعل:

فكل رداء يرتديه جميل

إذا المرء لم يدينس من اللؤم عرضه

فليس إلى حسن النشاء سبيل

وإن هو لم يحمل على النفس ضيمها

وقال بعضهم: أحكم ابتداءاتهم قول لبيد:

وكل نعيم لا محالة زائل

ألا كل شيء ما خلا الله باطل

وبعضهم يجعل ابتداء هذه القصيدة:

أنحب فيقضي أم ضلال وباطل

ألا تسألان المرء ماذا يحاول

ومن جياذ ابتداءات أهل الجاهلية قول أوس بن حجر:

ولقد أبيت بلية كليلي

ومنها قول النابغة:

وكيف تصابي المرء والشيب شامل

دعاك الهوى واستهجتك المنازل

ونحوه قول أمية:

وما على حدثان الدهر من راق

يا نفس مالك بعد الله من واق

وقالوا: وكان عبد الحميد الكاتب لا يبتدئ بلولا ولا إن رأيت. وقد جعل الناس قول أبي تمام:

هي الصبابة طول الدهر والسهد

يا بعد غاية دمع العين إن بعدوا

من جياذ الابتداءات، وقوله:

فهي طوغ الإتهام والإنجاد

سعدت غربة النوى بسعاد

وسئل بعضهم عن أحذق الشعراء، فقال: من يتفقد الابتداء والمقطع.
لما نظر أبو العميثل في قصيدة أبي تمام:

أهنّ عوادي يوسف وصواحيبه
فعرماً فقدماً أردك الثأر طالبة

استرذل ابتداءها وأسقط القصيدة كلها، حتى صار إليه أبو تمام، ووقفه على موضع الإحسان منها، فراجع
عبد الله بن طاهر، فجازاه.

ولأبي تمام ابتداءات كثيرة تجرى هذا الجرى، منها قوله:

قدل أنتنبُ أربيتَ في الغلواءِ
كم تعذلون وأنتم سجرائي

وقوله:

صدقتُ لهيّا قلبك المستهترِ
فبقيت نهباً صبايةً وتذكرُ

ومن الابتداءات البديعة قول مسلم:

أجرتُ ذيلَ خليعٍ في الهوى غزلِ
وشمرتُ هممُ العذالِ في عذلي

وقال أبو العتاهية:

ننافس في الدنيا ونحن نعيبها

والابتداء أول ما يقع في السمع من كلامك، والمقطع آخر ما يبقى في النفس من قولك، فينبغي أن يكونا
جميعاً موقنين.

وقد استحسّن لبعض المتأخرين ابتداءه:

أريقك أم ماء الغمامة أم خمراً
بفيّ بروذٍ وهو في كبدي جمرُ

وله بعد ذلك ابتداءات المصائب، وفراق الحباب، منها قوله:

كفى أراني ويك لومك ألوماً
هم أقام على فؤادي أنجماً

وقوله:

أبا عبد الإله معاذُ إنني
خفيّ عنك في الهيجا مقامي

وقوله:

هذي برزت لنا فهجت رسيسا
ثم انصرفت وما شفيت نسيسا

وقوله:

جللاً كما بي فليك التبريحُ
أغذاء ذا الرشا الأغن الشبيحُ

وقوله:

أحاذُ أم سداسٌ في أحادٍ لبيلتنا المنوطةً بالتنادي

وقوله:

لجنيّة أم غادةٍ رفعَ السّجفُ لوحشيّةٍ لا ما لوحشيّة شنفُ

وقوله:

بقائي شاء ليس همُّ ارتحالا وحسن الصبر زمّوا لا الجمالا

وقوله:

في الخدِّ إن عزمَ الخليطُ رحيلا مطرٌ يزيد به الخدود محولا

وقال إسماعيل بن عباد: لعمري إن المحول في الخدود من البديع المردود.

وقوله:

نهني بصورٍ أم نهنتها بكا وقلُّ للذي صورٌ وأنت له لكا

وقوله:

عذيري من عذارى في صدور سكنَ جوانحي بدلَ الصُّدورِ

وقوله:

سربٌ محاسنه حرمتُ ذواتها داني الصفاتِ بعيدُ موصوفاتها

وقوله:

أيا لائمي إن كنت وقتَ اللّوائِمِ علمت بما بي بينَ تلكَ المعالمِ

وقوله:

ووقتٍ وفي بالدهرِ لي عندٍ واحدٍ وفي لي بأهليه وزادَ كثيرا

وقوله:

شديد البعد من شرب الشمول ترنجُ الهندِ أو طلعُ النّخيلِ

وقوله:

أراع كذا كلَّ الأنامِ همامُ وسحَّ له رسل الملوكِ غمامِ

وقوله:

أوهٍ بديلٌ من قولتي وهاها لمن نأتُ والبديلُ ذكراها

كتاب الصناعتين - ابو هلال العسكري

فهذه وما شاكلها ابتداءات لا خلاق لها. وإذا كان الابتداء حسناً بديعاً، ومليحاً رشيقياً، كان داعية إلى الاستماع لما يجيء بعده من الكلام، ولهذا المعنى يقول الله عز وجل: ألم. وحم. وطس. وطسم. وكهيعص، فيقرع أسماعهم بشيء بديع ليس لهم بمثله عهد، ليكون ذلك داعية لهم إلى الاستماع لما بعده والله أعلم بكتابه. ولهذا جعل أكثر الابتداءات بالحمد لله، لأن النفوس تتشوف للثناء على الله فهو داعية إلى الاستماع، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "كل كلام لم يبدأ فيه بحمد الله تعالى فهو أبتى". فأما الابتداء البارد، فابتداء أبي العتاهية:

أدلت فاحمل إدلالها

ألا ما لسيدتي مالها

الفصل الثاني

في ذكر المقاطع والقول في الفصل والوصل

قيل للفارسي: ما البلاغة؟ فقال: معرفة الفصل من الوصل. وقال المأمون لبعضهم: من أبلغ الناس؟ فقال: من قرَّب الأمرَ البعيد المتناول، والصَّعب الدرك بالألفاظ اليسيرة، قال: ما عدل سهمك عن الغرض. ولكن البليغ من كان كلامه في مقدار حاجته، ولا يجيل الفكرة في اختلاس ما صعب عليه من الألفاظ، ولا يكره المعاني على إنزالها في غير منازلها، ولا يتعمد الغريب الوحشي، ولا الساقط السوقي، فإن البلاغة إذا اعتزلتها المعرفة بمواضع الفصل والوصل كانت كاللآلئ بلا نظام. وقال أبو العباس السفاح لكتابه: قف عند مقاطع الكلام وحدوده، وإياك أن تخلط المرعى بالهمل. ومن حلية البلاغة المعرفة بمواضع الفصل والوصل. وقال الأحنف بن قيس: ما رأيتُ رجلاً تكلم فأحسن الوقوف عند مقاطع الكلام، ولا عرف حدوده إلا عمرو بن العاص رضي الله عنه، كان إذا تكلم تفقد مقاطع الكلام، وأعطى حقَّ المقام، وغاص في استخراج المعنى بالطف مخرج، حتى كان يقف عند المقطع وقوفاً يحول بينه وبين تبعته من الألفاظ، وكان كثيراً ما ينشد:

أصاب بما يومي إليه المقاتلا

إذا ما بدا فوق المنابر قائلا

ولا أعرف فصلا في كلام منشور أحسن مما أخبرنا به أبو أحمد، قال: حدثنا الصَّولي، قال: حدثنا محمد بن زكريا، قال: حدثني العتيبي عن أبيه، قال: كان شبيب ابن شبة يوماً قاعداً بباب المهدي، فأقبل عبد الصمد بن الفضل الرقاشي، فلما رآه قال: أتاكم والله كليمُ الناس. فلما جلس قال شبيب: تكلم يا أبا العباس،

فقال: امعك يا أبا معمر وأنت خطيبنا وسيدنا؟ قال: نعم، فوالله ما رأيت قلباً أقرب من لسان، من قلبك من لسانك، قال: في أي شيء تحب أن أتكلّم؟ قال: وإذا شيخ معه عصاً يتوكأ عليها، فقال: صف لنا هذه العصا، فحمد الله عز وجل وأثنى عليه، ثم ذكر السماء، فقال: رفعها الله بغير عمد، وجعل فيها نجوم رجم ونجوم اقتداء، وأدار فيها سراجاً وقمرًا منيرًا، لتعلموا عدد السنين والحساب، وأنزل منها ماء مباركاً، أحيا به الزرع والضرع وأدرّ به الأقوات، وحفظ به الأرواح، وأنبت به أنواعاً مختلفة، يصرّفها من حال إلى حال، تكون حبة، ثم يجعلها عرقاً، ثم يقيمها على ساق، فبينما تراها حضراء ترف إذ صارت يابسة تنقص، لينتفع بها العباد، ويعمر بها البلاد، وجعل من ييسها هذه العصا. ثم أقبل على الشيخ، فقال: وكان هذا نطفة في صلب أبيه، ثم صار علقة حين خرج منه، ثم مضغة ثم لحماً وعظماً، فصار جنيناً أوجده الله بعد عدم، وأنشأه مريداً، ووقفه مكتهلاً، ونقصه شيخاً، حتى صار إلى هذه الحال، من الكبير، فاحتاج في آخر حالاته إلى هذه العصا، فتبارك المدبّر للعباد... قال شيب: فما سمعت كلاماً على يديه أحسن منه.

وقال معاوية: يا أشدق، قم عند قروم العرب وجحاجحها، فسلّ لسانك، وجل في ميادين البلاغة، وليكن التفقد لمقاطع الكلام منك على بال، فإني شهدت رسول الله صلى الله عليه وسلم أملى على عليّ بن أبي طالب رضی الله عنه كتاباً، وكان يتفقد مقاطع الكلام كنتفقد المصرم صرّيمته. ولما أقام أبو جعفر صالحاً خطيباً بحضرة شيب بن شبة وأشرف قريش فتكلم، أقبل شيب فقال: يا أمير المرمين، ما رأيت كالיום أبين بيانا، ولا أربط جنانا، ولا أفصح لسانا، ولا أبلّ ريقاً، ولا أغمض عروقا، ولا أحسن طريقاً، إلا أن الجواد عسير لم يرض، فحملته القوة على تعسف الإكام وخبطها، وترك الطريق اللاحب، وإيم الله لو عرف في خطبته مقاطع الكلام لكان أفصح من نطق بلسان. وقال المأمون: ما أعجب بكلام أحد كإعجابي بكتاب القاسم بن عيسى، فإنه يوجز في غير عجز، ويصيب مفاصل الكلام ولا تدعوه المقدرة إلى الإطناب، ولا تميل به الغزارة إلى الإسهاب، يجلي عن مراده في كتبه، ويصيب المغزى في ألفاظه. وكان يزيد بن معاوية يقول: إياكم أن تجعلوا الفصل وصلاً، فإنه أشدّ وأعيب من اللحن.

وكان أکثم بن صيفي إذا كاتب ملوك الجاهلية يقول لكتّابه افصلوا بين كل معنی منقضى، وصلوا إذا كان الكلام معجوناً بعضه ببعض. وكان الحرث بن أبي شمر الغسانی يقول لكتّابه المرقش: إذا نزع بك الكلام إلى الابتداء بمعنى غير ما أنت فيه فافصل بينه وبين تبعته من الألفاظ، فإنك إن مذقت ألفاظك بغير ما يحسن أن تمذق به نفرت القلوب عن وعيها، وملّته الأسماع، واستثقلته الرواة. وكان بزرجمهر. يقول: إذا

مدحت رجلاً، وهجوت آخر، فاجعل بين القولين فصلاً حتى تعرف المدح من الهجاء، كما تفعل في كتبك إذا استأنفت القول، وأكملت ما سلف من اللفظ.

وقال الحسن بن سهل لكتابه الحرّاني: ما منزلة الكاتب في قوله وفعله؟ قال: أن يكون مطبوعاً محتسباً بالتجربة، علامةً بحلال الكتاب والسنة وحرامها، وبالدهور في تداولها وتصرفها، وبالملوك في سيرها وأيامها، مع براعة اللفظ وحسن التنسيق، وتأليف الأوصال بمشاكلة الاستعارة، وشرح المعنى، حتى ينصب صورها، وبمقاطع الكلام، ومعرفة الفصل من الوصل، فغذا كان ذلك كذلك فهو كاتب مجيد.

والقول إذا استكمل آتته، واستتمّ معناه فالفصل عنده. وكان عبد الحميد الكاتب إذا استخبر الرجل في كتابه فكتب: خبرك، وحالك وسلامتك، فصل بين هذه الأحرف ويقول: قد استكمل كل حرف منها آتته، ووقع الفصل عليه. وكان صالح بن عبد الرحمن التميمي الكاتب يفصل بين الآيات كلها وبين تبعيتها من الكتاب، كيف وقعت. وكان يقول: ما استؤنف إن إلا وقع الفصل، وكان جبل بن يزيد يفصل بين الفاءات كلها، وقد كره بعض الكتبة ذلك وأحبه بعض، وفصل المأمون عند حتى كيف وقعت، وأمر كتابه بذلك، فغلط أحمد بن يوسف، ووصل حتى بما بعده من اللفظ، فلما عرض الكتاب على المأمون أمر بإحضاره، فقال: لعن الله هذه القلوب حين أكتت العلوم بزعمكم، واجتنت ثمر لطائف الحكمة بدعواكم، قد شغلتموها باستظراف ما عزب عنكم علمه عن تفهّم ما رويموه، وتفحص ما جمعتموه، وتعرف ما استقدمتموه، أليس قد تقدمنا إليكم بالفصل عند حتى حيثما وقعت من الألفاظ؟ فقال: يا أمير المؤمنين، قد ينبو السيف وهو صميم، ويكبو الجواد وهو كريم. وكان لا يعود في شيء من ذل، وكان يأمر كتابه بالفصل بين، بل وبلى، وليس.

وأمر عبد الملك كتابه بذلك إلا ليس. وقال المأمون ما أتفحص من رجل شيئاً كنتفحصي عن الفصل والوصل في كتابه، والتخلص من الخلول إلى المعقود، فإن لكل شيء جمالاً، وحلية الكتاب وجماله إيقاع الفصل موقعه، وشحد الفكرة وإجالتها في لطف التخلص من المعقود إلى الخلول.

وقلنا: إن المعقود والخلول ها هنا هو أنك إذا ابتدأت مخاطبة، ثم لم تنته إلى موضع التخلص مما عقدت عليه كلامك سمي الكلام معقوداً، وإذا شرحت المستور وأبنت عن الغرض المتزوع إليه سمي الكلام محلولا.

مثلاً ذلك ما كتب بعضهم، وجرى لك من ذكر ما خصّك الله به، وأفرادك بفضيلته من شرف النفس والقدرة، وبعد الهمة والذكر، وكمال الأداة والآلة والتمهد في السياسة والإيالة، وحياطة أهل الدين والأدب، وإنجاد عظيم الحق بضعيف السبب، ما لا يزال يجري مثله عند كل ذكر يتخذ ذلك، وحديث يؤثر عنك. فالكلام من أول الفصل إلى آخر قوله بضعيف السبب معقود، فلما اتصل بما بعده صار

محلولا.

وما كتب بعضهم: ربما كانت مودّة السبب أو أكد من مودة التّسبب، لأن المودة التي تدعو إليها رغبة أو رهبة، أو شكر نعمة، أو شاكلة في صناعة، أو مناسبة بمشاكله مودة معروفة وجوهها، موثوق بخلوصها فتوكدها بحسب السبب الداعي إليها، ودوامها بدوامه واتصالها باتصاله، ومودة القربى وإن أوجبتها اللّحمة، فهي مشوبة بحس ونفاسة، وبحسب ذلك يقع التقصير فيما يوجبه الحال، والإضاعة لما يلزم من الشكر، والله يعلم أي أودك مودّة خالصة لم تدع إليها رغبة فيزيّلها استغناء عنها، ولا اضطرت إليها رهبة، فيقطعها أمن منها، وإن كنت مرجوا للموهبات بحمد الله، ومقصداً من مقاصد الرغبات، وكهفياً وحرزاً من الموبقات. فهذا الكلام كله معقود إلى قوله: مشاكله مودة فلما اتصل بما بعده صار محلولا. وقال بعضهم: انظر سدّدك الله ألاّ تدعوك مقدرتك على الكلام إلى إطاله المعقود، فإن ذلك فساد ما أكنته في صدرك، وأردت تضمينه كتابك. واعلم أن إطالة المعقود يورث نسيان ما عقدت عليه كلامك، وأرهفت به فكرتك.

وكان شبيب بن شبة يقول: لم أر متكلما قطّ أذكر لما عقد عليه كلامه، و أحفظ لما سلف من نطقه من خالد بن صفوان، يشبع العقود بالمعاني التي يصعب الخروج منها إلى غيرها، ثم يأتي بالمحلول واضحاً، بينا مشروحا منورا. وكان السامع لا يعرف مغزاه ومقصده، في أول كلامه حتى يصير إلى آخره. وقال بعضهم: ليس يحمد من القائل أن يعنى معرفة مغزاه على السامع لكلامه في أول باتدائه، حتى ينتهي إلى آخر، بل الأحسن أن يكون في صدره كلامه دليل على حاجته ومبين لمغزاه ومقصده، كما أن خير أبيات الشعر ما إذا سمعت صدره عرفت قافيته. وكان شبيب بن شبة يقول: الناس موكلون بتعظيم جودة الابتداء ومدح صاحبه، وأنا موكل بتعظيم جودة المقطع ومدح صاحبه، وخير الكلام ما وقف عند مقاطعه، ويّن موقع فصوله.

قلنا: ومما لم يبين موضع الفصل فيه فأشكل الكلام قول المخيل للزبرقان ابن بدر:

وأبوك بدرٌ كان ينتهس الحصى **وأبي الجوادُ ربيعة بن قبال**

فقال الزبرقان: لا بأس، شيخان اشتركا في صنعة وقلما رأينا بليغا إلا وهو يقطع كلامه على معنى بديع، أو لفظ حسن رشيق.

قال لقيط في آخر قصيدة:

لقد محضت لكم ودّي بلا دخلٍ **فاستيقظوا إن خير العلم ما نفعنا**

كتاب الصناعتين- ابو هلال العسكري

فقطعها على كلمة حكمة عظيمة الموقع.
ومثله قول امرئ القيس:

وبعد الشباب طول عمرٍ وملبسا

ألا إنَّ بعدَ العدمِ للمرءِ قنوةً
فقطع القصيدة أيضاً على حكمة بالغة.
وقال أبو زيد الطائي في آخر قصيدة:

غير أن ليس للمنايا احتيالُ

كلُّ شيءٍ تحتال فيه الرجالُ
وقال أبو كبير:

وإذا مضى شيء كأن لم يفعل

فإذا وذلك ليس إلا ذكره

فينبغي أن يكون آخر بيت قصيدتك أجود بيت فيها، وأدخل في المعنى الذي قصدت له في نظمها، كما فعل ابن الزبير في آخر قصيدة يعتذر فيها إلى النبي صلى الله عليه وسلم ويستعطفه:

واقبل تضرّع مستضيفٍ تائب

فخذ الفضيلة عن ذنوب قد خلت

فجعل نفسه مستضيفاً، ومن حق المستضيف أن يضاف، وإذا أضيف فمن حقه أن يسان، وذكر تضرّعه وتوبته مما سلف، وجعل العفو عنه مع هذه الأحوال فضيلة، فجمع في هذا البيت جميع ما يحتاج إليه في طلب العفو.

وقول تأبط شراً في آخر قصيدته:

إذا تذكرت يوماً بعض أخلاقي

لتقر عن عليّ السنّ من ندم

هذا البيت أجود بيت فيها لصفاء لفظه، وحسن معناه.
ومثله قول الشنفرى في آخر قصيدة:

ومرّ إذا نفس العزوف أمرت

وإني لطلوّ إن أريد حلاوتي

إلى كل نفس تنتحى في مسرتي

أبيّ لما أبى قريباً مقادتي

فهذان البيتان أجود ما فخر به من هذه القصيدة.
وقال بشر بن أبي خازم في آخر قصيدته:

بركاء القتال أو الفرار

ولا ينجي من الغمرات إلا

فقطعها على مثل سائر، والأمثال أحب إلى النفوس لحاجتها إليها عند المحاضرة والمجالسة. وقال الهذلي:

فزائلُ بأمرِك أو خالطِ

عصاك الأقاربُ في أمرهم

ولا تسقطنّ سقوط النوا

ة من كف مرتضخ لا قط

فقطعها على تشبيهه مليح ومثل حسن، وهكذا يفعل الكتاب الخذاق، والمترسلون المبرزون، ألا ترى ما كتب الصحاب في آخر رسالة له: فإن حثت فيما حلفت، فلا خطوت لتحصيل مجد، ولا نهضت لاقتناء حمد، ولا سعيت إلى مقام فخر، ولا حرصت على علو ذكر، وهذه اليمين التي لو سمعها عامر بن الظرب لقال هي الغموس، لا القسم باللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى. فأتى بأيمان ظريفة ومعان غريبة. وكتب أيضاً في آخر رسالة: وأنا متوقع لكتابك، توقع الظمان للماء الزلال، والصوام للال شوال. وكتب آخر أخرى، وسأل أن أخلفه في تجشيم مولاي إلى هذا المجمع ليقرب علينا تناول البدر بمشاهدته، ولمس بغرته. فانظر كيف يقطع كلماته على كل معنى بديع، ولفظ شريف.

ومن حسن المقطع جودة الفاصلة وحسن موقعها وتمكّنها في موضعها، وذلك على ثلاثة أضرب: فضرب منها أن يضيق على الشاعر موضع القافية، فيأتي بلفظ قصير قليل الحروف فيتمم به البيت، كقول زهير:

وأعلم ما في اليوم والأمس قبله

ولكنني عن علم ما في غد عمي

وقول النابغة:

كالأقحوان غداة غب سمائه

جفت أعالیه وأسفله ندي

وقال الأعشى:

وكأس شربت على لذة

وأخرى تداويت منها بها

وقول امرئ القيس:

مكرّ مفر مقبل مدبر معاً

كجلمود صخر حطه السيل من عل

وقول طرفة:

إذا ابتدر القوم السلاح وجدنتي

منيحاً إذا بلت بقائمه يدي

وقول النابغة:

زعم الهمام ولم أدقه أنه

يشفى ببرد لثاتها العطش الصدى

وقال آخر:

ألا يا غرابي بينها لا تصدعا

فطيرا جميعا بالنوى أوقعا معا

وقول متمم:

فلما تفرقنا كأني ومالكاً

وقول الأعشى:

لطول اجتماع لم نبت ليلة معا

فظللت أرهاها وظل يحوطها

وقول النابغة:

حتى دنوت إذا الظلام دنا لها

لا مرحبا بغد ولا أهلا به

إن كان تفريق الأعبة في غد

أفد الترحل غير أن ركابنا

لما نزل برحالنا وكأن قد

وقول ابن أحرمر: وقال عدي بن زيد:

فإن كانت النعماء عندك لامرئ

فمئل بها واجز المطالب أو زد

وقال ابن أبي حية:

فقلن لها سرا فدينك لا يرح

صحيحاً وإلا تقبله فألمي

فألقت قناعا دونه الشمس واتقت

بأحسن موصلين كف ومعصم

وقالت فلما أفرغت في فؤاده

وعينيه منها السحر قلن له قم

فودّ بجذع الأنف لو أن صحبه

تنادوا وقالوا في المناخ له نم

ومن شعر المحدثين قول ابن أبي عيينة:

دنيا دعوتك مسمعا فأجيبني

وبما اصطفتيك للهوى فأثيبي

دومي أدم لك بالوفاء على الصفا

إني بعهدك واثق فتقي بي

وقال آخر:

أنتني تؤنبي في البكا

فأهلا بها وبتأنيها

تقول وفي قولها حشمة

تراني بعين وتبكي بها

فقلت إذا استحسنت غيركم

أمرت الدموع بتأديها

فقوله: تراني بعين وتبكي بها حسن الوقع جداً.

وقلت:

سيقضي لي رضاك برد مالي

ويعمد حسن رأيك كشف ما بي

وقلت:

وذقت مهوى النجم ريقاً خصرأ

لو كان من ناجود خمر ما عدا

كتاب الصناعتين- ابو هلال العسكري

وقد تتعمت بنشر عطرٍ لو كان من فارة مسك كان دا

والضرب الآخر: وهو أن يضيق به المكان أيضاً، ويعجز عن إيراد كلمة سالمة تحتاج إلى إعراب ليتم بها البيت، فيأتي بكلمة معتلة لا تحتاج إلى الإعراب، فيتمه به، مثل قول امرئ القيس:

بعثنا ربيا قبل ذاك مخملا كذئب الغضا يمشي الضراء ويتقي

وقول زهير:

صحا القلب عن سلمى وقد كاد لا يسلو وأقفر من سلمى التعانيق فالتقل

ثم قال:

وقد كنت من سلمى سنينا ثمانيا على صير أمر ما يمر وما يحلو

وقال:

لذي اللحم من ذبيان عندي مودة وحفظ ومن يلحم إلى الشر أنسج
مخوف كأن الطير في منزلاته على جيف الحسرى مجالس تنتجى

وقوله:

وأراك تفري ما خلقت وبع ض القوم بخلق ثم لا يفري

وقول أبي كبير:

ولقد ربأت إذا الصحاب تاكلوا جمر الظهيرة في البقاع الأطول
في رأس مشرفة الفذال كأنما أطر السحاب بها رياض المجدل
ومعابلا صلح الطبات كأنها جمر بمسهة تشب لمصطلي

فقوله: لمصطى متمكنة في موضعها.

وقول ذي الرمة:

أراح فريق جبرتك الجمالا كأنهم يريدون احتمالا
فكدت أموت من حزن عليهم ولم أر حادي الأظعان بالي

فقوله: بالي، عجيبة الموقع، أخذه من قول زهير:

لقد باليت مظعن أم أوفى ولكن أم أو في لا تبالي

وقال الحطيئة:

دع المكارم لا ترحل لبغيته واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

كتاب الصناعتين- ابو هلال العسكري

وقال آخر:

وجوه لو أن المدلجين اعتشوا بها صدعن الدجى حتى ترى الليل ينجلي

والضرب الثالث: أن تكون الفاصلة لائقة بما تقدمها من ألفاظ الجزء من الرسالة أو البيت من الشعر، وتكون مستقرة في قرارها، ومنتكنة في موضعها، حتى لا يسد مسدها غيرها، وإن لم تكن قصيرة قليلة الحروف، كقول الله تعالى: "وأنه هو أضحك وأبكى وأنه هو أمات وأحيا وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى"، وقوله تعالى: "وللآخرة خير لك من الأولى ولسوف يعطيك ربك فترضى"، فأبكى مع أضحك وأحيا مع أمات، والأنثى مع الذكر، والأولى مع الآخرة، والرضا مع العطية في نهاية الجودة، وغاية حسن الموقع. ومن الشعر قول الخطيب:

من الأيام مظلمة أضاعوا

همم القوم الذين إذا ألت

وقول عدي بن الرقاع:

وأتم نعمته عليه وزادا

صلى الإله على امرئ ودعته

وقول زياد بن جميل:

وفي اللقاء إذا تلقى بهم بهم

هم البحور عطاء حين تسألهم

وهذا مستحسن جداً لما تضمن من التجنيس.

ومن ذلك قول البحري:

أحاجبه أنت أم حاجمه

ظللنا نرجم فيك الظنون

وقول أبي نواس:

له عن عدو في ثياب صديق

إذا امتحن الدنيا لبيب تكشف

الصديق ها هنا جيد الموقع، لأن معنى البيت يقتضيه، وهو محتاج إليه.

وقول جميل:

منها فهل لك في اعتزال الباطل

ويقلن إنك قد رضيت بباطل

الباطل، ها هنا جيد الموقع لمطابقتها مع الباطل الأول، وقلت:

إذا انصرف عنها العيون تعود

وقد زينت أسواقه بطرائف

تعود، هاهنا جيد متمكن الموقع.

ومما عيب من القوافي قول ابن قيس الرقيات، وقد أنشد عبد الملك:

إِنَّ الحِوَادِثَ بِالمَدِينَةِ قَدْ أوجعتني وقرعنَ مروتيه
وجبلنني جبَّ السَّنَامِ فلمْ يتركنَ ريشاً في مناكبيه

فقال له عبد الملك: أحسنت إلاّ تخشيت في قوافيك، فقال: ما عدوت قول الله عز وجل: "ما أغنى عنيّ ماليه هلك عنيّ سلطانيه"، وليس كما قال، لأنّ فاصلة الآية حسنة الموقع، وفي قوافي شعره لين. ومن عيوب القوافي أن تكون القافية مستدعاة لا تفيد معنى، وإنما أوردت ليستوى الروي فقط، مثل قول أبي تمام:

كالظبية الأدماءِ صافت فأرتعت زهرَ العرارِ الغضِّ والجثجاثا

ليس في وصف الظبية أمّا ترتعي الجثجات فائدة، وسواء رعت الجثجات أو القلام أو غير من النبات، وإذا قصد لنعث الظبية بزيادة حسن قيل إنها تعطو الشجر، لأنها حينئذ ترفع رأسها، فيطول جيدها وتظهر محاسنها، كما قال الطرمّاح:

مثل ما عابنتُ مخروفةً نصّها ذاعرُ روع مؤام

يصف أمّا مذعورة تفتح عينيها وتمدّ جيدها، فيبدو للعين محاسنها. وقال زهير: وقريب منه قول الآخر:

وسابغة الأذيال زغفٍ مفاضةً تكنّفها منىً بجادٍ مخطّطُ

وليس لتخطيط الجهاد معنى يرجع إلى الدرع، ولا إلى السيف. ومثله قول الآخر:

أنشُر البر فيمن ليس يعرفه وأنثر الدر بين العمى في الغلس

ليس لذكر الغلس مع العمى معنى، لأنّ الأعمى يستوي عنده الغلس والهجرة، ولو قال العمش لكان أقرب من العمى، على أن الجميع لا خير فيه. ومن هذا النوع قول القرشي:

ووقيتَ الحتوف من وارث وا ل وأبقاك صالحاً ربُّ هود

ليس نسبة الله تعالى إلى أنه رب هود بأولى من نسبته إياه عز اسمه إلى أنه رب نوح أو غيره. وقول ابن الرومي:

ألا ربما سؤت الغيور وساعني

وبات كلانا من أخيه على وحر

وقبلت أفواها عذابا كأنها

ينابيع خمرٍ حصبت لؤلؤ البحر

فقوله: لؤلؤ البحر أفسدت البيت وأطفأ نور المعنى، لأن اللؤلؤ لا يكون في غير البحر، فنسبته إلى البحر لا فائدة فيه إلا إقامة الروى على ما قدمناه.

ورأيت المعنى جيداً فقلت:

مرّ بنا يستميله السكرُ

وكيف يصحو وريقه خمرُ

قبلت فيه على مراقبة

ينبوع خمر حصابؤه درّ

ومن القوافي الرديئة قول رؤبة:

يكسين من لين الشباب نيما

النيم: الغرو، وأي حسن للفرو فيشبهه به شباب النساء وما قال أحد: عليه من الشباب أو من الحسن فرو، وإنما يقال: رداء الشباب، وبرد الشباب، وثوب الشباب، ولم يقولوا: قميص الشباب، وهو أقرب من الفرو. ولو قاله قائل لم يحسن لأنه لم يستعمل، وإنما احتاج إلى الميم فوقع في هذه الرذيلة. وهذا باب لو أطلقت العنان فيه لطلال فيشغل الأوراق الكثيرة، ويصرم فيه الزمان الطويل، وفيما ذكرناه كفاية إن شاء الله تعالى.

الفصل الثالث

في الخروج من النسيب إلى المدح وغيره

كانت العرب في أكثر شعرها تبتدئ بذكر الديار والبكاء عليها، والوجد بفراق ساكنيها، ثم إذا أرادت الخروج إلى معنى آخر قالت: فدع ذا وسلّ الهم عنك بكذا، كما قال:

فدع ذا وسلّ الهم عنك بجسرة

ذمول إذا صام النهار وهجراً

وكما قال النابغة:

فسليت ما عندي بروحة عرمس

تخبّ برحلي مرة وتناقلُ

وربما تركوا المعنى الأول، وقالوا وعيسٍ أو وهو جاء وما أشبه ذلك، كما قال علقمة:

إذا شاب رأس المر أو قلّ ماله

فليس له في ودّه نصيب

وعنس بريناها كأن عيونها
قوارير في أدهانهن نصوص
فإذا أرادوا ذكر الممدوح قالوا: إلى فلان، ثم أخذوا في مديحه، كما قال علقمه:

وناجية أفنى رقيبَ ضلوعها
وحاركها تهجرٌ ودؤوبُ
وتصبحُ عن غبِّ السرى وكأنها
مولعة تخشى القنيص شوبُ
فوصفها ثم قال:

إلى الحارث الوهاب أعملت ناقتي
لكلكها والصربين وجيب
وقال الحرث بن حلزة:

أنمى إلى حرفٍ مذكرةً
تهضُ الحصى بمناسم ملس
ثم قال:

أفلا نعدبها إلى ملكٍ
شهم المقادة حازم النفسِ
ثم أخذ في مديحه.

وربما تركوا المعنى الأول، وأخذوا في الثاني من غير أن يستعملوا ما ذكرناه، قال النابغة:

تقاعس حتى قلتُ ليس بمنقضٍ
وليس الذي يرعى النجوم بأيبِ
عليّ لعمر و نعمةً بعد نعمةٍ
لوالده ليست بذاتِ عقاربِ
وقال أيضاً:

على حينَ عاتبتُ الفؤادَ على الصبَا
وقلتُ ألمَّا أصحُّ والشيبُ وازعُ
وقد حال همُّ دون ذلك داخلُ
ولوجِ الشَّغافِ تبتغيه الأصابعُ
وعيدُ أبي قابوسَ في غير كنهه
أتاني ودوني راكس والضواجعُ
والبحتري يسلك هذه الطريقة في أكثر شعره.

فأما الخروج المتصل بما قبله فقليل في أشعارهم، فمن القليل قول دجاجة ابن عبد قيس التميمي:

وقال الغواني قد تضمَّرَ جلده
وكان قديماً ناعم المتبدَّل
فلاتأسَ أني قد تلافيتُ شيبتي
وهزَّ الغواني من شميطة مرجلِ
بمشفرة الهادي نبدَّ عنانها
يمين الغلام الملجم المتدلَّل

فوصل وصف الفرس بما تقدم من وصفه الشيب وصلا.

وقال تأبط شراً:

وَأَمَسْتُ بِضَعِيفِ الْحَبْلِ أَحْذَاقِ
أَلْقَيْتُ لَيْلَةَ خَبْتِ الرَّهْطِ أُرَاقِي

يَكَادُ يَدْفَعُهُ مِنْ قَامٍ بِالرَّاحِ

وَدَارِ عُلْقَمَةَ الْخَيْرِ ابْنَ صَبَّاحِ

كَنَّ الْجَوَادِ عَلَى عِلَاتِهِ هَرْمُ

فَلَا تَقْتُلَاهَا كُلَّ مَيْتٍ مُحَرَّمٍ
فَأَثَرَ فِي الْأَلْوَانِ مَنَا الدَّمِ
لِصَهْبَاءٍ صَرَاعَاهَا مِنَ السُّكْرِ نَوْمٍ
أَبَا حَسَنِ زَيْدِ النَّدَى فَهُوَ أَلْوَمُ

أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ تَجِدُ مَقَالًا
وَضَعْنَ مَدَائِحًا وَحَمَلْنَ مَالًا

فَأَتَوْكَ أَنْقَاضًا عَلَى أَنْقَاضِ
وَرَجَعْنَ عِنَّا وَهَنَّ عَنْهُ رَوَاضِ

وَيَعْلُنِي الْإِبْرِيْقُ وَالْقَدْحُ
وَنَشَا خِلَالَ سِوَادِهِ وَضُحُ
وَدُهُ الْخَلِيفَةُ حِينَ يَمْتَدِحُ

إِنِّي إِذَا خَلْتُ ضَنْتُ بِنَائِلِهَا

نَجَوْتُ مِنْهَا نَجَائِي مِنْ بَجِيلَةٍ إِذْ

وَقَرِيبٍ مِنْهُ قَوْلِ أَوْسِ بْنِ حَجْرٍ فِي وَصْفِ السَّحَابِ:

دَانَ مَسْفٌ فَوْيَقَ الْأَرْضِ هَيْدِبُهُ

ثُمَّ قَالَ:

سَقَى دِيَارِي بَنِي عَوْفٍ وَسَاكِنِهَا

وَقَالَ زَهِيرٌ:

إِنِ الْبَخِيلُ مَلُومٌ حَيْثُ كَانَ وَلِ

وَأَمَّا الْمُحَدِّثُونَ، فَقَدْ أَكْثَرُوا فِي هَذَا النُّوعِ، قَالَ مُسْلِمُ بْنُ الْوَلِيدِ:

إِذَا شَتَّمْنَا أَنْ تَسْفِيَانِي مَدَامَةَ

خَلَطْنَا دَمًا مِنْ كَرَمَةٍ بِدَمَائِنَا

وَيَقْضَى ثَنِيْتُ النَّوْمِ فِيهَا بِسُكْرَةٍ

فَمَنْ لَا مَنَى فِي اللَّهْوِ أَوْ لَامٍ فِي النَّدَى

وَقَالَ مَنْصُورُ النَّمْرِيِّ فِي الرَّشِيدِ:

إِذَا امْتَنَعَ الْمَقَالُ عَلَيْكَ فَاْمَدْحُ

فَتَى مَا إِنْ تَزَالَ بِهِ رِكَابُ

وَقَالَ أَبُو الشَّيْصِ:

أَكَلَ الْوَجِيفُ لِحُومَهَا وَلِحُومَهُمْ

وَلَقَدْ أَتَيْتَكَ عَلَى الزَّمَانِ سِوَا خَطَا

وَقَالَ ابْنُ وَهَيْبٍ:

مَا زَالَ يَلْتُمُنِي مَرَاشِفُهُ

حَتَّى اسْتَرَدَّ اللَّيْلُ خَلْعَتَهُ

وَبَدَا الصَّبَاحُ كَأَنَّ غَرْتَهُ

وَقَالَ:

دثر افلا علم ولا نضدُ
بعد الأحبة مثل ما أجدُ

طللان طال عليها الأمر
لبسا البلى فكأنما وجدا

وقال الطائي:

عليه إسحاق يوم الروع منتقما

صبَّ الفراق علينا صبَّ من كذبٍ

وقال:

فقد أظلك إحسانُ ابنِ حسانٍ

إساءة الحادثات استبطنى نفقا

وقال عبد الصمد بن المعدل:

عليّ بن عيسى على المنبرِ

ولاح الصباح فشبهتهُ

وقال البحري:

يدُ الخليفة لما سال واديها

كأنها حين لجت في تدفقها

وقال:

دموغ التصابي في حدود الخرائد

شقائق يحملن الندى فكأنها

تليها بتلك البارقات الرواعدُ

كأن يدَ الفتح بن خاقان أقبلتُ

وقال مسلم:

كأن دجاها من قرونك ينشرُ

أجدك هل تدرين أن رب ليلة

كغرة يحيى حين يذكر جعفرُ

لهوتُ بها حتى تجلتُ بغرةٍ

وقال آخر:

زهور يحيى بن خالد بن الوليد

وكلانا قد أحدث الرأخ فيه

وقال أبو البصير:

وبين الحادثات فلا تراعي

فقلتُ لها عبيد الله بيني

وتقصر نعمتي ويضيق باعي

أصبح منه معتصما بحبلٍ

تعاتبه المروءة في اصطناعي

كفرت إذا صنائعه وظلتُ

وقال البحري في ياقوته:

جبينك عند الجود إذ يتألقُ

إذا التهبت في اللحظ ضاهى ضياؤها

وقال:

وجرّ عليّ الدّجنُ هدّابَ مزنه
تأخّرَ عن ميقاته فكأنه

وقال بكر بن النطاح:

ودويّة خلقت للسراب
تري جنّها بين أضعافها
كأن حنيفة تحميمهم

وقال دعبل:

وميثاءَ خضراءَ موشيةٍ
ضحوك إذ لأعبته الرياح
فشبهه صحبي نوّاره
فقلت بعدتم ولكنني

فتى لا يرى المال إلا العطا
قالت وقد ذكّرتها عهد الصبا
إلا الإمام فإنّ عادة جوده

وقال غيره:

وكان الرسوم أخنى عليها

وقال البحترى:

بين السقيفة فاللوى فالأجرع
فكأنما ضمنت معالمها الذي

وقال:

أقول لثجاج الغمام وقد سرى
أقل أو أكثر لست تبلع غاية
فتى لبست منه الليالي محاسناً

وقال:

أو أخره فيه وأوله عندي
أبو صالح قد بت منه على وعدٍ

فأمواجه بينها تزخرُ
حلولا كأنهم البربرُ
فألينهم خشن أزور

بها النور يزهر من كل فنّ
تأوّد كالشارب المرجحنّ
بديباج كسرى وعصب اليمن
أشبهه بجناب الحسن
ولا الكنز إلا اعتقاد المنن
باليأس تقطع عادة المعتاد
موصولة بزيادة المزداد

بعض غاراتنا على الأعداء

دمنّ حبسن على الرياح الأربع
ضمنته أحشاء المحبّ الموجع

لمحتفل الشؤبوب صاب فعمّما
تبين بها حتى تضارع هيثما
أضاء له الأفق الذي كان مظلماً

إبراقه وألحّ في إرعاده
بندى يديه فلست من أنداده

قد قلت للغيث الرّكام ولجّ في
لا تعرضنّ لجعفر متشبّها

وقال:

إذا بقى الفتح بن خاقان والقطرُ

لعمرك ما الدنيا بناقصة الجدا

وقال:

بغرة مسئول رأى البشر سائله

أبرقُ تجلّى أم بدا ابن مدبّرٍ

وقال:

سفاك الحيا روحاته وبواكره
فروتك ربّاه وجادك ماطره

أدارهم الأولى بدارة جلجلٍ
حباؤك يحكي يوسف بن محمد

وقال:

تبلى عيسى حين يلفظ بالوعد

كأن سناها بالعشيّ لشربها

وقال:

تخشى وعيسى بن إبراهيم لي سندُ

آليت لا أجعل الإعدام حادثة

وقال:

أسمر في راحة بن حمّاد

أيام غصن الشباب تهتز كال

وقال:

ماء نكاحا بغير تطبيق
عالم من راحة أحمد بن مسروق

لا والذي سنّ للمدامة وال
ما رمقت مقلّتي أمسح في ال

وقال عليّ بن جبلة:

فألْبسه عللاً أربداً

وغيث تأنقه نوؤه

إذا ما تحيّر أو غرّدا
ء تهوى إلى جلمدٍ جلمدا
ر تدعو زرارة أو معبدا

تظلّ الرياح تُهادي به
كأن تواليه بالعرا
تداعي تميم غداة الجفا

وقال علي بن الجهم:

كتاب الصناعتين- ابو هلال العسكري

وسارية ترتادُ أرضاً تجودُها
أتتا بها ريحُ الصَّبَا فكأنها
فما برحتُ بغدادُ حتى تفجَّرتُ
فلما قضتُ حقَّ العراقِ وأهله
فمرتُ تقوتُ الطرفِ سعياً كأنها
وقال أيضاً:

شغلتُ بها عيناً قليلاً هجودُها
فتاةٌ تزجِّيها عجوزُ تقودها
بأوديةٍ ما تستفيقُ مدودها
أتاها من الرِّيحِ الشمالِ بريدُها
جنودُ عبيدِ الله ولتِ بنودها

دبرنَ وللصَّباحِ معقباتُ
فلما أن تجلَّى قال صحبي
وقال البحري:

تقلَّصُ عنه أعجازَ الظلامِ
أضوءُ الصُّبْحِ أم وجهُ الإمامِ

سقيتُ رباكِ بكلِّ نوءٍ جاعلِ
فلو أنني أعطيتُ فيهنَّ المنى
وقال:

من وبله حقاً لها معلوما
لسقيتهن بكفِ إبراهيمِما

قل لداعي الغمامِ لبيك واحللِ
وقال أبو تمام:

عقلَ العيسِ كي يجيبَ الدعاءِ

يا صاحبيَّ تقصِّياً نظريكمَا
ترياً نهراً مشرقاً قد شابهُ
خلقُ أطلَّ من الربيعِ كأنه

ترياً وجوه الأرضِ كيف تصوِّرُ
زهرُ الرُّبَا فكأنما هو مقررُ
خلقِ الإمامِ وهديه المنتشرُ

وقال:

فالأرضُ معروفُ السماءِ قرى لها

وبنو الرجاءِ لهم بنو العباسِ

وقال:

نجاهدُ الشوقَ طوراً ثم نتبعه

مجاهداتِ القوافي في أبي دلفا

وقال:

إذا العيسُ لاقَتْ بي أبا دلف فقد

تقطَّع ما بيني وبين النوائبِ

وقال:

تداو من شوقك الأقصى بما فعلتُ

وقال:

خيلُ ابن يوسفَ والأبطالُ تطرّدُ

لم يجتمع قط في مصر ولا طرف

وقال:

محمد بن أبي مروان والنّوبُ

ولقد بلونَ خلاتقي فوجدتني

يعجبني مني إذ سمحتُ بمهجتي

ملك إذا الحاجاتُ لذنّ ببابه

وقال:

سمحَ اليدين بيذل ودّ مضمّر

وكذاك أعجبَ من سماحة جعفر

صافحنَ كفّ نواله المتيسر

لا والذي هو عالم أنّ النوى

وقال آخر:

صبرٌ وأنّ أبا الحسين كريم

سقيمات أرجاء العيون تركنني

فيا عجباً إنّ الظباء بطرفها

وللبحر ما بين الفرات ودجلة

وقلت أذكر الشيبُ:

أكابد أسقاما ولست أعادُ

تصيد رجالاً والظباء تصادُ

أؤمل منه الرّيّ وهو جمادُ

أراني منهاج الهدى فسلكته

وخبّر أنّ الجهل ليس بأيب

فأفصح من بعد العجومة مادحي

وردّ إلى خير الأنام مدائحي

وأنجم كربرب في سرب

والحور ترنو من خلال الحجب

ويضكم ويضكم في الحرب

ولم تتشعب في الظلال مذهب

إليّ وأنّ الحلم ليس بعازب

وأعجم من بعد الفصاحة عائبي

فحلّت محلّ العقد من جيد كاعب

يحكين غرا في جلال خطب

وعزمكم ورأيكم في الخطب

ومن لم يوسع للنوائب صدره

وإني إذا ألقيتُ بيني وبينها

نازعتُه غلس الظلام مدامة

أفادته ضيقا في مرام ومذهب

أبا طاهر لم تدر كيف تضرُّ بي

تتعلم الإسكار من لحظاته

كتاب الصناعتين - ابو هلال العسكري

مغصوبة بالذّر من كلماته
وبقاء إسمعيل من حسناته
ولربّ شاك معتد بشكاته
كزمانه بخطوبه وهباته
فرح تقرنه لي بترح
وإذا سارَ على القصد جنح
فهو كالجازر ربّي فذبح
جمح الدهر بوادي كبح
وأشعل فيه الفجرُ فهو يحرقُ
تعلم منا كيف يبهي ويشرقُ
بحسنه ولعاتُ البين فانجردا
كأن فيه ليحيى إصبعاً ويداً

فتحسب أنا في السماء نصعدُ
رضاه لما نرجو من الخير موعدُ
يصقّق فيها رعدُها ويغرّدُ
فحرض شوقاً لا يزال يحرضُ
على أنه من نور وجهك أبيضُ
وجار ابن عيسى كيف يخشى ويخشعُ
إلا بحيث طهارة الأعراق
تجدُ الخلائق غير ذات خلاق
فتخالها تحت الرّحال رحالا
من أن يذل عزيزها ويزالا
إذ التفتت للوم بعد التكرم

وكأنها معصورة من خدّه
تشكو الزّمان وذاك من لذاته
هذا تعدّ في الشكاية ظاهرُ
كافي الكفاة برأيه وعزيمة
عادة الأيام لا أنكرها
وإذا قام على النهج انثنى
ويرببك فلا تفرح به
غير أن النهى منه كلّما
ومدّ علينا الليل ثوباً منمّفاً
وصبّحنا صبح كأن ضياءه
تولّت به الأيام وانجردت
غداله المزن منهلأ بوادره

تصعدّ فيه وهو زرق جمامه
أطفنا بمحمود السجية ماجدُ
بممتل فعل السحاب إذا غدا
ومرّ بأكناف اللوى خاطر الصبا
بليل كما ترنو الغزالة أسودُ
يريدون أن أخشى وأخشع للآذى
وطهارة الأخلاق لم تظفر بها
كخلائق الأستاذ إن جاوزتها
مهريّة ألوى السفار بنحضا
أمنت بساحة أحمد بن محمد
وقد دلّت الدنيا على عيب نفسها

فما تولّت حتى استردت نوالها
ولكن سيعيدني عليها ابن أحمد
وإني متى أعلق بسالف وجه
تبدلت من أمري سناما بمنسم
صرف العنان إلى التناصف في الهوى
صرفى الرجاء إلى نوال أبي علي

وهذا ميدان لو جرينا فيه إلى أقصاه أتعبنا الناسخ، وأملنا السامع والناظر وفيما ذكرناه كفاية.
وقد فرغت من شرح الأبواب والفصول التي تقدم بها الشرط في أول الكتاب، وجعلتها واضحة نيرة
وملخصة بينة من غير إخلال يقصر بها أو إكثار يزري عليها، وقد نقحتها وأوضححتها وهذبناها وشدبتها
حسب الطاقة، وأنا بعد ذلك معتذر من الزلل يكون فيه، والسقط يوجد في ألفاظها أو معانيها، فإذا مر
بك شيء فاغتنر الذلة فيه، فليس في الدنيا برئ من جميع العيوب، ولا مستقيم من كل الجهات، وقد
قلت:

عزّ الكمال فما يحظى به بشر
لكل خلق وإن لم يذر ذو عاب
وقلت أيضاً:

لا تعتمد نشر العيوب وبثها
واشدد يدك بما يقلّ معابه
يسلم لك الإخوان والأصحاب
ما فيهم من ليس فيه معاب

على أن هذا الكتاب قد جمع من فنون ما يحتاج إليه صناع الكلام ما لم يجمعه كتاب أعلمه، وكل شيء
استعرت من كتاب وضمنته إياه فإني لم أحله من زيادة تبين واختصار ألفاظ وغير ذلك مما يزيد في قيمته
ويرفع من قدره، وأنا أسأل الله تعالى النفع به والعون على حفظه، وإيزاع الشكر على النعمة في التمكين
من جمعه، وهو جل ثناؤه وليّ ذلك بمنه ولطفه.
وفرغت من تأليفه ورفعه وتصنيفه في شهر رمضان سنة أربع وتسعين وثلاثمائة والحمد لله رب العالمين
وصلواته على رسوله محمد النبي الأمي وآله أجمعين.

الفهرس

2	المقدمة
6	الباب الأول
6	الإبانة عن موضوع البلاغة
6	الفصل الأول
8	الفصل الثاني
8	في الإبانة عن حد البلاغة
10	الفصل الثالث
10	وهو القول في تفسير ما جاء عن الحكماء والعلماء في حدود البلاغة
38	الباب الثاني
38	تمييز الكلام جيده من رديه ونارده من بارده
38	الفصل الأول من الباب الثاني
38	في تمييز الكلام
47	الفصل الثاني
47	في التنبية على خطأ المعاني وصوابها
89	الباب الثالث
89	معرفة صنعة الكلام وترتيب الألفاظ
89	الفصل الأول
89	في كيفية نظم الكلام والقول في فضيلة الشعر وما ينبغي استعماله في تأليفه
102	الفصل الثاني
102	فيما يحتاج الكاتب إلى ارتسامه وامتناله في مكاتباته
107	الباب الرابع
107	البيان عن حسن النظم وجودة الرصف والسبك وخلاف ذلك
115	الباب الخامس
115	ذكر الإيجاز والإطناب

115.....	الفصل الأول من الباب الخامس في ذكر الإيجاز
125.....	الفصل الثاني من الباب الخامس في ذكر الإطناب
130.....	الباب السادس
130.....	حسن الأخذ وحل المنظوم
130.....	الفصل الأول من الباب السادس في حسن الأخذ
151.....	الفصل الثاني من الباب السادس في قبح الأخذ
158.....	الباب السابع
158.....	التشبيه
158.....	الفصل الأول من الباب السابع
158.....	في حد التشبيه وما يستحسن من منشور الكلام ومنظومه
170.....	الفصل الثاني
170.....	في البيان عن قبح التشبيه وعيوبه
173.....	الباب الثامن
173.....	ذكر السجع والازدواج
177.....	الباب التاسع
177.....	شرح البديع
177.....	الفصل الأول
178.....	في الاستعارة والمجاز
205.....	الفصل الثاني من الباب التاسع
205.....	في المطابقة
215.....	الفصل الثالث
215.....	في ذكر التحنيس
227.....	الفصل الرابع
227.....	في المقابلة
229.....	الفصل الخامس
230.....	في صحة التقسيم
232.....	الفصل السادس

232.....	في صحة التفسير
234.....	الفصل السابع
234.....	في الإشارة
236.....	الفصل الثامن
236.....	في الأرداف والتوابع
237.....	الفصل التاسع
238.....	في المماثلة
240.....	الفصل العاشر
240.....	في الغلو
246.....	الفصل الحادي عشر
246.....	في المبالغة
248.....	الفصل الثاني عشر
248.....	في الكتابة والتعريض
250.....	الفصل الثالث عشر
251.....	في العكس
252.....	الفصل الرابع عشر
252.....	في التذييل
253.....	الفصل الخامس عشر
253.....	في الترصيع
256.....	الفصل السادس عشر
257.....	في الإيغال
258.....	الفصل السابع عشر
258.....	في التوشيح
260.....	الفصل الثامن عشر
260.....	في رد الأعجاز على الصدور
263.....	الفصل التاسع عشر
263.....	في التتميم والتكميل

265.....	الفصل العشرون
265.....	في الالتفات
266.....	الفصل الحادي والعشرون
266.....	في الاعتراض
267.....	الفصل الثاني والعشرون
267.....	في الرجوع
268.....	الفصل الثالث والعشرون
268.....	في تجاهل العارف، ومزج الشك باليقين
270.....	الفصل الرابع والعشرون
270.....	في الاستطراد
272.....	الفصل الخامس والعشرون
272.....	في جمع المؤتلف والمختلف
275.....	الفصل السادس والعشرون
275.....	في السلب والإيجاب
276.....	الفصل السابع والعشرون
276.....	في الاستثناء
277.....	الفصل الثامن والعشرون
277.....	في المذهب الكلامي
278.....	الفصل التاسع والعشرون
278.....	في التشطير
280.....	الفصل الثلاثون
280.....	في المجاورة
283.....	الفصل الحادي والثلاثون
283.....	في الاستشهاد والاحتجاج
285.....	الفصل الثاني والثلاثون
285.....	في التعطف
287.....	الفصل الثالث والثلاثون

287.....	في المضاعفة
289.....	الفصل الرابع والثلاثون
289.....	في التطريز
290.....	الفصل الخامس والثلاثون
290.....	في التلطف
294.....	الباب العاشر
294.....	ذكر مبادئ الكلام ومقاطععه
294.....	الفصل الأول
294.....	في ذكر المبادئ
299.....	الفصل الثاني
299.....	في ذكر المقاطع والقول في الفصل والوصل
309.....	الفصل الثالث
309.....	في الخروج من النسب إلى المدح وغيره
319.....	الفهرس

To PDF: www.al-mostafa.com